فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خال من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف
السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الخامس

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص. ب ٨٣٥٥ - تلكس LE ٤٢٧٠٢ SCS

صيدا - ص. ب ٢٢١ - تلكس LE ٢٩١١٩٨

فتح البيان

في مقاصد القرآن

الجزء الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الخامس

يبدأ من قوله تعالى سورة الأعراف - ١٤٢
الى قوله تعالى

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١

﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ ﴾

﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ نكلمه عند انتهائها بأن يصومها وهي ذو القعدة لإعطاء التوراة ﴿وأتممناها﴾ أي المواعدة المفهومة من واعدنا أو ثلاثين ليلة قاله الحوفي والأول أولى ﴿بعشر﴾ ليال من ذي الحجة للتقرب قاله ابن عباس ومجاهد، وفي مصحف أُبَيّ وتمّمناها بالتضعيف وحذف تمييز بعشر لدلالة الكلام عليه .

﴿فتمّ ميقات ربّه﴾ الميقات هو الوقت الذي قدر أن يعمل فيه عمل من الأعمال ، ولهذا قيل: مواقيت الحج أي وقت وعده بكلامه إياه ﴿أربعين ليلة﴾ هذا من جملة ما كرم الله به موسى عليه السلام وشرفه .

ولقد أجمل ذكر الأربعين في البقرة وذكره هنا على التفصيل وضرب هذه المدة موعداً لمناجاة موسى ومكالمته، قاله مجاهد وابن عباس ، قيل وكان التكليم في يوم النحر ، والفائدة في ﴿أربعين ليلة﴾ مع العلم بأن الثلاثين والعشر أربعون لئلا يتوهم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها فبين أن العشر غير الثلاثين ، وفي نصب أربعين ثلاثة أوجه (أحدها) أنه حال قاله الزمخشري أي تم بالغاً هذا العدد (الثاني) على المفعول به (الثالث) على الظرف قاله ابن عطية وفيه ضعف .

﴿وقال موسى لأخيه هرون﴾ عند ذهابه الى الجبل للمناجاة ﴿ اَخلفني في قومي﴾ أي كن خليفتي فيهم ﴿وأصلح﴾ أمر بني اسرائيل بحسن سياستهم والرفق بهم وتفقد أحوالهم واحملهم على عبادة الله تعالى ﴿ولا تتّبع سبيل المفسدين﴾ أي لا تسلك سبيل العاصين ولا تكن عوناً للظالمين ، قال ابن عباس : إن موسى قال لقومه: إن ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه وأخلّف هرون فيكم، فلما فصل موسى الى ربه زاده الله عشراً فكانت فتنتهم في العشر التي زاده الله ، فلما مضى ثلاثون ليلة كان السامري قد أبصر جبريل فأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب ، ثم ذكر قصة السامري .

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ اللام للاختصاص أي كان مجيئه مختصاً بالميقات المذكور بمعنى أنه جاء في الوقت الموعود، وكان يوم الخميس وكان يوم عرفة وأعطاه التوراة صبيحة يوم الجمعة يوم النحر ﴿وكلمه ربه﴾ أي اسمعه كلامه من غير واسطة ولا كيفية وأزال الحجاب بين موسى وبين كلامه فسمعه وليس المراد أنه أنشأ كلاماً سمعه لأن كلام الله قديم ولم نر في التفاسير هنا بيان ما فهمه موسى من ذلك الكلام.

أخرج البزار وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء والصفات من حديث جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما كلم الله موسى يوم الطور كلّمه بغير الكلام الذي كلمه به يوم ناداه فقال له موسى: يا رب أهذا كلامك الذي كلمتني به؟ قال يا موسى إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ولي قوة الألسن كلها وأقوى من ذلك، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا يا موسى صف لنا كلام الرحمن فقال لا تستطيعونه ألم تروا إلى أصوات الصواعق التي تقبل في أحلى حلاوة سمعتموه فذاك قريب منه وليس به»، وفيه دليل على كلام الله مع موسى.

قال الزمخشري: تكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الاجرام كما خلقه محفوظاً في الألواح انتهى وإليه ذهب المعتزلة وهو مذهب فاسد يرده الكتاب والسنة وأين للشجر وذلك الجرم أن يقول إنني أنا الله الاية.

وذهب الحنابلة ومن وافقهم من أهل الحديث أن كلامه تعالى حروف وأصوات مقطعة وأنه قديم وهو الحق وقد نطق به السنة المطهرة، وقال جمهور المتكلمين: إن كلامه صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات وأرادوا به الكلام النفسي. ولا توجد له رائحة في السنة المطهرة، وكذا ما ذكره الشيخ في التأويلات: أن موسى سمع صوتاً دالاً على كلام الله وهو ظاهر البطلان لمخالفة نص القرآن.

وقد سكت جمع من السلف والخلف عن الخوض في تأويل صفة كلام الله تعالى. وقالوا إنه متكلم بكلام قديم يليق بذاته بحرف وصوت لا يشبه كلام المخلوق ليس كمثله شيء وله المثل الأعلى.

ولما سمع موسى كلام ربه عز وجل اشتاق إلى رؤيته وسأله بقوله ﴿قال ربي أرني﴾ أي أرني نفسك قاله الزجاج وقال ابن عباس: أعطني وأرني فعل أمر مبني على حذف الياء، والمعنى مكني من رؤيتك وهيئني لها فإن فعلت بي ذلك ﴿أنظر إليك﴾ فتغاير الشرط والجزاء، وبالجملة فقد سأله النظر إليه اشتياقاً إلى رؤيته لماّ أسمعه كلامه. وسؤال موسى للرؤية يدل على أنها جائزة عنده في الجملة، ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها.

﴿قال لن تراني﴾ جملة مستأنفة لكونها جواباً لسؤال مقدر كأنه قيل فما قال الله؟والمعنى:لن تراني بعين فانية بالسؤال بل بعين باقية بالعطاء والنوال أو أنه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه أو أنه لا يرى ما دام الرائي حياً في دار الدنيا، وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة، والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة.

ومنهج الحق واضح، ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه وأدرك عليه أباه وأهل بلده مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة

المطهرة يوقع في التعصب، والمتعصب وإن كان بصره صحيحاً فبصيرته عمياء وأذنه عن سماع الحق صماء، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح، وتلقي ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم.

وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع، فإنه صار بها باب الحق مرتجاً وطريق الإنصاف مستوعرة، والأمر لله سبحانه والهداية منه.

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

ولم يقل لن أُرى ليكون نفياً للجواز ولو لم يكن مرئياً لأخبر بأنه ليس بمرئي، إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان، وقد تمسك أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الآية وقالوا لن للتأبيد والدوام، وهذا غلط إذ ليس يشهد لما قالوه نص عن أهل اللغة العربية ولم يقل به أحد منهم. والكتاب والسنة على خلاف ذلك فقد قال تعالى في حق اليهود ﴿ولن يتمنَّوه أبداً﴾ مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة كما قال تعالى ﴿ونادوا يا مالك لِيَقْضِ علينا ربّك﴾ وقوله ﴿يا ليتها كانت القاضية﴾ والسنة أكثر من أن تحصى وعبّر بلن تراني دون لن تنظر إليَّ مع أنه المطابق لقوله ﴿أنظر إليك﴾ لأن الرؤية هي المقصودة والنظر مقدمتها وقد يحصل دونها.

وأما المطابقة في الاستدراك بقوله ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ فواضحة لأن المقصود منه تعظيم أمر الرؤية. ومعناه أنك لا تثبت لرؤيتي ولا يثبت لها ما هو أعظم منك جرماً وصلابة وقوة وهو الجبل فانظر إليه ﴿فإن استقرَّ مكانه﴾ وبقي على حاله ولم يتزلزل عند رؤيتي له ﴿فسوف تراني﴾ أي تثبت لرؤيتي، وإن ضعف عن ذلك فأنت منه أضعف، ولا طاقة لك، فهذا الكلام بمنزلة

ضرب المثل لموسى عليه السلام بالجبل، وقيل هو من باب التعليق بالمحال، وعلى تسليم هذا فهو في الرؤية في الدنيا لما قدمنا.

وقد تمسك بهذه الآية كلا طائفتي المعتزلة والأشعرية، فالمعتزلة استدلوا بقوله لن تراني كما تقدم وبأمره بأن ينظر إلى الجبل. والأشعرية قالوا: إن تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدل على أنها جائزة غير ممتنعة، ولا يخفاك أن الرؤية الأخروية هي بمعزل عن هذا كله والخلاف بينهم هو فيها لا في الرؤية في الدنيا فقد كان الخلاف فيها في زمن الصحابة وكلامهم فيها معروف.

﴿فلما تجلّى ربّه﴾ تجلى معناه ظهر من قولك جلوت العروس أي أبرزتها وجلوت السيف: خلّصته من الصّدأ. وتجلى الشيء: انكشف، والمعنى فلما ظهر ربه، وقيل المتجلي هو أمره وقدرته، قاله قطرب وغيره ﴿للجبل جعله دكاً﴾ الدك مصدر بمعنى المفعول أي جعله مدكوكاً مدقوقاً فصار تراباً، هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة والدك والدق أخوان وهو تفتيت الشيء وسحقه، وقيل تسويته بالأرض.

وقرأ أهل الكوفة دكاء على التأنيث والجمع دكّاوات كحمراء وحمراوات وهي اسم للرابية الناشزة من الأرض أو للأرض المستوية. فالمعنى أن الجبل صار صغيراً كالرابية أو أرضاً مستوية.

قال الكسائي: الدوك الجبال العراض واحدها أدك والدكاوات جمع دكاء وهي رواب من طين ليست بالغلاظ، والدكادك ما التبد من الأرض فلم يرتفع وناقة دكّاء لا سنام لها، قال سهل بن سعد الساعدي: دكاً يعني مستوياً بالأرض وقيل تراباً، وقيل ساخ حتى وقع في البحر.

وقال عطية العوفي: صار رملاً هائلاً، وقال الكلبي: يعني كسر جبالاً صغاراً، قيل واسم الجبل زبير، قال الضحاك: أظهر الله من نوره مثل منخر

الثور، وقال ابن سلام وكعب: ما تجلى إلا مثل سم الخياط، وقال السدي: إلا قدر الخنصر.

وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وصححاه وابن جرير وغيرهم عن أنس ابن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية جعله دكاً قال: «هكذا وأشار بأصبعيه ووضع ابهامه على أنملة الخنصر، وفي لفظ على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل وخر موسى صعقاً، وفي لفظ فساخ الجبل في الأرض فهو يهوي فيها إلى يوم القيامة[1].

وهذا الحديث صحيح على شرط مسلم، وقال ابن عباس: هذا الجبل هو الطور وما تجلى منه إلا قدر الخنصر جعله تراباً، وقال سهل بن سعد: أظهر نوراً قدر الدرهم من سبعين ألف حجاب، وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لما تجلى الله للجبل صارت لعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة، بالمدينة أحد وورقان ورضوى، وبمكة حراء وثبير وثور»[2]، أخرجه أبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية وابن أبي حاتم وغيرهم وفي لفظ سبعة أجبل في اليمن اثنان حضور وصبر.

﴿وخرَّ موسى﴾ أي سقط، والخرور السقوط وقيده الراغب بسقوط يسمع له خرير، والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو ﴿صعقاً﴾ أي مغشياً عليه لهول ما رأى، مأخوذ من الصاعقة، والمعنى أنه صار حاله لما غشي عليه كحال من يغشى عليه عند إصابة الصاعقة له، يقال صعق الرجل فهو صعق ومصعوق إذا أصابته الصاعقة.

قال الكلبي: صعق موسى يوم الخميس وهو يوم عرفة وأعطى التوراة

---

(١) ابن كثير ٢/٢٤٤.

(٢) ابن كثير ٢/٢٤٥.

يوم الجمعة يوم النحر، قال ابن عباس: فلم يزل صعقاً ما شاء الله، وقال قتادة: ميتاً والأول أولى لقوله ﴿فلما أفاق﴾ والميت لا إفاقة له، إنما يقال أفاق من غشيته والإفاقة رجوع الفهم والعقل الى الإنسان بعد جنون أو سكر أو نحوهما ومنه إفاقة المريض وهي رجوع قوته وإفاقة الحلب هي رجوع الدر إلى الضَرْع.

قال الواقدي: لما خر موسى صعقاً قالت الملائكة ما لابن عمران وسؤال الرؤية فلما أفاق وعرف أنه سأل أمراً عظيماً لا ينبغي له ﴿قال سبحانك﴾ أي أنزهك تنزيهاً من أن أسأل شيئاً لم تأذن لي به أو عن أن تُرى في الدنيا أو من النقائص كلها ﴿تبت إليك﴾ عن العود إلى مثل هذا السؤال.

قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية فإن الأنبياء معصومون وقيل هي توبته من قتله للقبطي، ذكره القشيري ولا وجه له في مثل هذا المقام، وقيل لما كانت الرؤية مخصوصة بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فمنعها قال تبت إليك يعني من سؤال ما ليس لي، وما أبعده والأول أولى(١).

﴿وأنا أول المؤمنين﴾ بك قبل قومي الموجودين في هذا العصر المعترفين بعظمتك وجلالك وبأنك لا ترى في الدنيا مع جوازها(١).

---

(١) وفي الحديث الصحيح من حديث ابي هريرة وغيره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تُخَيّروا بين الأنبياء فإن الناس يَصعَقون يوم القيامة فارفع رأسي فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أصعق فيمن صعق فأفاق قبلي أو حُوسب بصعقته الاولى». أو قال «كفته صعقته الأولى». وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن كعب قال: إن الله تبارك وتعالى قسّم كلامه ورؤيته بين محمد وموسى صلى الله وسلم عليهما. ذكره القرطبي ٧/٢٨٠.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿قال يا موسى إني اصطفيتك﴾ جملة مستأنفة والتي قبلها متضمنة لإكرام موسى واختصاصه بما اختصه الله به، والاصطفاء الاختيار والاجتباء أي اخترتك ﴿على الناس﴾ المعاصرين لك ﴿برسالاتي﴾ كأنه نظر إلى أن الرسالة هي على ضروب فجمع لاختلاف الأنواع وقرىء بالافراد ﴿وبكلامي﴾ المراد به هنا التكليم، امتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة.

﴿فخذ ما آتيتك﴾ أمره بأن يأخذ ما آتاه أي أعطاه من هذا الشرف الكريم والفضل الجسيم ﴿وكن﴾ أمره بأن يكون ﴿من الشاكرين﴾ على هذا العطاء العظيم والإكرام الجليل.

﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾ مما يحتاج إليه بنو إسرائيل في دينهم ودنياهم، وقال السدي: من كل شيء أمروا به ونهوا عنه، وعن مجاهد مثله.

وقد اختلف السلف في المكتوب في الألواح اختلافاً كثيراً، ولا مانع من حمل المكتوب على جميع ذلك لعدم التنافي، وهذه الألواح هي التوراة قيل كانت من زمردة خضراء، وقيل من ياقوتة حمراء، وقيل من زبرجدة خضراء وقيل من صخرة صماء، وقيل من خشب نزلت من السماء.

وقد اختلف في عدد الألواح وفي مقدار طولها وعرضها، والالواح جمع

لوح وسمي لوحاً لكونه تلوح فيه المعاني، وأسند الله سبحانه الكتابة إلى نفسه تشريفاً للمكتوب في الألواح وهي مكتوبة بأمره سبحانه، وقيل هي كتابة خلقها الله في الألواح.

وفي الحديث «خلق الله تعالى آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده وفي لفظ غرس الفردوس بيده» ، رواه الدارمي وابن النجار وغيرهما عن عبد الله بن الحرث والمحفوظ أنه موقوف وفيه أبو معشر متكلم فيه.

قال ابن عمر: خلق الله أربعة أشياء بيده العرش والقلم وعدن وآدم، وعن ميسرة أن الله لم يمس شيئاً من خلقه غير ثلاث خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده ونحوه عن كعب، رواهما الدارمي، وعن علي بن أبي طالب قال: كتب الله الألواح لموسى وهو يسمع صريف الأقلام في اللوح، وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: الالواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة كان طول اللوح اثني عشر ذراعاً» أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه.

وعن سعيد بن جبير قال: كانوا يقولون كانت الالواح من ياقوتة حمراء، وأنا أقول إنما كانت من زمرد وكتابتها الذهب كتبها الله بيده فسمع أهل السموات صريف الاقلام.

أقول: رحم الله سعيداً ماكان أغناه عن هذا الذي قاله من جهة نفسه فمثله لا يقال بالرأي ولا بالحدس، والذي يغلب به الظن: أن كثيراً من السلف رحمهم الله كانوا يسألون اليهود عن هذه الأمور فلهذا اختلفت واضطربت الأقوال فيها فهذا يقول من خشب، وهذا يقول من ياقوت وهذا

يقول من زمرد، وهذا يقول من زبرجد، وهذا يقول من برد وهذا يقول من حجر[١].

﴿موعظة﴾ لمن يتعظ بها من بني اسرائيل وغيرهم، وحقيقة الموعظة التذكير والتحذير مما يخاف عاقبته ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ أي للاحكام المحتاجة إلى التفصيل وتبياناً لكل شيء من الأمر والنهي والحلال والحرام، قيل أنزل التوراة وهي سبعون وقر بعير لم يقرأها كلها إلا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى.

﴿فخذها﴾ أي الالواح وقيل:الضمير عائد الى الرسالات أو إلى كل شيء أو إلى التوراة قيل:وهذا الأمر على اضمار القول أي قلنا له خذها ﴿بقوة﴾ أي بجد ونشاط وقال ابن عباس: بحزم، وقال الربيع بن أنس: بطاعة وقال السدي: باجتهاد وقيل:بقوة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة.

﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ أي بأحسن ما فيها مما أجره أكثر من غيره وهو مثل قوله تعالى ﴿اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ وقوله ﴿فيتبعون أحسنه﴾ ومن الأحسن الصبر على الغير والعفو عنه والعمل بالعزيمة دون الرخصة وبالفريضة دون النافلة وفعل المأمور وترك المنهى عنه وقال ابن عباس: يحلُّوا حلالها ويحرِّموا حرامهاويتدبروا أمثالها ويقفوا عند متشابهها وكان موسى أشدَّ عبادة من قومه فأمر بما لم يؤمروا به.

وقيل:الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح والأحسن الأخذ بالأشد والأشق على النفس، وقيل:أحسن بمعنى حسن وكلها حسن.

---

(١) وأسند أبو نعيم الحافظ عن عمرو بن دينار قال: بلغني ان موسى بن عمران نبي الله صلى الله عليه وسلم صام اربعين ليلة فلما القى الالواح تكسرت، فصام مثلها فردت اليه.

﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ أي الكفار قاله ابن عباس وهي أرض مصر التي كانت لفرعون وقومه قاله عطية العوفي وقيل منازل عاد وثمود قال الكلبي: قيل هي جهنم قاله الحسن، وعطاء وقيل منازل الكفار من الجبابرة والعمالقة ليعتبروا بها قاله السدي، وقال قتادة: سأدخلكم الشام فأريكم منازل القرون الماضية، وقيل الدار الهلاك والمعنى سأريكم هلاك الفاسقين، وقد تقدم تحقيق معنى الفسق، وقال مجاهد: سأريكم مصيرهم في الآخرة وقال قتادة: منازلهم في الدنيا.

ومعنى الإراءة: الإدخال بطريق الإرث، ويؤيده قراءة من قرأ ﴿سأورثكم﴾ بالثاء المثلثة كما في قوله ﴿وأورثنا﴾ القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها، قاله أبو السعود، وهذه القراءة ترد القول بأنها جهنم.

والعجب من السيوطي بعد هذا الخلاف المقرر كيف يرده بدعوى التصحيف والتحريف فإنه قد ذكر في حسن المحاضرة ما نصه:

اشتهر على ألسنة كثير من الناس أنها مصر، وقد أخرج ابن الصلاح وغيره من الحفاظ أن ذلك خلط نشأ عن تصحيف، وإنما الوارد عن مجاهد وغيره من مفسري السلف في قوله تعالى ﴿سأريكم﴾ الخ قال مصيرهم فصحفت انتهى، وجمهور المفسرين على أن بني اسرائيل بعد ذهابهم إلى الشام رجعوا إلى مصر وملكوا أرض القبط وأموالهم وبه قال القرطبي والكرخي وهو قول الحسن وقيل إنهم لم يعودوا إلى مصر، وهو قول ضعيف جداً.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبَّرون في الأرض﴾ قيل معناه سأمنعهم فهم كتابي أي أنزع عنهم فهم القرآن، قاله سفيان بن عيينة، وقال السدي: عن أن يتفكروا في آياتي، وقال ابن جريج عن التفكر في خلق السموات والأرض والآيات التي فيها، وقيل سأصرفهم عن الإيمان بها والتصديق بما فيها وقيل عن نفعها مجازاة على تكبرهم كما في قوله ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقيل سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها.

واختلف في تفسير الآيات فقيل هي المعجزات التسع التي أعطاها الله لموسى. وقيل: الكتب المنزلة وقيل خلق العالم ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك، وحمل الصرف على جميع المعاني المذكورة، والتكبر: اظهار كبر النفس على غيرها فهو صفة ذم في حق العباد أي يفتعلون الكبر ويرون أنهم أفضل من غيرهم فلذلك قال ﴿بغير الحق﴾ أي يتكبرون بما ليس بحق أو متلبسين بغير الحق.

﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ أي سأصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة والآيات التكوينية والمعجزات أي لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت.

﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً﴾ معطوفة على ما قبلها داخلة

في حكمه وكذلك ﴿وإن يروا سبيل الغي يتَّخذوه سبيلاً﴾ والمعنى: أنهم إذا وجدوا سبيلاً من سبل الرشد يعني طريق الحق والهدى والسداد والصواب تركوه وتجنبوه، وان رأوا سبيلاً من سبل الغي والضلال سلكوه واختاروه لأنفسهم.

قال أبو عبيدة: فرق أبو عمرو بين الرُّشد والرَّشد فقال الرشد الصلاح والرَّشد في الدين وقال النحاس: سيبويه يذهب إلى أن الرُّشد والرَّشد كالسُّخط والسَّخط وهما لغتان وأصل الرُّشْد في اللغة أن يظفر الإنسان بما يريد وهو ضد الخيبة.

﴿ذلك﴾ اشارة إلى ما ذكر من تكبرهم وعدم الإيمان بالآيات وتجنب سبيل الرشد وسلوك سبيل الغي وهو مبتدأ خبره قوله سبحانه ﴿بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أي بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها.

﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء﴾ الدار ﴿الآخرة﴾ يعني لقاءهم لها أو لقاءهم ما وعدوا به فيها ذكرهما الزمخشري ﴿حبطت أعمالهم﴾ الحباط البطلان أي بطل ما عملوه في الدنيا مما صورته صورة الطاعة كالصدقة والصلة وإن كانوا في حال كفرهم لا طاعات لهم كأن لم تكن، ويحتمل أن يراد: أنها تبطل بعد ما كانت مرجوة النفع على تقدير اسلامهم لما في الحديث الصحيح [أسلمت على ما أسلفت من خير].

﴿هل يجزون إلا ما﴾ أي بما ﴿كانوا يعملون﴾ أو على ما كانوا أو جزاء ما كانوا، قدره الواحدي وقال هنا: لا بد منه قال السمين وهو واضح، لأن نفس ما كانوا يعملونه لا يجزونه إنما يجزون بمقابلة أعمالهم من الكفر بالله والتكذيب بآياته وتنكب سبيل الحق وسلوك سبيل الغي.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

﴿واتخذ قوم موسى من بعده﴾ أي من بعد خروجه إلى الطور وذهابه إلى المناجاة ﴿من﴾ للتبعيض أو للابتداء أو للبيان ﴿حُليّهم﴾ التي استعاروها من قوم فرعون للعيد ليتزينوا به حين هموا بالخروج من مصر، واضافتها إليهم لأنها كانت في أيديهم أو لأنها بقيت عندهم إلى أن هلك فرعون وقومه فصارت ملكاً لهم، والحليّ بضم الحاء وكسر اللام وتشديد الياء جمع حل وبه قرأ أهل المدينة وأهل البصرة.

وقرأ أهل الكوفة وحمزة والكسائي إلا عاصماً بكسر الحاء بالاتباع أي باتباع الحاء للام كدلي وهو ظاهر، وقرأ يعقوب بفتح الحاء وتخفيف الياء قال النحاس: جمع حَلي وحَليّ وحُلي مثل ثَدي وثُديّ وثُدى.

﴿عجلاً﴾ أي اتخذوا عجلاً إلهاً و ﴿جسداً﴾ بدل من عجلاً أو وصف له يعني: اتخذوا من ذلك الحلي وهو الذهب والفضة عجلاً ﴿له خُوار﴾ أي صوت البقر، هذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين، والخوار: الصياح يقال: خار يخور خواراً إذا صاح، وكذلك خار يخار ونسب اتخاذ العجل إلى القوم جميعاً مع أنه اتخذه السامري وحده لكونه واحداً منهم وهم راضون بفعله.

روي أنه لما وعد موسى قومه ثلاثين ليلة فأبطأ عليهم في العشر المزيدة قال السامري لبني اسرائيل وكان مطاعاً فيهم: ان معكم حلياً من حلى آل فرعون الذي استعرتموه منهم لتتزينوا به في العيد وخرجتم وهو معكم، وقد

أغرق الله أهله من القبط فهاتوه فدفعوه إليه فاتخذ منه العجل المذكور.

قال قتادة: فجعله جسداً لحماً ودماً له خوار قال عكرمة: صوت، وقيل كان جسداً لا روح فيه وكان يسمع منه صوت من خفق الريح والأول أولى لأنه كان يخور قال وهب: كان يسمع منه الخوار ولا يتحرك، وقال السدي: كان يخور ويمشي وقرأ علي وأبو السماك له جؤار بالجيم والهمزة وهو الصوت الشديد.

﴿ألم يروا أنّه لا يكلمهم﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي: ألم يعتبروا بأن هذا الذي اتخذوه إلهاً لا يقدر على تكليمهم فضلاً عن أن يقدر على جلب نفع لهم أو دفع ضر عنهم ﴿ولا يهديهم سبيلاً﴾ أي طريقاً واضحة يسلكونها وعلى كلا التقديرين لا يصلح لأن يعبد ﴿اتخذوه﴾ إلهاً، وأعيد تأكيداً ﴿وكانوا ظالمين﴾ لأنفسهم في اتخاذه إلهاً أو في كل شيء ومن جملة ذلك الاتخاذ.

﴿ولماً سقط في أيديهم﴾ أي ندموا وتحيروا بعد عود موسى من الميقات، يقال للنادم المتحير: قد سقط في يده قال الأخفش: يقال سقط وأسقط، ونقله أيضاً الفراء والزجاج إلا أن الفراء قال: سقط أي الثلاثي أكثر وأجود.

وهذه اللفظة تستعمل في الندم والتحير، وقد اضطربت أقوال أهل اللغة في أصلها، قال الواحدي: قد بان من أقوال المفسرين وأهل اللغة أن سقط في يده ندم وانه يستعمل في صفة النادم، فأما القول في أصله ومأخذه فلم أر لأحد من أئمة اللغة شيئاً أرتضيه فيه إلا ما ذكره الزجاج فانه قال: إنه بمعنى ندموا.

وقال أبو عبيدة: يقال لمن ندم على أمر وعجز عنه سقط في يده، وقال الزمخشري: معناه لما اشتد ندمهم، ومن قال: سقط على البناء للفاعل فالمعنى عنده: سقط الندم وأصله ان من شأن من اشتد ندمه وحسرته ان يعض يده غماً

فتصير يده مسقوطاً فيها لأن فاه قد وقع فيها، وفي الجمل سقط فعل ماض مبني للمجهول وأصله سقطت أفواههم على أيديهم، فـ (في) بمعنى (على) وذلك من شدة الندم فان العادة ان الإنسان إذا ندم بقلبه على شيء عض بفمه على أصابعه فسقوط الأفواه على الأيدي لازم للندم فاطلق اسم اللازم وأريد الملزوم على سبيل الكناية.

وهذا التركيب لم تعرفه العرب إلا بعد نزول القرآن، ولم يوجد ذلك في أشعارهم والسقوط: عبارة عن النزول من أعلى إلى أسفل، وقال الأزهري والزجاج والنحاس وغيرهم: معنى سقط في أيديهم أي في قلوبهم وأنفسهم كما يقال حصل في يده مكروه وان كان محالاً أن يكون في اليد تشبيهاً لما يحصل في القلب والنفس بما يحصل في اليد لأن مباشرة الأشياء في الغالب باليد، قال تعالى ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾.

وأيضاً الندم وإن حلَّ القلب فأثره يظهر في اليد لأن النادم يعض يده ويضرب إحدى يديه على الأخرى، قال تعالى ﴿فأصبح يقلب كفَّيه على ما انفق فيها﴾ ومنه: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾ أي من الندم وأيضاً النادم يضع ذقنه في يده.

﴿ورأوا﴾ أي تبينوا وتيقنوا ﴿أنهم قد ضلوا﴾ باتخاذهم العجل وأنهم قد ابتلوا بمعصية الله سبحانه في عبادتهم العجل ﴿قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكوننَّ من الخاسرين﴾ وفي هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله والتضرع والابتهال في السؤال والاعتراف بعظم ما أقدموا عليه من الذنب، والندم على ما صدر منهم والرَّغب إلى الله في إقالة عثرتهم واعترافهم على أنفسهم بالخسران ان لم يغفر لهم ربهم ويتب عليهم ويتجاوز عنهم ويرحمهم، وسيأتي في سورة طه ان شاء الله ما يدل على أن هذا الكلام المحكي عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى، وإنما قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل في موضع واحد.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

﴿ولمّا رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾ هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه، والأسف: شديد الغضب قاله محمد بن كعب، وقيل هو منزلة وراء الغضب أشد منه، قاله أبو الدرداء، وقال ابن عباس والسدي: الأسف الحزن والأسيف الحزين، قال الواحدي: والقولان متقاربان لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب، فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت وإذا جاءك ما تكره ممن هو فوقك حزنت فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزناً والأخرى غضباً يقال: هو أسف وأسيف وأسفان وأسوف.

قال ابن جرير الطبري: أخبره الله قبل رجوعه بأنهم قد فتنوا، وأن السّامري قد أضلهم فلذلك رجع وهو غضبان أسفاً.

﴿قال بئسما خلفتموني من بعدي﴾ هذ ذم من موسى لقومه أي بئس العمل ما عملتموه من بعد غيبتي عنكم وفراقي إياكم، يقال: خلفه بخير، وخلفه بشر، استنكر عليهم ما فعلوه وذمهم لكونهم قد شاهدوا من الآيات ما يوجب بعضه الإنزجار، والإيمان بالله وحده، ولكن هذا شأن بني إسرائيل في تلوُّن حالهم واضطراب أفعالهم.

ثم قال منكراً عليهم ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ العجلة التقدم بالشيء قبل وقته يقال: عجلت الشيء سبقته وأعجلت الرجل حملته على العجلة، ولذلك صارت مذمومة والسرعة غير مذمومة لأن معناها عمل الشيء في أول وقته،

والمعنى أعجلتم عن انتظار أمر ربكم أي ميعاده الذي وعدنيه وهو الأربعون ففعلتم ما فعلتم، قاله الحسن وقيل معناه تعجلتم سخط ربكم وقيل معناه أعجلتم وأسبقتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم، قاله الكلبي، وقيل معنى أعجلتم تركتم والأول أولى.

﴿وألقى الألواح﴾ التي فيها التوراة أي طرحها لما اعتراه من شدة الغضب والأسف وفرط الزجر حمية للدين حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل، قال ابن عباس: لما ألقى موسى الألواح تكسرت فرفعت إلا سدسها.

وعنه كما أخرج أبو الشيخ رفع الله منها ستة أسباعها وبقي سبع، وقال مجاهد: لما ألقاها موسى ذهب التفصيل يعني أخبار الغيب، وبقي الهدى أي ما فيه المواعظ والأحكام، عن ابن جريج قال: كانت تسعة رفع منها لوحان وبقي سبعة وفي زاده: المراد بإلقائها أنه وضعها في موضع ليتفرغ لما قصده من مكالمة قومه لا رغبة عنها فلما عاد إليها أخذها بعينها.

﴿وأخذ برأس أخيه﴾ هارون أو بشعر رأسه ولحيته حال كونه ﴿يجره﴾ إليه من شدة غضبه لا هواناً به قال ابن الانباري: مد يده إلى رأسه لشدة وجده عليه وفعل به ذلك لكونه لم ينكر على السامري ولا غير ما رآه من عبادة بني إسرائيل للعجل.

﴿قال﴾ هارون معتذراً منه يا ﴿ابن أم﴾ إنما قال هذا مع كونه أخاه لأبيه وأمه لأنها كلمة لين ورفق وعطف، ولأن حق الأم أعظم وأحق بالمراعاة وقد قاست فيه المخاوف والشدائد مع أنها كما قيل كانت مؤمنة، وقال الزجاج: قيل كان هارون أخا موسى لأمه لا لأبيه، قال أبو السعود: وكان أكبر منه بثلاث سنين وكان حمولاً ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل.

﴿إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني﴾ أي إني لم أطق تغيير ما فعلوه لهذين الأمرين استضعافهم لي ومقاربتهم لقتلي، مع إني لم آل جهداً في كفهم بالوعظ والإنذار.

﴿فلا تشمت بي الأعداء﴾ الشماتة: أصلها الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال: شمت فلان بفلان إذا سر بمكروه نزل به، والمعنى لا تسر الأعداء بما تفعل بي من المكروه، وفي المصباح شمت به يشمت من باب سلم إذا فرح بمصيبة نزلت به، والاسم الشماتة وأشمت الله العدو به ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء ودرك الشقاء وجهد البلاء وشماتة الأعداء»، وهو في الصحيح[1].

قيل: والمعنى لا تفعل بي ما يكون سبباً للشماتة منهم، وقال مجاهد ومالك ابن دينار: لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله بي، وقال ابن جني: والمعنى فلا تشمت بي أنت يا رب، وما أبعد هذا المعنى عن الصواب، وأبعد تأويلها عن وجوه الاعراب.

﴿ولا تجعلني مع القوم الظَّالمين﴾ أي لا تجعلني بغضبك في عداد القوم الذين عبدوا العجل أو لا تعتقد أني منهم مع براءتي منهم ومن ظلمهم.

﴿قال رب اغفر لي ولأخي﴾ طلب المغفرة له أولاً ولأخيه ثانياً ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة فكأنه قد ندم عما فعله بأخيه، وأظهر أنه لا وجه له وطلب المغفرة من الله عما فرط منه في جانبه ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليه من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم ﴿وأدخلنا في رحمتك﴾ التي وسعت كل شيء ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ فيه ترغيب في الدعاء لأن من هو أرحم الراحمين تؤمل منه الرحمة، وفيه تقوية لطمع الداعي في نجاح طلبته.

---

(١) مسلم ٢٧٠٧ ـ البخاري ٢٤٠١.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾

﴿إن الذين اتخذوا العجل﴾ إلهاً عبدوه من دون الله ﴿سينالهم غضب من ربهم﴾ الغضب ما نزل بهم من العقوبة في الدنيا بقتل أنفسهم، وما سينزل بهم في الآخرة من العذاب ﴿وذلة في الحياة الدنيا﴾ الذلة هي التي ضربها الله عليهم بقوله: ﴿ضربت عليهم الذلة﴾ وقيل هي إخراجهم من ديارهم، والأولى أن يقيدَّ الغضب والذلة بالدنيا لقوله: ﴿في الحياة الدنيا﴾ وإن ذلك مختص بالمتخذين للعجل إلهاً لا لمن بعدهم من ذراريهم،ومجرد ما أمروا به من قتل أنفسهم هو غضب من الله عليهم وبه يصيرون أذلاء وكذلك خروجهم من ديارهم هو من غضب الله عليهم وبه يصيرون أذلاء.

وأما ما نال ذراريهم من الذل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال ابن عباس وعطية العوفي فلا يصح تفسير ما في الآية به إلا إذا تعذر حمل الآية على المعنى الحقيقي، وهو لم يتعذر هنا، وقال ابن جريج: إن هذا الغضب والذلة لمن مات منهم على عبادة العجل ولمن فر من القتل، وهذا الذي قاله وإن كان له وجه لكن جميع المفسرين على خلاف ذلك.

﴿وكذلك﴾ أي مثل ما فعلنا بهؤلاء ﴿نجزي المفترين﴾ أن نفعل بهم، عن أيوب قال هو جزاء كل مفتر يكون إلى يوم القيامة أن يذله الله، وقال سفيان بن عيينة: هذا في كل مبتدع إلى يوم القيامة، وقال مالك بن أنس: ما من مبتدع إلا وهو يجد ما فوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية قال: والمبتدع مفتر في دين الله اهـ.

والافتراء الكذب، فمن افترى على الله سيناله غضب وذلة في الحياة الدنيا وإن لم يكن بنفس ما عوقب به هؤلاء، بل المراد ما يصدق عليه أنه من غضب الله سبحانه وإن فيه ذلة بأي نوع كان، ولا فرية أعظم من قول السامري: هذا إلهكم وإله موسى.

﴿والذين عملوا السيئات﴾ أي سيئة كانت حتى الكفر وما دونه ومن جملتها عبادة العجل ﴿ثم تابوا من بعدها﴾ أي من بعد عملها ﴿وآمنوا﴾ بالله ﴿إن ربك﴾ أيها التائب أو يا محمد ﴿من بعدها﴾ أي من بعد هذه التوبة أو من بعد عمل هذه السيئات التي قد تاب عنها فاعلها وآمن بالله ﴿لغفور رحيم﴾ أي كثير الغفران لذنوب عباده وكثير الرحمة لهم.

وفي الآية دليل على أن السيئات بأسرها صغيرها وكبيرها مشتركة في التوبة وأن الله تعالى يغفرها جميعاً بفضله ورحمته، وهذا من أعظم البشائر للمذنبين التائبين.

﴿ولما سكت﴾ وقرىء أسكت ﴿عن موسى الغضب﴾ أصل السكوت السكون والإمساك عن الشيء يقال جرى الوادي ثلاثاً ثم سكت أي مسك وسكن عن الجري، وقيل هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وجر برأس أخيك فترك الإغراء وسكت.

وقيل هذا الكلام فيه قلب، والأصل سكت موسى عن الغضب كقولهم أدخلت الأصبع الخاتم والخاتم الأصبع، وأدخلت القلنسوة رأسي، ورأسي القلنسوة، والأول أولى، وبه قال أهل اللغة والتفسير وفيه مبالغة وبلاغة من حيث إنه جعل الغضب الحامل له على ما فعل كالآمر به والمغري عليه، حتى عبر عن سكونه بالسكوت.

﴿أخذ الألواح﴾ التي ألقاها عند الغضب، قال الرازي: وظاهر هذا

يدل على أن الألواح لم تتكسر ولم يرفع من التوراة شيء ﴿وفي نسختها﴾ فعله بمعنى مفعولة كالخطبة، والنسخ: نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر، ويقال للأصل الذي كان النقل منه نسخة وللمنقول نسخة أيضاً، قال القشيري: والمعنى أي فيها نسخ من الألواح المتكسرة ونقل إلى الألواح الجديدة، وقيل المعنى وفيها نسخ لـه منها أي من اللوح المحفوظ وقيل المعنى وفيها كتب له فيها فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه، وهذا كما يقال انسخ ما يقول فلان أي اثبته في كتابك.

﴿هدى﴾ أي ما يهتدون به من الأحكام ﴿ورحمة﴾ أي ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة، قال مجاهد: ولم يذكر التفصيل ههنا وقال ابن عباس: هدى من الضلالة ورحمة من العذاب ﴿للّذين هم﴾ أي كائنة لهم أو لأجلهم واللام في ﴿لربهم﴾ للتقوية للفعل، وقد صرح الكسائي بأنها زائدة وقال الأخفش: هي لام الأجل، وقال المبرد: التقدير للذين هم رهبتهم لربهم ﴿يرهبون﴾ أي يخافون منه سبحانه[1].

---

(١) قيل: هذا من تمام كلام موسى عليه السلام؛ اخبر الله عز وجل به عنه، وتمّ الكلام. ثم قال الله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ»، وكان هذا القول من موسى عليه السلام قبل ان يتوب القوم بقتلهم أنفسهم، فإنهم لما تابوا وعفا الله عنهم بعد ان جرى القتل العظيم ـ كما تقدّم بيانه في «البقرة» أخبرهم ان من مات قتيلاً فهو شهيد، ومن بقي حياً فهو مغفور له. وقيل: كان ثم طائفة اشربوا في قلوبهم العجل، اي حبه، فلم يتوبوا، فهم المعنيون بقوله: «إن الذين اتخذوا العجل». وقيل: أراد من مات منهم قبل رجوع موسى من الميقات، وقيل: أراد اولادهم. وهو ما جرى على قُريظة والنضير، اي سيناله أولادهم. والله اعلم. ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾ اي مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين. ذكره القرطبي في ٧/ ٢٩٢

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً﴾ هذا شروع في بيان ما كان من موسى ومن القوم الذين اختارهم، والاختيار افتعال من الخيار، يقال اختار الشيء إذا أخذ خيره وخياره، والمعنى اختار من قومه فحذف كلمة من وذلك شائع في العربية لدلالة الكلام عليه قيل اختار من كل سبط من قومه ستة نفر فكانوا اثنين وسبعين، فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحنوا فقال لمن قعد منكم مثل أجر من خرج فقعد يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وذهب معه الباقون.

وروي أنه لم يصب إلا ستين شيخاً فأوحى الله إليه أن يختار من الشبان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخاً فأمرهم موسى أن يصوموا ويطهروا ثيابهم ثم خرج بهم إلى طور سيناء ذكره الخطيب وقيل غير ذلك.

﴿لميقاتنا﴾ أي للوقت الذي وقتناه له بعد أن وقع من قومه ما وقع، والميقات الكلام الذي تقدم ذكره لأن الله أمره أن يأتي إلى الطور في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه سبحانه من عبادة العجل، كذا قيل وقال مجاهد: المعنى لتمام الموعد، وقيل هذا الميقات غير ميقات الكلام السابق في قوله: ﴿وواعدنا موسى﴾ فهذا بعد ميقات الكلام ولم يبينوا مدة هذا.

وقال ابن عباس: أمره الله أن يختار سبعين رجلاً فاختارهم وبرز بهم

ليدعو ربهم فكان فيما دعوا الله أن قالوا اللهم أعطنا ما لم تعط أحداً من قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة كما قال: ﴿فلما أخذتهم الرجفة﴾ هي في اللغة الزلزلة الشديدة قيل إنهم زلزلوا حتى ماتوا يوماً وليلة وقال وهب لم تكن موتاً ولكن أخذتهم الرِّعدة وقلقوا ورجفوا حتى كادت أن تبين مفاصلهم.

ومعظم الروايات أنهم ماتوا قال مجاهد: ماتوا ثم أحياهم الله تعالى وسبب أخذ الرجفة لهم ما حكى الله عنهم من قولهم: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة﴾ على ما تقدم في البقرة وقيل هؤلاء السبعون غير من قالوا أرنا الله جهرة بل أخذتهم الرجفة بسبب عدم انتهائهم عن عبادة العجل، وقيل إنهم قوم لم يرضوا بعبادة العجل ولا نهوا السامري ومن معه عن عبادته فأخذتهم الرجفة بسبب سكوتهم.

فلما رأى موسى أخذ الرجفة لهم ﴿قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل﴾ المعنى لو شئت إهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا قبل هذا الوقت وقال ذلك اعترافاً منه عليه السلام بالذنب وتلهفاً على ما فرط من قومه ﴿وإياي﴾ معهم وذلك أنه خاف أن يتهمه بنو إسرائيل على السبعين ولم يصدقوا بأنهم ماتوا.

﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ الاستفهام للجحد أي لست ممن يفعل ذلك قاله ثقة منه برحمة الله، والمقصود منه الاستعطاف والتضرع، قاله ابن الانباري وقيل معناه الدعاء والطلب أي لا تهلكنا قاله المبرد، وقيل قد علم موسى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره ولكنه كقول عيسى عليه السلام إن تعذبهم فإنهم عبادك وقيل المراد بالسفهاء السبعون، والمعنى أتهلك بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء في قولهم أرنا الله جهرة، وقيل المراد بهم السامري وأصحابه.

﴿إن هي﴾ قال الواحدي: الكناية في هي تعود إلى الفتنة كما تقول إن

هو إلا زيد ﴿إلا فتنتك﴾ التي تختبر بها من شئت وتمتحن بها من أردت، ولعله عليه السلام استفاد هذا من قوله سبحانه: ﴿إنا قد فتنا قومك من بعدك﴾ قال أبو العالية: بليَّتك وقال ابن عباس: مشيئتك ﴿تضل بها﴾ أي بهذه الفتنة ﴿من تشاء﴾ من عبادك ﴿وتهدي﴾ بها ﴿من تشاء﴾ منهم ومثله ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ قال الواحدي: وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التي لا يبقى لهم معها عذر.

ثم رجع إلى الاستعطاف والدعاء فقال: ﴿أنت ولينا﴾ أي المتولي لأمورنا وهذا يفيد الحصر أي لا ناصر ولا حافظ إلا أنت ﴿فاغفر لنا﴾ ما أذنبناه ﴿وارحمنا﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿وأنت خير الغافرين﴾ للذنوب.

﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾ بتوفيقنا للأعمال الصالحة أو تفضل علينا بإفاضة النعم من الحياة الطيبة والعافية وسعة الرزق ﴿و﴾ اكتب لنا ﴿في الآخرة﴾ الجنة بما تجازينا به أو بما تتفضل به علينا من النعيم في الآخرة ﴿إنا هدنا﴾ تعليل لما قبلها من سؤال المغفرة والرحمة والحسنة في الدنيا وفي الآخرة أي إنا تبنا ﴿إليك﴾ ورجعنا عن الغواية التي وقعت من بني إسرائيل، والهود التوبة، وقد تقدم في البقرة وبه قال جميع المفسرين قيل وبه سميت اليهود، وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم ثم صار اسم ذم وهو لازم لهم، وأصل الهود الرجوع برفق والمهادنة المصالحة قال عكرمة فكتب الرحمة يومئذ لهذه الأمة.

وقال أبو وجزة السعدي: وكان من أعلم الناس بالعربية: لا والله ما أعلمها في كلام العرب هدنا قيل فكيف؟ قال: هدنا بكسر الهاء يقول ملنا.

﴿قال عذابي أصيب به من أشاء﴾ قيل المراد بالعذاب هنا الرجفة، وقيل

أمره سبحانه لهم بأن يقتلوا أنفسهم أي ليس هذا إليك يا موسى بل ما شئت كان وما لم أشأ لم يكن، والظاهر أن العذاب هنا يندرج تحته كل عذاب ويدخل فيه عذاب هؤلاء دخولاً أولياً، وقيل المراد من أشاء من المستحقين للعذاب أو من أشاء أن أضله وأسلبه التوفيق ليس لأحد عليّ اعتراض لأن الكل ملكي وعبيدي.

﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ من المكلفين وغيرهم، قيل هذا من العام الذي أريد به الخاص فرحمة الله عمت البر والفاجر في الدنيا، وهي للمؤمنين خاصة في الآخرة، قاله الحسن وقتادة، وقال جمع من المفسرين: لما نزلت هذه الآية تطاول إبليس إليها قال وأنا من ذلك الشيء فنزعها الله من إبليس قاله السدي وابن جريج، وعن قتادة نحوه فقال: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ الذنوب أو الشرك قاله ابن عباس ﴿ويؤتون الزكاة﴾ المفروضة عليهم ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ أي يصدقون ويذعنون لها، فأيس إبليس، وقالت اليهود نحن نتقي ونؤتي الزكاة ونؤمن بآيات ربنا فنزعها الله من اليهود وأثبتها لهذه الأمة.

وأخرج مسلم وغيره عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ان لله مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة»[1]، وعن ابن عباس قال سأل موسى ربه مسألة فأعطاها محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وأعطى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم كل شيء سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه في هذه الآية.

---

(١) وفي رواية لمسلم: ان لله مائة رحمة، انزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس، والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة مسلم (٢٧٥٢) البخاري ٢٣٢٠.
وفي رواية خلق الله مائة رحمة، فوضع واحدة بين خلقه وخبأ عنده مائة الا واحدة.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

ثم بين سبحانه هؤلاء الذين كتب لهم هذه الرحمة ببيان أوضح مما قبله وأصرح فقال: ﴿الذين يتبعون﴾ قال الرازي: هم من بني إسرائيل خاصة وقال الجمهور: هم جميع الأمة سواء كانوا منهم أو من غيرهم ﴿الرسول النبي الأمي﴾ هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإجماع المفسرين فخرجت اليهود والنصارى وسائر الملل، والأمي إما نسبة إلى الأمة الأمية التي لا تكتب ولا تحسب ولا تقرأ، وهم العرب قاله الزجاج أو نسبة إلى الأم والمعنى أنه باق على حالته التي ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وقيل نسبة إلى أم القرى، وهي مكة والأول أولى.

وكونه أمياً من أكبر معجزاته وأعظمها، قال السيد الغبريني المقري شارح البردة: إن كونه أمياً معجزة له كما قرروه حتى لا يرتاب أحد في كلام الله، يرد عليه إنه لو ثم قيل عليه لم خلق أفصح الناس ولم يخلق غير فصيح حتى يعلم أن ما يتلوه من الكلام المعجز ببلاغته ليس كلامه.

قال الشهاب في الريحانة قوله هذا ليس بشيء لأن الامية سابقة في أكثر فصحاء العرب وهم في غناء عن الكتابة، وأما عدم الفصاحة فلكنة وعيب عظيم منزه عنه عال مقامه، وطاهر فطرته وجوهر جبلته، وهذا البحث مما لا تراه في غير كتابنا هذا.

وقال في حاشية البيضاوي قيل إنه منسوب إلى الأم بفتح الهمزة بمعنى

القصد لأنه المقصود وضم الهمزة من تغيير النسب، ويؤيده قراءة يعقوب بفتح الهمزة انتهى.

قال أبو السعود: أي الذي لم يمارس القراءة والكتابة وقد جمع مع ذلك علوم الأولين والآخرين انتهى، وهل صدر عنه ذلك في كتابه صلح الحديبية كما هو ظاهر الحديث المشهور أو إنه لم يكتب وإنما اسند إليه مجازاً، وقيل إنه صدر عنه ذلك على سبيل المعجزة وتفصيله في فتح الباري.

﴿الذي يجدونه﴾ يعني اليهود والنصارى أي يجدون نعته ﴿مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ وهما مرجعهم في الدين وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل فهو من باب الاخبار بما سيكون.

قال الرازي: وهذا يدل على أن نعته وصحة نبوته مكتوب فيهما لأن ذلك لو لم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله لأن الاصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله وينفر الناس عن قبول قوله، فلما قال ذلك دل هذا على أن ذلك النعت كان مذكوراً في التوراة والإنجيل، وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته انتهى وسيأتي الكلام على ذلك في آخر هذه الآية إن شاء الله تعالى مستوفى.

أخرج ابن سعد والبخاري وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن عطاء ابن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للاميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.

وروي نحو هذا مع اختلاف في بعض الألفاظ وزيادة ونقص في بعض

عن جماعة، وذكر الخميسي في تاريخه أن لفظ محمد مذكور في التوراة باللغة السريانية بلفظ المنحمنا، ومعنى هذا اللفظ في تلك اللغة هو معنى لفظ محمد وهو الذي يحمده الناس كثيراً وذكر أن لفظ أحمد مذكور في الإنجيل بهذا اللفظ العربي الذي هو أحمد.

﴿يأمرهم بالمعروف﴾ أي بكل ما تعرفه القلوب ولا تنكره من الأشياء التي هي من مكارم الأخلاق ﴿وينهاهم عن المنكر﴾ أي عما تنكره القلوب ولا تعرفه وهو ما كان من مساوىء الأخلاق، قال عطاء: يأمرهم بخلع الانداد وصلة الارحام، وينهاهم عن عبادة الأصنام وقطع الارحام.

﴿ويحل لهم الطيبات﴾ أي المستلذات التي تستطيبها الأنفس، فتكون الآية دالة على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع الحل، وقيل ما حرم عليهم من الأشياء التي حرمت عليهم بسبب ذنوبهم من لحوم الإبل وشحوم الغنم والمعز والبقر، وقيل ما كانوا يحرمونه على أنفسهم في الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي.

﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ أي المستخبثات كالحشرات والخنازير والربا والرشوة وقال ابن عباس يريد الميتة والدم ولحم الخنزير وقيل هو كل ما يستخبثه الطبع أو تستقذره النفس فإن الأصل في المضار الحرمة إلا ما له دليل متصل بالحل.

﴿ويضع عنهم إصرهم﴾ الإصر الثقل أي يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة أو العهد الذي أخذ عليهم أن يعملوا بما في التوراة من الأحكام وقد تقدم بيانه في البقرة ﴿والأغلال التي كانت عليهم﴾ الاغلال مستعارة للتكاليف الشاقة التي كانوا قد كلفوها، وذلك مثل قتل النفس في التوبة وقطع الاعضاء الخاطئة وقرض النجاسة عن البدن والثوب بالمقراض، وتعيين القصاص في القتل وتحريم أخذ الدية وترك العمل في السبت، وإن صلاتهم لا تجوز إلا في الكنائس إلى غير ذلك.

﴿فالذين آمنوا به﴾ أي بمحمد ﷺ واتبعوه فيما جاء به من الشرائع ﴿وعزروه﴾ أي عظموه ووقروه قاله الأخفش وقيل معناه منعوه من عدوه وأصل العزر المنع ﴿ونصروه﴾ أي قاموا بنصره على من يعاديه ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ أي القرآن الذي أنزل عليه مع نبوته وقيل المعنى واتبعوا القرآن المنزل إليه مع اتباعه بالعمل بسنته مما يأمر به وينهي عنه أو اتبعوا القرآن مصاحبين له في اتباعه.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المتصفين بهذه الأوصاف ﴿هم المفلحون﴾ أي الناجون الفائزون بالخير والفلاح والهداية لا غيرهم من الامم.

وهذه الآية فيها دلالة واضحة وحجة نيرة على كون ذكر نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثابتاً في الكتب القديمة، فلنذكر ههنا ما يوافقها منها فأقول.

قال أهل الكتاب يجب على النبي أن يكون منصوصاً عليه فيما قبله من الكتب، ومحمد لم يكن منصوصاً عليه فليس بنبي، أما الصغرى فلأنه لو لم يكن منصوصاً عليه لأشكل على الأمة معرفته، وأما الكبرى فلعدم وجود النص.

والجواب عنه بمنع الصغرى لأنه لا يجب أن يكون منصوصاً عليه في سجل من قبله لأن شرط صدق النبوة الاتيان بالخارقة، ولو كان شرطه النص لامتنع الاستعجاز وعليه أهل التحقيق فيبطل القياس، وبمنع الكبرى لأن محمداً ﷺ قد نص عليه موسى ويوشع وداود وسليمان وأشعيا وارميا وملاخيا وزكريا وعيسى عليهم السلام فيكون نبياً.

ومن البراهين على اثبات نبوته ﷺ ما ورد في الأعمال من كتاب الاستثناء «وسيقيم لكم الرب إلهكم من اخوتكم نبياً مثلي فاسمعوا جميع ما يأمركم به فإن كل نفس لا تسمع أمر ذلك النبي تستأصل من بين القوم».

وهذا هو الدليل الذي تمسك به جماعة من المسلمين على نبوته ﷺ وأثبتوا

دلالته على ذلك بعشرة وجوه ذكرت في محلها، وفسره النصارى في شأن المسيح وزعموا أنه هو الذي وعد به موسى لأنه تولد في دار يوسف بن يعقوب بن متان من زوجته مريم بنت عمران، وهذا التفسير بديهي البطلان إذ لو كان المراد به نبياً من بني إسرائيل لكان الأولى به يوشع بن نون أو اشمويل أو العزير أو داود أو سليمان أو اشعيا أو غيره من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، ولكنه تعالى فرزه عن بني إسرائيل بقوله: «من إخوتكم» نظراً إلى أنهم نفس اسحق فتكون اخوتهم بنو اسمعيل بلا مناقشة.

وهذا حوار مطرد عند اليهود والعرب كما قال: «سيأتي المنقذ من صهيون ويخرج النفاق من يعقوب» أي من بني يعقوب إلى غير ذلك.

وإلا فأقول إن عيسى ابن مريم بن اسرائيل وإسرائيل أخ لنفسه ينتج أن عيسى بن مريم ابن أخ لنفسه، وليس الأمر كذلك أما الصغرى فلاعتراف النصارى بأن المسيح من أولاد داود ولا شك أن داود من أولاد إسرائيل وولد الولد ولد، وأما الكبرى فلما ظهر من هذا النص من أن أخ الإنسان عبارة عن نفسه.

وأجيب بمنع الصغرى لأن الاخوين لفظان متباينان لا يصدق أحدهما على مفهوم الآخر وإلا يلزم ترادف المتباينين وهو باطل، ولا يرد عليه مثل البيع لأن العمدة في اللغة السماع ولم ينقل عن أحد فيكون المنصوص عليه محمداً ﷺ بلا مناقشة بدليل قوله: «فاسمعوا جميع ما يأمركم به» الخ لأن عيسى عليه السلام لم يأت في دعوته بقهر يجبر به القوم لأن دعوته كانت على سبيل الترغيب لا غير.

وإلا فليكن المسيح هو المنصوص عليه، وحينئذ أقول كل نصراني يسلم أو يتهود يجب عليه القتل وكل نصرانية تزني يجب عليها الرجم لقوله: ﴿كل نفس﴾ الخ لكن النصراني إذا ارتد والنصرانية إذا زنت لا يحدا، فالمسيح ليس بمنصوص عليه في هذا المقام، أما المقدم فلوضوح النص في قوله: ﴿كل نفس

لا تسمع﴾ الخ لأنه أمر بالاستقامة على الدين والإحصان وإلا فليس بنبي، وأما التالي فلعدم إجراء الحدود في ملته ألم تر أن النصراني يسلم ويتهود ويتبرهم ولا يجب عليه حد، وانه ربما ينقض جميع سنن الانجيل وأحكامه ويرتكب ما يخالفها ولا ينكر عليه أحد.

وهذا بخلاف ملة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فان عدم امتثال بعض أوامره يوجب هرق الدم وازهاق الأنفس فيكون هو المنصوص عليه بهذا النص، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾.

وفي انجيل متى وفي كتاب اشعيا هذا هو عبدي الذي انتخبت ومحبوبي الذي رضيت عليه فسأحل روحي عليه وسيظهر للعوام الدينونة ولن يصرخ ولن يصيح ولن يسمع صوته في الأزقة أحد، ولن يكسر قصبة مرضوضة ولن يطفىء ذبالة مدخنة حتى يخرج الدينونة المنصرة ويتكل على اسمه العوام انتهى، وهذا نص صريح على اثبات نبوة نبينا ﷺ.

وأما استدلال النصارى بهذا على كون المسيح ابن الله وخاتم الأنبياء فلا دلالة لها عليه إذ الجزاء فيه اتكال العوام عليه، وقد صلب أو رفع ولم يتكل عليه العوام، وقد مضى من ارتفاعه أو صلبه إلى زمان تحرير هذه السطور ١٨٧٩ سنة ولم يجتمع عليه من العوام أحد إلا اليونانيون والأرمن والجروج والفرنج وبعض الحبش، وهذا ليس باجماع لأن أقل مراتب الإجماع أعظم النصفين، وقد يظهر لك بالنظر في الجغرافيا أن النصارى أقل من عشر غيرهم فينتقض الإجماع.

وأما حلول الروح عليه وإظهاره الدينونة للعوام واتصافه بهذه الصفات المرضية فلا دلالة لها على كونه ابن الله وخاتم الأنبياء، لأن نزول الروح مما يختص بالاخيار واظهار الدينونة مما يختص بالملوك، ولا شك أن روح القدس قد حلت عليه، وانه قد أخبرنا بالدينونة العظمى التي هي محمد صلى الله عليه

وآله وسلم، لكنه يدل على أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله وهو ممنوع.

وأما اظهار الدينونة واتكال العوام عليه، فليس كما أوله النصارى، بل إنما المراد بالاظهار الاخبار، وباتكال العوام عليه، اتكالهم على ذلك الاخبار لا غير، وإلا لفسد المعنى لأن حلول الروح عليه واظهاره الدينونة للعوام وعدم صراخه وصياحه إلى آخره مقيد بأخبار الدينونة للنصرة واتكال العوام على اسمه ووقوع المشروط عين اطلاق الشرط فما يكون بعد ذلك.

فإن قلت سيكون سلطاناً شديداً منعته لعدم وقوعه وعدم ادعاء النصارى به، وإن قلت شيطاناً عنيداً منعته لتقدس ذاته وانكار النصارى له.

ولأني أقول ان كان عيسى بن مريم هو المخصوص بهذا النص فبعد اخراج الدينونة للنصرة واتكال العوام على اسمه لا بد أن ترفع عنه روح الله التي حلت عليه، لكن المسيح هو المقصود بهذا النص ينتج أن روح الله قد رفعت عنه، والتالي باطل فالمقدم مثله.

أما بطلان التالي فلأن روح الله لا ترتفع عن أنبيائه، وأما بطلان المقدم فلصدق استثناء نقيضه.

إذا علمت ذلك فاعلم أيدك الله بروحه القدسية ان خلاصة هذا النص أنه تعالى قد أخبر بأن عيسى عليه السلام هو نبيه الذي انتخب في ذلك الزمان ومحبوبه الذي رضي عليه في تلك الأيام، ووعد أنه سيحل عليه روحه، وسيظهر الدينونة أي القضاء للعوام أي يخبر بها ووصفه بالسكوت وعدم المكابرة ردعاً لليهود لأنهم يقولون ان المسيح ملك عظيم الشأن وقيد ذلك باخراج الدينونة للنصرة التي هي محمد ﷺ.

وفي بعض التراجم «حتى يخرج الحكم بالغلبة» عوض «يخرج الدينونة للنصرة» وهما مترادفتان لأنه هو الذي نصر دين الله وباتكال العوام على اسمه أي عليه يعني على اخباره يريد بذلك أن العوام سيتكلون على اخباره حين

ظهور محمد ﷺ فيؤمنون به، فتكون هذه الأمور غاية بعثته عليه السلام وبعد نفوذها يؤوب إلى مآبه الأصلي سواء كان بالصلب ثم الرفع أو بالرفع بغير الصلب، فتفكر في هذا المقام فانه دقيق وأمعن نظرك فيه.

وفي كتاب يهودا وكتاب زكريا ان الرب قد جاء أو سيجيء بربوات مقدسة ليقضي على جميع الناس، ويوبخ المنافقين لجميع أعمال نفاقهم التي نافقوا بها وجميع الأقوال الصعبة التي تكلم بها عليه الخاطئون انتهى.

ودلالة هذا النص على انبعاث نبينا محمد ﷺ بديهية لا تحتاج إلى نظر لانحصار جميع هذه الصفات في ذاته المقدسة لكونه مبعوثاً بالسيف أي بالجهاد ولوثوبه بربوات صناديد العرب ولقضائه على جميع الناس ولتوبيخه أهل النفاق، ولا تقل انه لم يقض على جميع الناس لما صرحت لك فيما قبل هذا بأن الاجماع عبارة عن أعظم النصفين.

وأما استدلال النصارى بهذه الدلالة على ربوبية المسيح نقلا عن صحيفة زكريا فلا شك في صحة النقل إلا أنه لا دلالة فيه على ما ادعوه مطلقاً ولا على ثبوته بل ولا دلالة له عليه بوجه من الوجوه، لأن المنصوص عليه بالاتيان بهذه الربوات المقدسة والقضاء على جميع الناس وتوبيخ المنافقين ينبغي أن يقوم بالأمر لجد الحديد الأخضر، ولا دلالة لشيء من هذه الصفات على المسيح عليه السلام لأنه لم يأت إلا في زي بعض الزهاد المتخلقين بالمسوح والرماد.

وإلا فان كان المسيح هو المقصود بهذا النص فلا شك أنه قد قهر اليهود وصلب بيلاطوس النبي لكن المسيح هو المقصود بهذا النص فيكون كذلك والتالي باطل فالمقدم مثله، أما بطلان التالي فلعدم وقوع ذلك ولإنكار النصارى اياه، وأما بطلان المقدم فلصدق استثناء نقيضه، وكيف يجوز العقل احتياج الاله في الإنتقام من الأعداء إلى الجند والسلاح.

فان قيل انه ليس بإله لكنه ابن الله، قلت لا أسلم عدم الألوهية لأن

جميع النصارى قد اتفقوا في تفسير هذا النص بالألوهية قوله من الأعمال «فاحتاطوا على أنفسكم وعلى الرعية التي أقامكم الروح القدس عليها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بخالص دمه» مع أن الضمير يرجع إلى عيسى المذكور باللفظ وإلى الروح القدس الذي هو عبارة عن نفس المسيح، فتأمل فيه.

ومع قطع النظر عن هذا كله إذا كان ابن الله يجب على أبيه أن يذب عنه.

وفي مرقص وفي متى ثم طفق يضرب لهم الأمثال ويقول اغترس رجل كرماً وحوطه بحائط وبحث فيه معصرة وبنى برجاً وآجره للفلاحين وسافر، ولما جاء الموسم أرسل إلى الفلاحين خادماً لينال من ثمرة الكرم شيئاً فأخذوه وضربوه وردوه خائباً فأرسل إليهم خادماً ثانياً فرجموه وشجوه وردوه محقراً ثم أرسل ثالثاً فقتلوه وكثيرين آخرين ضربوا بعضهم وقتلوا بعضاً وكان قد بقي له ابن وحيد هو محبوبه فأرسله إليهم آخر الأمر وقال انهم سيكرمون ابني فقال الفلاحون فيما بينهم ان هذا هو الوارث فهلموا بنا نقتله فيصير الميراث لنا فأخذوه وقتلوه وأخرجوه خارج الكرم فماذا يفعل رب الكرم، نعم انه سيأتي ويهلك الفلاحين ويسلم الكرم إلى آخرين ألم تقرأوا هذا المرقوم قوله إن الحجرة التي رفض البناؤون صارت رأس الزاوية هذا هو ما وقع عند الرب وهو في نظركم عجيب انتهى.

وهذا من أعظم الدلائل الواردة في الإنجيل على نبوة محمد ﷺ، وقد تغافل عنه النصارى وأولوه بتأويل باطل.

وتقرير ذلك أن هذا أول الفصل وهو جملة استئنافية، فالغارس فيه هو الباري تعالى شأنه، والمغرسة الدنيا، والكرم بنو آدم، والحائط الناموس، والمعصرة الأحكام الناموسية، والبرج الأنبياء، والفلاحون الذين بلغتهم الدعوة، فأول الرسل موسى بن عمران عليه السلام، وثانيهم يوشع بن نون،

وثالثهم يحيى بن زكريا، والمجهولون المتوسطون، من موسى إلى زمان عيسى عليهما السلام، والولد الوحيد عيسى عليه السلام.

وناهيك به من مثل لطيف نبه وأنبأ فيه عيسى على نفسه أيضاً والآخرون الذين يسلم إليهم الكرم هم العرب.

فإن قلت لم كنى في الأول بالأنبياء وههنا بالأمة، قلت تبجيلاً له ﷺ وإكراماً لأمته إذ هم أفضل الأمم وتصديقاً لقوله سبحانه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ الآية وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» على كلام فيه، وفيه من عظمة شأنه وسمو مكانه ما لا يخفى بل ما يفوق على شأن جميع الأنبياء فتأمّله.

ثم انظر إلى حسن أداء المثل فكأنه عليه السلام قد سئل عن ذلك فقال إنه من أولاد إسماعيل، فأجيب بأنه هل يبعث من اولاد الفتاة نبي، فقال عليه السلام ألم تقرأوا ما قال أشعياء في قوله إن الحجرة التي رفض الخ فإن كذبتموني فما تفعلون بقول نبيكم اشعياء «فهذا الذي أنتم تستحقرونه يكون في الدرجة العليا لأنه هو قضاء الرب وهو الوفاء لعهده الذي عاهد به إبراهيم عليه السلام في بابت إسماعيل حيث قال في التكوين قوله: «وأما إسماعيل فإني قد سمعت دعاءك له وها أنذا قد باركت فيه وجعلته مثمراً وسأكثره تكثيراً وسيلد اثني عشر ملكاً وسأصيرهم أمة عظيمة».

وأما ما ذهب إليه اليهود والنصارى من أن المراد بالملوك الإثني عشر أولاد إسماعيل الإثنا عشر فهو باطل لأنهم لم يتملكوا، ولم يدعوا الملكية، والحق أنه في شأن الأئمة الإثني عشر من قريش كما ورد في ذلك الحديث وعهده الذي عاهد به هاجر في كتاب الخليقة حيث قال فقال لها أي هاجر ملك الرب إنك حاملة وستلدين إبناً تسميه إسماعيل لأن الله قد سمع اضطرابك وسيكون بدوياً وتكون يده معارضة لجميع الناس ويد جميع الناس معارضة له.

وهذا في غاية اللطافة والعموم، وفي كتاب متى وكتاب أشعيا وفي المزامير أن تلك الحجرة التي رفض البناؤون صارت رأس الزاوية هذا هو عمل الرب وهو في أعيننا عجيب اهـ.

ولا شك أن هذا النص يدل على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه من ولد إسماعيل وهو المرفوض قبل وجود موسى ورأس الزاوية هو ملتقى الخطين فيكون هو الخاتم لأن طرفي الخطين يذهبان إلى حيث ما يذهبان إليه، ولا حاجة لتعيين ابتدائها فيكون ملتقى الخطين هو منتهاهما وهذا هو محمد ﷺ الذي ختم الله به فيلق رسله.

وقوله هذا هو عمل الرب الخ جواب سؤال مقدر تقديره هل يمكن أن تستقر الحجرة المرفوضة رأس الزاوية وهل يجوز أن يقوم من أولاد الجارية المصرية هاجر نبي، فيكون الجواب هذا هو عمل الرب الخ وسياقه في أشعياء قوله: «هذا ما يقول الرب الإله ها أنا ذا قد ألقيت في صهيون حجرة أساس الإبل زاوية وأساس محقق لا يخجل من يعتقد بها.

فقوله: «هذا» للتحضيض والترغيب في الاستماع، وما مفرد في معنى الكل ويقول في معنى القول، فيكون المعنى هذا كل قول الرب الإله وصفة الرب للتعظيم والتخويف، ها أنا ذا إلى قوله حجرة أساس الإضافة بمعنى اللام الإبل زاوية بدل من الأساس، وأساس محقق بدل من البدل، لا يخجل من يعتقد بها غاية إلقائها، فيكون معنى قول أشعياء إن هذا هو قول الرب فمن يعتقد به وينتظر وقوعه ويؤمن به لن يخجلن والمراد به نفس النص.

ومعنى قول متى أن تلك الحجرة يعني إسماعيل التي رفض البناؤون إبراهيم وسارة والجمع للحوار العبراني أو للتفخيم، والمضي في رفض لغبور الفعل فيه صارت للتأكيد. رأساً للزاوية خاتماً للرسل.

ووجه المطابقة إن كلام أشعياء يدل على الإخبار، وكلام متى يدل على التحقيق، جعلني الله ممن يسلك سواء الطريق.

وذهب النصارى إلى تأويل هذا النص في شأن عيسى عليه السلام على عادتهم وقالوا إن اليهود كانوا يحتقرونه فيكون النص في شأنه وهو باطل لأن تأكيد التعريف يفيد العهد الذهني وليس في بني إسرائيل محتقر ولا مرفوض من حيث إنه من بني إسرائيل، وعيسى ابن مريم من بني إسرائيل فلا دلالة للنص عليه مع أن العهد الخارجي المشار إليه في أيام موسى يجب أن يكون غابراً، والفعل ماض فيجب مضي العهد، وإن كان المسيح بن مريم قد رفضه اليهود في أيام موسى أو قبل أيامه فهو المنصوص عليه لكنه لم يكن كذلك فلن يكون كذلك.

ولا شك أن النص دال على ما ذكرناه من نبوة محمد خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم برمته.

وفي رومية ويوشع سأدعو الذين ليسوا من شيعتي لي شيعة والتي ليست بمحبوبتي لي محبوبة اهـ.

واختلس النصارى هذا النص على عادتهم وأولوه في شأن اتباع المسيح وقالوا إنه لم يأت إلا لاستدعاء العوام مع أنه خلاف لما تواتر عليه النص، فمنه ما ورد في متى «إني لم أرسل إلا لغنم بيت إسرائيل الضالة فجاءت الامرأة وسجدت له وقالت أعني يا رب فقال لها وهو يحاورها إنه لا يجوز أن يؤخذ خبز الأولاد ويلقى للكلاب».

وما ورد في متى لما أرسل الحواريين للدعوة حيث قال: «بل سيروا إلى غنم بيت إسرائيل الضالة» إلى غير ذلك.

وتقرير الأول أن امرأة سريانية أتت إليه تلتمسه أن يبرىء بنتها فقال لها: إني لم أرسل إلا لأبرىء بني إسرائيل الذين هم أحباء الله، ولا يجوز لأحد أن يأخذ خبز الأولاد ويلقى أمام الكلاب، فإذا كان بمحض الإبراء والوعظ

ليس بمأمور أن يبرىء أو يعظ غير اليهود فكيف تكون نبوته عامة.

وأما استدلالهم بما ذكره في رومية فلا دلالة له أيضا على الخصوصية لأن موضوع هذا الفصل ممانعة اليهود لليونانيين عن التنصر، فاستدل بولوس على جواز ذلك بإضافة الإختيار إلى المختار الحقيقي حيث قال: «فمن أنت أيها الإنسان حتى تجيب الله تعالى لعل الجبلة تقول لجابلها لم صنعتني هكذا أو لعل الفخار لا سلطان له على الطين حتى يعمل من كتلة واحدة إناء للكرامة وإناء للإهانة الخ.

فذكر ذلك استدلالاً على جواز اصطباع العوام استحساناً لأن الجواز غير الوجوب بخلاف نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فإنه قد أوجب عليه دعوة الثقلين وعليه الإجماع، ولو كانت علة مجيء عيسى دعوة العوام لما احتاج إلى الاستدلال فينتقض.

ويدل على محمد نفسه ﷺ بالضرورة لأنه لم يكن من بني إسرائيل فلم يكن من شيعة الرب الخاصة ولما لم يكن من شيعته الخاصة فلم يكن له محبوباً فيكون الباري تعالى قد تبرع بارساله وهو أبلغ وأظهر للقدرة لأن اليهود كانوا يتفاخرون على العرب لما ورد في متى من سفر الخروج لأنهم من أولاد إسحاق وهو ابن سارة ومحمد صلى الله عليه وسلم من أولاد إسماعيل وهو ابن هاجر جارية سارة لكن الواجب تعالى رغم أنفهم به وصيره له محبوباً وشيعته له شيعة.

وإن لم يكن كذلك فنقول إن كان اليونانيون هم الذين رفضتهم سارة لما حكمت على إبراهيم عليه السلام أن يخرجهم إلى البر وطردتهم من بيتها لما حملت جاريتها المصرية هاجر من إبراهيم، فهذا النص صادق عليهم لكن اليونانيين ليسوا بالذين طردتهم سارة فلا يصدق عليهم النص. أما المقدم فلادعاء اليهود بأن بني إسماعيل ليسوا من شيعة الرب وهم المرفوضون، ولا وجه

للعموم لأن غير استيلاء الخصم لا يشق مشقة استيلاء الخصم، وأما التالي فلأن هذا النص لا يصدق إلا على من يصدق عليه المقدم لأن التعريف يفيد العهد الذهني.

وفي رومية والاستثناء إني ساعيركم بأمة أخرى وأغيظكم بأمة لا فهم لها انتهى.

استدل النصارى بهذا النص على عموم نبوة المسيح وقالوا إنه خاص في شأن اليونانيين والرومانيين وهو باطل لأنهم كانوا أعلم من اليهود في جميع الفنون.

وتقريره في هذا الفصل أن بُولُس كان يعظ اليهود ويعترض عليهم لما تنفروا من تنصر اليونانيين والرومانيين ويقول إنهم لم يميزوا الكتب ولم يمعنوا النظر في النواميس حيث قال الله تعالى على لسان موسى: «إني ساعيركم» الخ فهذا لا دلالة له على عمومية نبوته البتة إذ لا دلالة له على دعوة كلا الفريقين، لكنه تنبيه لليهود حتى يرتدعوا عما كانوا عليه من الغرور ويذكروا هذا النص ويحذروا يوم يعيرهم الله بأمة أخرى ويغيظهم بأمة لا فهم لها والمراد بهم العرب أولاد هاجر.

والبرهان على ذلك أنهم كانوا أميين لأنهم هم الذين لا فهم لهم ولا علم، وسياق النص في الاستثناء قوله: «إنهم قد عيروني بلا إله وأغاظوني بعبثهم فساعيرهم بلا فئة وساغيظهم بأمة لا فهم لها» قوله: «عيروني بلا إله أي بعبادة الأوثان لما اتخذوا العجل، وأغاظوني بعبثهم أي العبث الصادر منهم لما قالوا يا موسى اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة فأنا ساعيرهم بلا فئة يريد بها أولاد هاجر المصرية يعني بني إسرائيل، وأغيظهم بأمة لا فهم لها لأنهم كانوا في تلك الأيام لا يتعاطون شيئاً من العلوم العقلية ولا النقلية ما سوى علم الشعر والمنازل وليسا بشيء».

وإلا فأقول إن كان اليونانيون في زمان موسى جهالاً لا دخل لهم في شيء من العلوم بحيث إن اليهود كانوا يستحقرونهم بالنظر إلى جهالتهم فهذا النص صادق عليهم لكن اليونانيين في زمان موسى كانوا أعلم من اليهود في جميع الأحوال، فلا يكون هذا النص صادقاً عليم، أما المقدم فلأن النصارى يدعون ذلك وأما التالي فلأنه لا شك في أن اليونانيين كانوا أعلم من اليهود في جميع العلوم سيما الإلهيات إلا علم فقه اليهود وليس بشيء.

والدليل على ذلك ما حققه داود جانز في كتابه الذي سماه صحيح داود قوله: شرع سطريوس الحكيم في تعليم المساحة في مصر أيام مطيطوس أول ملوك بابل سنة ٢٨ ومن تاريخ الخليقة ولاطينوس اللاطيني علم الطبيعيات وبحث عن كائنات الجو زمان سقزينس ١٥ من ملوك بابل سنة ٢٣٦٥ وأرقيلوس الحكيم اليوناني بحث عن حركات الأفلاك هو وولداه سردينوس وقرميقوس عهد أمينوس ١٩ من ملوك بابل سنة ٢٤٧٥ وكانت ولادة موسى سنة ٢٣٦٨ ولم يزل اليونانيون يزدادون بسطة في الملك والعلم حتى ظهور رب الجنودﷺ، ومن الذين ظهروا أيام بني إسرائيل مرقورياس علم الموسيقى سنة ٢٦٢٦ ولوسيوس قيصراً بحث في حركة الشمس مع فيلقوس الحكيم سنة ٢٨٢٥ وكان فيلقوس فاضلاً مرتاضاً في علم النجوم وأبقراط أو بقراط الطبيب الحاذق وإبنه أوقليدس المهندس، وأفلاطون الحكيم بحثوا عن أكثر فنون الحكمة النظرية عهد مردخان واستير سنة ٣٤١[١] واسكندر ابن قبلقوس أو داراب وأستاذه لقوما خشيوس بحثاً عن أكثر فنون الحكمة سنة ٢٤٤٢ أيام العزير عليه السلام إلى غير ذلك.

فعلى هذا يكون محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو المكنى عنه به وأمته المهدية هي المشار إليها.

---

(١) قوله سنة ٣٤١ كذا بالأصل، وكذا جميع الأعداد في هذه الصحيفة هي كذلك في الأصل وحرر إ هـ مصححه.

وفي رومية وأشعياء قوله: إني قد وجدت عند من لم يطلبني وظهرت عند من لم يسأل عني انتهى.

أول النصارى هذا النص الصريح في حق اليونانيين الذين اتبعوا عيسى عليه السلام في زمان الفترة وقالوا إنهم لم يطلبوا معرفة الله تعالى قبل المسيح فيختص النص بهم وسياقه في رومية يظهر لك مما قبله ولا دلالة له عليهم لأنه لا يصدق إلا على مفهوم ما قبله، ومع تسليمه كيف يجوز العقل أن اليونانيين لم يطلبوا معرفة الواجب تعالى مع أنهم هم أول من دون الإلهيات وبحث في وحدة الواجب تعالى.

إذا تحقق ذلك فاعلم أن هذا النص يخص العرب فقط ولا يدخل فيه ولا فيما قبله من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أحد لأنهم هم الأميون البله الذين لم يكونوا يفهمون ما الواجب بل ولا الممكن قبل بعثته عليه السلام، وأما قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

فلمداخلة اليهود والنصارى أو بالنظر إلى الناموس الطبيعي لأن جميع الأمم الذين لم تبلغ إليهم دعوة الأنبياء لا بد لهم من ناموس يتمسكون به.

ومن المعلوم أن الأبكم مع عدم اطلاعه على شيء من هذه الأشياء إذا اشتبه أو اضطر ينظر إلى السماء وكذلك البهائم الوحشية إذا أصابها الجدب، وساقه في أشعياء قوله: إني قد أصبت عند من لم يسأل عني ووجدت عند من لم يطلبني وقلت لأمة لم تدع باسمي أنظري إلي أنظري إلي لأني قد أظهرت يدي طوال النهار إلى فئة طاغية سالكة في سبيل سيىء ممتثله لأهوائها وفئة أي فئة تغيظني أمام وجهي وتقرب قرابينها في البساتين وتبخر في مباخر الشياطين التي

تسكن المقابر وتأكل لحم الخنازير ومرق النجاسة في أوانيها.

فمن قوله أصبت قوله أنظري إلي، إشارة إلى انحراف الناموس إلى العرب واصطفائه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ومن قوله لأني إلى قوله ممتثلة لأهوائها إشارة إلى اليهود، ومن قوله وفئة إلى قوله في أوانيهم إشارة ظاهرة في حق النصارى.

إذا فهمت فاعلم أن هذا النص لا يمكن أن يستدل به على غير ما ذكرته لك لأنه هو موضوعه ولا يجوز الاستدلال بالتأويلات التضمينية أو الاستلزامية فيها لم تكن قرينتهما موجودة سيما إذا كانت قرينة المطابقة فيه ظاهرة، وفقني الله وإياك لاقتفاء سنة نبيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

وفي لوقا وأشعياء صوت صارخ في البرية أعدوا طرق الرب وهيئوا سبله فإن كل واد سيمتلىء وكل جبل وأكمة ستضع وتعتدل المعوجات وتلين الصعبات ويشاهد خلاص الله كل ذي جسد انتهى.

وهذا من أوضح البراهين الواردة في شأن محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد تغافل اليهود والنصارى عنه فأوله اليهود في شأن مسيحهم الموهوم، وأوله النصارى في حق إلههم المعلوم، والحق أنه لا يدل على ذلك.

أما إنه لا يدل على المسيح الموهوم فلأن سياقه في أشعياء قوله سلوا شيعتي سلوهم قال إلهكم سلوا أورشليم وقولوا لها إن تعبها قد تم وخطيئتها قد غفرت لأنه قد وقع عليها من يد الرب لخطيئتها ضعفان من العذاب، وهذا صوت صارخ يقول في الهدية هيئوا طريق الرب ووطئوا لأجل إلهنا في البادية سبيلاً مرتفعاً فإن كل واد سيرتفع، وكل جبل وأكمة ستتضع وسيعتدل المعوج وستلين الصعبات وسيظهر مجد الله ويشاهده كل ذي جسم لأن فم الله نطق

به، فقال الصوت اصرخ فقال بماذا أصرخ فإن جميع الأجسام كلأ وكل مجدها كزهر الحقل فالكلأ يذبل والزهر يسقط لأن روح الرب يرف عليه، ولا شك أن الملأ كلأ فيجف الكلأ ويسقط الزهر وكلمة الله تمكث إلى الأبد.

فمن قوله: «سلوا إلى من العذاب» ظاهر الدلالة على أن الواجب تعالى يقول لنبيه أن يسلي ويخبر أمته بما هو مزمع الوقوع وباستقامة دعائم أورشليم في آخر الزمان، وفي قوله ضعفان من العذاب إشارة إلى أنها كانت قد أخطأت فانتقم الله منها بما حدث عليها من الذل بعد المسيح عليه السلام في أيام تسلط الروم والنصارى عليها الى زمان محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبعد محمد ﷺ أيام تسلط العرب عليها وهي أيامنا هذه الى زمان ظهور القائم إن شاء الله تعالى، وبعد ذلك تستقيم دعائمها وتعمر رسومها.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن المهدي سينطلق إلى أورشليم ويصلي فيها ويجتمع هناك بالمسيح عليه السلام عند نزوله، ومن قوله: «هذا صوت صارخ إلى قوله نطق به» إشارة إلى يحيى بن زكريا عليه السلام لما كان يعظ بهذه الجملة على شاطيء شط الأردن وقوله: «وطئوا له في البادية سبيلاً مرتفعاً لا يدل على غير السبيل المستقيم من مكة إلى أورشليم البتة لأن أورشليم ليست في البادية وقوله فإن كل واد يريد به الجهال كأهل السواحل والارتفاع عبارة عن الصعود على ذروة طود الإيمان، وكل جبل وأكمة يشير به إلى الجبابرة من الفرس والروم، والاتضاع الانقياد إلى أوامر الدين الحنيف وسيعتدل المعوج إشارة إلى اليونانيين وحكماء الهند بقبول الشريعة الغراء لانحراف طبائعهم عن الانعطاف إلى اتباع النواميس الإلهية.

وقوله تلين الصعاب، كناية عن العرب لأنهم هم أقوى الناس جناناً، وأبعدهم إيماناً، وإلى ذلك اشار بقوله: ﴿ولو نزلناه على بعض الاعجمين﴾ الخ وقوله: «وسيشاهد مجد الله» أي المهدي والسين للاستقبال البعيد، والمعنى أنه إذا كملت جميع هذه الأمور، وبعث محمد ﷺ يظهر المهدي.

وقوله لأن فم الرب قد نطق به إشارة إلى وجوب وقوعه، ومن قوله: فقال الصوت اصرخ الخ ضرب من شديد التأكيد لوجوب وقوعه، فلا دلالة لشيء منه على مسيح اليهود الموهوم، اللهم إلا أن يريدوا بالمسيح نفس المهدي، فحينئذ يلزمهم الإعتراف بنبوة عيسى ومحمد ﷺ.

وأما إنه لا يدل على عيسى بن مريم فلأن سياقه في أشعياء قد مر بيانه ولا محتمل له غيره، ولأن لوقا لم يذكره مستدلاً به عليه، ولا قرينة هناك يؤول إليها الضمير، بل إنه جملة مستأنفة في أول الاصحاح، ومضمون الاصحاح على الاجمال أن لوقا أخبر أنه في زمان كذا جاء يحيى بن زكريا إلى البرية يصرخ ويقول كذا.

وهذا لا يدل على المسيح بن مريم بوجه من الوجوه، ولكنه يدل على بعثة محمد ﷺ وقيام المهدي لأن الجملة مستأنفة والقاعدة في المستأنفات أن تحمل على ما يناسبها فيكون ما ذكره لوقا ضرباً من التأكيد لكلام أشعياء عليه السلام لا غير.

فعليك أن تتامل في هذا البرهان فإنه في غاية اللطافة.

وفي متى ثم ضرب لهم مثلاً آخر وقال إن ملكوت الله تماثل حبة خردل أخذها رجل وزرعها في مزرعته وهي أصغر جميع الحبوب، فلما نمت صارت أعظم النباتات وأصبحت شجرة تأتي إليها طيور الجو، وتسكن في أغصانها انتهى.

وسياق هذا المثل أن المسيح كان جالساً على ساحل البحر فاجتمع عنده القوم فأخذ يضرب لهم الأمثال ومن جملتها هذا المثل، وقد أوله النصارى في حق من يكون محباً للمسيح مواظباً على عمل الخير، وهل فيه يا للرجال على هذا المعنى الضعيف دلالة ولا شك أنه من الأمثال التي كان يضربها المسيح عليه السلام في شأن محمد ﷺ.

وتأويل المثل أن الزارع هو الواجب تعالى والمزرعة الدنيا وحبة خردل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي أصغر جميع الحبوب على بادىء الرأي لأن جميع الأمم كانوا يستهزئون بالعرب لكونهم من أهل البادية وعدم رواج العلم في أماكنهم وعدم تنعمهم باللذات الجسمانية، واليهود كانوا يستحقرونهم لكونهم من أولاد هاجر، فقوله: «هي أصغر الحبوب» جملة حالية فلما نمت أي بلغ إلى رشده واستوفى من درجة الرسالة العامة أشُدَّه صارت أعظم النباتات أي صار أشرف الرسل وأكملهم لبقاء ملته إلى قيام القيامة، ولأنه لم يقلِّد ما قبله من الرسل الرِّسالةَ العامة اصبحت أي صارت شجرة تأتي إليها طيور الجو جملة حالية وقعت صفة الشجرة والمراد بطيور الجو الأمم الذين لم يقلدوا بغير الناموس وتسكن في أغصانها أي تطمئن تحت أحكام شريعته صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذه أحد عشر نصاً يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ولا يقدر أحد من أهل الكتاب على إنكار وجوده فيها، والبراهين على إثبات نبوة محمد ﷺ في الكتب القديمة السماوية من التوراة والإنجيل والزبور كثيرة جداً لا يسع بسطها هذا المقام، فإن شئت الاطلاع عليها فارجع إليها وإلى ما نقله الإسلاميون عنها في كتب الرد على النصارى.

وهذه الأدلة كلها لها دلالة صريحة على ما نطق به القرآن الكريم في هذه الآية أعني يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل وفي أمثالها وهذا مع تحريف تلك الكتب لفظاً أو معنى أو بكليهما.

وأما البشارات التي وردت في حقه ﷺ كما قال سبحانه وتعالى مشيراً إلى ذلك في قوله نقلاً عن عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ فهي كثيرة جداً ايضاً سنذكر بعضه تحت الآية الكريمة المذكورة إن شاء الله.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً﴾ لما تقدم ذكر اوصاف رسول الله ﷺ المكتوبة في التوراة والإنجيل، أمره سبحانه أن يقول هذا القول المقتضي لعموم رسالته إلى الناس والجن جميعاً لا كما كان غيره من الرسل عليهم السلام، فإنهم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة، قال ابن عباس: بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى الأسود والأحمر، والأحاديث الصحيحة الكثيرة في هذا المعنى مشهورة فلا نطيل بذكرها.

﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ ملكاً وعبيداً وتصرفاً وقوله ﴿لا إله إلا هو﴾ بدل من الصلة مقرر لمضمونها مبين لها لأن من ملك السموات والأرض وما فيهما هو الإله على الحقيقة، وهكذا من كان ﴿يحيي ويميت﴾ هو المستحق بتفرده بالربوبية ونفي الشركاء عنه، والجملة سيقت لبيان اختصاصه بالإلهية لأنه لا يقدر على الإحياء والإماته غيره، قاله الزمخشري وذكره السمين فلذا قال:

﴿فآمنوا﴾ والأمر بالإيمان ﴿بالله ورسوله﴾ متفرع على ما قبله وفي العدول عن المضمر إلى الاسم الظاهر بلاغة ﴿النبي الأمي﴾ هما وصفان لرسوله وكذلك ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ وصف له والمراد بالكلمات ما أنزله الله عليه وعلى الأنبياء من قبله أو آياته أو عيسى قاله مجاهد والسدي أو القرآن فقط قاله قتادة والعموم أولى.

وجملة ﴿واتبعوه﴾ مقررة لجملة فآمنوا به، والاتباع يعم الأقوال والأفعال والاعتقاد والأعمال ﴿لعلكم تهتدون﴾ علة للأمر بالإيمان والاتباع.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿ومن قوم موسى أمة﴾ لما قص الله سبحانه علينا ما وقع من السّامري وأصحابه وما حصل من بني إسرائيل من التزلزل في الدين، قص علينا سبحانه أن من قومه أمة مخالفة لأولئك الذين تقدم ذكرهم ووصفهم بأنهم ﴿يهدون﴾ أي يدعون الناس إلى الهداية حال كونهم متلبسين ﴿بالحق﴾ أو يهتدون به ويستقيمون عليه ويعملون به ويرشدون إليه ﴿وبه يعدلون﴾ بين الناس في الحكم أي بالحق يحكمون وبالعدل يأخذون ويعطون وبه يتصفون.

واختلفوا في هؤلاء فقيل هم القوم الذين بقوا على الدين الحق الذي جاء به موسى قبل التحريف والتبديل ودعوا الناس إليه، وقال الكلبي والضحاك والربيع: هم قوم خلف الصين بأقصى الشرق على نهر يسمى نهر الأردن ليس لأحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل، ويصحون في النهار ويزرعون ولا يصل إليهم أحد منا وهم على الحق إلى آخر القصة، وما ابعدها عن الصحة واقربها إلى الوضع، وقد ابتلى بذكرها جمع من المفسرين الذين ليس لهم معرفة بعلم الحديث.

وقيل هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ والقرآن.

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال موسى: يا رب أجد أمة أنا جيلهم في قلوبهم قال: تلك أمة تكون بعدك أمة أحمد، قال: يا رب

أجد أمة يصلون الخمس تكون كفارات لما بينهن، قال: تلك أمة تكون بعدك أمة أحمد، قال: يا رب أجد أمة يعطون صدقات أموالهم ثم ترجع فيهم فيأكلون قال: تلك أمة بعدك أمة أحمد قال: يا رب اجعلني من أمة أحمد ﷺ، فأنزل الله كهيئة المرضية لموسى ﴿ومن قوم موسى أمة﴾ الآية.

﴿وقطعناهم﴾ الضمير يرجع إلى قوم موسى المتقدم ذكرهم لا إلى هؤلاء الأمة منهم الذين يهدون بالحق، والمعنى صيرناهم ﴿اثنتي عشرة أسباطاً﴾ أي قطعاً متفرقة وفرقناهم معدودين بهذا العدد وميزنا بعضهم من بعض. وهذا من جملة ما قصه الله علينا من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل وانه ميز بعضهم من بعض حتى صاروا أسباطا كل سبط معروف على انفراده، لكل سبط نقيب كما في قوله تعالى: ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾.

والأسباط جمع سبط وهو ولد الولد صاروا اثني عشر أمة من اثني عشر ولداً، واراد بالأسباط القبائل ولهذا انث العدد، والمراد أولاد يعقوب لأن يعقوب هو إسرائيل وأولاده الأسباط وقد تقدم تحقيق معنى الأسباط في البقرة.

وسماهم ﴿أمماً﴾ لان كل سبط كان جماعة كثيرة العدد وكانوا مختلفي الأراء يؤم بعضهم غير ما يؤمه الآخر.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب قال: افترقت بنو اسرائيل بعد موسى إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة وافترقت النصارى بعد عيسى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة، ولتفترقن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة، فأما اليهود فإن الله يقول: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ فهذه التي تنجو، وأما النصارى فإن الله يقول: ﴿منهم أمة مقتصدة﴾ فهذه التي تنجو، وأما نحن فيقول: ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ فهذه التي تنجو من هذه

الأمة، وقد قدمنا ان زيادة كلها في النار لم تصح لا مرفوعة ولا موقوفة.

﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه﴾ أي وقت استسقائهم له لما أصابهم العطش في التيه ﴿أن﴾ تفسير لفعل الإيحاء ﴿اضرب بعصاك الحجر﴾ الذي فر بثوبه فضربه ﴿فانبجست﴾ الانبجاس الانفجار أي فانفجرت وقيل عرقت ﴿منه اثنتا عشرة عيناً﴾ بعدد الاسباط لكل سبط عين يشربون منها.

﴿قد علم كل أناس﴾ اسم جمع واحده انسان وقيل جمع تكسير له والإنسان اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والواحد والجمع، والأناس بالضم مشتق من الإنس وقد تحذف همزته تخفيفاً على غير قياس. فيصير ناساً ﴿مشربهم﴾ والمعنى علم كل سبط منهم بالعلم الضروري الذي خلقه الله في كلٍّ: العين المختصة به التي يشرب منها لا يدخل سبط على سبط في مشربهم، وقد تقدم في البقرة ما فيه كفاية مغنية عن الإعادة.

﴿وظللنا عليهم الغمام﴾ أي جعلناه ظللاً عليهم في التيه يسير بسيرهم ويقيم باقامتهم ويقيهم حرَّ الشمس ﴿وأنزلنا عليهم﴾ في التيه ﴿المن والسلوى﴾ أي الترنجبين والسُّمانى طعاماً لهم وقيل السلوى جنس من الطير وقد تقدم تحقيقه في البقرة ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي وقلنا لهم كلوا من المستلذات التي رزقناكم ﴿وما ظلمونا﴾ بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم وعدم تقديرها حق قدرها ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي كان ظلمهم مختصاً بهم مقصوراً عليهم لا يجاوزهم إلى غيرهم[1].

---

(١) ذكره القرطبي ١١٢/٦: وقال الربيع والسدي وغيرهما: إنما بعث النقباء من بني اسرائيل امناء على الاطلاع على الجبارين والسبر لقوتهم ومنعتهم، فساروا ليختبروا حال من بها، ويعلموه بما اطلعوا عليه فيها حتى ينظر في الغزو اليهم، فاطلعوا من الجبارين على قوة عظيمة - على ما يأتي - وظنوا انهم لا قبل لهم بها؛ فتعاقدوا بينهم على ان يخفوا ذلك عن بني اسرائيل، وان يعلموا به موسى عليه السلام، فلما انصرفوا الى بني اسرائيل خان منهم عشرة فعرفوا قراباتهم، ومن وثقوه على سرهم؛ ففشا الخبر حتى اعوج امر بني اسرائيل.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾

﴿وإذ قيل﴾ أي اذكر وقت أن قيل ﴿لهم﴾ هذا القول وهو ﴿اسكنوا هذه القرية﴾ أي بيت المقدس أو أريحاء، وقيل غير ذلك مما تقدم بيانه وفي البقرة ﴿ادخلوا هذه القرية﴾ ولا منافاة بينهما لأن كل ساكن في موضع لا بد له من الدخول إليه ﴿وكلوا منها﴾ أي من المأكولات الموجودة فيها من الثمار والزروع والحبوب والبقول ﴿حيث﴾ أي في أي مكان ﴿شئتم﴾ من أمكنتها لا مانع لكم من الأكل فيه.

وقال في البقرة فكلوا بالفاء لأن الدخول حالة مقتضية للأكل عقبه فحسن دخول الفاء للتعقيب، والسكنى حالة استمرار والأكل حاصل متى شاءوا ولم يقل رغداً هنا كما قال في البقرة لأن الأكل عقب الدخول ألذ وأكمل، ومع السكنى ليس كذلك.

﴿وقولوا حطة﴾ أي حط عنا ذنوبنا وقد تقدم تفسيرها في البقرة ﴿وادخلوا الباب﴾ أي باب القرية المتقدمة حال كونكم ﴿سجداً﴾ أمروا بأن يجمعوا بين قولهم حطة وبين الدخول ساجدين، فلا يقال كيف قدم الأمر بالقول هنا على الدخول وأخره في البقرة وقد تقدم معنى السجود الذي أمروا به ﴿نغفر لكم خطيآتكم﴾ أي ذنوبكم ولم نؤاخذكم بها، وإنما قال هنا خطيآتكم وفي البقرة خطاياكم لأن المقصود غفران ذنوبهم سواء كانت قليلة أو كثيرة إذا أتوا بالدعاء والتضرع ﴿سنزيد المحسنين﴾ على المغفرة للخطايا بما نتفضل به عليهم من النعم، وقال في البقرة ﴿وسنزيد﴾ بالواو لأن هنا استئنافاً على تقدير قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له سنزيد.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى
كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ
سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا
كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

﴿فبدّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم﴾ يعني أمروا أن يقولوا حطة فقالوا حنطة في شعيرة فكان ذلك تبديلهم، وتغييرهم ودخلوا يزحفون على أستاههم وأدبارهم، وقد تقدم بيان ذلك في البقرة، لكن ألفاظ هذه الآية تخالف الآية المذكورة في سورة البقرة من وجوه ثمانية ذكرها الخطيب وقد أشرنا إليها فيما تقدم.

﴿فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء﴾ أي عذاباً كائناً منها وهو الطاعون ومات به منهم في وقت واحد سبعون ألفا، وقال في البقرة ﴿أنزلنا﴾ ولا منافاة بينهما لأنهما لا يكونان إلا من أعلى إلى أسفل ﴿بما كانوا يظلمون﴾ أي بسبب ظلمهم، وقال في البقرة: ﴿بما كانوا يفسقون﴾ والجمع بينهما أنهم لما ظلموا أنفسهم بما غيروا وبدلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله تعالى.

﴿و﴾ اذكر إذ قيل لهم و﴿اسألهم عن القرية﴾ هذا سؤال تقريع وتوبيخ، والمراد من سؤال القرية سؤال أهلها أي اسألهم عن هذا الحادث الذي حدث لهم فيها المخالف لما أمرهم الله به، والأولى عدم تقدير المضاف كما سيأتي تحقيقه في سورة يوسف ان شاء الله تعالى.

وفي ضمن هذا السؤال فائدة جليلة وهي تعريف اليهود بأن ذلك مما يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وان اطّلاعه عليه لا يكون إلا باخبار له

من الله سبحانه فيكون دليلاً على صدقه.

واختلف أهل التفسير أي قرية هي؟ فقيل: أيلة قاله علي وقيل: مدين، وقيل: ايلياء، وقيل قرية بين مصر والمدينة والمغرب قاله ابن عباس، وقيل: بين مدين والطور على شاطيء البحر، وقال الزهري: هي طبرية الشام، وقال وهب: هي ما بين مدين وعيوني، وقيل قرية من قرى ساحل الشام.

﴿التي كانت حاضرة البحر﴾ أي التي كانت بقرب بحر القلزم يقال: كنت بحضرة الدار أي بقربها، والمعنى سل يا محمد صلى الله عليه وسلم هؤلاء اليهود الموجودين الذين هم جيرانك عن قصة أهل القرية المذكورة ﴿إذ يعدون﴾ أي يتجاوزون حدود الله بالصيد، وقرىء بتشديد الدال من الاعداد للآلة ﴿في﴾ يوم ﴿السبت﴾ الذي نهوا عن الاصطياد فيه، والسبت هو اليوم المعروف، وأصله السكون يقال سبت إذا سكن وسبت اليهود تركوا العمل في سبتهم، والجمع أسبت وسبوت وأسبات.

﴿إذ تأتيهم حيتانهم﴾ جمع حوت وأضيفت إليهم لمزيد اختصاص لهم بما كان منها على هذه الصفة من الإتيان ﴿يوم سبتهم﴾ دون ما عداه قال الضحاك: تأتيهم متتابعة يتبع بعضها بعضاً ﴿شرعاً﴾ جمع شارع أي: ظاهرة على الماء قريباً من الساحل، وقيل: رافعة رؤوسها، وقيل: إنها كانت تشرع على أبوابها كالكباش البيض، قال في الكشاف يقال شرع علينا فلان إذا دنا وأشرف علينا وشرعت على فلان في بيته فرأيته يفعل كذا انتهى.

﴿ويوم لا يسبتون﴾ أي لا يفعلون ولا يراعون أمر السبت وذلك عند خروج يوم السبت، والمعنى لا سبت ولا مراعاة ﴿لا تأتيهم﴾ الحيتان كما كانت تأتيهم في يوم السبت ﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك البلاء العظيم والاختبار الشديد ﴿نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ أي بسبب فسقهم.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾

﴿وإذ قالت أمة منهم﴾ أي جماعة من صلحاء أهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد في وعظ المتعدين في السبت حين أيسوا من قبولهم للموعظة واقلاعهم عن المعصية ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ أي مستأصل لهم بالعقوبة ﴿أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ بما انتهكوا من الحرمة وفعلوا من المعصية، وقيل إن الجماعة القائلة لم تعظون قوماً هم العصاة الفاعلون للصيد في يوم السبت، قالوا ذلك للواعظين لهم حين وعظوهم، والمعنى إذا علمتم أن الله مهلكنا كما تزعمون فلم تعظوننا.

﴿قالوا﴾ أي قال الواعظون للجماعة القائلين لهم لم تعظون وهم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الأول أو الفاعلون على الثاني أي فعلنا ذلك ﴿معذرة﴾ أي لأجل المعذرة أو موعظتنا معذرة على قراءة الرفع ﴿إلى ربكم﴾ حتى لا يؤاخذنا بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين أوجبهما علينا ولرجاء أن يتعظوا فيتقوا، ويقلعوا عما هم فيه من المعصية.

قال جمهور المفسرين إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق: فرقة عصت وصادت، وكانت نحو سبعين ألفا، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص، فقالت الطائفة التي لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية لم تعظون [قوماً] يريدون الفرقة العاصية [الله مهلكهم] أو معذبهم، قالوا ذلك على غلبة الظن لما جرت به عادة الله من إهلاك العصاة أو تعذيبهم من دون استئصال بالهلاك فقالت الناهية موعظتنا معذرة إلى الله ﴿ولعلهم يتقون﴾ ولو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية وعاصية لقال لعلكم تتقون.

فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً
خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ
سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي لما ترك العصاة من أهل القرية ما ذكرهم به الصالحون الناهون عن المنكر ترك الناسي للشيء المعرض عنه كلية الإعراض ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ أي الذين فعلوا النهي ولم يتركوه ﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ وهم العصاة المعتدون في السبت ﴿بعذاب بئيس﴾ أي شديد وجيع من:بؤس الشيء بأساً إذا اشتد، وفيه احدى عشرة قراءة للسبعة وغيرهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي بسبب فسقهم واعتدائهم وخروجهم عن طاعتنا.

قال ابن عباس: نجت الفرقة الساكتة، وقال يمان بن رباب: نجت الطائفتان وأهلك الذين أخذوا الحيتان وبه قال الحسن، وقال ابن زيد: نجت الناهية وهلكت الفرقتان، وهذه الآية أشد آية في ترك النهي عن المنكر.

﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ أي تجاوزوا الحد في معصية الله سبحانه وأبوا أن يرجعوا عنها تمرداً وتكبراً ﴿قلنا لهم كونوا﴾ أي أمرناهم امرا تكوينياً لا أمراً قولياً يعني مسخناهم ﴿قردة﴾ قيل إنه سبحانه عذبهم أولاً بسبب المعصية فلما لم يقلعوا مسخهم الله قردة، وقيل: إن قوله: فلما عتوا تكرير لقوله فلما نسوا ما ذكروا به للتأكيد والتقرير، وأن المسخ هو العذاب البئيس ﴿خاسئين﴾ الخاسىء الصاغر الذليل أو المباعد المطرود، يقال خسأته فخسىء أي باعدته فتباعد.

قال قتادة: لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى بعدما كانوا رجالاً ونساء، قيل صار شبان القوم قردة والمشيخة خنازير، وبقوا ثلاثة

أيام ينظر الناس أليهم ثم هلكوا جميعاً.

واعلم أن ظاهر النظم القرآني هو أنه لم ينج من العذاب إلا الفرقة الناهية التي لم تعص لقوله انجينا الذين ينهون عن السوء وأنه لم يعذب بالمسخ إلا الطائفة العاصية لقوله: ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ فإن كان الطوائف منهم ثلاثاً كما تقدم فالطائفة التي لم تنه ولم تعص يحتمل أنها ممسوخة مع الطائفة العاصية لأنها قد ظلمت نفسها بالسكوت عن النهي وعتت عما نهاها الله عنه من ترك النهي عن المنكر، ويحتمل أنها لم تمسخ لأنها وإن كانت ظالمة لنفسها عاتية عن أمر ربها ونهيه لكنها لم تظلم نفسها بهذه المعصية الخاصة وهي صيد الحوت في يوم السبت ولا عتت عن نهيه لها عن الصيد.

وأما إذا كانت الطائفة الثالثة ناهية كالثانية فهما في الحقيقة طائفة واحدة لاجتماعهما في النهي والاعتزال والنجاة من المسخ، وإنما جعلت طائفة مستقلة لأنها قد جرت المقاولة بينها وبين الطائفة الأخرى من الناهين المعتزلين.

﴿وإذ تأذن ربك﴾ أي واسألهم وقت تأذن ربك، تأذّن تفعل من الإيذان وهو الإعلام، قال أبو علي الفارسي: آذن بالمد أعلم وأذّن بالتشديد نادى، وقال قوم كلاهما بمعنى أعلم كما يقال أيقن وتيقن، وقيل معناه قال ربك وقيل حكم ربك، وقيل آلى ربك، وقال الزمخشري: عزم ربك، وقيل معناه حتم وأوجب والمعنى واسألهم وقت أن وقع الاعلام لهم من ربك.

وقيل في هذا الفعل معنى القسم كعلم الله وشهد الله، ولذلك أجيب كما يجاب به القسم حيث قال: ﴿ليبعثن﴾ أي ليرسلن ﴿عليهم﴾ ويسلطن كقوله: بعثنا عليهم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴿إلى يوم القيامة﴾ غاية لقوله: ﴿من يسومهم﴾ يذيقهم ﴿سوء العذاب﴾ مما يبعثه الله عليهم، وقد كانوا

أقمأهم الله هكذا أذلاء مستضعفين معذبين بأيدي أهل الملل.

وهكذا هم في هذه الملة الإسلامية في كل قطر من أقطار الأرض في الذلة المضروبة عليهم والعذاب والصغار يسلمون الجزية لحقن دمائهم ويمتهنهم المسلمون فيما فيه ذلة من الأعمال التي يتنزه عنها غيرهم من طوائف الكفار،

وعن ابن عباس قال: يسومهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته سوء العذاب اي الجزية والخراج، وقيل هو بختنصر وسنحاريب وملوك الروم، وهذا نص في ان العذاب، انما يحصل لهم مستمراً الى يوم القيامة، ولهذا فسر هذا العذاب بالإهانة والذلة واخذ الجزية منهم فإذا أفضوا إلى الآخرة كان عذابهم اشد وأعظم[1].

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ لمن أقام على الكفر يعاجل به في الدنيا كما وقع لهؤلاء ﴿وانه لغفور رحيم﴾ أي كثير الغفران والرحمة لمن آمن منهم ودخل في دين الإسلام.

(١) عن سعيد بن جابر، قال: ولم يجب الخراج بني قط الا موسى، جباه ثلاث عشرة سنة، ثم امسك النبي ﷺ وقال السدي: بعث الله عليهم العرب يأخذون منهم الجزية ويقتلونهم.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

﴿وقطعناهم في الأرض أمماً﴾ أي فرقناهم في جوانبها أو شتتنا أمرهم فلم تجتمع لهم كلمة، قال ابن عباس: هم اليهود بسطهم الله في الأرض فليس فيها بقعة إلا وفيها عصابة منهم وطائفة، وقيل المعنى وجعلنا كل فرقة منهم في قطر بحيث لا تخلو ناحية من الأرض منهم حتى لا تكون لهم شوكة، قاله أبو السعود فلا توجد بلدة كلها يهود، ولا لهم قلعة ولا سلطان بل هم متفرقون في كل الأماكن.

﴿منهم الصالحون﴾ قيل: هم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن مات قبل البعثة المحمدية غير مبدل، قال الطبري: وصفهم بذلك قبل ارتدادهم عن دينهم وكفرهم بربهم ويدل له قوله الآتي: فخلف من بعدهم خلف، وقيل: هم الذين سكنوا وراء الصين ولا يصح كما تقدم بيانه.

﴿ومنهم دون ذلك﴾ أي دون هذا الوصف الذي اتصفت به الطائفة الأولى وهو الصلاح والتقدير: ومنهم أناس أو قوم دون ذلك والمراد بهؤلاء من لم يؤمن بل انهمك في المخالفة لما أمره الله به.

﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾ أي امتحناهم جميعاً الصالح وغيره بالخير والشر، قال ابن عباس: الحسنات: الرخاء والعافية، والسيئات: البلاء والعقوبة أو الخصب والجدب ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي رجاء أن يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾

﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ المراد بهم أولاد الذين قطعهم الله في الأرض قال أبو حاتم: الخلف بسكون اللام الأولاد الواحد والجمع سواء، والخلف بفتح اللام البدل ولداً كان أو غيره، وقال ابن الأعرابي: الخلف بالفتح الصالح وبالسكون الطالح ومنه قيل للرديء من الكلام خلف بالسكون، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر والمعنى جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم خلف والخلف القرن الذي يجيء بعد قرن كان قبله.

﴿ورثوا الكتاب﴾ أي: التوراة من أسلافهم يقرأونها ولا يعملون بها، والمراد بإرثه: انتقاله إليهم ووقوعه في أيديهم ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أخبر الله عنهم بأنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم وقوة نهمتهم، والعرض بفتح الراء جميع متاع الدنيا كما يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، والعرض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير، والأدنى مأخوذ من الدنو وهو القرب أي يأخذون عرض هذا الشيء الأدنى وهو الدنيا يتعجلون مصالحها بالرشا وما هو مجعول لهم من السحت في مقابلة تحريفهم لكلمات الله وتهوينهم للعمل بأحكام التوراة وكتمهم لما يكتمونه منها.

وقيل إن الأدنى مأخوذ من الدناءة والسقوط أي أنهم يأخذون عرض الشيء الدنيء الساقط التافه الخسيس الحقير، والمعنى متقارب لأن الدنيا بأسرها

حقيرة فانية والراغب فيها أحقر منها.

وعن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية فقال: أقوام يقبلون على الدنيا فيأكلونها ويتبعون رخص القرآن ويقولون سيغفر لنا ولا يعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه، وقال مجاهد: هم النصارى يأخذون عرض هذا الأدنى ما أشرف لهم شيء من الدنيا حلالاً أو حراماً يشتهونه أخذوه ويتمنون المغفرة، وإن يجدوا مثله يأخذوه كما سيأتي.

﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ أي ويعللون أنفسهم بالمغفرة مع تماديهم في الضلالة وعدم رجوعهم الى الحق، ويتمنون على الله الأماني الباطلة الكاذبة والمراد بهذا الكلام التقريع والتوبيخ لهم، عن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[1]، أخرجه الترمذي، وكان اليهود يقدمون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا.

وهذا هو التمني بعينه والحال أنهم ﴿إن يأتهم﴾ كما يؤخذ من الكشاف، وقال السفاقسي أنه مستأنف ﴿عرض مثله يأخذوه﴾ أي مثل الذي كانوا يأخذونه أخذوه غير مبالين بالعقوبة ولا خائفين من التبعة، وقيل الضمير في يأتهم: ليهود المدينة أي: وإن يأت هؤلاء اليهود الذين هم في عصر محمد صلى الله عليه وآله وسلم عرض مثل العرض الذي كان يأخذه أسلافهم أخذوه كما أخذ أسلافهم.

﴿ألم يؤخذ عليهم﴾ أي على هؤلاء المرتشين في أحكامهم، والاستفهام للتقريع والتوبيخ أو للتقرير، فالمعنى أخذ عليهم الميثاق لأن القصد منه إثبات ما بعد النفي ﴿ميثاق الكتاب﴾ أي التوراة ﴿أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون إليها ولا يتوبون

(١) المستدرك كتاب الإيمان ١/ ٥٧.

منها قاله ابن عباس.

﴿و﴾ الحال أنهم قد ﴿درسوا ما فيه﴾ أي الكتاب وعلموه ولم يأتوه بجهالة فكان الترك منهم عن علم لا عن جهل، وذلك أشد ذنباً وأعظم جرماً وقيل معناه: محوه بترك العمل به والفهم له من قولهم درست الريح الآثار إذا محتها ﴿والدار الآخرة خير﴾ من ذلك العرض الذي أخذوه وآثروه عليها وارتشوا في الأحكام ﴿للذين يتقون﴾ الله ويخافون عقابه ويجتنبون معاصيه ﴿أفلا تعقلون﴾ فتعلمون بهذا وتفهمونه، وفي هذا الالتفات من التوبيخ والتقريع ما لا يقادر قدره.

﴿والذين يمسكون بالكتاب﴾ قرأ الجمهور بالتشديد من مسّك بالشيء وتمسك به أي استمسكوا بالكتاب وهو التوراة وقرىء بالتخفيف من أمسك مسك، والمعنى أن طائفة من أهل الكتاب لا يتمسكون بالكتاب ولا يعملون بما فيه مع كونهم قد درسوه وعرفوه وهم من تقدم ذكرهم، وطائفة يتمسكون بالكتاب أي التوراة ويعملون بما فيه ويرجعون إليه في أمر دينهم فهم المحسنون الذين لا يضيع أجرهم عند الله وقال عطاء: هم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي داموا على إقامتها في مواقيتها، قال الحسن: هي لأهل الإيمان منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وقال مجاهد: هي لليهود والنصارى وإنما وقع التنصيص على الصلاة مع كونها داخلة في سائر العبادات التي يفعلها المتمسكون بالتوراة لأنها رأس العبادات وأعظمها وعماد الدين وناهية عن الفحشاء والمنكر وكان ذلك وجهاً لتخصيصها بالذكر، وقيل لأنها تقام في أوقات مخصوصة والتمسك بالكتاب مستمر فذكرت لهذا وفيه نظر، فإن كل عبادة في الغالب تختص بوقت معين ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ الجملة خبر الذين وفيه وضع الظاهر موضع المضمر.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢)﴾

﴿وإذ﴾ أي اسألهم إذ والغرض من هذا إلزام اليهود والرد عليهم في قولهم: إن بني إسرائيل لم يصدر منهم مخالفة في الحق ﴿نتقنا﴾ النتق اختلفت فيه عبارات أهل اللغة فقال أبو عبيدة: هو قلع الشيء من موضعه والرمي به ومنه نتق ما في الجراب إذا نفضه فرمى ما فيه، وامرأة ناتق ومنتاق إذا كانت كثيرة الولادة، وفي الحديث: «عليكم بزواج الأبكار فإنهن أنتق أرحاماً وأطيب أفواهاً، وأرضى باليسير»(١)، وقيل النتق الجذب بشدة ومنه نتقت السقاء إذا جذبته بشدة لتقلع الزبدة من فمه، وقال الفراء: هو الرفع، وقال ابن قتيبة هو الزعزعة وبه فسر مجاهد.

وكل هذه معان متقاربة أي رفعنا ﴿الجبل﴾ من أصله وهو الطور الذي سمع موسى عليه كلام ربه وأعطي الألواح وقيل هو جبل من جبال فلسطين وقيل هو الجبل عند بيت المقدس وكان ارتفاعه على قدر قامتهم، فكان محاذياً لرؤوسهم كالسقيفة ﴿فوقهم كأنه﴾ لارتفاعه ﴿ظلة﴾ أي سحابة تظلهم وهي اسم لكل ما أظل، وقال البيضاوي: كأنه سقيفة وهي كل ما أظلك وقرىء طلة بالطاء من أطل عليه إذا أشرف.

﴿وظنوا﴾ قيل الظن هنا بمعنى العلم وقيل هو على بابه ﴿أنه﴾ أي الجبل ﴿واقع بهم﴾ أي ساقط عليهم ﴿خذوا﴾ أي قلنا لهم خذوا ﴿ما آتيناكم بقوة﴾ هي الجد والعزيمة أي أخذاً كائناً بقوة واجتهاد، قال ابن عباس: أي خذوا ما

(١) صحيح الجامع الصغير ٣٩٣٢.

آتيناكم وإلا أرسلته عليكم ورفعته الملائكة فوق رؤسهم فكانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا سمعنا وأطعنا، وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا سمعنا وعصينا.

وعنه قال: إني لأعلم لم يسجد اليهود إلا على حرف قال الله وإذ نتقنا الجبل قال لتأخذن أمري أو لأرمينكم به فسجدوا وهم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم وكانت سجدة رضيها الله سبحانه فاتخذوها سنة، وقال قتادة في الآية انتزعه الله من أصله ثم جعله فوق رؤوسهم فسجد كل واحد منهم على خده وحاجبه الأيسر وجعل ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفاً أن يسقط عليه، ولذلك لا تسجد اليهود إلا على شق وجوههم الأيسر.

﴿واذكروا ما فيه﴾ من الأحكام التي شرعها الله لكم ولا تنسوها ﴿لعلكم تتقون﴾ أي رجاء أن تتقوا ما نهيتم عنه وتعملوا بما أمرتم به، وقد تقدم تفسير ما هنا في البقرة مستوفى فلا نعيده.

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ وكذا من آدم فالأخذ منه لازم للأخذ منهم لأن الأخذ منهم بعد الأخذ منه، ففي الآية الاكتفاء باللازم عن الملزوم ﴿من ظهورهم﴾ بدل اشتمال مما قبله بإعادة الجار، قاله الكواشي، والذي في الكشاف أنه بدل بعض من كل، قال الحلبي: وهو الظاهر وإيثار الأخذ على الإخراج للاعتناء بشأن المأخوذ لما فيه من الإنباء عن اختيار الاصطفاء وهو السبب في إسناده إلى الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي وإضافته إلى ضميره عليه السلام للتشريف.

﴿ذريتهم﴾ هي تقع على الواحد والجمع، واستدل بهذا على أن المراد بالمأخوذين هنا هم ذرية بني آدم أخرجهم الله من أصلابهم نسلاً بعد نسل على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء فلذلك قال من ظهورهم ولم يقل من ظهر آدم لما علم أنهم كلهم بنو آدم، وقد ذهب إلى هذا جماعة من المفسرين وقالوا معنى ﴿وأشهدهم على أنفسهم﴾ دلهم بخلقه على أنه خالقهم فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد فتكون هذه الآية من باب التمثيل كما في قوله تعالى فقال لها

وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين وبه قال الشيخ أبو منصور والزجاج والزمخشري.

وقيل المعنى أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد وأنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه، وقيل المراد ببني آدم هنا نفسه كما وقع في غير هذا الموضع، والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد وهؤلاء هم عالم الذر وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه ولا المصير إلى غيره لثبوته مرفوعاً إلى النبي ﷺ وموقوفاً على غير واحد من الصحابة ولا ملجىء للمصير إلى المجاز، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

وقد ذكر البيضاوي والنسفي القولين وكذا الرازي وأبو السعود وغيرهما من المفسرين الذين مستهم الفلسفة، والحق ما ذكرناه وإليـه ذهب جمهور المفسرين.

وقد أخرج مالك في الموطأ وأحمد في المسند وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات والضياء في المختارة عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسأل عنها فقال: إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهـره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل فقال: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال

أهل النار فيدخله النار»[١].

ومسلم بن يسار[٢] لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الاسناد بين مسلم بن يسار وعمر بن الخطاب رجلاً قال البغوي: قلت ذكر الطبري في بعض طرق هذا الحديث الرجل فقال عن مسلم بن يسار عن يعمر بن ربيعة عن عمر عن النبي ﷺ بنحوه، وفي الباب عن أبي هريرة يرفعه عند الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وفيه قصة اعطاء آدم ابنه داود أربعين سنة من عمره.

واختلف الناس في كيفية الاستخراج على أقوال لا مستند لها والحق وجوب اعتقاد اخراجها من ظهر آدم كما شاء الله تعالى كما ورد في الصحيح، قال المقبلي في الابحاث المسددة ولا يبعد دعوى التواتر المعنوي في الاحاديث والروايات الواردة في ذلك، وقال بعضهم الظاهر أنه استخرجهم أحياء لأنه سماهم ذرية والذرية هم الاحياء لقوله: ﴿انا حملنا ذريتهم في الفلك﴾ قال ابن عباس: إن أول ما أهبط الله آدم إلى الأرض أهبطه بدهناء أرض الهند فمسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو بارئها إلى يوم القيامة ثم أخذ عليهم الميثاق واشهدهم على أنفسهم أي أشهد كل واحد منهم.

﴿ألست بربكم﴾ أي قائلاً هذا فهو على إرادة القول، وفي هذه الآية رد على أهل المعاني في قولهم: إن الإغراق غير مقبول ما لم يقارن كاد، ونحو هذا مما شهد به الذوق السليم وزكّى شهادته الطبع المستقيم.

قال الشهاب في الريحانة: وهذا وان سلمه علماء المعاني والبيان إلا أنه محتاج إلى الإيضاح والبيان فإنه يعترض عليه بما يعارضه ويكدره ورود ما يناقضه كقوله عز وجل هذا. فإنه بمعناه إذ إخراج الذرية من الظهور قبل الخلق والظهور وأخذ المواثيق والعهود مما يقتضي الترغيب والترهيب، وهذا على سبيل

(١) ضعيف الجامع الصغير ١٦٠٢.

(٢) راوي الحديث عن عمر.

التحقيق دون التخييل والتقدير.

وقد ذكر هذا في حديث الصحيحين المعلوم عند علماء الحديث ولهم فيه طريقان مشهوران وهو مما خفي على كثير من العلماء ولهم فيه كلام محتاج للإيضاح فأقول لعلماء التفسير فيه طريقان.

(الأول) إنه من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وعلى هذا لا يبقى فيه اشكال، ولا للبحث عنه مجال.

(الثاني) إن له معنى جليلاً قام عليه أقوى برهان ودليل، فمنهم من ذهب إلى أنه استعارة وتمثيل نزّل فيه وضوح الادلة القائمة على توحيده تعالى وصحة أحكام الشريعة المركوزة في الفطرة السليمة منزلة بروزهم في الخارج، وأخذ العهود منزلة اتباع ما ذكر وتسليمه والعمل بمقتضاه، فلا يرد عليه شيء مما ذكر.

ونحن نقول:إن الأمر الذي وقع فيه المبالغة لا يخلو إما أن يقع بعد زمان بعيد كالساعة أو لا يقع، وهو إما محال متعذر الوقوع له نظائر ومشابه أو لا، الأول مقبول لتنزيل المتحقق الوقوع منزلة الواقع، وكذا الثاني لإمكان أن يراد مجاز أو كناية والأخير هو محل الكلام، والذي عليه أهل المعاني أنه مردود ما لم يقترن به مسوغ مثل كاد ونحوها، والآية ليست من هذا القبيل لإسنادها لله الذي أبرز المعدومات من أرحام العدم، ولا يقتضي قدرته شيء في القدم، فما علينا إلا الإيمان بذلك، وما لم تصل له أفهامنا نكله إليه ونسأله أن يهدينا للوقوف عليه، وكفى هذا الاحتمال في مثل هذه الحال، وما بعد الهدى إلا الضلال انتهى.

﴿قالوا بلى شهدنا﴾ أي على أنفسنا بأنك ربنا، واختلفوا في الاجابة هذه كيف كانت هل كانوا أحياء فأجابوا بلسان المقال، أو أجابوه بلسان الحال

والظاهر الأول ونكل علم كيفيتها إلى الله سبحانه، وكان هذا القول على وفق السؤال لأنه تعالى سألهم عن تربيتهم ولم يسألهم عن إلههم فقالوا بلى فلما انتهوا إلى زمان التكليف وظهر ما قضى الله في سابق علمه لكل أحد منهم من وافق ومنهم من خالف قاله أبو طاهر القزويني.

وقيل تجلى للكفار بالهيبة وللمؤمنين بالرحمة، فقال كلهم بلى، قيل وكان ذلك قبل دخول آدم الجنة بين مكة والطائف قاله الكلبي، وقيل بعد الهبوط منها، وقال علي في الجنة وقيل بسرانديب من أرض الهند، وهو الموضع الذي هبط آدم فيه من الجنة، وكل ذلك محتمل، ولا يضرنا الجهل بالمكان بعد صحة الاعتقاد بأخذ العهد والله أعلم.

أخرج أحمد والنسائي وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه كالذر، ثم كلمهم فقال: ألست بربكم إلى قوله. المبطلون»، واسناده لا مطعن فيه[1].

وأخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذي والطبراني وأبو الشيخ عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء فأخذ أهل اليمين بيمينه وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى وكلتا يدي الرحمن يمين فقال يا أصحاب اليمين فاستجابوا له، فقالوا لبيك ربنا وسعديك قال ألست بربكم قالوا بلى، الحديث».

والاحاديث في هذا الباب كثيرة بعضها مقيد بتفسير هذه الآية وبعضها مطلق يشتمل على ذكر اخراج ذرية آدم من ظهره وأخذ العهد عليهم كما في

(١) صحيح الجامع الصغير ١٦٩٧.

حديث أنس مرفوعا في الصحيحين وغيرهما، وأما المروي عن الصحابة في تفسير هذه الآية باخراج ذرية آدم من صلبه في عالم الذر وأخذ العهد عليهم واشهادهم على أنفسهم فهي كثيرة جداً، وقد روي عن جماعة ممن بعد الصحابة تفسير هذه الآية باخراج ذرية آدم من ظهره، وفيما قاله رسول الله ﷺ في تفسيرها مما قدمنا ذكره ما يغني عن التطويل.

وقال أهل الكلام والنظر قولهم: بلى شهدنا على المجاز لا على الحقيقة، وهو خلاف مذهب جمهور المفسرين من السلف، قال ابن الانباري: مذهب أصحاب الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم صور كالذر واخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم، وأنهم مصنوعه، فاعترفوا بذلك وقبلوه وذلك بعد أن ركب فيهم عقولاً عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبال عقولاً حتى خوطبوا بقوله: ﴿يا جبال أوّبي معه﴾ وكما جعل للبعير عقلاً حتى سجد للنبي ﷺ وكذلك الشجرة حتى سمعت لأمره وانقادت.

وقولهم: شهدنا إقرار له بالربوبية وكلام مستأنف وقيل شهدنا على أنفسنا بهذا الاقرار وليس في الآية ما يدل على بطلان ما ورد في الأحاديث، وقد ورد الحديث بثبوت ذلك وصحته فوجب المصير إليه والاخذ به جميعاً بينهما، وحكى الواحدي عن صاحب النظم أنه قال ليس بين قوله ﷺ إن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله تعالى لأنه تعالى إذا أخرجهم من ظهر آدم فقد أخرجهم من ظهور ذريته، لأن ذرية آدم كذرية بعضهم من بعض.

فإن قيل إذا سبق لنا عهد وميثاق مثل هذا فلأي شيء لا نذكره اليوم، والجواب على ما ذكره سليمان الجمل إنا لم نتذكر هذا العهد لأن تلك البنية قد انقضت وتغيرت أحوالها بمرور الدهور عليها في أصلاب الأباء وأرحام

الأمهات وتطور الأطوار الواردة عليها من العلقة والمضغة واللحم والعظم، وهذا كله مما يوجب النسيان.

وكان علي بن أبي طالب يقول إني لأذكر العهد الذي عهد إليّ ربي، وكذا كان سهل بن عبدالله التستري يقول اهـ.

قلت: وكذا روي عن الشيخ نظام الدين الدهلوي المعروف بسلطان الأولياء ثم ابتدأهم بالخطاب على ألسنة الرسل وأصحاب الشرائع فقام ذلك مقام الذكر، ولو لم ينسوه لانتفت المحنة والتكليف، ولم يبلغنا في كون تلك الذرات مصورة بصورة الإنسان دليل، والأقرب للعقول عدم الاحتياج إلى كونها بصورة الإنسان إذ السمع والنطق لا يفتقران إلى الصورة بل يقتضيان محلا حياً لا غير، ويحتمل أن يكونوا مصورين بصورة الإنسان لقوله تعالى: ﴿من ظهورهم ذرياتهم﴾ ولم يقل ذراتهم ولفظ الذرية يقع على المصورين.

والحكمة في أخذ الميثاق منهم إقامة الحجة على من لم يوف بذلك العهد، والظاهر أنه لما ردهم إلى ظهره قبض أرواحهم، وأما أن الأرواح أين رجعت بعد رد الذرات إلى ظهره فهذه مسألة غامضة لا يتطرق إليها النظر العقلي بأكثر من أن يقال رجعت لما كانت عليه قبل حلولها في الذرات.

وورد أن كتاب العهد والميثاق مودع في باطن الحجر الأسود، ذكره الشعراني في رسالته [القواعد الكشفية في الصفات الإلهية] وذكر فيها على هذه الآية اثني عشر سؤالاً وأجاب عنها، والحق عندي إن كل ما لم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة فإطواؤه على غرة أولى وترك الخوض فيه أحرى.

﴿أن تقولوا﴾ أي كراهة أن أو لئلا تقولوا ﴿يوم القيامة إنا كنا عن هذا﴾ أي عن كون الله ربنا وحده لا شريك له ﴿غافلين﴾

أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ
ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾

﴿او تقولوا إنما أشرك آباؤنا﴾ أي فعلنا ذلك كراهة ان تعتذروا بالغفلة او تنسبوا الشرك الى آبائكم دونكم وأو لمنع الخلو دون الجمع فقد يعتذرون بمجموع الأمرين ﴿من قبل﴾ أي قبل زماننا ﴿وكنا ذرية من بعدهم﴾ أي أتباعاً لهم فاقتدينا بهم في الشرك لا نهتدي إلى الحق ولا نعرف الصواب ﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ من آبائنا ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر واقتفائنا آثار سلفنا.

بيّن الله سبحانه في هذه الآية الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم وأنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة ويعتلوا بهذه العلة الباطلة ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة ففي هذه الآية قطع لعذر الكفار فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل ذلك.

وقال أهل النظر: المراد منه مجرد نصب الدلائل وإظهارها للعقول، والحق هو الأول والمعنى لا يمكنهم الاحتجاج بذلك مع إشهادهم على أنفسهم بالتوحيد والتذكير به على لسان صاحب المعجزة قائم مقام ذكره في النفوس.

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك التفصيل البليغ ﴿نفصل الأيات﴾ لهم ليتدبروها ﴿ولعلهم يرجعون﴾ إلى الحق ويتركون ما هم عليه من الباطل وقيل يرجعون إلى الميثاق الأول فيذكرونه ويعملون بموجبه ومقتضاه والمآل واحد.

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾ وهي علوم الكتب القديمة والتصرف بالاسم الأعظم فكان يدعو به حيث شاء فيجاب بعين ما طلب في

الحال، وإيراد هذه القصة منه سبحانه وتذكير أهل الكتاب بها لأنها كانت مذكورة عندهم في التوراة.

وقد اختلف في هذا الذي أوتي الآيات فقيل هو بلعم بن باعوراء، قاله ابن عباس، وفي لفظٍ بلعام بن باعر الذي أوتي الإسم الأعظم، كان في بني إسرائيل وبه قال مجاهد، وكان قد حفظ بعض الكتب المنزلة.

وقيل كان قد أوتي النبوة، وكان مجاب الدعوة بعثه الله إلى مدين يدعوهم إلى الإيمان فاعطوه الأعطية الواسعة فاتبع دينهم وترك ما بعث به فلما أقبل موسى في بني إسرائيل لقتال الجبارين، سأل الجبارون بلعم بن باعوراء أن يدعو على موسى فقام ليدعو عليه فتحول لسانه بالدعاء على أصحابه فقيل له في ذلك فقال لا أقدر على أكثر مما تسمعون، واندلع لسانه على صدره فقال: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة وسأمكر لكم وإني أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم فإن الله يبغض الزنا فإن وقعوا فيه هلكوا فوقع بنو إسرائيل في الزنا فأرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً.

وقيل إن هذا الرجل اسمه باعم وهو من بني إسرائيل، وقيل من الكنعانيين من بلد الجبارين وقال مقاتل: هو من مدينة البلقاء وقال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم بن آبر، والقصة ذكرها جماعة من المفسرين وفيها أن موسى دعا على بلعام بأن ينزع عنه الإسم الأعظم والإيمان.

ولا يصح ذلك من غير نظر فيه ولا بحث.

وقيل المراد به أمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك فلما أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم حسده

وكفر به، قاله عبدالله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم، وقيل: هو أبو عامر بن صيفي، وكان يلبس المسوح في الجاهلية فكفر بمحمد ﷺ.

وكانت الأنصار تقول هو ابن الراهب الذي بنى له مسجد الشقاق، وقيل: نزلت في البسوس رجل من بني إسرائيل قاله ابن عباس وقيل: نزلت في منافقي أهل الكتاب قاله الحسن وابن كيسان وقيل نزلت في قريش آتاهم الله آياته التي أنزلها على محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكفروا بها، وقيل: نزلت في اليهود والنصارى انتظروا خروج محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكفروا به.

وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى ولم يقبله، قيل والمراد بالآيات اسم الله الأكبر قاله ابن عباس، وقال ابن زيد: كان لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه قال السدي: كان يعلم اسم الله الأعظم، وقيل إنه أوتي كتاباً وقيل إن الله آتاه حجة وأدلة[1].

﴿فانسلخ منها﴾ كما تنسلخ الحية والشاة عن جلدها فلم يبق له بها اتصال، وقال ابن عباس: نزع منه العلم والانسلاخ التعري من الشيء، وليس في الآية قلب إذ لا ضرورة تدعو إليه وإن زعمه بعضهم وأن أصله فانسلخت منه.

﴿فأتبعه الشيطان﴾ عند انسلاخه عن الآيات أي لحقه فأدركه وصار قريناً له أو فأتبعه خطواته وصيره تابعاً لنفسه وقيل أتبعه بمعنى استتبعه ﴿فكان من الغاوين﴾ أي المتمكنين في الغواية وهم الكفار.

---

(١) راجع فقه اسم الله الاعظم في زاد المسير ٣/٢٨٨.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ
ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ
وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

﴿ولو شئنا﴾ رفعه بما آتيناه من الآيات ﴿لرفعناه بها﴾ أي بسببها إلى منازل العلماء ولكن لم نشأ ذلك لانسلاخه عنها وتركه للعمل بها، وقيل: المعنى لو شئنا لأمتناه قبل أن يعصي فرفعناه إلى الجنة بها أي بالعمل بها قاله ابن عباس وقال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات.

﴿ولكنه أخلد﴾ أصل الاخلاد اللزوم يقال أخلد فلان بالمكان إذا أقام به ولزمه، والمعنى هنا أنه مال وسكن إلى الدنيا ورغب فيها ورضي بها واطمأن وآثرها على الآخرة ﴿إلى الأرض﴾ هي هنا عبارة عن الدنيا لأن بها المفاوز والقفار والمدن والضياع والمعادن والنبات، ومنها يستخرج ما يعاش به في الدنيا فالدنيا كلها هي الأرض.

﴿واتبع هواه﴾ أي ما يهواه وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله وهو حطام الدنيا وقيل كان هواه مع الكفار وقيل: اتبع رضاء زوجته وكانت هي التي حملته على الانسلاخ من آيات الله، وهذه الآية من أشد الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس ويتبعون الهوى.

﴿فمثله كمثل الكلب﴾ أي وصار لما انسلخ عن الآيات ولم يعمل بها منحطاً إلى أسفل رتبة مشابهاً لأخس الحيوانات في الدناءة مماثلاً له في أقبح أوصافه ﴿إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ أي في كلتا حالتي قصد

الانسان له وتركه هو لاهث سواء زجر أو ترك، طرد أو لم يطرد، شد عليه أو لم يشد، وليس بعد هذا في الخسة والدناءة شيء.

والمعنى مثله كمثل الكلب حال كونه متصفاً بهذه الصفة أي: إن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوي عن المعصية في جميع أحواله سواء وعظه الواعظ وذكره المذكر وزجره الزاجر أو لم يقع شيء من ذلك، قال القتيبي: كل شيء يلهث فانما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فانه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة وحال الري وحال العطش فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته فقال ان وعظته ضل وان تركته ضل فهو كالكلب إن تركته لهث وإن طردته لهث كقوله تعالى: ﴿وان تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾.

واللهث: إخراج اللسان لتعب أو عطش أو غير ذلك قاله الجوهري قيل معنى الآية إنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هارباً وإن تركته شد عليك ونبح فيتعب نفسه مقبلاً عليك ومدبراً عنك فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان، يقال لهث الكلب يلهث إذا أدلع لسانه.

﴿ذلك﴾ أي التمثيل بتلك الحالة الخسيسة ﴿مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ من اليهود بعد أن علموا بها وعرفوها فحرفوا وبدلوا وكتموا صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكذبوا بها، وقيل عم هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها وهو الحق لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿فاقصص القصص﴾ الذي هو صفة الرجل المنسلخ عن الآيات عليهم فان مثل المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين نقص عليهم ﴿لعلهم يتفكرون﴾ في ذلك ويعملون فيه افهامهم فينزجرون عن الضلال ويقبلون على الصواب، وقيل هذا المثل لكفار مكة ولا وجه لتخصيصه بفرد دون فرد والأولى هو العموم.

﴿ساء مثلاً﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان حال هؤلاء القوم البالغة في القبح إلى الغاية يقال ساء الشيء قبح فهو لازم وساءه يسوءه مساءة فهو متعد وهو من افعال الذم كبئس والمخصوص بالذم ﴿القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ أي ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم لا يتعداها ظلمهم إلى غيرها ولا يتجاوزها، وقيل المعنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم وهذا أفيد.

﴿من يهدي الله﴾ أي يرشده إلى دينه أو يتول هدايته ﴿فهو المهتدي﴾ لما أمر به وشرعه لعباده ﴿ومن يضلل﴾ أي يتول ضلالته ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ الكاملون في الخسران من هداه فلا مضل له ومن أضله فلا هادي له ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

أخرج مسلم والنسائي وابن ماجة وابن مردوية والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر بن عبدالله قال: كان رسول الله ﷺ في خطبته يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول: من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، ثم يقول بعثت أنا والساعة كهاتين(١).

فلو كان الهدى من الله البيان كما قالت المعتزلة لاستوى الكافر والمؤمن إذ البيان ثابت في حقهما فدل انه من الله التوفيق والعصمة والمعونة ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن.

---

(١) مسلم /٨٦٧.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

﴿ولقد ذرأنا لجهنم﴾ أي خلقنا للتعذيب بها خلقاً ﴿كثيراً من﴾ طائفتي ﴿الجن والإنس﴾ جعلهم سبحانه للنار بعدله وبعمل أهلها يعملون وقد علم ما هم عاملون قبل كونهم كما ثبت في الأحاديث الصحيحة.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن النجار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ان الله لما ذرأ لجهنم من ذرأ كان ولد الزنا ممن ذرأ لجهنم، وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: ان الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم[2]، أخرجه مسلم.

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ شيئاً من أمور الآخرة، جعل سبحانه قلوبهم لما كانت غير فاقهة لما فيه نفعهم ورشادهم غير فاقهة مطلقاً، وإن كانت تفقه في غير ما فيه النفع والرشاد فهو كالعدم والفقه في اللغة الفهم والعلم بالشيء يقال فقه الرجل فهو فقيه إذا فهم، وهكذا معنى ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ طريق الهدى والحق ﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ الحق فان الذي انتفى من الأعين هو إبصار ما فيه الهداية بالتفكر والاعتبار وإن كانت مبصرة في غير ذلك، والذي انتفى من الآذان هو سماع المواعظ النافعة والشرائع التي اشتملت عليها الكتب المنزلة وما جاءت به رسل الله عليهم الصلاة والسلام وإن كانوا يسمعون غير ذلك.

---

(٢) مسلم /٢٦٦٢.

﴿أولئك﴾ المتصفون بهذه الأوصاف ﴿كالأنعام﴾ أي البهائم في انتفاء انتفاعهم بهذه المشاعر مع وجودها فيهم، والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ثم جعلهم شراً من الأنعام فقال: ﴿بل هم أضل﴾ أي حكم عليهم بأنهم أضل منها لأنها تدرك بهذه الأمور ما ينفعها ويضرها فتنتفع بما ينفع وتجتنب ما يضر وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضر باعتبار ما طلبه الله منهم وكلفهم به بل يقدمون على النار معاندة ﴿أولئك هم الغافلون﴾ حكم عليهم بالغفلة الكاملة لما هم عليه من عدم التميز الذي هو من شأن من له عقل وبصر وسمع.

﴿ولله الأسماء﴾ ذكر ذلك في أربع سور في القرآن: أولها هذه السورة، وثانيها في آخر بني إسرائيل، وثالثها في أول طه، ورابعها في آخر الحشر، وهذه الآية مشتملة على الإخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل، و﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن أي التي هي أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول، وقيل الحسنى مصدر وصف به كالرجعى وأفرده كما أفرد وصف ما لا يعقل.

وقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وأبو عوانة وابن جبير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مَنْده وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ان لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة أنه وتر يحب الوتر[1]، وفي لفظ ابن مردويه وأبي نعيم من دعا بها استجاب الله دعاءه، وزاد الترمذي في سننه بعد قوله يحب الوتر هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، إلى قوله الصبور، وهي معروفة، هكذا أخرج الترمذي هذه الزيادة عن أبي هريرة مرفوعة وقال هذا حديث غريب، وقد روي من غير وجه

(١) مسلم /٢٦٧٧.

عن أبي هريرة ولا يعلم في كثير شيء من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث.

قال ابن كثير في تفسيره والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء مدرج في هذا الحديث وأنهم جمعوها من القرآن، ثم قال: ليعلم ان الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين بدليل ما رواه أحمد في مسنده عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ انه قال:[ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم اني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك،الحديث..] وقدأخرجه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه بمثله انتهى[1].

وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات قال النووي:. اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وليس معناه انه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما المقصود أن من أحصاها دخل الجنة فالمراد الاخبار عن دخول الجنة باحصائها لا الاخبار بحصر الأسماء انتهى.

قال ابن حزم جاءت في إحصائها يعني الأسماء الحسنى أحاديث مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً وقد أخرجها بهذا العدد الذي أخرجه الترمذي ابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا: قال رسول الله ﷺ: فذكراه ولا أدري كيف اسناده.

وعن أبي جعفر محمد بن الصادق قال: هي في القرآن ثم سردها سورة فسورة.

---

(١) ابن كثير ٢/٢٦٩.

وقد ذكر ابن حجر في التلخيص أنه تتبعها من الكتاب العزيز إلى أن حررها منه تسعة وتسعين ثم سردها ويؤيد هذا ما أخرجه أبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لله تسعة وتسعون اسماً من أحصاها دخل الجنة وهي في القرآن.

وقد أطال أهل العلم الكلام على الأسماء الحسنى حتى أن ابن العربي في شرح الترمذي حكى عن بعض أهل العلم أنه جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، ومعنى أحصاها حفظها، قاله البخاري وبه قال أكثر المحققين ويعضده الرواية الأخرى من حفظها دخل الجنة، وقيل العدد أي عدها في الدعاء بها وقيل المعنى من أطاقها وأحسن المراعاة لها وقيل أحضر بباله عند ذكرها معناها وتفكر في مدلولها والأول أولى، وقد ذكر الرازي في هذا المقام بحثاً في أن الإسم عين المسمى أو غيره وهو مما لم يكلف الله به عباده.

وفي قوله: ﴿فادعوه بها﴾ دليل على أن أسماء الله سبحانه توقيفية لا اصطلاحية والمعنى سموه به وأجروها عليه واستعملوها فيه دعاء ونداء وغير ذلك فلا تسموه بغيرها مما لم يرد إطلاقه عليه تعالى، أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة فإنه إذا دعي بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة.

﴿وذروا الذين يلحدون﴾ الإلحاد الميل والانحراف وترك القصد، يقال لحد الرجل في الدين وألحد إذا مال، ومنه اللحد في القبر لأنه في ناحيته قال ابن عباس: الإلحاد التكذيب، وقال عطاء: هو المضاهاة، وقال الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها وقال قتادة: يشركون.

والإلحاد ﴿في أسمائه﴾ سبحانه يكون على ثلاثة أوجه.

إما بالتغيير كما فعله المشركون فإنهم أخذوا اسم اللات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنان قاله ابن عباس ومجاهد.

أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها قال أهل المعاني: هو تسميته بما لم يسم به نفسه ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة، لأن أسماءه كلها توقيفية فلا يجوز فيها غير ما ورد في الشرع بل يدعوه بأسمائه التي وردت في الكتاب والسنة على وجه التعظيم(١).

أو بالنقصان منها بأن يدعوه ببعضها دون بعض ولا يسميه باسم لا يعرف معناه ولا باسم فيه من الغرابة والمعنى أتركوهم لا تحاجوهم ولا تعرضوا لهم. وعلى هذا المعنى فالآية منسوخة بآيات القتال وقيل معناه الوعيد كقوله تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ وقوله: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾ وهذا أولى لقوله: ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾ فإنه وعيد لهم بنزول العقوبة وتحذير للمسلمين أن يفعلوا كفعلهم.

وقد ذكر مقاتل وغيره من المفسرين أن هذه الآية نزلت في رجل من المسلمين كان يقول: في صلاته يا رحمن يا رحيم فقال رجل من المشركين: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعو ربين اثنين حكى ذلك القرطبي(٢).

---

(١) قال ابن العربي: «فحذار منها، ولا يدعون احدكم الا بما في كتاب الله والكتب الخمسة؛ وهي البخاري ومسلم والترمذي وابو داود والنسائي. فهذه الكتب التي يدور الإسلام عليها، وقد دخل فيها ما في الموطأ الذي هو اصل التصانيف، وذروا ما سواها، ولا يقولن احدكم اختار دعاء كذا وكذا، فإن الله قد اختار له وارسل بذلك الى الخلق رسوله صلى الله عليه وسلم. (ذكره القرطبي في ٣٢١/٧)

(٢) وقد روى مقاتل: ان رجلاً دعا الله في صلاته ودعا الرحمن فقال ابو جهل: اليس يزعم محمد واصحابه انهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يداعوني فنزلت الاية.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾

﴿وممن خلقنا﴾ أي من جملة من خلقه الله ﴿أمة﴾ وعصابة وجماعة ﴿يهدون﴾ الناس متلبسين ﴿بالحق﴾ أو يهدونهم بما عرفوه من الحق ﴿وبه﴾ أي بالحق ﴿يعدلون﴾ بينهم قيل هم من هذه الأمة وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان قاله ابن عباس.

وعن الكلبي هم من آمن من أهل الكتاب وقيل هم العلماء والدعاة إلى الدين وقيل إنهم الفرقة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين كما ورد في الحديث الصحيح عن معاوية قال وهو يخطب: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك(١) أخرجه البخاري ومسلم.

وعن ابن جريج قال: ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: هذه أمتي يحكمون ويقضون ويأخذون ويعطون، وعن قتادة قال: بلغنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول إذا قرأها: هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة الآية(٢).

وعن الربيع في الآية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى نزل أخرجه ابن أبي حاتم.

---

(١) مسلم /١٠٣٧ البخاري /٦٢.

(٢) ابن كثير ١/ ٢٦٩.

وفي الآية دليل على أنه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به ويهدي إليه قيل وفيه دلالة على أن إجماع كل عصر حجه، والبحث في ذلك مفصل في الأصول.

ثم لما بين حال هذه الأمة الصالحة بين حال من يخالفهم فقال: ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ يريد به جميع المكذبين بآيات الله وهم الكفار وقيل المراد بهم أهل مكة والأول أولى، لأن صيغة العموم تتناول الكل إلا ما دل الدليل على خروجه منه ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ الاستدراج هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة والدرج كف الشيء يقال أدرجته ودرجته ومنه إدراج الميت في أكفانه وقيل هو من الدرجة فالاستدراج أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود، ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه، وأدرج الكتاب طواه شيئاً بعد شيء، ودرج القوم مات بعضهم في إثر بعض.

والمعنى سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم وذلك بإدرار النعم عليهم وإنسائهم شكرها فينهمكون في الغواية ويتنكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك وأنه لم يحصل لهم إلا بما لهم عند الله من المنزلة والزلفة.

قال الأزهري: سنأخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون، وقال السدي سنأخذهم من حيث لا يعلمون، قال عذاب بدر: وعن يحيى بن المنى قال كلما أحدثوا ذنباً جددنا لهم نعمة تنسيهم الاستغفار، وبه قال الضحاك وقال سفيان: نسبغ عليهم النعمة ونمنعهم شكرها، وعن ثابت البناني أنه سئل عن الاستدراج فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين، قال الكلبي: نزين أعمالهم ثم نهلكهم بها روي أن عمر بن الخطاب لما حمل إليه كنوز كسرى، قال: اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجاً فإني سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١٨٤ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٨٦﴾

﴿وأملي﴾ الإملاء الإمهال والتطويل أي أطيل ﴿لهم﴾ المدة وأمهلهم ليتمادوا في الكفر والمعاصي وأؤخر عنهم العقوبة ﴿إن كيدي متين﴾ جملة مقررة لما قبلها من الاستدراج والإملاء ومؤكدة له والكيد المكر والمتين الشديد القوي وأصله من المتن وهو اللحم الغليظ الذي على جانب الصلب لأنه أقوى ما في الحيوان وقد متن بالضم يمتن متانة أي قوي.

والمعنى أن أخذي أو مكري شديد لا يطاق قال ابن عباس: كيد الله العذاب والنقمة قال في الكشاف سماه كيداً لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان، وفي الآية دليل على مسألة القضاء والقدر، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿أو لم يتفكروا﴾ الإستفهام للانكار عليهم حيث لم يتفكروا في شأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيما جاء به ﴿ما بصاحبهم من جنة﴾ ما للاستفهام الإنكاري والجنة مصدر أي وقع منهم التكذيب ولم يتفكروا أي شيء من جنون كائن بصاحبهم كما يزعمون؟فإنهم لو تفكروا لوجدوا زعمهم باطلاً وقولهم زوراً وبهتاناً.

وقيل أي ليس بصاحبهم شيء مما يدعونه من الجنون فيكون هذا رداً لقولهم:[يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون]ويكون الكلام قد تم عند قوله ﴿أو لم يتفكروا﴾ والوقف عليه من الأوقاف الحسنة.

عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قام على الصفا فدعا قريشاً فخذاً فخذاً يا بني فلان يا بني فلان يحذرهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال قائل: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوت حتى أصبح فأنزل الله هذه الآية(١).

وإنما نسبوه إلى الجنون وهو بريء منه لأنه صلى الله عليه وآله وسلم خالفهم في الأقوال والأفعال لأنه كان معرضاً عن الدنيا ولذاتها مقبلاً على الآخرة ونعيمها مشتغلاً بالدعاء إلى الله وانذار بأسه ونقمته ليلاً ونهاراً من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك نسبوه إلى جنون فبرأه الله من الجنون وقال ﴿إن هو إلا نذير مبين﴾ أي بين الانذار والجملة مقررة لمضمون ما قبلها ومبينة لحقيقة حال رسول الله ﷺ.

﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾ الاستفهام للانكار والتوبيخ والتقريع ولقصد التعجب من إعراضهم عن النظر في الايات البينة الدالة على كمال قدرته وتفرده بالإلهية.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

والملكوت من أبنية المبالغة ومعناه الملك العظيم، وقد تقدم بيانه، والمعنى أن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكر، ولا نظروا في مخلوقات الله حتى يهتدوا بذلك إلى الإيمان به بل هم متبادرون في ضلالتهم خائضون في غوايتهم لا يعملون فكراً، ولا يمعنون نظراً.

﴿وما خلق الله﴾ أي ولم ينظروا فيما خلق ﴿من شيء﴾ من الأشياء كائناً ما كان فإن في جميع مخلوقاته عبرة للمعتبرين وهو عظة للمتفكرين سواء كانت

---

(١) رواه الطبري ١٣/ ٢٨٩ وابن كثير ٢/ ٢٧٠.

من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات والأرض أو من دقائقها من سائر مخلوقاته ﴿وأن﴾ أي أولم ينظروا في أن الشأن والحديث ﴿عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ فيموتون عن قريب، والمعنى أنهم إذا كانوا يجوزون قرب آجالهم فما لهم لا ينظرون فيما يهتدون به وينتفعون بالتفكر فيه والاعتبار به، واقتعل هنا بمعنى الفعل المجرد أي قرب وقت أجلهم[1].

﴿فبأي حديث بعده﴾ الضمير للقرآن وقيل لمحمد ﷺ وقيل للاجل المذكور قبله وقيل الضمير يرجع إلى ما تقدم من التفكر والنظر في الأمور المذكورة أي بأي حديث بعد هذا المتقدم بيانه ﴿يؤمنون﴾ وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ ما لا يقادر قدره، والجملة الاستفهامية سيقت للتعجب أي إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فكيف يؤمنون بغيره.

وجملة ﴿من يضلل الله فلا هادي له﴾ مقررة لما قبلها أي هذه الغفلة منهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليس إلا لكونهم ممن اضله الله ومن يضلله فلا يوجد له من يهديه إلى الحق وينزعه عن الضلالة البتة ﴿ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي يتحيرون وقيل يترددون ولا يهتدون سبيلا.

---

(١) قلت: هذا هو الصحيح في الباب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». وترجم ابن المنذر في كتاب الأشراف (ذكر صفة كمال الإيمان) اجمع كل من يحفظ عنه من اهل العلم على ان الكافر اذا قال: اشهد ان لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمد حق، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام ـ وهو بالغ صحيح العقل ـ أنه مسلم. (ذكره القرطبي ٧/٣٣١).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٧﴾

﴿يسئلونك﴾ استئناف مسوق لبيان بعض أحكام ضلالهم وطغيانهم والسائلون هم اليهود وقيل قريش ﴿عن الساعة﴾ أي القيامة وهي من الأسماء الغالبة واطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لأنها ساعة عند الله مع طولها في نفسها ﴿أيان﴾ ظرف زمان مبني على الفتح ومعناه متى واشتقاقه من أي وقيل من أين ﴿مرساها﴾ أي أيُّ وقت ارساؤها واستقرارها وحصولها وكأنه شبهها بالسفينة القائمة في البحر مأخوذ من ارساها الله أي أثبتها.

وقرىء بفتح الميم من رست أي ثبتت ومنه وقدور راسيات ومنه رسى الجبل، والمعنى متى يثبتها ويوقعها ويرسيها الله،؟ وقال الطيبي: الرسو انما يستعمل في الاجسام الثقيلة واطلاقه على الساعة تشبيه للمعاني بالأجسام، وقال ابن عباس: منتهاها أي وقوعها، قال: والساعة الوقت الذي تموت فيه الخلائق، وظاهر الآية أن السؤال عن نفس الساعة، وظاهر أيان مرساها أن السؤال عن وقتها فحصل من الجميع أن السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها في الوقت المعين لذلك.

ثم أمره الله سبحانه بأن يجيب عنهم بقوله: ﴿قل إنما علمها﴾ أي علم وقت ارسائها باعتبار وقوعها ﴿عند ربي﴾ قد استأثر به لا يعلمها غيره ولا يهتدي إليها سواه ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية ﴿لا يجليها﴾ التجلية إظهار الشيء يقال جلى لي فلان الخبر إذا أظهره وأوضحه أي لا يظهرها ولا يكشف عنها، وقال مجاهد: لا يأتي بها، وقال السُّدي: لا

يرسلها ﴿لوقتها إلا هو﴾ سبحانه بالذات من غير ان يشعر به أحد من المخلوقين.

وفي استئثار الله سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة وتدبير بليغ كسائر الأشياء التي أخفاها الله واستأثر بعلمها، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها مبينة لاستمرار تلك الحالة إلى حين قيامها.

﴿ثقلت في السموات والأرض﴾ أي عظمت على أهلها وشقت على العالم العلوي والسفلي، قيل معنى ذلك أنه لما خفي علمها على أهل السموات والأرض كانت ثقيلة لأن كل ما خفي علمه ثقيل على القلوب، وقيل المعنى لا تطيقها السموات والأرض لعظمها لأن السماء تنشق والنجوم تتناثر والبحار تنضب، وقيل عظم وصفها عليهم، وقيل ثقلت المسألة عنها.

وقال ابن عباس: يعني ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة وقيل ثقلت لأن فيها فناءهم وموتهم وذلك ثقيل على الافئدة، وقيل كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة ويتمنى أن يتجلى له علمها ويشق عليه خفاؤها وثقل عليه، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها أيضاً.

﴿لا تأتيكم﴾ الساعة ﴿إلا بغتة﴾ أي فجأة على حين غفلة من الخلق، وقد ورد في هذا الباب أحاديث كثيرة صحيحة هي معروفة وهذه الجملة كالتي قبلها في التقرير.

﴿يسئلونك كأنك حفي عنها﴾ استئناف مسوق لبيان خطئهم في توجيه السؤال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء على زعمهم أنه عالم بالمسؤول عنه، قال ابن فارس: الحفي العالم بالشيء والحفي المستقصي في السؤال يقال

أحفى في المسئلة وفي الطلب فهو محف وحفي على التكثير مثل مخضب وخضيب، والمعنى يسألونك عن الساعة كأنك عالم بها أو كأنك مستقص للسؤال عنها ومستكثر منه ومتطلع إلى علم مجيئها وعن بمعنى الباء.

وقيل المعنى كأنك حفي بهم، والأول هو معنى النظم القرآني على مقتضى المسلك العربي، قال ابن عباس: يقول كأن بينك وبينهم مودة وكأنك صديق لهم.

﴿قل إنما علمها عند الله﴾ أمره الله سبحانه بأن يكرر ما أجاب به عليهم سابقاً لتقرير الحكم وتأكيده، قال في المدارك: وعلى هذا تكرير العلماء في كتبهم لا يخلو عن فائدة انتهى.

وقيل ليس بتكرير بل أحدهما معناه استئثار الله بهذا وعدم علم خلقه به لم يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، والآخر الاستئثار بكنهها نفسها وثقلها وشدائدها.

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن علمها عند الله وأنه استأثر به حتى لا يسألوا عنه وقيل لا يعلمون السبب الذي لأجله أخفي علم وقت قيامها عن الخلق(١).

---

(١) روى البخاري ١٣/٧٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» وهو جزء من حديث طويل، يدل على أن الساعة تأتي بغتة. وقوله: «يليط حوضه» بفتح أوله من الثلاثي، وبضمه من الرباعي، والمعنى: يصلحه بالطين والمدر، فيسد شقوقه، ليملأه ويسقي منه دوابه.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾

﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً﴾ قال ابن جرير: يعني الهدى والضلالة وهذه الجملة متضمنة لتأكيد ما تقدم من عدم علمه بالساعة أيان تكون ومتى تقع لأنه إذا كان لا يقدر على جلب نفع له أو دفع ضر عنه.

﴿إلا ما شاء الله﴾ سبحانه من النفع له والدفع عنه، فبالأولى أن لا يقدر على علم ما استأثر الله بعلمه، وفي هذا من اظهار العبودية والاقرار بالعجز عن الأمور التي ليست من شأن العبيد، والاعتراف بالضعف عن انتحال ما ليس له صلى الله عليه وآله وسلم ما فيه أعظم زاجر، وأبلغ واعظ لمن يدعي لنفسه ما ليس من شأنها وينتحل علم الغيب بالنجامة أو الرمل أو الطرق بالحصى أو الزجر.

قال النسفي: أي أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضر كالمماليك إلا ما شاء مالكي من النفع لي والدفع عني، والاستثناء منقطع، وبه قال ابن عطية وهو أبلغ في إظهار العجز.

ثم أكد هذا وقرره بقوله: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾ أي لو كنت أعلم جنس الغيب لتعرضت لما فيه الخير فجلبته إلى نفسي وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسني، ولكني عبد لا أدري ما عند ربي ولا ما قضاه فيّ وقدره لي، فكيف أدري غير ذلك وأتكلف علمه، وقيل المعنى لو

كنت أعلم ما يريد الله عز وجل مني من قبل أن يعرفنيه لفعلته، وقيل لو كنت أعلم متى يكون لي النصر في الحرب لقاتلت فلم أغلب، وقيل لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما أسأل عنه، وقيل لو كنت أعلم وقت الموت لاستكثرت من العمل الصالح، وقيل لو كنت أعلم وقت الخصب والجدب لاعتددت من الخصب للجدب وقيل غير ذلك والاولى حمل الآية على العموم فيندرج هذه الأمور وغيرها تحتها.

﴿وما مسني السوء﴾ كلام مستأنف أي ليس لي ما تزعمون من الجنون، والأولى أنه متصل بما قبله والمعنى لو علمت الغيب ما مسني السوء ولحذرت عنه كما قدمنا ذلك وقال ابن جريج: لا يصيبني الفقر، وقال ابن زيد: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون، وقال الكرخي: أي ما مسني سوء يمكن التفصي عنه بالتوقي عن موجباته والمدافعة بموانعه لا سوء ما فإن منه ما لا مدفع له.

﴿إن أنا إلا نذير وبشير﴾ أي ما أنا إلا مبلغ عن الله أحكامه ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي كتب في الأزل أنهم يؤمنون فإنهم المنتفعون به فلا ينافي كونه بشيراً ونذيراً للناس كافة، واللام في لقوم من باب التنازع، فعند البصريين تتعلق ببشير، وعند الكوفيين بنذير، وقيل نذير بالنار للكافرين وبشير بالجنة للمؤمنين.

وعلى هذا متعلق النذارة محذوف والذي أخبر به صلى الله عليه وآله وسلم عن المغيبات، وقد جاءت بها أحاديث في الصحيح فهو من قبيل المعجزات.

ومن قال إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ذلك على سبيل التواضع والأدب فقد أبعد النجعة بل قاله صلى الله عليه وآله وسلم معتقداً

بذلك، وأن الله هو المستأثر بعلم الغيب والمعجزات مخصصة من هذا العموم كما قال تعالى: ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾.

﴿هو الذي خلقكم﴾ خطاب لأهل مكة ﴿من نفس واحدة﴾ أي آدم قاله جمهور المفسرين والتأنيث باعتبار لفظ النفس وهذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نعم الله على عباده وعدم مكافأتهم لها بما يجب من الشكر والاعتراف بالعبودية وأنه المتفرد بالإلهية.

﴿وجعل منها﴾ أي من هذه النفس وقيل من جنسها كما في قوله تعالى: ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ والأول أولى ﴿زوجها﴾ وهي حواء خلقها من ضلع من أضلاعه ﴿ليسكن﴾ علة للجعل أي لأجل أن يأنس ﴿إليها﴾ ويطمئن بها فإن الجنس بجنسه أسكن وإليه آنس، وكان هذا في الجنة كما وردت بذلك الأخبار ثم ابتدأ سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما في الدنيا بعد هبوطهما فقال:

﴿فلما تغشاها﴾ أي آدم زوجه والتغشي كناية عن الوقاع أي فلما جامعها كنى به عن الجماع أحسن كناية لأن الغشيان إتيان الرجل المرأة وقد غشيها وتغشاها إذا علاها وتجللها ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾ أي علقت به بعد الجماع، والمشهور أن الحمل بالفتح ما كان في بطن أو على شجرة، والحمل بالكسر خلافه وقد حكى في كل منهما الكسر والفتح وهو هنا إما مصدر فينتصب انتصاب المفعول المطلق أو الجنين المحمول فيكون مفعولاً به، ووصفه بالخفة لأنه عند إلقاء النطفة أخف منه عند كونه علقة، وعند كونه علقة أخف منه عند كونه مضغة، وعند كونه مضغة أخف مما بعده، وقيل إنه خف عليها هذا الحمل من ابتدائه إلى انتهائه ولم تجد منه ثقلاً كما تجده الحوامل من النساء لقوله:

﴿فمرت به﴾ أي استمرت بذلك الحمل تقوم وتقعد وتمضي في

حوائجها، لا تجد به ثقلاً ولا مشقة ولا كلفة، وقرىء فمرت به بالتخفيف أي فجزعت لذلك، وقرىء فمارت به من المور وهو المجيء والذهاب، قال سمرة: حملاً خفيفاً لم يستبن فمرت به لما استبان حملها، وقال ابن عباس: فمرت به أي شكت أحملت أم لا.

وعن الحسن سئل عن قوله فمرت به قال: لو كنت عربياً لعرفتها إنما هي استمرت بالحمل، وعن السدي قال: حملاً خفيفاً هي النطفة فمرت به أي استمرت به، وبه قال ابن عباس وعن ميمون بن مهران قال: استخفته والوجه الأول أولى لقوله:

﴿فلما أثقلت﴾ فإن معناه فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد في بطنها ﴿دعوا الله﴾ جواب لما أي دعا آدم وحواء ﴿ربهما﴾ ومالك أمرهما ﴿لئن آتيتنا﴾ ولداً ﴿صالحاً﴾ عن أبي صالح قال: أشفقا أن يكون بهيمة فقالا لئن آتيتنا بشراً سوياً، وعن مجاهد نحوه، وعن الحسن قال: غلاماً سوياً أي متسوي الأعضاء خالياً من العوج والعرج وغير ذلك، وقيل ولداً ذكراً لأن الذكورة من الصلاح ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ لك على هذه النعمة، وفي هذا الدعاء دليل على أنهما قد علما أن ما حدث في بطن حواء من أثر ذلك الجماع هو من جنسهما وعلما بثبوت النسل المتأثر عن ذلك السبب[1].

---

(١) قال: «الطبري» ١٣/٣٠٧ ـ ٣٠٨: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن آدم وحواء أنهما دعوا الله ربهما بحمل حواء، وأقسما لئن أعطاهما ما في بطن حواء صالحاً، ليكونان لله من الشاكرين، والصلاح قد يشمل معاني كثيرة، منها الصلاح في استواء الخلق، ومنها الصلاح في الدين، والصلاح في العقل والتدبير، وإذ كان ذلك كذلك ولا خبر عن الرسول يوجب الحجة بأن ذلك على بعض معاني الصلاح دون بعض، ولا فيه من العقل دليل، وجب أن يعم كما عمه الله فيقال: إنهما قالا: لئن آتيتنا صالحاً بجميع معاني الصلاح.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

﴿فلما آتاهما صالحاً﴾ أي ما طلباه من الولد الصالح وأجاب دعاءهما ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ قرأ سائر أهل الكوفة بالجمع وقرأ أهل المدينة شركاً على التوحيد، وأنكره الأخفش، وأجيب عنه بأنها صحت على حذف المضاف أي جعلا له ذا شرك أو ذوي شرك، وقال أبو عبيدة: معناه حظاً ونصيباً.

قال كثير من المفسرين: إنه جاء إبليس إلى حواء وقال لها: إن ولدت ولداً فسميه باسمي فقالت: وما اسمك؟ قال: الحرث ولو سمى لها نفسه لعرفته فسمته عبد الحرث فكان هذا شركاً في التسمية ولم يكن شركاً في العبادة، ولكن قصدت بتسميتها الولد بعبد الحرث أن الحرث سبب لنجاة الولد، فمعاتبتها على ذلك من حيث إنها نظرت إلى السبب دون المسبب.

وقد روي هذا بطرق وألفاظ عن جماعة من الصحابة ومن بعدهم، ويدل له حديث سمرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحرث فإنه يعيش فسمته عبد الحرث فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره، أخرجه أحمد والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والروياني والطبراني وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه[1].

وفيه دليل على أن الجاعل شركاً فيما آتاهما هو حواء دون آدم وقوله جعلا له شركاء بصيغة التثنية لا ينافي ذلك لأنه قد يسند فعل الواحد إلى اثنين بل

(١) ابن كثير ٢ / ٢٧٤.

إلى جماعة وهو شائع في كلام العرب، وفي الكتاب العزيز من ذلك الكثير الطيب.

قال تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ ثم قال في هذه السورة ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ وقال: ﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ والمراد به الزوج فقط قاله الفراء، وإنما ذكرهما جميعاً لاقترانهما وقال تعالى: ﴿نسيا حوتهما﴾ وإنما الناسي يوشع دون موسى، وقال تعالى: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ وإنما يخرج من أحدهما وهو المالح، وقال تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ وإنما الرسل من الإنس دون الجن لكن لما جمعوا مع الجن في الخطاب صح هذا التركيب وقال تعالى: ﴿ألقيا في جهنم﴾ والخطاب لواحد دون اثنين وفي الحديث المرفوع: «إذا سافرتما فأذنا»[1] والمراد أحدهما وقال امرؤ القيس.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وقد أكثر الشعراء من قولهم خليلي والمراد بها الواحد دون الاثنين.

وعلى هذا فمعنى الآية الكريمة جعل أحدهما له شركاء وهو حواء.

وإذا عرفت هذا علمت أن المصير إلى هذا التأويل الذي ذكرناه متعين وقد عاضده الكتاب والسنة وكلام العرب والحديث المتقدم ليس فيه إلا ذكر حواء.

وقد استشكل هذه الآية جمع من أهل العلم لأن ظاهرها صريح في وقوع الإشراك من آدم عليه السلام، والأنبياء معصومون عن الشرك ثم اضطروا إلى التفصي من هذا الإشكال فذهب كلٌّ إلى مذهب واختلفت أقوالهم في تأويلها اختلافاً كثيراً حتى أنكر هذه القصة جماعة من المفسرين منهم الرازي

(١) صحيح الجامع الصغير ٦٠٢.

وأبو السعود وغيرهما، وقال السدي: هذا فصل من آية آدم خاصة في آلهة العرب وعن أبي مالك نحوه.

وقال الحسن: هذا في الكفار يدعون الله فإذا آتاهما صالحا هوّدا ونصرا وقال ابن كيسان: هم الكفار سموا أولادهم بعبد العزى وعبد الشمس وعبد الدار ونحو ذلك، وقيل هم اليهود والنصارى خاصة.

قال الحسن: كان هذا في بعض أهل الملل وليس بآدم، وقيل هذا خطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم آل قصي وحسنه الزمخشري، وقال هذا تفسير حسن لا اشكال فيه، وقيل معناها على حذف المضاف أي جعل أولادهما شركاء ويدل له ضمير الجمع في قوله الآتي: ﴿عما يشركون﴾ واياه ذكر النسفي والقفال وارتضاه الرازي وقال: هذا جواب في غاية الصحة والسداد وبه قال جماعة من المفسرين.

وقيل: خطاب كل واحد من الخلق بقوله خلقكم وجعل من جنسه زوجة، قال البغوي: وهذا قول حسن لولا قول السلف بخلافه، وقيل ان هذه القصة لم تصح وإنما عصى من كان في ظهر آدم من ذريته وكان آدم أنموذج التقدير فظهرت ورئيت خطايا بني آدم في ذاته كما ترى الصورة في المرآة لأن ظهره كان كالسفينة لسائر أولاده.

وقيل معنى من نفس واحدة من هيئة واحدة وشكل واحد فجعل منها أي من جنسها زوجها فلما تغشاها يعني جنس الذكر جنس الأنثى وعلى هذا لا يكون لآدم وحواء ذكر في الآية وتكون ضمائر التثنية راجعة إلى الجنسين، وقيل ان فاعل تغشاها ضمير راجع إلى أحدهم، والمعنى خلق الله الناس من آدم وكان بدء خلقهم ان خلق من آدم زوجته ليسكن إليها فحصل منهما النسل، ثم رجع إلى أول الكلام وهو أن الله خلقهم فلم يشكروا له ولم يؤدوا حقه، وذلك أن أحدهم لما تغشى امرأته فحملت حملاً خفيفاً فحصل بسبب ذلك

الاختصار غموض في الآية وأصل الكلام عام وكانت حواء من جملة ذلك، فلا يجب صدق جميع خصوصيات الآيات عليها وإنما يجب وجود أصل القصة.

وقد يؤخذ هذا الوجه من قوله تعالى في موضع آخر ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾ وبهذا قال الشيخ أحمد ولي الله المحدث الدهلوي رحمه الله.

وهذه الأقوال كلها متقاربة في المعنى متخالفة في المبنى، ولا يخلو كل واحد منها من بعد وضعف وتكلف بوجوه.

الأول ان الحديث المرفوع المتقدم يدفعه وليس في واحد من تلك الأقوال قول مرفوع حتى يعتمد عليه ويصار إليه، بل هي تفاسير بالآراء المنهى عنها المتوعد عليها.

الثاني أن فيه انخرام نظم الكلام سياقاً وسباقاً (الثالث) أن الحديث صرح بأن صاحبة القصة هي حواء وقوله جعل منها زوجها إنما هو لحواء دون غيرها فالقصة ثابتة ولا وجه لانكارها بالرأي المحض (الرابع) أن الحديث ليس فيه إلا ذكر حواء وكان هذا شركاً منها في التسمية ولم يكن شركاً في العبادة، وقيل والشرك في التسمية أهون.

قلت: وفيه بعد ظاهر لأن الله تعالى ساق آيات التشنيع عليها وهو شرك وإن لم يكن في العبادة وما قيل انها إنما قصدت ان الحرث كان سبب نجاة الولد كما يسمي الرجل نفسه عبد ضيفه فهو خطأ لأن الأعلام كما يقصد بها المعاني العلمية كذلك قد يلاحظ معها المعاني الأصلية بالتبعية كما صرح به أهل المعاني، وكان اسم أبي بكر الصديق في الجاهلية عبد الكعبة، واسم أبي هريرة عبد الشمس فغيرهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسماهما صديقاً وعبد الرحمن.

وما قيل انها سمته بعبد الحرث باذن من آدم فهذا يحتاج إلى دليل يدل عليه ويصح وأنى له الدليل ولعلها سمته بغير اذن منه ثم تابت من ذلك.

والحاصل أن ما وقع إنما وقع من حواء لا من آدم عليه السلام ولم يشرك آدم قط، وعلى هذا فليس في الآية اشكال، والذهاب إلى ما ذكرناه متعين تبعاً للكتاب والحديث وصوناً لجانب النبوة عن الشرك بالله تعالى، والذي ذكروه في تأويل هذه الآية الكريمة يرده كله ظاهر الكتاب والسنة كما تقدم، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل والله أعلم.

وما ذكرنا من صحة اطلاق المثنى على المفرد هو شائع في كلام العرب ولكنهم لم يذهبوا إليه في هذه الآية، ولم يخطر ذلك ببالهم مع كونه ظاهر الأمر وواضحه ومع أنهم ذكروه وذهبوا إليه في غير هذا الموضع في غير واحد من مواضع في القرآن والحديث وغيرهما، وهذا عجيب منهم غاية العجب.

﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ هذا ابتداء كلام مستأنف أراد به اشراك أهل مكة وقيل معطوف على ﴿خلقكم﴾ وما بينهما اعتراض، وقيل أراد به حواء لأنه يجوز اطلاق الجمع على الواحد، وقيل يعود على آدم وحواء وابليس والأول أولى وبه قال السمين، وليس لها تعلق بقصة آدم وحواء أصلاً ولو كانت القصة واحدة لقال عما يشركان.

قال ابن الجزري في كتابه النفيس: قد يأتي العرب بكلمة إلى جانب كلمة كأنها معها وفي القرآن يريد أن يخرجكم من أرضكم، هذا قول الملأ قال فرعون: فماذا تأمرون، انتهى. فالضمير في يشركون يعود على الكفار، والكلام قد تم قبله.

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي كيف يجعل أهل مكة لله شريكاً لا يخلق شيئاً ولا يقدر على نفع لهم ولا دفع ضر عنهم ﴿وهم يخلقون﴾ الضمير راجع إلى الشركاء أي وهؤلاء الذي جعلوهم شركاء من الأصنام والشياطين مخلوقون وجمعهم جمع العقلاء لاعتقاد من جعلهم شركاء أنهم كذلك.

﴿ولا يستطيعون لهم﴾ أي لمن جعلهم شركاء ﴿نصراً﴾ ان طلبوه منهم ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ ان حصل عليهم شيء من جهة غيرهم ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز.

﴿وإن تدعوهم إلى الهدى﴾ هذا خطاب للمشركين بطريق الالتفات المنبيء عن مزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيت، وبيان لعجزهم عما هو أدنى من النصر المنفي عنهم وأيسر، وهو مجرد الدلالة على المطلوب من غير تحصيله للطالب أي وان تدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى والرشاد بأن تطلبوا منهم أن يهدوكم ويرشدوكم ﴿لا يتبعوكم﴾ ولا يجيبوكم إلى ذلك وهو دون ما تطلبونه منهم من جلب النفع ودفع الضر والنصر على الأعداء.

قال الأخفش: معناه وان تدعوهم أي الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم

وقيل يجوز أن يكون الخطاب للمؤمنين والضمير المنصوب للمشركين ممن سبق في علم الله انه لا يؤمن، والمعنى وان تدعوا أيها المؤمنون المشركين لا يتبعوكم وقرىء لا يتبعوكم مشدداً ومخففاً وهما لغتان وقال بعض أهل اللغة: اتبعه مخففاً إذا مضى خلفه ولم يدركه واتبعه مشدداً إذا مضى خلفه فأدركه.

﴿سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها أي دعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء لا فرق بينهما لأنهم لا ينفعون ولا يضرون، ولا يسمعون ولا يجيبون، وقال ﴿أم أنتم صامتون﴾ مكان أو صمتم لما في الجملة الاسمية من المبالغة في عدم افادة الدعاء ببيان مساواته للسكوت الدائم المستمر، وقال محمد بن يحيى: إنما جاء بالاسمية لكونها رأس آية يعني لمطابقة ولا أنفسهم ينصرون وما قبله.

﴿ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباداً لله كما أنتم عباد له مع أنكم أكمل منهم لأنكم أحياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك ولكنها مثلكم في كونها مملوكة لله مسخرة لأمره، وهذا تقريع لهم بالغ وتوبيخ لهم عظيم، قال مقاتل: انها الملائكة والخطاب مع قوم كانوا يعبدونها، والأول أولى وإنما وصفها بأنها عباد مع أنها جماد تنزيلاً لها منزلة العقلاء على وفق معتقدهم ولذلك قال:

﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم﴾ مقررة لمضمون ما قبلها من أنهم ان دعوهم الى الهدى لا يتبعوهم وانهم لا يستطيعون شيئاً أي ادعوا هؤلاء الشركاء فان كانوا كما تزعمون فليستجيبوا لكم، وإنما ورد هذا اللفظ في معرض الاستهزاء بالمشركين ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تدعونه لهم من قدرتهم على النفع والضرر وانها آلهة.

ثم بين غاية عجزهم وفضل عابديهم عليهم فقال: ﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم فضلاً عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم فإنهم كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لهم أرجل يمشون بها في نفع أنفسهم، فضلاً عن أن يمشوا في نفعكم، وليس لهم أيد يبطشون بها كما يبطش غيرهم من الأحياء، وليس لهم أعين يبصرون بها كما تبصرون. وليس لهم آذان يسمعون بها كما تسمعون، فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات وبهذه المنزلة من العجز.

وأم في هذه المواضع هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة كما ذكره أئمة النحو والاضراب المفاد ببل انتقال من توبيخ إلى توبيخ آخر، والبطش هو الأخذ بقوة وعنف.

ثم لما بين لهم حال هذه الأصنام وتعاور وجوه العجز والنقص لها من كل باب أمره الله بأن يقول لهم ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضرر واستعينوا بهم في عداوتي حتى يتبين عجزها ﴿ثم كيدون﴾ أنتم وهم جميعاً بما شئتم من وجوه الكيد ﴿فلا تنظرون﴾ أي فلا تمهلوني ولا تؤخروا إنزال الضرر بي من جهتها والكيد المكر، وليس بعد هذا التحدي لهم والتعجيز لأصنامهم شيء.

إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ
لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ
لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ
وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ
إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

ثم قال: قل لهم ﴿إن وليِّيَ الله الذي نزل الكتاب﴾ أي كيف أخاف هذه الأصنام التي هذه صفتها ولي وليّ ألجأ إليه وأستنصر به وهو الله عز وجل، وهذه الجملة تعليل لعدم المبالاة بها وولي الشيء هو الذي يحفظه ويقوم بنصرته ويمنع منه الضرر والكتاب هو القرآن أي أوحى إلي وأعزني برسالته ﴿وهو﴾ الذي ﴿يتولى الصالحين﴾ أي يحفظهم وينصرهم ويحول بينهم وبين أعدائهم والصالحون هم الذين لا يعدلون بالله شيئاً ولا يعصونه وفي هذا مدح للصلحاء وأن من سنته نصرهم.

﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ كرر سبحانه هذا لمزيد التأكيد والتقرير ولما في تكرار التوبيخ والتقريع، من الإهانة للمشركين والتنقص بهم وإظهار سخف عقولهم، وركاكة أحلامهم وقيل الأولى على جهة التقريع والتوبيخ، والأخرى على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة وبين هذه الأصنام وبالجملة هو من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم المفهوم من السوق فهماً جلياً.

﴿وإن تدعوهم﴾ أي المشركين قاله الحسن وقيل أي الأصنام ﴿إلى الهدى لا يسمعوا﴾ دعاءكم لأن آذانهم قد صمت عن سماع الحق فضلاً عن المساعدة والإمداد، وهذا أبلغ من نفي الاتباع ﴿وتراهم﴾ الرؤية بصرية ﴿ينظرون إليك﴾ أي يقابلونك كالناظر.

﴿وهم﴾ أي حال كونهم ﴿لا يبصرون﴾ جملة مبتدأة لبيان عجزهم عن الابصار بعد بيان عجزهم عن السمع وبه يتم التعليل فلا تكرار أصلاً أو جملة حالية والمراد الأصنام أي انهم يشبهون الناظرين ولا أعين لهم يبصرون بها قيل كانوا يجعلون للأصنام أعيناً من جواهر مصنوعة فكانوا بذلك في هيئة الناظرين ولا يبصرون.

وقيل المراد بذلك المشركون أخبر الله عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم وإن أبصروا بها غير ما فيه نفعهم.

﴿خذ العفو﴾ لما عدد الله سبحانه من أحوال المشركين ما عدده وتسفيه رأيهم وضلال سعيهم أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يأخذ العفو من أخلاقهم، يقال أخذت حقي عفواً أي سهلاً. وهذا نوع من التيسير الذي كان يأمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ثبت في الصحيح أنه كان يقول: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»[1]، والمراد بالعفو هنا ضد الجهد وقيل الفضل وما جاء بلا كلفة والعفو التساهل في كل شيء وقيل المراد خذ العفو من صدقاتهم ولا تشدد عليهم فيها وتأخذ ما يشق عليهم وكان هذا قبل نزول فريضة الزكاة، عن عبدالله بن الزبير قال: ما نزلت هذه الآية إلا في أخلاق الناس، رواه البخاري قال مجاهد: خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسيس.

﴿وأمر بالعرف﴾ أي بالمعروف وقرىء بالعرف بضمتين وهما لغتان والعرف والمعروف والعارفة كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس وكل ما يعرفه الشارع، وقال عطاء: وأمر بقول لا إله إلا الله والعموم أولى.

﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ أي إذا أقمت الحجة عليهم في أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا فأعرض عنهم ولا تمارهم ولا تسافههم مكافأة لما يصدر

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٧٩٤٢.

منهم من المراء والسفاهة، وقيل وهذه الآية هي من جملة ما نسخ بآية السيف قاله عطاء وابن زيد.

وقيل هي محكمة قاله مجاهد وقتادة وقيل أول هذه الآية وآخرها منسوخ وأوسطها محكم، قال الشعبي: لما أنزل الله هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هذا يا جبريل قال: لا أدري حتى أسأل العالم فذهب ثم رجع فقال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك أخرجه ابن جرير وابن المنذر وغيرهما(١)، وعن قيس بن سعد بن عبادة قال: لما نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمزة بن عبد المطلب قال: والله لأمثلن بسبعين منهم فجاءه جبريل بهذه الآية أخرجه ابن مردويه.

﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾ النزغ الوسوسة وكذا الغز والنخس والنسغ، قال الزجاج: النزغ أدنى حركة تكون ومن الشيطان أدنى وسوسة، وأصل النزغ الفساد يقال نزغ بيننا أي أفسد، وقيل النزغ الإغواء والمعنى متقارب، أمر الله سبحانه نبيه ﷺ إذا أدرك شيئاً من وسوسة الشيطان أن يستعيذ بالله ويلجأ إليه في دفعه عنه، وقيل: إنه لما نزل قوله خذ العفو قال النبي صلى الله عليه وسلم: كيف يا رب بالغضب(٢)، فنزلت هذه الآية وفي الآية استعارة تبعية حيث شبه الإغراء على المعاصي بالنزغ واستعير النزغ للاغراء ثم اشتق منه ينزغنك.

وجملة ﴿إنه سميع عليم﴾ علة لأمره بالاستعاذة أي استعذ به والتجىء إليه فإنه يسمع ذلك منك ويعلم به، وقيل الخطاب لكل أحد والأول أولى، والكلام خرج مخرج التقدير والفرض فلا يقال: لو كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم معصوماً لم يكن للشيطان عليه سبيل حتى ينزغ في قلبه ويحتاج إلى الاستعاذة.

---

(١) ابن كثير ٢/٢٧٧.

(٢) ابن كثير ٢/٢٧٨.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا﴾ مقررة لمضمون ما قبلها أي: إن شأن الذين يتقون الله وحالهم هو التذكر لما أمر الله به من الاستعاذة والالتجاء إليه عند أن يمسهم طائف من الشيطان وإن كان يسيراً وقرىء طيف مخففاً ومشدداً قال النحاس: كلام العرب في مثل هذا طيف بالتخفيف على أنه مصدر من طاف يطيف، وقال الكسائي هو مخفف مثل ميت وميت.

قال النحاس: ومعناه في اللغة ما يتخيل في القلب أو يرى في النوم وكذا معنى طائف وقيل معنيان مختلفان فالأول التخيل، والثاني الشيطان نفسه فالأول من طاف الخيال يطوف طيفاً، ولم يقولوا من هذا طائف، قال السهيلي: لأنه تخيل لا حقيقة له وأما قوله ﴿فطاف عليهم طائف من ربك﴾ فلا يقال فيه طيف لأنه اسم فاعل حقيقة.

قال الزجاج: طفت عليهم أطوف وطاف الخيال يطيف، وسميت الوسوسة والجنون والغضب طيفاً لأنها لمة من الشيطان تشبه لمة الخيال.

وذكر في الآية الأولى النزغ وهو أخف من الطيف لأن حالة الشيطان مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أضعف من حاله مع غيرهم، وقال ابن عباس: الطيف الغضب، وقرأ سعيد بن جبير تذكروا بتشديد الذال قال النحاس: ولا وجه له في العربية، وقال السدي: تذكروا أي إذا زلوا تابوا، وقيل معناه عرفوا ما حصل لهم من وسوسة الشيطان وكيده، وقال سعيد بن جبير: هو الرجل يغضب فيذكر الله فيكظم، وقال مجاهد: هو الرجل يلم بالذنب فيذكر الله فيقوم ويدعه.

﴿فإذا هم﴾ بسبب التذكر ﴿مبصرون﴾ أي منتهون عن المعصية آخذون

بأمر الله عاصون للشيطان، قاله ابن عباس وقيل على بصيرة، وقيل: إنهم يبصرون مواقع الخطأ بالتذكر والتفكير وقيل مبصرون الحق من غيره فيرجعون.

﴿واخوانهم يمدونهم﴾ قيل المعنى وإخوان الشياطين وهم الفجار من ضلّال الإنس، على أن الضمير في إخوانهم يعود إلى الشيطان المذكور سابقاً والمراد به الجنس فجاز ارجاع ضمير الجمع إليه، والمعنى تمدهم الشياطين ﴿في الغي﴾ وتكون مدداً لهم، وهذا التأويل هو قول الجمهور وعليه عامة المفسرين، قال الزمخشري: هو أوجه لأن اخوانهم في مقابلة الذين اتقوا.

وقيل المعنى الشياطين الذين هم اخوان الجاهلين أو غير المتقين يمدون الجاهلين، أو غير المتقين في الغي، وهذا تفسير قتادة، وقيل المعنى واخوان الشياطين في الغي وهو الجهل بخلاف الأخوة في الله تعالى يمدونهم أي بطاعتهم لهم وقبولهم منهم.

قال ابن عباس في الآية: هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس، وسميت الفجّار من الانس اخوان الشياطين لأنهم يقبلون منهم ويقتدون بهم، وقال الزجاج: المعنى والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصراً ولا أنفسهم ينصرون واخوانهم يمدونهم في الغي لأن الكفار اخوان الشياطين.

وعلى هذا في الكلام تقديم وتأخير، قال الكلبي: لكل كافر أخ من الشياطين يطيل له في الاغواء حتى يستمر عليه، وقيل يزيدونهم من الضلالة يقال مد وأمد وهما لغتان قال مكي ومد أكثر، وقال أبو عبيد وجماعة من أهل اللغة: إنه يقال إذا كثّر شيء شيئاً بنفسه مده وإذا كثره بغيره قيل أمده نحو يمددكم ربكم، وقيل يقال مددت في الشر، وأمددت في الخير.

﴿ثم لا يقصرون﴾ الاقصار الانتهاء عن الشيء وقال ابن عباس: لا يسأمون والمعنى: لا يقصر الشياطين في مدّ الكفار في الغي ولا يكفون عن الضلالة ولا يتركونها والكافر لا يتذكر ولا يرعوي، وقال ابن عباس: لا الانس يمسكون عما يعملون من السيئآت ولا الشياطين تمسك عنهم، وعلى هذا يحمل قوله لا يقصرون على فعل الإنس والشياطين جميعاً.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

﴿وإذا لم تأتهم﴾ أي أهل مكة ﴿بآية﴾ مما اقترحوا ﴿قالوا لولا﴾ هلا ﴿اجتبيتها﴾ يقال اجتبى الشيء جباه لنفسه أى جمعه أي هلا جمعتها افتعالاً لها من عند نفسك، وقيل لولا أحدثتها لولا تلقيتها فأنشأتها، قاله ابن عباس، وقيل المعنى اختلقتها يقال اجتبيت الكلام انتحلته واختلقته واخترعته إذا جئت به من عند نفسك، كانوا يقولون لرسول الله ﷺ إذا تراخى الوحي هذه المقالة فأمره الله بأن يجيب عليهم بقوله.

﴿قل﴾ لست ممن يأتي بالآيات من قبل نفسه ويقترح المعجزات كما تزعمون بل ﴿إنما أتبع ما يوحي إليّ من ربي﴾ فما أوحاه إليّ وأنزله عليّ أبلغته إليكم.

﴿هذا﴾ أي القرآن المنزل عليّ هو ﴿بصائر من ربكم﴾ يتبصر بها من قبلها جمع بصيرة وقيل البصائر الحجج والبراهين، وقال الزجاج الطرق ولما كان القرآن سبباً لبصائر العقول، أطلق عليه اسم البصائر فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب والبصيرة الحجة، والاستبصار في الشيء، قال الأخفش: جعله هو البصيرة كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك.

﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي هو بصائر وهدى يهتدي به المؤمنون ورحمة لهم، وذلك أن الناس متفاوتون في درجات العلوم فمنهم من بلغ الغاية في علم التوحيد حتى صار كالمشاهد، وهم أصحاب عين اليقين، ومنهم من بلغ درجة الاستدلال والنظر وهم أصحاب علم اليقين، ومنهم المسلم المستسلم وهم عامة المؤمنين وأصحاب حق اليقين.

فالقرآن للاولين بصائر وللمستدلين هدى ولعامة المؤمنين رحمة، وقال أبو السعود كون القرآن بمنزلة البصائر للقلوب متحقق بالنسبة إلى الكل، وبه تقوم الحجة على الجميع، وأما كونه هدى ورحمة فمختص بالمؤمنين به إذ هم المقتبسون من أنواره والمغتنمون بآثاره والجملة من تمام القول المأمور به انتهى.

﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ يحتمل أنه من عند الله مستأنف ويحتمل أنه من جملة المقول المأمور به، أمرهم الله سبحانه بالاستماع للقرآن والانصات له عند قراءته لينتفعوا به ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح وقال أبو البقاء: الضمير لله بمعنى لأجله وفيه بعد.

قيل هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الامام ولا يخفاك أن اللفظ أوسع من هذا والعام لا يقتصر على سببه فيكون الاستماع والانصات عند قراءة القرآن في كل حالة وعلى أي صفة مما يجب على السامع، وقيل هذا خاص بقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن دون غيره ولا وجه لذلك، وظاهر الأمر الوجوب، وهو قول الحسن وأهل الظاهر وقيل الندب والاستحباب.

قال أبو هريرة: نزلت في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة وفي لفظ عنه أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكوت، وإليه ذهب جمهور المفسرين كما في المعالم والكشاف وأنوار التنزيل وحاشية الكمالين وغيرها، وقال ابن عباس: يعني في الصلاة المفروضة وعن محمد بن كعب القرظي ومجاهد وعبد الله بن مغفل وابن مسعود نحوه.

وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف، وصرحوا بأن هذه الآية نزلت في قراءة الصلاة من الإمام، وعن الحسن قال: عند الصلاة المكتوبة وعند الذكر، وعن ابن عباس في الصلاة وحين ينزل الوحي، وقيل نزلت في السكوت عند الخطبة يوم الجمعة، وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء واختاره جماعة وفيه بعد، لأن الآية مكية، والجمعة إنما وجبت بالمدينة والأول أولى، وقال ابن عباس في الجمعة والعيدين.

وقال الرازي: انه خطاب مع الكفار عند قراءة الرسول عليهم القرآن في معرض الاحتجاج بكونه معجزاً على صدق نبوته، وعند هذا يسقط احتجاج الخصوم بهذه الآية من كل الوجوه، ثم ذكر ما يقوى أن حمل الآية على ما ذكر أولى بوجوه.

وقال لو حملنا الآية على منع المأموم من القراءة خلف الامام فسد النظم واختل الترتيب فثبت أن حمله على ما ذكرناه أولى، وهذه الآية لا دلالة فيها على هذه الحالة انتهى.

وأشار القاضي إلى أن احتجاجهم بهذه الآية ضعيف، وقال بعض محشيه: أي مردود بخبر الصحيحين لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب انتهى.

أقول: رواه الجماعة عن عبادة بن الصامت وفي لفظ: «لا تجزى صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب،»[1] رواه الدارقطني وقال اسناده صحيح وصححه ابن القطان ولها شاهد من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ مرفوعاً، أخرجه ابن خزيمة وابن حبان وغيرهما، ولأحمد بلفظ: «لا تقبل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن» وفي الباب عن أنس عند مسلم والترمذي وعن أبي قتادة عند أبي داود والنسائي وعن ابن عمر وجابر عند ابن ماجة، وعن علي عند البيهقي وعن عائشة وأبي هريرة.

والحديث يدل على تعيين فاتحة الكتاب في الصلاة وأنه لا يجزي غيرها، وإليه ذهب مالك والشافعي وجمهور العلماء والتابعين ومن بعدهم وهو مذهب العترة لأن النفي المذكور في الحديث يتوجه إلى الذات إن أمكن انتفاؤها وإلا توجه إلى ما هو أقرب إلى الذات وهو الصحة لا الكمال لأن الصحة أقرب المجازين، والكمال أبعدهما والحمل على أقرب المجازين واجب وتوجُّه النفي إلى الذات ههنا ممكن كما قال الحافظ في الفتح لأن المراد بالصلاة معناها

---

(١) الدارقطني كتاب الصلاة ١/٣٢٢.

الشرعي لا اللغوي لما تقرر من أن ألفاظ الشارع محمولة على عرفه لكونه بعث لتعريف الشرعيات لا لتعريف الموضوعات اللغوية، وإذا كان المنفي الصلاة الشرعية استقام نفي الذات.

ولو سلم أن المراد هنا الصلاة اللغوية لكان المتعين توجه النفي إلى الصحة أو الإجزاء لا إلى الكمال لأنها أقرب المجازين، ولأن الرواية المتقدمة مصرحة بالإجزاء فيتعين تقديره.

وإذا تقرر هذا فالحديث صالح للاحتجاج به على أن الفاتحة من شروط صحة الصلاة لا من واجباتها فقط لأن عدمها يستلزم عدم الصلاة وهذا شأن الشرط، وذهبت الحنفية وطائفة قليلة إلى أنها لا تجب بل الواجب آية من القرآن، قاله النووي: والصواب ما قاله الحافظ ان الحنفية يقولون بوجوب قراءتها لكن بنوا على قاعدتهم انها مع الوجوب ليست شرطاً في صحة الصلاة لأن وجوبها إنما ثبت بالسنة والذي لا يتم الصلاة إلا به فرض، والفرض عندهم لا يثبت بما يزيد على القرآن وقد قال تعالى: ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ فالفرض قراءة ما تيسر، وتعين الفاتحة إنما ثبت بالحديث فيكون واجباً يأثم من يتركه وتجزى الصلاة بدونه.

وهذا تأويل على رأي فاسد حاصله رد كثير من السنة المطهرة بلا برهان ولا حجة نيرة فكم موطن من المواطن يقول فيه الشارع لا يجزى كذا ولا يقبل كذا ولا يصح كذا ويقول المتمسكون بهذا الرأي يجزى ويقبل ويصح، ولمثل هذا حذر السلف من أهل الرأي والكلام في ذلك تعقباً ورداً يطول جداً وقد قضى الوطر منه الشوكاني في نيل الأوطار فراجعه.

ومن أدلتهم حديث أبي سعيد بلفظ: لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب أو غيرها[١]، قال ابن سيد الناس لا ندري بهذا اللفظ من أين جاء، وقد صح

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٧٣٨٩.

عن أبي سعيد عند أبي داود أنه قال: أمرنا أن نقرأ فاتحة الكتاب وما تيسر، ورواته ثقات، وقال ابن سيد الناس اسناده صحيح ورجاله ثقات وصححه الحافظ أيضاً.

ومن أدلتهم حديث أبي هريرة عند أبي داود بلفظ: لا صلاة إلا بقرآن ولو بفاتحة الكتاب ويجاب بأنه من رواية جعفر بن ميمون وليس بثقة كما قاله النسائي، وقال أحمد ليس بقوي في الحديث، وقال ابن عدي يكتب حديثه في الضعفاء.

وأيضاً قد روى أبو داود هذا الحديث من طريقه عن أبي هريرة بلفظ أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي انه لا صلاة إلا بقراءة الفاتحة فما زاد، ورواه أحمد وليست الرواية الأولى بأولى من هذه.

وأيضاً أين تقع هذه الرواية على فرض صحتها بجنب الأحاديث المصرحة بفرضية فاتحة الكتاب وعدم إجزاء الصلاة بدونها.

وقد نسب القول بوجوب الفاتحة في كل ركعة النووي في شرح مسلم والحافظ في الفتح إلى الجمهور، ورواه ابن سيد الناس في شرح الترمذي عن علي وجابر وعن ابن عون والأوزاعي وأبي ثور، قال وإليه ذهب أحمد وداود، وبه قال مالك إلا في الناسي.

واستدلوا أيضاً على ذلك بما وقع عند الجماعة واللفظ للبخاري من قوله صلى الله عليه وآله وسلم للمسيء: ثم افعل ذلك في صلاتك كلها، بعد أن أمره بالقراءة وفي رواية لأحمد وابن حبان والبيهقي في قصة المسيء صلاته أنه قال في آخره: ثم افعل ذلك في كل ركعة. وهذا الدليل إذا ضممته إلى قوله في حديث المسيء ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم حملته على الفاتحة لما تقدم انتهض ذلك للاستدلال به على وجوب الفاتحة في كل ركعة وكان قرينة لحمل قوله في حديث المسيء «ثم كذلك في كل صلاتك فافعل» على المجاز

وهو الركعة وكذلك حمل لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب عليه[١].

ويؤيد وجوب الفاتحة في كل ركعة حديث أبي سعيد عند ابن ماجه بلفظ لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة أو غيرها، قال الحافظ واسناده ضعيف[٢]، وحديث أبي سعيد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة، رواه اسمعيل بن سعيد الشاكنجي صاحب الإمام أحمد.

وظاهر هذه الأدلة وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة من غير فرق بين الإمام والمأموم وبين سر الإمام وجهره.

ومن جملة المؤيدات لذلك ما أخرجه مالك في الموطأ والترمذي وصححه عن جابر موقوفاً قال: من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصل إلا وراء الإمام، وما أخرجه أحمد وابن ماجة عن عائشة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من صلى صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج[٣]، ومثله عن أبي هريرة عند ابن ماجة من طريق محمد بن اسحق وفيه مقال مشهور، ولكنه يشهد لصحته حديث أبي هريرة عند الجماعة إلا البخاري بلفظ: من صلى صلاة لم يقرأ فيها فاتحة الكتاب فهي خداج[٤]، ولا يقال إن الخداج معناه النقص. وهو لا يستلزم البطلان لأن الأصل ان الصلاة الناقصة لا تسمى صلاة حقيقة.

وأما حديث أبي هريرة مرفوعاً: وإذا قرأ فأنصتوا، رواه الخمسة إلا الترمذي وقال مسلم هو صحيح فهو عام لا يحتج به على خاص.

وأما حديث عبدالله بن شداد مرفوعا: من كان له إمام فقراءة الإمام له

---

(١) مسلم ٣٩٧ ـ البخاري ٤٦١.
(٢) ضعيف الجامع الصغير ٦٣١٣.
(٣) صحيح الجامع الصغير ٦٢٢٤.
(٤) مسلم ٣٩٥.

قراءة رواه الدارقطني[١]، فقال في المنتقى وقد روي مسنداً من طرق كلها ضعاف والصحيح أنه مرسل انتهى، قال الدارقطني وهو الصواب، وقال الحافظ هو مشهور من حديث جابر وله طرق عن جماعة من الصحابة كلها معلولة، وقال في الفتح إنه ضعيف عند جميع الحفاظ وقد استوعب طرقه وعلله الدارقطني، وهو عام أيضاً لأن القراءة مصدر مضاف وهو من صيغ العموم وحديث عبادة في هذا الباب خاص فلا معارضة، وقال في شرح المنتقى هو حديث ضعيف لا يصلح للاحتجاج به انتهى.

وأما قوله تعالى: ﴿فاستمعوا له وأنصتوا﴾ فقد مر الجواب عنه وهو أيضاً عام وحديث عبادة خاص، ويؤيد ذلك الأحاديث المتقدمة والآتية القاضية بوجوب قراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة من غير فرق بين الإمام والمؤتم لأن البراءة عن عهدتها انما تحصل بناقل صحيح لا بمثل هذه العمومات التي اقترنت بما يجب تقديمه عليها.

وعن عبادة قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصبح فثقلت عليه القراءة فلما انصرف قال: إني أراكم تقرأون وراء إمامكم قال قلنا يا رسول الله أي والله قال: لا تفعلوا إلا بأم القرآن فأنه لا صلاة لمن لا يقرأ بها رواه أبو داود والترمذي، وفي لفظ فلا تقرأوا بشيء من القرآن إذا جهرت به إلا بأم القرآن[٢]، رواه أبو داود والنسائي والدارقطني، وقال رجاله كلهم ثقات.

وعنه أن النبي ﷺ قال: لا يقرأن أحد منكم شيئاً من القرآن إذا جهرت بالقراءة إلا بأم القرآن[٣]، رواه الدارقطني، وقال رجاله كلهم ثقات، وأخرجه أيضا أحمد والبخاري في جزء القراءة وصححه وابن حبان والحاكم والبيهقي من

---

(١) الدارقطني كتاب الصلاة ١/ ٤٠٣.
(٢) الدارقطني كتاب الصلاة ١/ ٣١٩.
(٣) الدارقطني كتاب الصلاة ١/ ٣٢٠.

طريق ابن اسحق قال حدثني مكحول عن محمود بن ربيعة عن عبادة، وتابعه زيد بن واقد وغيره عن مكحول.

ومن شواهد ما رواه أحمد من طريق خالد الحذاء عن أبي قلابة عن محمد ابن أبي عائشة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: لعلكم تقرأون والإمام يقرأ قالوا انا لنفعل، قال: لا إلا أن يقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب، قال الحافظ: اسناده حسن ورواه ابن حبان من طريق أيوب بن أبي قلابة عن أنس، وليست بمحفوظة ومحمد ابن اسحق قد صرح بالتحديث فذهبت مظنة تدليسه، وتابعه من تقدم.

قال الشوكاني: والحديث استدل به من قال بوجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام وهو الحق وظاهر الحديث الإذن بقراءة الفاتحة جهراً لأنه استثنى من النهي عن الجهر خلفه، ولكنه أخرج ابن حبان من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: أتقرأون في صلاتكم خلف الإمام والإمام يقرأ فلا تفعلوا وليقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب في نفسه وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط والبيهقي وأخرجه عبد الرزاق عن أبي قلابة مرسلاً.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: هل قرأ معي أحد منكم آنفاً فقال رجل نعم يا رسول الله، فقال اني أقول ما لي أنازع القرآن[1] قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يجهر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلوات بالقراءة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ، رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حديث حسن، وأخرجه أيضاً مالك في الموطأ والشافعي وأحمد وابن ماجة وابن حبان.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٦٩١٣.

وقوله: «فانتهى الناس عن القراءة»، مدرج في الخبر كما بينه الخطيب، واتفق عليه البخاري في التاريخ وأبو داود ويعقوب ابن سفيان والذهلي والخطابي وغيرهم.

قال النووي: وهذا مما لا خلاف فيه بينهم والاستدلال به على عدم قراءة المؤتم خلف الإمام خارج عن محل النزاع، لأن الكلام في قراءة المؤتم خلف الإمام سراً والمنازعة إنما تكون مع جهر المؤتم لا مع إسراره، وأيضاً لو سلم دخول ذلك في المنازعة لكان هذا الاستفهام الذي للإنكار عاماً لجميع القرآن أو مطلقاً في جميعه وحديث عبادة خاص أو مقيد.

وقد أجاب المهدي في البحر عن حديث عبادة بأنه معارض بهذا الحديث وهي من معارضة العام بالخاص وهو لا يعارضه، أما على قول من قال من أهل الأصول إنه يبنى العام على الخاص مطلقاً وهو الحق فظاهر، وأما على قول من قال إن العام المتأخر عن الخاص ناسخ له وإنما يخصص المقارن والمتأخر بمدة لا يتسع فكذلك أيضاً لأن عبادة روى العام والخاص في حديثه، فهو من التخصيص بالمقارن فلا يعارض بالمقام على جميع الأقوال.

وأما الاحتجاج بحديث جابر فلم يصل إلا وراء الإمام فهو مع كونه غير مرفوع: مفهوم لا يعارض بمثله منطوق حديث عبادة.

وإذا تقرر لك هذا فقد عرفت مما سبق وجوب الفاتحة على كل إمام ومأموم في كل ركعة وعرفناك أن تلك الأدلة صالحة للاحتجاج بها على أن قراءة الفاتحة من شروط صحة الصلاة وأدلة أهل الخلاف عمومات، وحديث عبادة خاص وبناء الخاص على العام واجب كما تقرر في الأصول، وهذا لا محيص عنه.

والآية الكريمة وما على نحوها من القرآن والحديث لا دلالة فيها على المقصود فمن زعم أنها تصح صلاة من الصلوات أو ركعة من الركعات بدون فاتحة الكتاب فهو محتاج إلى إقامة برهان يخصص تلك الأدلة، ومن هنا يتبين

لك أيضاً ضعف ما ذهب إليه الجمهور من أن من أدرك الإمام راكعاً دخل معه واعتد تلك الركعة وإن لم يدرك شيئاً من القراءة.

وحاصل الكلام أنه لا محيد عن تحتم المصير إلى القول بالفرضية بل القول بالشرطية.

وقد اختلف أهل العلم في قراءتها هل تكون عند سكتات الإمام أو عند قراءته، وظاهر الأحاديث أنها تقرأ عند قراءة الإمام وفعلها حال سكوت الإمام إن أمكن أحوط لأنه يجوز عند أهل الخلاف فيكون فاعل ذلك آخذاً بالإجماع وأما اعتياد قراءتها حال قراءة الإمام للفاتحة فقط او حال قراءته للسورة فقط فليس عليه دليل بل الكل جائز وسنة.

نعم قراءتها حال قراءة الامام للفاتحة مناسب من جهة عدم الاحتياج إلى تأخير الاستعاذة عن محلها الذي هو بعد التوجه، وتمام الكلام على هذا المرام في كتابنا هداية السائل إلى أدلة المسائل وغيره فراجعه.

قال الشوكاني: واختلف في القراءة خلف الامام سراً وجهراً وقد وردت السنة المطهرة بقراءة سورة الفاتحة خلفه مخرجة في الصحيحين وغيرهما فالآية في غير الفاتحة وقد جاءنا بها من جاء بالقرآن، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل[1].

﴿لعلكم ترحمون﴾ أي تنالون الرحمة وتفوزون بها بامتثال أمر الله سبحانه.

---

(١) ذكر السيوطي في الدر ٣/١٥٥.

عن ابن عباس: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في الصلاة المكتوبة. فقرأ أصحابه وراءه رافعين صوتهم فنزلت هذه الآية.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ٢٠٦﴾

﴿واذكر ربك في نفسك﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته لأنه عام لسائر المكلفين قيل المراد بالذكر هنا ما هو أعم من القرآن وغيره من الاذكار التي يذكر الله بها وقال النحاس: لم يختلف في معنى هذا الذكر أنه الدعاء وقيل هو خاص بالقرآن أي اقرأ القرآن بتأمل وتدبر أمره. أن يذكره في نفسه سراً فإن الإخفاء أدخل في الاخلاص وأقرب إلى حسن التفكر وأدعى للقبول.

﴿تضرعاً وخيفة﴾ أي متضرعاً وخائفاً أو متضرعين وخائفين أو ذوي تضرع وخيفة والخيفة الخوف قاله الجوهري وحكى الفراء أنه يقال في جمع خيفة خيف ﴿ودون الجهر﴾ أي دون المجهور به يعني متضرعاً وخائفاً ومتكلماً بكلام هو دون الجهر ﴿من القول﴾ وفوق السر يعني قصداً بينهما ﴿بالغدو والآصال﴾ أي أوقات الغدوات وأوقات الأصائل، والغدو جمع غدوة بضم الغين وسكون الدال وهي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس والآصال جمع أصيل قاله الزجاج والأخفش مثل يمين وأيمان.

وقيل الأصال جمع أصل والأصل جمع أصيل، فهو على هذا جمع الجمع قاله الفراء وليس للقلة وليس جمعاً لأصيل لأن فعيلاً لا يجمع على أفعال، وقيل إنه جمع لأصل مفرداً كعنق، قال الجوهري: الأصيل الوقت من بعد العصر إلى المغرب وجمعه أصل وآصال وأصائل كأنه جمع أصيلة ويجمع أيضاً على أصلان مثل بعير وبعران.

وقرأ أبو مجلز واسمه لاحق بن حميد السدوسي البصري وهي شاذة

والايصال وهو مصدر آصل إذا دخل في الأصيل وهو مطابق للغدو في الافراد والمصدرية، قال قتادة: الغدو صلاة الصبح والأصال الصلاة بالعشي وعن أبي صخر قال الآصال ما بين الظهر والعصر، وقال ابن زيد: بالبكر والعشي وقال مجاهد: الغدو آخر الفجر صلاة الصبح والآصال آخر العشي صلاة العصر.

وخص هذين الوقتين لشرفهما ولأن الانسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو أخو الموت فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر الله عز وجل، وأما وقت الآصال وهو أخر النهار فإن الانسان يريد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت فيستحب له أن يشغله بالذكر لأنها حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله عز وجل.

وقيل إن أعمال العباد تصعد أول النهار وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر، ويصعد عمل النهار بعد العصر إلى الغروب، فاستحب له الذكر في هذين الوقتين ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه به، وقيل غير ذلك والمراد دوام الذكر لله.

﴿ولا تكن من الغافلين﴾ عن ذكر الله وعما يقربك إلى الله.

﴿إن الذين عند ربك﴾ المراد بهم الملائكة قال القرطبي: بالاجماع قال الزجاج: وقال عند ربك والله عز وجل بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده فالمراد بالعندية القرب من الله بالزلفى والرضا لا المكانية أو المراد عند عرش ربك قاله الشهاب، والمراد بقوله والله بكل مكان أي علمه وقدرته وهو بائن من خلقه مستوي على عرشه كما وصف به نفسه في غير موضع من الكتاب العزيز.

وقال القرطبي: يعني أنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله وقيل إنهم

رسل الله كما يقال عند الخليفة جيش كبير، وقيل هذا على جهة التشريف والتكريم لهم وأنهم بالمكان المكرم وهو عبارة عن قربهم في الكرامة لا في المسافة.

﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ أي لا يتعظمون عنها لأنهم عبيده ومعنى ﴿ويسبحونه﴾ يعظمونه وينزهونه عن كل شين ﴿وله يسجدون﴾ أي يخصونه بعبادة السجود التي هي أشرف عباده، وقيل المراد بالسجود الخضوع والذلة، وفي ذكر الملأ الأعلى تعريض لبني آدم، وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن والأحاديث والآثار عن الصحابة في سجود التلاوة وعدد المواضع التي يسجد فيها وكيفية السجود وما يقال فيه مستوفاة في كتب الحديث والفقه فلا نطول بايراد ذلك ههنا[1].

---

(١) وقيل: سبب نزول هذه الآية أن كفار مكة قالوا: أنسجد لما تأمرنا؟ فنزلت هذه الآية تخبر أن الملائكة وهم أكبر شأناً منكم، لا يتكبرون عن عبادة الله. وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويله، أُمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرتُ بالسجود فعصيت فلي النار».

رواه مسلم ٨٧/١، وابن ماجة ٣٣٤/١ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأورده السيوطي في «الدر» ١٥٨/٣ وزاد نسبته للبيهقي.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الانفال

صرح كثير من المفسرين بأنها مدنية لم يستثنوا منها شيئا . وبه قال الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء وعبد الله بن الزبير وزيد ابن ثابت . وعن ابن عباس أنه قال : نزلت في بدر ، وفي لفظ تلك سورة بدر . قال القرطبي وعنه : هي مدنية الا سبع آيات من قوله : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ الى آخرها ، يعني فانها مكية .

« قلت » وان كانت في شأن الواقعة التي وقعت بمكة فلا يلزم أن تكون كذلك فالآيات نزلت بالمدينة تذكيرا بما وقع في مكة . فهذا القول ضعيف والاول هو الاصح . وجملة آياتها خمس أو ست أو سبع وسبعون آية . وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ بها في صلاة المغرب كما أخرجه الطبراني بسند صحيح عن أبي أيوب .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

﴿يسألونك﴾ يا محمد ﴿عن الانفال﴾ جمع نفل محركاً وهو الغنيمة أي الغنائم لمن هي، وبه قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وأكثر المفسرين على أنها نزلت في غنائم بدر، وأصل النفل الزيادة وسميت الغنيمة به لانها زيادة فيها أحل الله لهذه الامة مما كان محرماً على غيرهم، أو لانها زيادة على ما يحصل للمجاهدين من أجر الجهاد.

ويطلق النفل على معان أخر منها اليمين والابتغاء ونبت معروف، والنافلة التطوع لكونها زائدة على الواجب والنافلة ولد الولد لأنه زيادة على الولد.

وهو سؤال استفتاء لان هذا أول تشريع الغنيمة، وفاعل السؤال من حضر بدراً، وقال الضحاك وعكرمة: هو سؤال طلب، وعن بمعنى من، وهذا لا ضرورة تدعو إليه، وقيل صلة ويؤيده قراءة سعد بن ابي وقاص وابن مسعود وعلي بن الحسين وغيرهم بدون عن، والصحيح أنها على إرادة حرف الجر.

وكان سبب نزول الاية اختلاف الصحابة في غنائم يوم بدر، فقال الشبان: هي لنا لأنا باشرنا القتال، وقال الشيوخ: كنارِدْءاً لكم تحت الرايات، ولو انكشفتم أي انهزمتم لفئتم أي لرجعتم الينا، فنزع الله ما غنموه من أيديهم وجعله لله والرسول فقال: ﴿قل﴾ لهم ﴿الانفال لله والرسول﴾ أي حكمها مختص بها يقسمها بينكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر الله سبحانه حيث شاء، وليس لكم حكم في ذلك، فقسمها صلى الله عليه

وسلم بينهم على السواء، رواه الحاكم في المستدرك.

وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين الى أن الأنفال كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ليس لأحد فيها شيء حتى نزل قوله تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه﴾ فهي على هذا منسوخة، وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي، وقال ابن زيد: محكمة مجملة، وقد بين الله مصارفها في آية الخمس، وللامام ان ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس.

﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي نفس ما بينكم، والذي بينهم هو الوصلة الاسلامية، فالبين هنا بمعنى الاتصال كما في قوله: ﴿لقد تقطع بينكم﴾ والبين يطلق على الضدين الاتصال والفراق، وذات هذا البين هي حاله أي الامور التي تحققه بالمودة وترك النزاع ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ أمرهم بالتقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما وترك الاختلاف الذي وقع بينهم، وقال: امتثلوا هذه الأوامر الثلاثة ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ بالله جوابه كما ذهب اليه أبو العباس المبرد وغيره أطيعوا الله السابق، إذ يجوز عندهم تقديم الجواب على الشرط، والصحيح ما ذهب اليه سيبويه وهو أنه محذوف لدلالة ما قبله عليه.

وفيه من التهييج والالهاب والتنشيط للمخاطبين والحث لهم على المسارعة الى الامتثال ما لا يخفى مع كونهم في تلك الحال على الايمان فكأنه قال ان كنتم مستمرين على الايمان بالله لان هذه الامور الثلاثة لا يكمل الايمان بدونها، بل لا يثبت أصلاً لمن لم يمتثلها، فإن من ليس بمتق وليس بمطيع لهما ليس بمؤمن، قال عطاء: طاعة الله والرسول اتباع الكتاب والسنة. أخرجه ابن ابي حاتم.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

﴿إنما المؤمنون﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان من أريد بالمؤمنين بذكر أوصافهم الجليلة المستتبعة لما ذكر من الخلال الثلاث، وفيه مزيد ترغيب لهم في الامتثال بالأوامر المذكورة، أي إنما الكاملون في الايمان المخلصون فيه.

﴿الذين اذا ذكر الله﴾ أي وعيده ﴿وجلت﴾ أي فزعت وخضعت وخافت ورقت ﴿قلوبهم﴾ لذكر الله استعظاماً له وتهيباً من جلاله، والوجل الخوف والفزع، يقال وجل بالكسر في الماضي يوجل بالفتح، وقرىء كوعد يعد ويقال بإثبات الواو في المضارع، والمراد ان حصول الخوف من الله والفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملي الايمان المخلصين لله، فالحصر باعتبار كمال الايمان لا باعتبار أصل الايمان.

قال جماعة من المفسرين: هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما أمر به من قسمة الغنائم، ولا يخفاك أن هذا وان صح ادراجه تحت معنى الآية من جهة أن وجل القلوب عند الذكر وزيادة الايمان عند تلاوة آيات الله يستلزمان امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال لله والرسول.

ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو اثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بحال دون حال، ولا بوقت دون وقت، ولا بواقعة دون واقعة.

وعن ابن عباس: وجلت فرقت، وقال المنافقون: لا يدخل قلوبهم شيء

من ذكر الله عند أداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون على الله ولا يصلون اذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله انهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ فأدوا فرائضه.

وعن أم الدرداء قالت: انما الوجل في القلب كاحتراق السعفة يا شهر ابن حوشب أما تجد قشعريرة؟ قلت: بلى، قالت: فادع عندها فإن الدعاء يستجاب عند ذلك، وقال ثابت البناني: قال فلان إني لأعلم متى يستجاب لي، قالوا: ومن أين لك؟ قال: إذا اقشعر جلدي ووجل قلبي وفاضت عيناي فذلك حين يستجاب لي.

وعن عائشة قالت: ما الوجل في قلب المؤمن إلا كضرمة السعفة فإذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك، وعن السدي قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فيقال له اتق الله فيجل قلبه، فإن قيل، قال: هنا وجلت قلوبهم وقال في آية أخرى ﴿وتطمئن قلوبهم﴾ فكيف الجمع بينهما، قلت: الاطمئنان بذكره بصفات الجمال، والوجل انما هو بذكر وعيده.

﴿واذا تليت عليهم آياته﴾ المراد من التلاوة الآيات المنزلة أو التعبير عن بديع صنعته وكمال قدرته في آياته التكوينية بذكر خلقها البديع وعجائبها التي يخشع عند ذكرها المؤمنون ﴿زادتهم ايماناً﴾ أي تصديقاً، قاله ابن عباس، وعن الربيع بن أنس قال خشية، والمراد بزيادة الايمان هو زيادة انشراح الصدر وطمأنينة القلب وانفلاح الخاطر عند تلاوة الآيات.

وقيل المراد بها زيادة العمل لأن الايمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، والايات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه، والاية صريحة في زيادة الإيمان، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان[1]، أخرجه الشيخان.

وفي هذا دليل على أن الايمان فيه أعلى وأدنى، وإذا كان كذلك كان قابلاً للزيادة والنقصان، قال الواحدي عن عامة أهل العلم: إن كل من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان إيمانه أزيد، قال الكرخي: ان نفس التصديق يقبل القوة وهي التي عبر عنها بالزيادة للفرق المميز بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشفات ويقين آحاد الامة.

ويؤيد ذلك قول عليّ رضي الله عنه لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، وكذا من قام عليه دليل واحد ومن قامت عليه أدلة كثيرة لأن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه، وعليه يحمل ما نقل عن الشافعي من أنه يقبل الزيادة والنقص، فلا يرد كيف قال ذلك مع أن حقيقة الايمان عند الاكثر لا تزيد ولا تنقص كالإلهية والوحدانية اهـ. وقيل المعنى أنهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا بإقرار جديد وتصديق جديد فكان ذلك زيادة في إيمانهم.

﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ التوكل على الله تفويض الأمر إليه في جميع الأمور قال ابن عباس: لا يرجون غيره، وعلى بمعنى الباء ويتوكلون بمعنى يثقون، وتقديم المعمول للحصر، وقال السمين التقديم يفيد الاختصاص أي عليه لا على غيره والجملة في محل الحال أو مستأنفة أو معطوفة على الصلة.

﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ المفروضة بحدودها وأركانها في أوقاتها، ومن في ﴿ومما﴾ للتبعيض ﴿رزقناهم ينفقون﴾ ويدخل فيه النفقة في الزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الانفاق في أنواع البر والقربات، وخص إقامة الصلاة والصدقة لكونهما أصل الخير وأساسه.

---

(١) مسلم /٥٩ - البخاري /٣١.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

﴿أولئك﴾ أي المتصفون بالأوصاف المتقدمة ﴿هم المؤمنون﴾ أي الكاملون الايمان البالغون فيه الى أعلى درجاته وأقصى غاياته ﴿حقاً﴾ أي حق ذلك حقاً أو ايماناً حقاً يعني يقيناً لا شك في إيمانهم وصدقاً لا ريب فيه، قال ابن عباس: برئوا من الكفر، وحقاً أي خالصاً وقيل التقدير حقاً لهم درجات، وهذا إنما يجوز على رأي ضعيف أعني تقديم المصدر المؤكد لمضمون جملة عليها.

وقد استدل بظاهر هذه الآية أبو حنيفة ومن قال بقوله انه يجوز أن يقول أنا مؤمن حقاً ولا يجوز الاستثناء، وأجيب عنه بأن الاستثناء ليس على طريق الشك بل للتبرك كقوله: وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع العلم القطعي أنه لاحق بهم أو المراد صرف الاستثناء إلى الخاتمة، والنزاع عند التحقيق لفظي كما تقرر في موطنه، وانما حكم سبحانه بكونهم مؤمنين حقاً في هذه الاية إذا أتوا بتلك الاوصاف الخمسة كما يفيده لفظة انما لانها للحصر.

﴿لهم درجات﴾ يعني فضائل ورحمة، قاله سعيد بن جبير، وعن مجاهد قال: أعمال رفيعة، وقال الضحاك: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الاسفل فضل أحد عليه، ذكر ما أعد لمن كان جامعاً بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال لهم منازل خير وكرامة وشرف في الجنة كائنة ﴿عند ربهم﴾ وفي كونها عنده سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم وتعظيم وتفخيم.

﴿ومغفرة﴾ لذنوبهم، وعن ابن زيد قال: بترك الذنوب ﴿ورزق كريم﴾ دائم مستمر يكرمهم الله به من واسع فضله وفائض جوده، وعن ابن زيد قال: هو الاعمال الصالحة، وعن محمد بن كعب القرظي قال: اذا سمعتم الله يقول: ﴿ورزق كريم﴾ فهي الجنة.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥﴾

﴿كما أخرجك ربك﴾ قال الزجاج: أي الانفال ثابتة لك مثل إخراج ربك، وبه قال المبرد، والمعنى امض لامرك في الغنائم ونفل من شئت وان كرهوا لأن بعض الصحابة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين جعل لكل من أتى بأسير شيئاً قال: بقي أكثر الناس بغير شيء، فموضع الكاف نصب، وقال أبو عبيدة: هو قسم أي والذي أخرجك فالكاف بمعنى الواو، وما بمعنى الذي.

وقال الاخفش: المعنى أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك، وقال عكرمة: المعنى أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ربك، وقيل الكاف كاف التشبيه على سبيل المجازاة، وقيل بمعنى عل أي امض على الذي أخرجك فانه حق، وقيل بمعنى اذ أي اذكر يا محمد اذ أخرجك.

وقيل هذه الحال كحال اخراجك يعني أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب، ذكره صاحب الكشاف، وقال السمين فيه عشرون وجهاً، (الثاني) منها أن تقديره أصلحوا ذات بينكم اصلاحاً كما اخرجك، وقد التفت من خطاب الجماعة الى خطاب الواحد.

(الثالث) تقديره واطيعوا الله ورسوله طاعة ثابتة محققة كما اخرجك (الرابع) تقديره يتوكلون توكلاً حقيقياً كما اخرجك (السادس عشر) منها تقديره قسمتك الغنائم حق كما كان اخراجك حقاً (السابع عشر) ان التشبيه وقع بين اخراجين اهـ.

﴿من بيتك﴾ أي المدينة أو بيتك الذي بها ﴿بالحق﴾ اي اخراجاً متلبساً بالحق لا شبهة فيه وقال مجاهد كما اخرجك ربك من بيتك بالحق كذلك

يجادلونك في خروج القتال، وعن السدي قال: خروج النبي ﷺ إلى بدر، وقيل المراد اخراجه من مكة الى المدينة للهجرة، والاول اولى، وبه قال جمهور المفسرين.

وقيل هذا الوعد للمؤمنين حق في الاخرة كما اخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له فأنجز وعدك وظفرك بعدوك واوفى لك، ذكره النحاس واختاره، وفي الجمل اي اخرجك من المدينة لتأخذ العير التي مع ابي سفيان اي فتغنمها فأصل خروج النبي والمؤمنين لأجل ان يغنموا القافلة فلم تكن في خروجهم كراهة وانما عرضت لهم الكراهة بعد الخروج قريب بدر لما اخبروا ان العير نجت منهم وان قريشاً اتوا الى بدر،

وأشار عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم يمضون الى قتال قريش الذين خرجوا ليذبوا المسلمين عن القافلة فكره المسلمون القتال لا عصياناً بل بالطبع، حيث خرجوا من غير استعداد للقتال لا بعدد ولا بعدد، وإنما كان أصل خروجهم لأخذ الغنيمة لقوله:

﴿وان فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ حال مقدرة لما علمت ان الكراهة لم تقارن الخروج وقيل اي كما اخرجك في حال كراهتهم لذلك لانه لما وعدهم الله احدى الطائفتين اما العير أو النفير، رغبوا في العير لما فيها من الغنيمة والسلامة من القتال وكرهوه لقلة عددهم وسلاحهم وكثرة عدوهم وسلاحهم، وفي ﴿لكارهون﴾ مراعاة معنى الفريق.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾

﴿يجادلونك﴾ ومجادلتهم لما ندبهم إلى إحدى الطائفتين وفات العير وأمرهم بقتال النفير ولم يكن معهم كثير أهبة لذلك شق عليهم وقالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة وأكملنا الأهبة، والجملة مستأنفة أو حال ثانية أي أخرجك حال مجادلتهم أو حال من الضمير في ﴿لكارهون﴾ أي لكارهون في حال الجدال، والضمير يجوز أن يعود على الكفار وجدالهم ظاهر، والظاهر أنه يعود على الفريق المتقدم.

﴿في الحق﴾ أي في القتال ﴿بعد ما تبين﴾ لهم أنك لا تأمر بشيء إلا بإذن الله، أو بعد ما تبين لهم ان الله وعدهم بالظفر بإحدى الطائفتين وأن العير اذا فاتت ظفروا بالنفير ﴿كأنما يساقون إلى الموت﴾ أي حال كونهم في شدة فزعهم من القتال يشبهون حال من يساق بالعنف والصغار ليقتل ﴿وهم ينظرون﴾ يعني الى الموت كمن هو مشاهد لأسباب قتله ناظر إليها بعينه لا يشك فيها، والجامع بينهما الكراهة في كل.

﴿واذ يعدكم الله احدى الطائفتين﴾ أي واذكروا وقت وعد الله اياكم وأمرهم بتذكر الوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث لقصد المبالغة، والطائفتان هما فرقة أبي سفيان مع العير، وفرقة أبي جهل مع النفير.

﴿أنها﴾ أي احدى الطائفتين مسخرة ﴿لكم﴾ وانكم تغلبونها وتغنمون منها وتصنعون بها ما شئتم من قتل وأسر وغنيمة لا يطيقون لكم دفعاً، ولا يملكون لأنفسهم منكم ضراً ولا نفعاً، وفي هذه الجملة تذكير لهم بنعمة من

النعم التي أنعم الله بها عليهم.

﴿وتودون﴾ أي تريدون وتتمنون، معطوف على يعدكم من جملة الحوادث التي أمروا بذكر وقتها ﴿أن غير ذات الشوكة﴾ من الطائفتين وهي طائفة العير التي ليس فيها قتال ولا شوكة ﴿تكون لكم﴾ دون ذات الشوكة وهي طائفة النفير، قال أبو عبيدة: أي غير ذات الحد، والشوكة السلاح والنبت الذي له حد، ومنه رجل شائك السلاح أي حديد السلاح ثم يقلب فيقال شاكي السلاح فالشوكة مستعارة من واحدة الشوك.

والمعنى: وتودون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح وهي طائفة العير لأنها غنيمة صافية عن كدر القتال، إذ لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها، قال الضحاك: وهي عير أبي سفيان، ودّ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن العير كانت لهم وأن القتال صرف عنهم.

﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ وهو من جملة ما أمروا بذكر وقته أي ويريد الله غير ما تريدون وهو أن يحق الحق بإظهاره لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة وقتلكم لصناديدهم، وأسر كثير منهم واغتنام ما غنمتم من أموالهم التي أجلبوا بها عليكم وراموا دفعكم بها، والمراد بالكلمات الآيات التي أنزلها في محاربة ذات الشوكة، ووعدكم منه بالظفر بها، وقيل الكلمات عداته التي سبقت لكم من اظهار الدين وإعزازه، وقيل أسباب النصر مثل نزول الملائكة وأوامره لهم بالامداد.

﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ الدابر الآخر، وقطعه عبارة عن الاستئصال، والمعنى ويستأصلهم جميعا حتى لا يبقى منهم أحد.

لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ
فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ
إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ هذه الجملة علة لما يريده الله أي أراد ذلك أو يريده ليظهر الحق ويرفعه وهو الاسلام ، ويبطل الباطل ، ويضعه وهو الكفر ، أو فعل ذلك ليحق الحق .

وليس في هذه الجملة تكرير لما قبلها لان الاولى لبيان التفاوت فيما بين الارادتين، وهذه لبيان الحكمة الداعية الى ذلك، والعلة المقتضية له والمصلحة المترتبة عليه، وقيل لا يقال فيه تحصيل الحاصل اذ المراد بالحق الايمان، وبالباطل الشرك وقيل المراد بالأول تثبيت ما وعد به في هذه الواقعة من النصرة والظفر بالأعداء، وبالثاني تقوية الدين وإظهار الشريعة لأن الذي وقع يوم بدر من نصر المؤمنين مع قلتهم، ومن قهر الكافرين مع كثرتهم كان سبباً لاعزاز الدين وقوته ولهذا قرنه بقوله ويبطل الباطل.

﴿ولو كره﴾ أن يحق الحق ويبطل الباطل ﴿المجرمون﴾ أي المشركون من قريش أو جميع طوائف الكفار، ووقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث والسير والتواريخ مستوفاة فلا نطيل بذكرها.

﴿اذ تستغيثون ربكم﴾ أي اذكروا وقت استغاثتكم، تذكير لهم بنعمة أخرى والمقام للماضي، وانما عبر بالمضارع حكاية للحال الماضية أي اذ تستغيثون بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر، والاستغاثة طلب الغوث يقال استغاثني فلان فأغثته والاسم الغياث.

والمعنى أن المسلمين لما علموا أنه لا بد من قتال الطائفة ذات الشوكة

وهم النفير كما أمرهم الله بذلك وأراده منهم، ورأوا كثرة عدد النفير وقلة عددهم استغاثوا بالله سبحانه، وهو معنى قول الازهري، وقيل المستغيث هو رسول الله ﷺ وحده، وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له.

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب أن عدد المشركين يوم بدر ألف، وعدد المسلمين ثلثمائة وسبعة عشر رجلاً، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما رأى ذلك استقبل القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آتني ما وعدتني، اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبية ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل هذه الاية[1].

﴿فاستجاب لكم﴾ عطف على ﴿تستغيثون﴾ داخل معه في التذكير وهو وان كان مستقبلاً فهو بمعنى الماضي ولهذا عطف عليه استجاب ﴿أني﴾ أي بأني ﴿ممدكم﴾ بوعدي اياكم بالامداد وذلك لانه وقت الاجابة لم يحصل الامداد بالفعل لان الدعاء واستجابته كانا قبل وقوع القتال.

﴿بألف من الملائكة مردفين﴾ قرىء بكسر الدال وفتحها وهما واضحتان لأنه يروى في التفسير أنه كان وراء كل ملك ملك رديفاً له، فقراءة الفتح تشعر بأن غيرهم أردفهم لركوبهم خلفهم وقراءة الكسر تشعر بأن الراكب خلف صاحبه قد أردفه فصح التعبير باسم الفاعل تارة واسم المفعول أخرى.

وجعل أبو البقاء مفعول مردفين بالكسر محذوفاً أي مردفين أمثالهم، ويجوز أن يكون معنى الارداف المجيء بعد الاوائل أي جعلوا ردفاً للاوائل، قاله السمين.

---

(١) مسلم /١٧٦٣.

وقد قيل ان ردف وأردف بمعنى واحد، وأنكره أبو عبيدة قال لقوله تعالى: ﴿تتبعها الرادفة﴾ ولم يقل المردفة، قال ابن عباس: مردفين متتابعين، وعنه قال: المدد، وعنه قال: وراء كل ملك ملك، وعن الشعبي قال: كان ألف مردفين وثلاثة آلاف منزلين وكانوا أربعة آلاف وهم مدد المسلمين في ثغورهم.

وقال مجاهد: مردفين ممدين، وقال قتادة: متتابعين أمدهم الله بألف ثم بثلاثة ثم أكملهم خمسة آلاف، وعن علي قال: نزل جبريل في خمسمائة من الملائكة عن ميمنة النبي صلى الله عليه وسلم وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في خمسمائة من الملائكة عن ميسرة النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الميسرة.

وعن مجاهد قال: ما أمد النبي ﷺ بأكثر من هذه الألف التي ذكر الله في الانفال، وما ذكر الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف إلا بشرى، قال في الجمل: لم يثبت أن الملائكة قاتلت في وقعة إلا في بدر، وأما في غيرها فكانت تنزل لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل كما وقع في حنين.

﴿وما جعله الله﴾ أي الإمداد المدلول عليه بقوله أني ممدكم ﴿إلا بشرى﴾ أي بشارة لكم بنصره وهو استثناء مفرغ أي ما جعل إمدادكم بشيء من الاشياء إلا للبشرى لكم بالنصر ﴿ولتطمئن به﴾ أي بالامداد ﴿قلوبكم﴾ وفي هذا اشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا بل أمد الله المسلمين بهم للبشرى لهم ولتثبت قلوبهم يعني بنزول الملائكة، قال قتادة: وذكر لنا أن عمر قال أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة كانوا معنا، وأما بعد ذلك فالله أعلم.

﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ لا من عند غيره ليس للملائكة في ذلك أثر فهو الناصر على الحقيقة وليسوا إلا سبباً من أسباب النصر التي سببها الله لكم وأمدكم بها، وفيه تنبيه على أن الواجب على المسلم أن لا يتوكل إلا على الله في جميع أحواله ولا يثق بغيره فان الله تعالى بيده الظفر والاعانة ﴿ان الله عزيز﴾ لا يغالب ﴿حكيم﴾ في كل أفعاله.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ
وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ (١١) إِذْ
يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)

﴿اذ يغشيكم﴾ الفاعل هو الله وفيه ثلاث قرآت سبعية يغشاكم كيلقاكم من غشيه: اذا أتاه وأصابه، ويغشيكم من أغشاه أي أنزله بكم وأوقعه عليكم، ويغشيكم من غشاه تغشية غطاه، وقيل الفاعل ﴿النعاس أمنة منه﴾ وهو النوم الخفيف والأكثر على الاول وهذه الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم الله بها عليهم، وهي أنهم مع خوفهم من لقاء العدو والمهابة لجانبه، سكن الله قلوبهم وأمنها حتى ناموا آمنين غير خائفين وكان هذا النوم في الليلة التي كان القتال في غدها.

قيل وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان.

احدهما: أنه قواهم بالاستراحة على القتال من الغد.

والثاني: أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم، وقيل ان النوم غشيهم في حال التقاء الصفين، وقد مضى في يوم أحد نحو من هذا في سورة آل عمران.

عن علي قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي تحت شجرة حتى أصبح، قال مجاهد: أمنة منه أي أمنا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم.

وقال قتادة: رحمة منه أمنة من العدو، وعنه قال: النعاس في الرأس والنوم في القلب، وعنه قال: كان النعاس أمنة من الله وكان النعاس نعاسين يوم بدر ويوم أحد، وقال ابن مسعود: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان، وقيل ان ذلك النعاس كان في حكم المعجزة لأنه أمر خارق للعادة.

﴿وينزل عليكم من السماء ماء﴾ هذا المطر كان بعد النعاس وقيل قبله، وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه، وبقي المؤمنون لا ماء لهم فأنزل الله المطر ليلة بدر.

والذي في سيرة ابن اسحق وغيره أن المؤمنين هم الذين سبقوا الى ماء بدر وأنه منع قريشا من السبق إلى الماء مطر عظيم، ولم يصب المسلمين منه إلا ما شد لهم دهس الوادي وأعانهم على المسير، وقال مجاهد: المطر أنزله الله عليهم قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار والتبدت به الأرض وطابت به أنفسهم، وثبتت به أقدامهم.

وعن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهساً وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد الأرض ولم يمنعهم المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه.

﴿ليطهركم به﴾ أي ليرفع عنكم الاحداث والجنابة، عن ابن عباس: أن المشركين غلبوا المسلمين في أول امرهم على الماء فظمأ المسلمون وصلوا مجنبين محدثين، وقد قدمنا ان المشهور في كتب السير المعتمدة ان المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء، وهذا المروي عن ابن عباس في اسناده العوفي وهو ضعيف جداً.

﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ أي وسوسته لكم بما كان قد سبق إلى قلوبكم من الخواطر التي منها الخوف والفشل حتى كانت حالكم حال من يساق الى الموت، والرجز في الأصل العذاب الشديد، واريد به هنا نفس وسوسة الشيطان مجازاً لمشقتها على اهل الايمان كما قيل كل ما اشتدت مشقته على النفوس فهو رجز.

﴿وليربط على قلوبكم﴾ بالنصر واليقين فيجعلها صابرة قوية ثابتة في مواطن الحرب، والربط في اللغة الشد، وكل من صبر على امر فقد ربط نفسه عليه، قيل لفظة على صلة كذا في الوسيط وقيل للاستعلاء أي أن القلوب

امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها ذكره الواحدي.

﴿ويثبت به﴾ أي بالماء الذي انزله الله عند الحاجة اليه، وقيل الضمير راجع إلى الربط المدلول عليه بالفعل ﴿الأقدام﴾ أي اقدامكم في مواطن القتال ومعارك الجدال، وقال قتادة: كان الوادي دهاساً فلما مطروا اشتدت الرملة وسهل المشي عليه لأن العادة ان المشي في الرمل عسر فإذا نزل عليه الماء وجد سهل المشي ولم يبق فيه غبار يشوش على الماشي فيه.

﴿اذ يوحي ربك﴾ اي اذكر يا محمد وقت ايحاء ربك لانه لا يقف على ذلك سواه وقيل يثبت الاقدام وقت الوحي، وليس لهذا التقييد معنى، وقيل العامل فيه ليربط، ولا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الايحاء ﴿إلى الملائكة﴾ الذين امد بهم المسلمين ﴿اني معكم﴾ بالنصر والمعونة.

عن ابي امامة بن سهل بن حنيف قال: قال لي ابي: يا بني لقد رأيتنا يوم بدر وان أحدنا ليسير سيفه الى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل ان يصل اليه السيف وعن الربيع بن أنس قال: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب على الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحترق به.

﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ أي بشروهم بالنصر والظفر او ثبتوهم على القتال بالحضور معهم وتكثير سوادهم، أو قووا قلوبهم، وهذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

واختلفوا في كيفية هذه التقوية والتثبيت فقيل كما أن الشيطان له قوة في إلقاء الوسوسة في قلب ابن آدم بالشر، فكذلك للملك قوة إلقاء الإلهام في قلب ابن آدم بالخير، ويسمى ما يلقي الشيطان وسوسة، وما يلقي الملك لمة والهاما فهذا هو التثبيت.

﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ أي الخوف فلا يكون لهم ثبات، وقد تقدم بيان معنى القاء الرعب في آل عمران، وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين حيث ألقى الرعب في قلوب الكفار، قيل هذه الجملة تفسير

لقوله أني معكم وكانت الملائكة لا تعرف قتال بني آدم فعلمهم الله ذلك بقوله: ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ المراد بها أنفسها، قاله عطية، وفوق زائدة قاله الاخفش وغيره.

وقال محمد بن يزيد: وهذا عند الجمهور خطأ لأن فوق يفيد معنى فلا يجوز زيادتها ولكن المعنى أنه أبيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منها، وقيل المراد الرؤوس قال عكرمة: وهذا ليس بجيد لأن فوق لا يتصرف، وزعم بعضهم أنه يتصرف، وانك تقول فوق رأسك برفع فوق وهو ظاهر قول الزمخشري، وقال أبو عبيدة إنها بمعنى (على) تقديره فاضربوهم على الاعناق وهو قريب من الأول.

وقال ابن قتيبة: هي بمعنى (دون) قال ابن عطية: وهذا خطأ بين، وغلط فاحش وانما دخل عليه اللبس من قوله تعالى: ﴿بعوضة فما فوقها﴾ أي فما دونها، وليست فوق هنا بمعنى دون، وانما المراد فما فوقها في القلة والصغر، وعن الضحاك قال: اضربوا الرقاب وقيل المراد بفوق الاعناق أعاليها لأنها المفاصل التي يكون الضرب فيها أسرع الى القطع. قاله في الكشاف، قيل هذا أمر للملائكة فيكون متصلاً بما قبله، وقيل للمؤمنين فيكون منقطعاً عما قبله، وعلى الاول قيل هو تفسير لقوله فثبتوا الذين آمنوا.

﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ أي كل مفصل، قال الزجاج: واحد البنان بنانة وهي هنا الاصابع وغيرها من الأعضاء، والبنان مشتق من قولهم أبن الرجل بالمكان اذا أقام به لانه يعمل بها ما يكون للاقامة والحياة، وقيل المراد بالبنان هنا اطراف الاصابع من اليدين والرجلين وهو عبارة عن الثبات في الحرب، فاذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء.

قال ابن فارس: البنان الأصابع، وقال عطية: كل مفصل بنانة، وقال ابن عباس: الاطراف، وقال أبو الهيثم: البنان المفاصل قيل أمرهم الله بضرب أعلى الجسد، وهو الرأس وفيه هلاك الانسان، وبضرب أضعف الاعضاء وهو البنان، وفيه تعطيل حركة الانسان فيدخل في ذلك كل عضو في الجسد.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾

﴿ذلك﴾ اشارة إلى ما وقع عليهم من القتل والاسر ودخل في قلوبهم من الرعب ﴿بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي بسبب مشاقتهم، والمشاقة المخالفة وأصلها من المجانبة وكذا الشقاق أصله أن يصير كل واحد من الخصمين في شق كأنهم صاروا في شق وجانب عن شق المؤمنين وجانبهم، وهذا مجاز معناه أنهم شاقوا أولياء الله وهم المؤمنون أو شاقوا دين الله وقد تقدم تحقيق ذلك.

﴿ومن يشاقق الله﴾ أي يخالفه ويجانبه ﴿ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ له يعاقبه بسبب ما وقع منه من الشقاق يعني ان الذي نزل بهم في ذلك اليوم من القتل والاسر شيء قليل فيما أعد الله لهم من العقاب يوم القيامة، والشرطية تكملة لما قبلها وتكرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهاني، كأنه قيل ذلك العقاب الشديد بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاقق الله ورسوله كائناً من كان فله بذلك عقاب شديد، فإذا لهم بسبب مشاقتهم عقاب شديد قاله أبو السعود ﴿ذلكم﴾ اشارة الى ما تقدم من العقاب والعذاب بالقتل والاسر، وفيه أوجه منها العقاب ذلكم أو الامر ذلكم (الثاني) ذلكم العقاب ﴿فذوقوه﴾ الخطاب هنا للكافرين، كما أن الخطاب في قوله ذلكم للنبي ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب، وأشار بالذوق الى أن عذاب الدنيا عاجل يسير بالاضافة الى المؤجل.

﴿وأنّ للكافرين عذاب النار﴾ معطوفة على ما قبلها فتكون الاشارة على هذا الى العقاب العاجل الذي أصيبوا به، ويكون ذلك اشارة الى العقاب

الأجل الذي أعده الله لهم في الآخرة، ووضع الظاهر فيه موضع المضمر للدلالة على أن الكفر سبب العذاب الأجل أو الجمع بينهما، وفي (أن) وجوه خمسة ذكرها السمين.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا﴾ الزحف الدنو قليلاً قليلاً وأصله الاندفاع على الالية ثم سمى كل ماش في الحرب الى آخر زاحفاً، والتزاحف التداني والتقارب، يقال زحف الى العدو زحفاً وازدحف القوم أي مشى بعضهم الى بعض، ويطلق على الجيش الكثير زحف تسمية بالمصدر والجمع زحوف، أي حال كونكم زاحفين الى الكفار أو حال كون الكفار زاحفين اليكم أو متزاحفين على أدبارهم في بطء السير، وذلك لان الجيش اذا كثر والتحم بعضهم ببعض يتراءى ان سيره بطيء وان كان في نفس الامر سريعاً فالمقصود من هذه الحال بعد كون المراد التشبيه ما يلزم هذه المشابهة وهو الكثرة أي مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون.

﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ أي ظهوركم منهزمين منهم، فإن المنهزم يولي ظهره ودبره. نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم وقد دب بعضهم الى بعض للقتال وظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن وعلى كل حال إلا في حالة التحريف والتحيز.

وقد روي عن عمر وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأبي بصرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن أبي حبيب والضحاك أن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية مختص بيوم بدر، وأن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا، ولو انحازوا لانحازوا الى المشركين إذ لم يكن في الارض يومئذ مسلمون غيرهم ولا لهم فئة إلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأما بعد ذلك فان بعضهم فئة لبعض، وبه قال أبو حنيفة، قالوا ويؤيده قوله: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ فإنه اشارة إلى يوم بدر، وقيل ان هذه

الآية منسوخة بآية الضَّعف.

وذهب جمهور العلماء الى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة وان الفرار من الزحف محرم، ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب في يوم بدر وأجيب عن قول الأولين بأن الاشارة في ﴿يومئذ﴾ الى يوم بدر بأن الاشارة الى يوم الزحف كما يفيده السياق.

ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف بل هذه الاية مقيدة بها فيكون الفرار من الزحف محرماً بشرط ما بينه الله في آية الضعف.

ولا وجه لما ذكروه من أنه لم يكن في الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها فقد كان في المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج، لأنه صلى الله عليه وسلم ومن خرج معه لم يكونوا يرون في الابتداء أنه سيكون قتال.

ويؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر كما في حديث:اجتنبوا السبع الموبقات وفيه «والتولي يوم الزحف» ونحوه من الأحاديث، وهذا البحث تطول ذيوله وتتشعب طرقه وهو مبين في مواطنه، وورد عن جماعة من الصحابة أن التولي يوم الزحف من الكبائر.

قال ابن عطية: والادبار جمع دبر، والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة في الفصاحة لما في ذلك من الشناعة على الفار والذم له.

قلت ويطلق الدبر على مقابل القبل وعلى الظهر وهو المراد هنا، والمقصود ملزوم تولية الظهر وهو الانهزام، وهذا من باب التعريض حيث ذكر لهم حالة تستهجن من فاعلها فأتى بلفظ الدبر دون الظهر لذلك، وبعض أهل علم البيان يسمي هذا النوع كناية وليس بشيء.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

﴿ومن يولهم يومئذ﴾ أي يوم لقيتموهم ﴿دبره إلا متحرفاً لقتال﴾ أي منعطفاً ومائلاً اليه، والنصب على الحال أو الاستثناء من ضمير المؤمنين أي ومن يولهم الا رجلاً منهم متحرفاً، واللام للتعليل أي لاجل قتال أي لاجل التمكن منه، والتحرف الزوال عن جهة الاستواء والمراد به هنا التحريف من جانب الى جانب في المعركة طلباً لمكائد الحرب وخدعاً للعدو، كمن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدو، فيكر عليه ويتمكن منه ونحو ذلك من مكائد الحرب، فإن الحرب خدعة.

﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾ أي منضماً وصائراً إلى جماعة من المسلمين غير الجماعة المقابلة للعدو أي رجلاً منهم متحرفاً أو متحيزاً، ووزن متحيز متفيعل لا متفعل لأنه من حاز يحوز فبناء متفعل منه متحوز، والتحيز والتحوز الانضمام وتحوزت الحية انطوت، وحزت الشيء ضممته والحوزة ما يضم الاشياء.

﴿فقد باء﴾ أي من ينهزم ويفر من الزحف إلا في هاتين الحالتين فقد رجع ﴿بغضب﴾ كائن ﴿من الله ومأواه جهنم﴾ أي المكان الذي يأوي اليه هو النار ففراره أوقعه الى ما هو أشد بلاء مما فر منه وأعظم عقوبة، والمأوى ما يأوي اليه الانسان ﴿وبئس المصير﴾ ما صار اليه من عذاب النار.

وقد اشتملت هذه الآية على هذا الوعيد الشديد لمن يفر عن الزحف وفي ذلك دلالة على أنه من الكبائر الموبقة.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

﴿فلم تقتلوهم﴾ أي إذا عرفتم ما قصه الله عليكم من إمداده لكم بالملائكة وايقاع الرعب في قلوبهم فلم تقتلوهم بقوتكم ﴿ولكن الله قتلهم﴾ بما يسره لكم من الاسباب الموجبة للنصر، قال الزمخشري الفاء في ﴿فلم﴾ جواب شرط محذوف أي وان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم أنتم، وقال الشيخ: وليست جواباً بل لربط الكلام بعضه ببعض.

﴿وما رميت إذ رميت﴾ اختلف المفسرون في هذا الرمي على أقوال فروي عن مالك أن المراد به ما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم في يوم حنين فانه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادي، فأصابت كل واحد منهم، وقيل المراد به الرمية التي رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بن خلف بالحربة في عنقه فانهزم ومات منها، وقيل المراد به السهم الذي رمى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حصن خيبر، فسار في الهواء حتى أصاب ابن أبي الحقيق وهو على فراشه.

وهذه الأقوال ضعيفة فإن الاية نزلت عقب وقعة بدر، وأيضاً المشهور في كتب السير والحديث في قتل ابن أبي الحقيق أنه وقع على صورة غير هذه الصورة والصحيح كما قال ابن اسحاق وغيره: أن المراد بالرمي المذكور في هذه الاية هو ما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم في يوم بدر، فانه أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين فأصابت كل واحد منهم، ودخلت في عينيه ومنخريه وأنفه.

وقال ثعلب المعنى وما رميت الفزع والرعب في قلوبهم إذ رميت بالحصباء فانهزموا ﴿ولكن الله رمى﴾ أي أعانك وأظفرك، والعرب تقول رمى الله لك أي أعانك وأظفرك وصنع لك، وقد حكى مثل هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز، قال محمد بن يزيد المبرد: المعنى وما رميت بقوتك اذ رميت ولكنك بقوة الله رميت.

وقيل المعنى ان الرمية بتلك القبضة من التراب التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة لانك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه لأن أثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل فكأن الله فاعل الرمية على الحقيقة وكأنها لم توجد من رسول الله صلى الله عليه وسلم أصلاً، هكذا في الكشاف.

وفي الآية بيان أن فعل العبد مضاف إليه كسباً وإلى الله خلقاً لا كما تقوله الجبرية والمعتزلة لأنه أثبت الفعل للعبد ثم نفاه عنه وأثبته لنفسه، فصح هذا النفي والاثبات، قال الكرخي: نفى الفعل عنهم وعنه باعتبار الايجاد إذ الموجد حقيقة هو الله تعالى، واثباته لهم وله باعتبار الكسب والصورة.

قال مجاهد: هذا لمحمد ﷺ حين حصب الكفار، وقال قتادة: رماهم يوم بدر بالحصباء، وعن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصباء وقال: شاهت الوجوه فانهزمنا فذلك قوله تعالى: ﴿وما رميت اذ رميت﴾ الآية وعن جابر نحوه.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: ناولني قبضة من حصباء فناوله فرمى بها في وجوه القوم فما بقي أحد من القوم الا

امتلأت عيناه من الحصباء فنزلت هذه الآية، وقال ابن المسيب: أخذ رسول الله ﷺ حربته في يده فرمى بها أبي بن خلف وكسر ضلعاً من أضلاعه، وفي ذلك أنزل الله ﴿وما رميت اذ رميت﴾ وعن الزهري نحوه وإسناده صحيح إليهما.

قال ابن كثير: وهذا القول عن هذين الامامين غريب جداً، ولعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها وهكذا قال فيها قاله عبد الرحمن بن جبير ان رسول الله ﷺ دعا بقوس فرمى بها الحصن فأقبل السهم حتى قتل ابن أبي الحقيق في فراشه فأنزل الله ﴿وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى﴾[1].

﴿وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً﴾ البلاء يستعمل في الخير والشر على حد ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئآت﴾ والمراد هنا الخير والنعمة، وعليه أجمع المفسرين والمعنى ولينعم على المؤمنين بالغنيمة انعاماً جيلاً أي للانعام عليكم بنعمه الجليلة فعل ذلك لا لغيره.

وقيل التقدير لكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلي المؤمنين، وقال عروة ابن الزبير: أي ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم في إظهارهم على عدوهم مع كثرة عددهم وقلة هؤلاء ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته ﴿ان الله سميع﴾ لدعائهم ﴿عليم﴾ بأحوالهم.

﴿ذلكم﴾ أي البلاء الحسن والقتل والرمي ﴿وان الله موهن كيد الكافرين﴾ أي إن الغرض منه بما وقع مما حكته الآيات السابقة ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين.

---

(١) ابن كثير ٢/ ٢٩٦.

إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ الاستفتاح طلب النصر، وقد اختلف في المخاطبين بالآية من هم فقيل انها خطاب للكفار تهكماً بهم لأنهم الذين وقع بهم الهلاك والذلة، والمعنى ان تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله ان ينصر أحق الطائفتين وأعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين بالنصر والظفر، وهو في نفس الامر دعاء عليهم وإن أرادوا به الدعاء على محمد وحزبه ﷺ، فتهكم الله بهم وسمى ما حل بهم من الهلاك نصراً.

ومعنى بقية الآية على هذا القول ﴿وإن تنتهوا﴾ عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله ﷺ ﴿فهو﴾ أي الانتهاء ﴿خير لكم وان تعودوا﴾ إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة ﴿نعد﴾ بتسليط المؤمنين عليكم ونصرهم كما سلطناهم ونصرناهم في يوم بدر، وقال قتادة: نعد لكم بالقتل والأسر.

﴿ولن تغني عنكم فئتكم﴾ أي جماعتكم ﴿شيئاً ولو كثرت﴾ أي لا تغني عنكم في حال من الأحوال ولو في حال كثرتها، ثم قال ﴿وإن﴾ بالكسر استئنافاً وبفتحها على تقدير اللام ﴿الله مع المؤمنين﴾ أي محمد وأصحابه قاله السدي ومن كان الله معه فهو المنصور ومن كان الله عليه فهو المخذول.

وقيل ان الآية خطاب للمؤمنين والمعنى إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر في يوم بدر، وان تنتهوا عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم وفداء

الاسرى قبل الإذن لكم بذلك وعن التكاسل في القتال والرغبة عما يختاره الرسول فهو خير لكم وان تعودوا إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم كما في قوله ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ الآية.

ولا يخفى أنه يأبى هذا القول معنى ﴿ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً﴾ ويأباه أيضاً ان الله مع المؤمنين وتوجيه ذلك لا يمكن الا بتكلف وتعسف.

وقيل ان الخطاب في ان تستفتحوا للمؤمنين وفيما بعده للكافرين، ولا يخفى ما في هذا من تفكيك النظم وعود الضمائر الجارية في الكلام على نمط واحد الى طائفتين مختلفتين.

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾ أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله في أمر الجهاد لأن فيه بذل المال والنفس، ﴿ولا تولوا﴾ نهاهم عن التولي عن رسوله، فالضمير في ﴿عنه﴾ عائد إلى الرسول لأن طاعة رسول الله ﷺ هي من طاعة الله ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ ويحتمل أن يكون راجعاً الى الله والى رسوله كما في قوله: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ وقيل راجع إلى الامر الذي دل عليه أطيعوا.

هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين وبه قال الجمهور وقيل انه خطاب للمنافقين، والمعنى يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط قال ابن عطية: وهذا وان كان محتملاً على بعد فهو ضعيف جداً لأن الله وصف من خاطبه في هذه الآية بالايمان وهو التصديق، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء.

وأبعد من هذا من قال الخطاب لبني إسرائيل فإنه أجنبي من الآية ﴿وأنتم تسمعون﴾ ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين والقرآن والمواعظ وتصدقون بها ولستم كالصم البكم.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا﴾ وهم المشركون أو المنافقون أو اليهود أو الجميع من هؤلاء فانهم يسمعون بآذانهم من غير فهم ولا عمل ﴿وهم لا يسمعون﴾ سماع تدبر واتعاظ أي فهم كالذي لم يسمع أصلاً لأنه لم ينتفع بما سمعه، وهذه صفة المنافقين أو المشركين ﴿ان شر الدواب﴾ أي ما دب على وجه الأرض واطلاق الدابة على الانسان حقيقي لما ذكروه في كتب اللغة من أنها تطلق على كل حيوان ولو آدميا، وفي المصباح الدابة كل حيوان في الأرض مميزا أو غير مميز.

﴿عند الله﴾ أي في حكمه ﴿الصم البكم﴾ أي الذين لا يسمعون ولا ينطقون، وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق ﴿الذين لا يعقلون﴾ ما فيه النفع لهم فيأتونه وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه فهم شر الدواب عند الله لانها تميز بعض تمييز، وتفرق بين ما ينفعها ويضرها، قال ابن عباس: هم نفر من قريش من بني عبد الدار، وعن ابن جريج قال: نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث وقومه.

﴿ولو علم الله فيهم﴾ أي في هؤلاء الصم والبكم ﴿خيراً﴾ أي خير ﴿لأسمعهم﴾ سماعاً ينتفعون به ويتعقلون عنده الحجج والبراهين، قال الزجاج: لأسمعهم جواب كل ما سألوا عنه، وقيل لأسمعهم كلام الموتى

الذين طلبوا إحياءهم لأنهم طلبوا إحياء قصي بن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوة محمد ﷺ وقال عروة بن الزبير: لأسمعهم أي لأنفذ لهم قولهم الذي قالوا بألسنتهم ولكن القلوب خالفت ذلك منهم.

﴿ولو أسمعهم﴾ فرضاً وقد علم أن لا خير لهم ﴿لتولوا﴾ عنه ولم ينتفعوا بما يسمعون من المواعظ والدلائل ولم يستقيموا ﴿وهم معرضون﴾ عن قبوله عناداً وجحوداً لأنه قد سبق في علمه أنهم لا يؤمنون.

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول﴾ الأمر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق من الامر بالطاعة والاستجابة الطاعة، قال أبو عبيدة: معنى استجيبوا ﴿أجيبوا﴾ والسين والتاء زائدتان وان كان استجاب يتعدى باللام وأجاب بنفسه كما في قوله ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله﴾ وقد يتعدى استجاب بنفسه.

﴿اذا دعاكم﴾ وحد الضمير هنا كما وحده في قوله: ﴿ولا تولوا عنه﴾ لان استجابة الرسول استجابة لله تعالى، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد، وقد تقدم وجه ذلك ﴿لما يحييكم﴾ أي استجيبوا لما يحييكم اذا دعاكم، ولا مانع من أن تكون اللام متعلقة بدعا أي اذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة، لان العلم حياة، كما ان الجهل موت.

لا تعجبنّ الجهولَ حلّته فذاك ميت وثوبه كفن

قال الجمهور من المفسرين: المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي ففيه الحياة الابدية والنعمة السرمدية، وقيل المراد الجهاد فإنه سبب الحياة في الظاهر لان العدو إذا لم يغُز غزا، قاله ابن اسحق، وقال السدي: هو الايمان لان الكافر ميت فيحيا بالإيمان، وقال مجاهد: هو الحق.

وقيل هو الشهادة لان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وعن قتادة

قال: هذا هو القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والأخرة، وقال عروة ابن الزبير: للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بها بَعْد الضعف ومنعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم.

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه ثم أتيته فقلت: يا رسول الله اني كنت أصلي فقال: ألم يقل الله تعالى: ﴿استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم﴾ الحديث[1].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خرج على أبي بن كعب وهو يصلي فقال: يا أُبَيّ فالتفت أبي ولم يجبه، الحديث وفيه فقال: اني كنت في الصلاة فقال: أفلم تجد فيما أوحى الله إلي ﴿استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم﴾؟ قال: بلى ولا أعود ان شاء الله تعالى، أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح.

وهذه الإجابة مختصة بالنبي ﷺ وليس لأحد أن يقطع صلاته لدعاء أحد آخر وقيل لو دعاه أحد لأمر مهم لا يحتمل التأخير فله أن يقطع صلاته والاول أولى.

ويستدل بهذا الامر بالاستجابة على أنه لا بد من الاجابة في كل ما دعا الله ورسوله إليه، فيجب على كل مسلم اذا بلغه قول الله أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر الى العمل به كائناً ما كان، ويدع ما خالفه من الاراء وأقوال الرجال.

وفي هذه الاية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الادلة وترك التقليد بالمذاهب وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائناً ما كان.

---

(١) ابن كثير ٢ / ٢٩٧.

﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ قيل معناه بادروا إلى الاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها بزوال القلوب التي تعقلون بها بالموت الذي كتبه الله عليكم وقيل معناه أنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدلهم بعد الخوف أمناً ويبدل عدوهم من الأمن خوفاً، واختار ابن جرير أن هذا من باب الإخبار من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب عباده منهم وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يدرك الانسان شيئاً الا بمشيئته عز وجل.

ولا يخفاك أنه لا مانع من حمل الآية على هذه المعاني، وقال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله، ويحول بين الكافر وبين الايمان وطاعة الله، وبه قال سعيد بن جبير والضحاك ومجاهد، وقال السدي: يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن أو يكفر إلا بإذنه وإرادته.

قيل وهذا القول هو الذي دلت عليه البراهين العقلية لأن أحوال القلوب اعتقادات ودواع وإرادات، وتلك الارادات لا بد لها من فاعل مختار وهو الله تعالى، فثبت بذلك أن المتصرف في القلب كيف شاء هو الله، فالمعنى أنه يحول بين المرء وخواطر قلبه أو وادراك قلبه بمعنى أنه يمنعه من حصول مراده أو يمنعه من الادراك والفهم.

وفي الشهاب أصل الحول كما قال الراغب: تغير الشيء وانفصاله عن غيره وباعتبار التغير قيل حال الشيء يحول، وباعتبار الانفصال قيل حال بينهما كذا، فحقيقة كون الله يحول بين المرء وقلبه أنه يفصل بينهما، ومعناه الحقيقي غير متصور في حقه فهو مجاز عن غاية القرب من العبد لأن من فصل بين شيئين كان أقرب الى كل منهما من الاخر لاتصاله بهما وانفصال أحدهما عن الأخر، وهو إما استعارة تبعية فمعنى يحول يقرب أو تمثيلية.

وقيل ان الانسب أن يكون مجازاً مركباً مرسلاً لاستعماله في لازم معناه

وهو القرب وليس ببعيد، وقال أبو السعود: تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله: ﴿ونحن أقرب اليه من حبل الوريد﴾ وتنبيه على أنه مطلع على مكنونات القلوب ما عسى يغفل عنه صاحبها أو حث على المبادرة الى اخلاص القلوب وتصفيتها قبل ادراك المنية فإنها حائلة بين المرء وقلبه، أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه بحيث يفسخ عزائمه ويغير نياته ومقاصده ويحول بينه وبين الكفر ان أراد سعادته ويبدله بالأمن خوفاً وبالذكر نسياناً وما أشبه ذلك من الأمور العارضة المفوتة للفرصة اهـ.

وقال الربيع بن أنس: علمه يحول، وقال مجاهد: يحول حتى يتركه لا يعقل، وعن الحسن قال: في القرب منه، وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ان قلوب بني آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك[1] أخرجه مسلم، وفي الباب أحاديث.

﴿وأنه اليه تحشرون﴾ أي وأنكم محشورون اليه وهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشر شراً، قال الفراء: ولو استأنفت فكسرت همزة إنه لكان صواباً، ولعل مراده أن مثل هذا جائز في العربية.

وهذا الحديث من أحاديث الصفات يجب إمراره على ما جاء من غير تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه، وكذا هذه الآية وكونه من الصفات يرد تأويلها بالتمثيل.

---

(١) مسلم ٢٦٥٤

وروى الترمذي ٢/٣٦ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فقلت: يا نبي الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾

﴿واتقوا﴾ خطاب للمؤمنين مطلقاً صلحائهم وغيرهم ﴿فتنة﴾ المراد بها العذاب الدنيوي كالقحط والغلاء، وتسلط الظلمة وغير ذلك أي اتقوا سبب فتنة ﴿لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ أي اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح، ولا يختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم، وفي ﴿لا﴾ وجهان (احدهما) انها ناهية والنهي في الصورة للمصيبة، وفي المعنى للمخاطبين (والثاني) انها نافية والجملة صفة لفتنة.

وهذا واضح من هذه الجهة إلا أنه يشكل عليه توكيد المضارع في غير قسم ولا طلب ولا شرط وفيه خلاف.

وقد اختلف النحاة في هذه النون المؤكدة في تصيبن فقال الفراء: هو جواب الأمر بلفظ النهي، ومثله قوله تعالى: ﴿ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم﴾ أي إن تدخلوا، وقال المبرد: انه نهي بعد أمر، والمعنى النهي للظالمين أي لا يقربن الظلم ومثله ما روي عن سيبويه لا أريتك ههنا أي لا تكن ههنا فإن من كان ههنا رأيته وقال الجرجاني: نهي في موضع وصف لفتنة.

وقيل ﴿لا تصيبن﴾ جواب قسم محذوف، والجملة القسمية صفة لفتنة أي فتنة والله لا تصيبن ودخول النون أيضاً قليل لأنه منفي، قال الزبير: الفتنة البلاء والأمر الذي هو كائن.

وعن الحسن قال: نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير، وعن الضحاك قال: نزلت في أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة، وعن السدي

قال: نزلت في أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا، وكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من أهل بدر فتصيب الظالم والصالح عامة، وعن مجاهد والضحاك وقتادة مثله.

روى البغوي بسنده عن عدي بن عدي قال: حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فاذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة[1].

والذي ذكره ابن الأثير في جامع الأصول عن عدي بن عميرة الكندي ان النبي ﷺ قال: اذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها[2].

وأخرج أبو داود عن جرير بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون أن يغيروا عليه ولم يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا[3].

وقال ابن زيد: أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضاً.

وروى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: تكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأً أو معاذاً فليعذ به[4].

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ١٦٧٥.

(٢) ابو داوود كتاب الملاحم باب ١٧.

(٣) ابو داوود كتاب الملاحم باب ١٧.

(٤) مسلم ٢٨٨٧.

قال الكرخي: واستشكل هذا بقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ وأجيب بأن الناس اذا تظاهروا بالمنكر فالواجب على كل من رآه أن يغيره إذا كان قادراً على ذلك فإذا سكت فكلهم عصاة هذا بفعله وهذا برضاه، وقد جعل الله بحكمته الراضي بمنزلة العامل فانتظم في العقوبة اهـ.

وعلامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي، فلا يتحقق كون الانسان كارهاً له إلا إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده، فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض بالمنكر فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار، هكذا قرره القسطلاني على البخاري.

﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ ومن شدة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسبابه، وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا بذنبه ولا يعذب إلا بجنايته، فيمكن حمل ما في هذه الآية على العقوبات التي تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض، ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة والله أعلم.

ويمكن أن يقال ان الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب كترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتكون الاصابة المتعدية للظالم الى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم، وعن ابن عباس قال: أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بعذاب(١).

﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ الخطاب للنبي وللمهاجرين بتذكير نعمة الله عليهم بالحماية من أعدائهم حيث آواهم في المدينة ونصرهم ببدر وهذه الآية نزلت بعد بدر أي اذكروا وقت قلتكم، والأرض هي أرض مكة وأطلقها في الآية لأنها لعظمها كأنها هي الأرض كلها أو لأن حالهم كان

في بقية البلاد كحالهم فيها أو قريباً من ذلك، ولهذا عبر عنهم بالناس في قوله.

﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ والخطف الأخذ بسرعة والمراد بالناس مشركو قريش وكفار مكة، وقال عكرمة: كفار العرب وقيل فارس والروم، قاله وهب ﴿فآواكم﴾ يقال أوى اليه بالمد والقصر بمعنى الضم اليه، والمعنى ضمكم الله إلى المدينة أو إلى الأنصار.

﴿وأيدكم بنصره﴾ أي وقواكم بالنصر في مواطن الحرب التي منها يوم بدر، أو قواكم بالملائكة يوم بدر ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ التي من جملتها الغنائم أحلها لكم ولم يحلها لأحد قبلكم ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي ارادة أن تشكروا هذه النعم التي أنعم الله بها عليكم.

وقال قتادة: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً وأشقاه عيشاً وأجوعه بطناً وأعراه جلوداً وأبينه ضلالة، من عاش عاش شقياً، ومن مات منهم ردّي في النار يؤكلون ولا يأكلون، لا والله ما نعلم قبيلاً من حاضري الأرض يومئذ كان أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالاسلام فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالاسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه فان ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله عز وجل[1].

---

(١) روى البخاري ٥/٩٤ - ٢١٦ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم﴾ الخون أصله كما في الكشاف النقص كما ان الوفاء التمام، ثم استعمل في ضد الامانة والوفاء لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان، وقيل معناه الغدر واخفاء الشيء ومنه قوله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾.

نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم أو يخونوا رسوله بترك شيء مما آمنهم الله عليه أو بترك شيء مما سنه لهم، أو يخونوا شيئاً من الأمانات التي ائتمنوا عليها، وسميت أمانات لأنه يؤمن معها من منع الحق، مأخوذة من الأمن، قال ابن عباس: لا تخونوا الله بترك فرائضه والرسول بترك سنته وارتكاب معصيته.

وقال المغيرة بن شعبة: نزلت هذه الاية في قتل عثمان، وقال يزيد بن أبي حبيب: هو الاخلال بالسلاح في المغازي، ولعل مرادهما ان هذا مما يندرج تحت عمومها.

قال جابر بن عبدالله: إن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل النبي ﷺ فقال ان أبا سفيان بمكان كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه بمكان كذا فاخرجوا اليه واكتموا فكتب رجل من المنافقين الى أبي سفيان أن محمداً يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله هذه الآية.

وعن عبدالله بن أبي قتادة قال: نزلت هذه الآية في ابي لبابة بن عبد المنذر سألوه يوم قريظة ما هذا الأمر فأشار الى حلقه أنه الذبح فنزلت، وعن

الزهري: نحوه بأطول منه، وعن الكلبي والسدي نحوه.

ولما اشتد الحصار ببني قريظة أطاعوا وانقادوا أن ينزلوا على ما يحكم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحكم فيهم سعد بن معاذ وقال: اني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء، فقال صلى الله عليه وسلم: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة(١).

وفي رواية محمد بن صالح: لقد حكمت اليوم فيهم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع سموات، والقصة بطولها في المواهب اللدنية ﴿وأنتم تعلمون﴾ أن ذلك الفعل خيانة فتفعلون الخيانة عن عمد، أو أنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل.

ثم قال: ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ لأنهم سبب الوقوع في كثير من الذنوب وصادة عن أمور الآخرة فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده وإن كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا كما في الآية الأخرى.

عن ابن مسعود قال: ما منكم من أحد إلا وهو يشتمل على فتنة، لأن الله يقول: ﴿انما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن، وقال ابن زيد: فتنة الاختبار اختبرهم، وقرأ [ونبلوكم بالشر والخير فتنة] ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ فآثروا حقه على أموالكم وأولادكم ليحصل لكم ما عنده من الأجر المذكور.

---

(١) ذكره القرطبي في ٧/٣٩٤ روى أنها نزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بني قُريظة بالذبح. قال أبو لُبابة: والله ما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله؛ فنزلت هذه الآية. فلما نزلت شدّ نفسه إلى سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت، أو يتوب الله عليّ. الخبر مشهور. مسلم ١٧٦٨.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ جعل سبحانه التقوى شرطاً في الجعل المذكور مع سبق علمه بأنهم يتقون جرياً على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضاً، والتقوى اتقاء مخالفة أوامره والوقوع في مناهيه، والفرقان ما يفرق به بين الحق والباطل، والمعنى أنه يجعل لهم من ثبات القلوب وثقوب البصائر وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس، وقيل الفرقان المخرج من الشبهات والنجاة من كل ما يخافونه، قاله ابن عباس وعكرمة.

وقال الفراء: المراد بالفرقان الفتح والنصر، قال ابن اسحاق الفرقان الفصل بين الحق والباطل وبمثله قال ابن زيد، وقال السدي: الفرقان النجاة ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة قوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ وبه قال مجاهد ومالك بن أنس.

﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي يسترها حتى تكون غير ظاهرة ﴿ويغفر لكم﴾ ما اقترفتم من الذنوب، وقد قيل إن المراد بالسيئات الصغائر وبالذنوب التي تغفر الكبائر، وقيل المعنى أنه يغفر لهم ما تقدم من الذنوب وما تأخر ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة الذنوب.

﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ أي واذكر يا محمد وقت مكر الكافرين

بك، ذكر الله رسوله هذه النعمة العظمى التي أنعم بها عليه وهي نجاته من مكر الكافرين وكيدهم له بمكة لأن هذه الواقعة كانت بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة، والسورة مدنية.

وقال عكرمة: هذه الآية مكية، والمكر الاحتيال في إيصال الضرر للغير.

﴿ليثبتوك﴾ أي يثخنوك بالجراحات كما قال ثعلب وأبو حاتم وغيرهما، وقيل المعنى ليحبسوك يقال أثبته إذا حبسه، وقيل ليوثقوك لأن كل من شد شيئاً وأوثقه فقد أثبته لأنه لا يقدر على الحركة، وهذا أشار لرأي أبي البختري ومنه فشدوا الوثاق، وقرأ الشعبي: ليبيتوك من البيات.

﴿أو يقتلوك﴾ أي كلهم قتلة رجل واحد كما أشار عليهم أبو جهل ﴿أو يخرجوك﴾ منفياً من مكة التي هي بلدك وبلد أهلك، وهذا أشار لرأي هشام ابن‌عمرو، كذا في شرح المواهب، عن ابن عباس قال: تشاورت قريش بمكة ليلة فقال بعضهم إذا أصبح فاثبتوه بالوثاق يريدون النبي صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فبات عليٌ على فراش النبي ﷺ حتى لحق بالغار، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوه علياً رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا، فقال: لا أدري فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال.

وروى البيهقي وغيره عنه بأطول مما هنا وفيها ذكر الشيخ النجدي أي ابليس ومشورته عليهم عند اجتماعهم في دار الندوة للمشاورة في أمر النبي ﷺ وان أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاماً ويعطوا كل واحد منهم سيفاً ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فاذا قتلوه تفرق دمه في

القبائل، فقال الشيخ النجدي: هذا والله هو الرأي فتفرقوا على ذلك.

﴿ويمكرون﴾ بك ﴿ويمكر الله﴾ بهم، والمكر التدبير في الأمر في خفية، والمعنى أنهم يخفون ما يعدونه لرسول الله ﷺ من المكائد فيجازيهم الله على ذلك ويرد كيدهم في نحورهم بأن يخرجهم إلى بدر، ويقلل المسلمين في أعينهم حتى يحملوا عليهم فيقتلوا، وسمى ما يقع منه تعالى مكراً مشاكلة كما في نظائره، والمشاكلة تزيده حسناً على حسن، وقيل استعارة تبعية وقيل مجاز مرسل بعلاقة السببية، وقيل استعارة تمثيلية.

﴿والله خير﴾ المجازين لمكر ﴿الماكرين﴾ بمثل فعلهم فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون فيكون ذلك أشد ضرراً عليهم وأعظم بلاء من مكرهم، ووضع خير موضع أقوى، فيه تنبيه على ان كل مكر يبطل بفعل الله.

﴿واذا تتلى عليهم آياتنا﴾ التي تأتيهم بها وتتلوها عليهم ﴿قالوا﴾ تعنتاً وتمرداً وبعداً عن الحق ﴿قد سمعنا﴾ ما تتلوه علينا ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ الذي تلوته علينا أي مثل هذا القرآن وهو التوراة والإنجيل، وقد تنازع هذا العامل مع قوله: ﴿لقلنا﴾ في قوله: ﴿مثل هذا﴾ كما يستفاد من الخازن، قيل إنهم قالوا هذا توهماً منهم أنهم يقدرون على ذلك لأنهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة فلما راموا ان يقولوا مثله عجزوا عنه ثم قالوا عناداً وتمرداً.

﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما يسطره الوراقون من أخبار الأولين وقد تقدم بيانه مستوفى، وعن السدي أنها نزلت في النضر بن الحرث وكان يختلف إلى أرض فارس والحيرة ويسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار، وأحاديث العجم، فلما جاء مكة ووجد النبي ﷺ قد أوحى إليه قال: ﴿قد سمعنا﴾ الآية.

وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

﴿و﴾ اذكر ﴿اذ قالوا اللهم ان كان هذا﴾ أي القرآن الذي جاء به محمد ﷺ ﴿هو الحق﴾ قرىء بالنصب وهو خبر الكون وبالرفع على الخبر، وبه قرأ الأعمش وزيد ابن علي، وقال ابن عطية: ويجوز في العربية رفع الحق على خبر هو والجملة خبر لكان، قال الأخفش: ولا أعلم أحداً بهذا الجائز (قلت) قد ظهر من قرأ به وهما رجلان جليلان قاله السمين.

﴿من عندك فأمطر﴾ قال أبو عبيدة: يقال أمطر في العذاب، ومطر في الرحمة وقال في الكشاف: قد كثر الإمطار في معنى العذاب، والإمطار استعارة أو مجاز عن الإنزال أي أنزل ﴿علينا حجارة﴾ فائدة توصيف الحجارة بقوله ﴿من السماء﴾ الدلالة على أن المراد بالحجارة السجيل، وهو حجارة مسومة أي معلمة معدة لتعذيب قوم من العصاة.

﴿أو ائتنا بعذاب أليم﴾ قالوا هذه المقالة مبالغة في الجحود والانكار، سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء أو غيرها من أنواع العذاب الشديدة فأجاب الله عليهم بقوله.

﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت﴾ يا محمد ﴿فيهم﴾ موجود فإنك ما دمت فيهم بأرض مكة فهم في مهلة من العذاب الذي هو الاستئصال، قال السيوطي: لأن العذاب إذا نزل عم، ولم تعذب أمة إلا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها.

أخرج البخاري وابن أبي حاتم والبيهقي عن أنس بن مالك قال: قال

أبو جهل ابن هشام «اللهم ان كان هذا هو الحق» الآية فنزلت ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ وعن قتادة أنها نزلت في أبي جهل، وعن سعيد بن جبير أنها نزلت في النضر بن الحرث، وعن مجاهد وعطاء نحوه، قال عطاء: لقد نزل في النضر بن الحرث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر، قال سعيد بن جبير: قتل رسول الله ﷺ يوم بدر ثلاثة من قريش صبراً طعيمة بن عدي وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحرث، وفيه نزل سأل سائل بعذاب واقع.

﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ روي أنهم كانوا يقولون في الطواف غفرانك فنزلت أي ﴿وما كان الله معذبهم﴾ في حال كونهم مستغفرين، قال ابن عباس: كان فيهم أمانان النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي صلى الله عليه وسلم وبقي الاستغفار.

وأخرج الترمذي وضعفه عن أبي موسى الأشعري قال: قال النبي ﷺ: أنزل الله عليّ أمانين لأمتي ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ الآية فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار[1]، وقيل معنى الآية لو كانوا ممن يؤمنون بالله ويستغفرونه لم يعذبهم، وقيل ان الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم أي وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين فلما خرجوا من بين أظهرهم عذبهم بيوم بدر وما بعده.

وقيل المعنى وفي أصلابهم من يستغفر الله، وقيل هذا دعاء لهم إلى الاسلام والاستغفار بهذه الكلمة، وقال مجاهد وعكرمة: وهم يستغفرون أي يسلمون يعني لو أسلموا لما عذبوا، قال أهل المعاني دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب، والأحاديث عن رسول الله ﷺ في مطلق الاستغفار كثيرة جداً معروفة في كتب الحديث.

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ١٣٤١.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله﴾ لما بين سبحانه أن المانع من تعذيبهم هو الأمران المتقدمان وجود رسول الله ﷺ بين ظهورهم، ووقوع الاستغفار ذكر بعد ذلك أن هؤلاء أعني كفار مكة مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح والمعنى أى شيء لهم يمنع من تعذيبهم، قيل هذا العذاب هو القتل والأسر يوم بدر، وقيل عذاب الآخرة.

﴿وهم﴾ أي والحال أنهم ﴿يصدون﴾ الناس ﴿عن المسجد الحرام﴾ كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله ﷺ وأصحابه من البيت ﴿وما كانوا أولياءه﴾ كما زعموا أي مستحقين ولاية أمره مع شركهم، وهذا كالرد لما كانوا يقولونه من انهم ولاة البيت والحرم، وان أمرهم مفوض اليهم، ثم قال مبيناً لمن له ذلك ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ أي من كان في عداد المتقين للشرك والمعاصي، وعن مجاهد قال: من كانوا حيث كانوا.

﴿ولكن أكثرهم﴾ أى أكثر الناس ﴿لا يعلمون﴾ ذلك، والحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الاقلين يعلمون ولكنهم يعاندون، أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم.

﴿وما كان صلاتهم عند البيت﴾ أى ما كان شيء مما يعدونه صلاة وعبادة ﴿إلا مُكاء وتصدية﴾ أي إلا هذين الفعلين، والمكاء الصفير من مكأ يمكؤ مكاء ومكواً، ومنه مكت است الدابة اذا نفخت بالريح ، وقيل المكاء هو الصفير على لحن

طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء، والتصدية التصفيق يقال صدى يصدي تصدية اذا صفق، وقيل المكاء الضرب بالأيدي والتصدية الصياح، وقيل المكاء أدخالهم أصابعهم في أفواههم والتصدية الصفير. وقيل التصدية صدهم عن البيت.

ومعنى الآية أن المشركين كانوا يصفرون ويصفقون عند البيت الذي هو موضع للصلاة والعبادة، فوضعوا ذلك موضع الصلاة قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة، وعن عكرمة قال: كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال فالمكاء مثل نفخ البوق والتصدية طوافهم على الشمال.

وقال السمين: التصدية فيها قولان «أحدهما» أنها من الصدى وهو ما يسمع من رجع الصوت في الأمكنة الخالية الصلبة، يقال منه صدى يصدي تصدية، والمراد بها هنا ما يسمع من صوت التصفيق بإحدى اليدين على الأخرى، وقيل مأخوذ من التصدد وهو الضجيج والصياح والتصفيق، ويدل عليه قراءة[إذا قومك منه يصدون] بالكسر أي يضجون ويلغطون «والثاني» أنها من الصدّ وهو المنع، ويؤيده قراءة يصدون بالضم أي يمنعون انتهى، والمكاء الصفير وهو الصوت الخالي عن الحروف.

والمعنى أنهم فوتوا ما حقهم أن يشتغلوا به في هذا المكان من الصلاة وشغلوه بهذا اللعب والخراف والهوس، واستثنى المكاء والتصدية مع أنهما ليسا من جنس الصلاة تقريعاً للمشركين بتركهم ما أمروا به في المسجد الحرام، فإن ما لا يدخل تحت الشيء قد يستثنى منه لمصلحة وغرض كقصد المدح والذم؛ فعلى هذا يكون التقدير وما كان موضع صلاتهم أي عوضها إلا مكاء وتصدية.

﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ هذا التفات إلى مخاطبة الكفار تهديداً لهم ومبالغة في ادخال الروعة في قلوبهم، والمراد به عذاب الدنيا كيوم بدر، وعذاب الآخرة، قال الضحاك: يعني أهل بدر عذبهم الله بالقتل والاسر.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ لما فرغ سبحانه من شرح حال هؤلاء الكفرة في الطاعات البدنية أتبعها شرح أحوالهم في الطاعات المالية، والمعنى أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك، وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ويوم أحد ويوم الأحزاب فان الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش.

وعن ابن عباس قال: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وعن مجاهد وسعيد بن جبير نحوه. وعن الحكم بن عتيْبة قال: نزلت في أبي سفيان أنفق على مشركي قريش يوم أحد أربعين أوقية من ذهب، وكانت الأوقية يومئذ أربعين واثنين مثقالا من ذهب.

ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الاعجاز فقال ﴿فسينفقونها﴾ أى سيقع منهم هذا الانفاق وسيعلمون عاقبة إنفاقها من الخيبة وعدم الظفر بالمقصود فحصلت المغايرة ﴿ثم تكون﴾ أي عاقبة ذلك ان يكون إنفاقهم ﴿عليهم حسرة﴾ كأن ذات الأموال تنقلب حسرة وتصير ندماً لفوات ما قصدوه بها ﴿ثم﴾ آخر الأمر ﴿يُغلبون﴾ في الدنيا كما وعد الله في مثل قوله ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ ومعنى ثم في الموضعين إما التراخي في الزمان لما بين الانفاق المذكور وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد، وإما التراخي في الرتبة لما بين بذل الأموال وعدم حصول المقصود من المباينة.

ثم قال ﴿والذين كفروا﴾ أي استمروا على الكفر لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقاً من أسلم وحسن إسلامه ﴿الى جهنم يحشرون﴾ أي يساقون اليها لا الى غيرها.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ثم بين العلة التي لأجلها فعل بهم ما فعل فقال: ﴿ليميز الله الخبيث﴾ وهم الكافرون ﴿من الطيب﴾ وهم المؤمنون، قال ابن عباس: يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة، وقيل العمل الخبيث من العمل الطيب، وقيل الإنفاق في طريق الشيطان وسبيل الرحمن، وقيل الخبيث والطيب صفة للمال، والتقدير ﴿ليميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم، من الطيب الذي أنفقه المسلمون في نصرته صلى الله عليه وسلم، فيضم تلك الأموال الخبيثة بعضها الى بعض فيلقيها في جهنم ويعذبهم بها، كما في قوله تعالى: ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾.

قال في الكشاف: واللام على هذا متعلقة بقوله: ثم تكون عليهم حسرة، وعلى الأول بيحشرون، انتهى. وعن شمر بن عطية قال: يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح في الدنيا ثم تؤخذ الدنيا بأسرها فتلقى في جهنم.

﴿ويجعل الخبيث﴾ أي يجعل فريق الكفار الخبيث ﴿بعضه على بعض﴾ أي فوق بعض ﴿فيركمه﴾ الركوم عبارة عن الجمع والضم، أي يجمع بعضهم الى بعض ويضم بعضهم الى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم، يقال ركم الشيء يركمه اذا جمعه وألقى بعضه على بعضه، وبابه نصر، وارتكم الشيء وتراكم اجتمع والركام الرمل المتراكم والسحاب ونحوه.

﴿جميعاً﴾ حال من الهاء في يركمه أو توكيد لها ﴿فيجعله﴾ أي الخبيث فيه مراعاة اللفظ ﴿في جهنم أولئك﴾ أي الفريق الخبيث ﴿هم الخاسرون﴾ أي الكاملون في الخسران، فيه مراعاة المعنى لأن الضمير راجع على الخبيث.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿قل للذين كفروا﴾ كأبي سفيان وأصحابه واللام للتبليغ ﴿إن ينتهوا﴾ الخ أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم هذا المعنى، سواء قاله بهذه العبارة أو غيرها. قال ابن عطية: ولو كان كما قال الكسائي انه في مصحف ابن مسعود تنتهوا بالتاء لما تأدت الرسالة الا بتلك الألفاظ بعينها، وقال في الكشاف: هي لام العلة، أي قل لأجلهم هذا القول وهو أن ينتهوا، ولو كان بمعنى خاطبهم به لقيل ان تنتهوا يغفر لكم.

والمعنى إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله بالدخول في الاسلام ﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ لهم من العداوة اهـ.

وقيل معناه إن ينتهوا عن الكفر، قال ابن عطية: والحامل على ذلك جواب الشرط بيغفر لهم ما قد سلف، ومغفرة ما قد سلف لا يكون إلا لمنته عن الكفر وفي هذه الآية دليل على أن الاسلام يجبّ ما قبله.

وأخرج أحمد ومسلم عن عمرو بن العاص قال: لما جعل الله الاسلام في قلبي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: ابسط يدك فلأبايعك، فبسط يمينه فقبضت يدي قال: مالك؟ فقلت أردت أن أشترط، قال تشترط ماذا؟ قلت: أن تستغفر لي قال: أما علمت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وان الهجرة تهدم ما كان قبلها، وان الحج يهدم ما كان قبله[1].

(١) مسلم ١٢١.

وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الاسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما قبلها[1]، قال يحيى بن معاذ الرازي التوحيد لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر، فكيف يعجز عن هدم ما بعده من ذنب.

﴿وإن يعودوا﴾ الى القتال والعداوة أو الى الكفر الذي هم عليه، ويكون العود بمعنى الاستمرار، وفي الجمل العود يشعر بسبق التلبس بالشيء الذي حصل العود اليه، فالمعنى وإن يرتدوا عن الاسلام بعد دخولهم فيه ويرجعوا الى الكفر وقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وجواب الشرط محذوف تقديره ننتقم منهم بالعقاب والعذاب.

وقوله: ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ تعليل للمحذوف ولا يصلح للجوابية كما لا يخفي أي سبقت واستقرت سنة الله في إهلاك أعدائه ونصر أوليائه.

وهذه العبارة مشتملة على الوعيد والتهديد والتمثيل بمن أهلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله، أي قد مضت سنة الله فيمن فعل مثل فعل هؤلاء من الأولين من الأمم أن يصيبه بعذاب فليتوقعوا مثل ذلك.

عن مجاهد قال: فقد مضت سنة الأولين في قريش وغيرها يوم بدر والأمم قبل ذلك، وقد فسر كثير من السلف هذه الآية بما مضى في الأمم المتقدمة من عذاب من قاتل الأنبياء وصمم على الكفر، وقال السدي ومحمد ابن إسحاق: المراد بالآية يوم بدر، وترسم سنت هذه بالتاء المجرورة وكذا الثلاثة التي في فاطر، وكذا التي في آخر غافر والاضافة على معنى في.

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ أي شرك قاله ابن عباس، وقيل بلاء

---

(١) الإمام احمد ٤/ ١٩٩.

قاله الحسن، وقد فسرها جمهور السلف بالكفر، وقال محمد بن اسحق: بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا المعنى حتى لا يفتن مسلم عن دينه، وقد تقدم تفسير هذا في البقرة مستوفى، والجملة معطوفة على «قل للذين» لما كان الغرض من الأول التلطف بهم وهو وظيفة النبي وحده جاء بالافراد ولما كان الغرض من الثاني تحريض المؤمنين على القتال جاء بالجمع فخوطبوا جميعاً.

﴿ويكون الدين كله﴾ أي الطاعة والعبادة كلها ﴿لله﴾ خالصة دون غيره وقال قتادة: حتى يقال لا إله إلا الله عليه قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم واليه دعا، وقيل يضمحل عنهم كل دين باطل، ويبقى فيهم دين الاسلام وحده والمعاني متقاربة.

﴿فان انتهوا﴾ عما ذكر من الشرك وافتتان المؤمنين وإيذائهم ﴿فإن الله بما يعملون﴾ بالتحتية باتفاق السبعة، وقرأ بالفوقية يعقوب من العشرة ﴿بصير﴾ لا يخفى عليه ما وقع منهم من انتهاء فيجازيهم به.

﴿وان تولوا﴾ عما أمروا به من الانتهاء أو عن الايمان، وجوابه محذوف أي فلا تخشوا بأسهم ﴿فاعلموا﴾ أيها المؤمنون ﴿إن الله مولاكم﴾ أي ناصركم عليهم ومتولي أموركم ﴿نعم المولى﴾ هو ﴿ونعم النصير﴾ فمن والاه فاز ومن نصره غلب[1].

---

(١) روى مسلم في «صحيحه» ١/١١١ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: «من أحسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الاسلام أخذ بالأول والآخر».

وروى مسلم أيضاً في «صحيحه» ١/١١٢ من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أما علمت أن الاسلام يهدم ما كان قبله».

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤١)

﴿واعلموا أنما﴾ «ما» موصولة وكان القياس فصلها في الرسم من «أن» لكن ثبت وصلها في خط المصحف الامام، وثبت فصلها أيضاً في بعضها على القياس كما ذكره ابن الجزري في قوله: «وخلف الانفال ونحل وقعا».

﴿غنمتم﴾ لما أمر الله سبحانه بالقتال بقوله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة وكانت المقاتلة مظنة حصول الغنيمة، ذكر حكم الغنيمة، والغنيمة قد قدمنا ان أصلها إصابة الغنم من العدو، ثم استعملت في كل ما يصاب منهم، وقد يستعمل في كل ما ينال بسعي.

وأما معنى الغنيمة في الشرع فحكى القرطبي الاتفاق على أن المراد بقوله أنما غنمتم مال الكفار اذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة والقهر قال: ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص، ولكن عرف الشرع قيد هذا اللفظ بهذا النوع.

وقد ادعى ابن عبد البر الاجماع على أن هذه الآية نزلت بعد قوله: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين، وان قوله: ﴿يسألونك عن الانفال﴾ نزلت حين تشاجر أهل بدر في غنائم بدر وقيل انها يعني قوله: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ محكمة غير منسوخة، وان الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وليست مقسومة بين الغانمين وكذلك لمن بعده من الأئمة حكاه الماوردي عن كثير من المالكية.

وقالوا: وللامام أن يخرجها عنهم، واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين،

وكان أبو عبيدة يقول افتتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة عنوة ومنّ على أهلها فردها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها فيئاً.

وقد حكى الإجماع جماعة من أهل العلم على أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين وممن حكى ذلك ابن المنذر وابن عبد البر والداودي والمازري والقاضي عياض وابن العربي، والأحاديث الواردة في قسمة الغنيمة بين الغانمين وكيفيتها كثيرة جداً.

قال القرطبي: ولم يقل أحد فيما أعلم ان قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ الآية ناسخ لقوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم﴾ الآية بل قال الجمهور ان قوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم﴾ ناسخ وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله.

وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء في فتحها قال: وأما قصة حنين فقد عوض الانصار لما قالوا يعطي الغنائم قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم نفسه، فقال لهم أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى بيوتكم[1] كما في مسلم وغيره، وليس لغيره ان يقول هذا القول بل ذلك خاص به، وقوله: ﴿أنما غنمتم﴾ يشمل كل شيء يصدق عليه اسم الغنيمة قليلاً كان أو كثيراً.

و﴿من شيء﴾ بيان لما الموصولة، وقد خصص الاجماعُ من عموم الآية الاسارى فان الخيرة فيها الى الامام بلا خلاف، وكذلك سَلَب المقتول إذا نادى به الامام قيل وكذلك الأرض المغنومة، ورد بأنه لا إجماع على الأرض.

﴿فأن﴾ أي فحق أو فواجب أن ﴿لله خمسه وللرسول﴾ وقد اختلف

---

(١) مسلم ١٠٥٩.

العلماء في كيفية قسمة الخمس على أقوال ستة.

القول الأول: قالت طائفة: يقسم الخمس على ستة.

فيجعل السدس للكعبة وهو الذي لله.

والثاني: لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

والثالث: لذوي القربى.

والرابع: لليتامى.

والخامس: للمساكين.

والسادس: لابن السبيل.

القول الثاني: قاله أبو العالية والربيع أنها تقسم الغنيمة على خمسة فيعزل منها سهم واحد، ويقسم أربعة على الغانمين ثم يضرب يده في السهم الذي عزله فما قبضه من شيء جعله للكعبة ثم يقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة للرسول ومن بعده في الآية.

القول الثالث: روي عن زين العابدين علي بن الحسين أنه قال: الخمس لنا فقيل له ان الله يقول: ﴿واليتامى والمساكين وابن السّبيل﴾ فقال: يتامانا ومساكيننا وابناء سبيلنا.

والقول الرابع: قول الشافعي: ان الخمس يقسم على خمسة وان سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف في مصالح المؤمنين، والأربعة الاخماس على الاربعة الأصناف المذكورة في الآية.

القول الخامس: قول أبي حنيفة: انه يقسم الخمس على ثلاثة اليتامى

والمساكين وابن السبيل، وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بموته كما ارتفع حكم سهمه قال ويبدأ من الخمس باصلاح القناطر وبناء المساجد وأرزاق القضاة والجند، وروي نحو هذا عن الشافعي.

القول السادس: قول مالك: أنه موكول الى نظر الامام واجتهاده فيأخذ منه بغير تقدير، ويعطي منه الغزاة باجتهاد ويصرف الباقي في مصالح المسلمين.

قال القرطبي: وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا، وعليه يدل قوله صلى الله عليه وسلم: مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم فانه لم يقسمه أخماساً ولا اثلاثاً، وإنما ذكر ما في الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم لأنهم من أهم من يدفع اليه.

وقال الزجاج: محتجاً لهذا القول قال الله تعالى: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ وجائز باجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك.

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجعل سهم الله في السلاح والكراع وفي سبيل الله وفي كسوة الكعبة وطيبها وما تحتاج اليه الكعبة، ويجعل سهم الرسول في الكراع والسلاح ونفقة أهله، وسهم ذي القربى لقرابته يضعه رسول الله فيهم مع سهمهم مع الناس، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم يضعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيمن شاء وحيث شاء ليس لبني عبد المطلب في هذه الثلاثة الأسهم ولرسول الله سهم مع سهام الناس.

وعن ابن بريدة قال: الذي لله لنبيه والذي للرسول لأزواجه، وعن

محمد ابن الحنفية في قوله: ﴿فأن لله خمسه﴾ قال: هذا مفتاح كلام لله الدنيا والآخرة وللرسول ولذي القربى، فاختلفوا بعد وفاة رسول الله ﷺ في هذين السهمين قال قائل منهم: سهم ذي القربى لقرابة رسول الله ﷺ، وقال قائل: منهم سهم ذي القربى لقرابة الخليفة، وقال قائل منهم سهم النبي ﷺ للخليفة بعده.

واجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكان ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وأبو الحاكم عن قيس بن مسلم الجدلي عن محمد بن الحنفية.

وأخرج ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: ﴿فأن لله خمسه﴾ مفتاح كلام أي على سبيل التبرك، وانما أضافه لنفسه لأنه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء وليس المراد منه أن سهماً منه لله مفرداً لأن لله ما في السموات وما في الأرض، وبه قال الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم النخعي قالوا: سهم الله وسهم رسوله واحد، وذكر الله للتعظيم فجعل هذين السهمين في الخيل والسلاح وجعل سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيرهم وجعل الأربعة الأسهم الباقية للفرس سهمين ولراكبه سهماً وللراجل سهماً.

وعنه رضي الله عنه قال: كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس فربع لله وللرسول ولذي القربى يعني قرابة رسول الله ﷺ، فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي ﷺ ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً، والربع الثاني لليتامى، والربع الثالث للمساكين والربع الرابع لابن السبيل، وهو الضعيف الفقير

الذي ينزل بالمسلمين، أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿ولذي القربى﴾ قيل اعادة اللام في ذي القربى دون من بعدهم لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي ﷺ، والمعنى أن سهماً من خمس الخمس لذوي القربى، وقد اختلف العلماء فيهم على أقوال الأول أنهم قريش كلها، روي ذلك عن بعض السلف، واستدل بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطون قريش كلها قائلاً يا بني فلان يا بني فلان.

وقال الشافعي وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جريج ومسلم بن خالد: هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبني عبد شمس وبني نوفل منه شيء وان كانوا اخوة لقوله صلى الله عليه وسلم: انما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، وشبك بين أصابعه وهو في الصحيح[1].

وأخرج ابن اسحق وابن أبي حاتم عن الزهري وعبدالله بن أبي بكر عن جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قسم سهم ذوي القربى من خيبر على بني هاشم وبني المطلب، قال: فمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه فقلنا: يا رسول الله هؤلاء اخوانك من بني هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك منهم أرأيت اخواننا من بني المطلب أعطيتهم دوننا فإنما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب، فقال: إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام[2]، وقد أخرجه مسلم في صحيحه.

وقيل هم بنو هاشم خاصة وبه قال مالك والثوري والأوزاعي وغيرهم وهو مروي عن علي بن الحسين ومجاهد، وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال: آل محمد الذين أعطوا الخمس آل علي وآل عباس وآل جعفر وآل عقيل.

---

(١) رواه ابن ماجه كتاب الجهاد باب ٤٦ بلفظ: «انما ارى بني هاشم بني المطلب شيئاً واحداً».

(٢) روى الإمام احمد نظيره في مسنده ٤ /٨١.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان للنبي ﷺ شيء واحد من المغنم يصطفيه لنفسه إما خادم وإما فرس، ثم يصيب بعد ذلك من الخمس، وعن علي وصححه الحاكم قال: ولاني رسول الله ﷺ خمس الخمس فوضعته مواضعه حياة رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

واختلفوا في سهمهم هل هو ثابت اليوم أم لا فذهب أكثرهم إلى أنه ثابت فيعطى فقراؤهم وأغنياؤهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الانثيين، وبه قال مالك والشافعي، وقيل إنه غير ثابت وسقط سهمه وسهمهم بوفاته، وصار الكل مصروفاً إلى الثلاثة الباقية وبه قال أبو حنيفة وأصحاب الرأي.

وحجة الجمهور أن الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوي القربى وكذا الخلفاء بعد الرسول ﷺ كانوا يعطونهم ولا يفضلون فقيراً على غني، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى العباس مع كثرة غناه وكذا الخلفاء بعده، وألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة غير أنهم يعطون القريب والبعيد.

﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ قد تقدم بيان سهمهم قريباً والمراد باليتيم هنا هو الصغير المسلم الذي لا أب له فيعطى مع الحاجة إليه، والمساكين هم أهل الفاقة من المسلمين، وابن السبيل هو المسافر البعيد عن ماله المنقطع في سفره، فهذا مصرف خمس الغنيمة، ويقسم أربعة أخماسها الباقية بين الغانمين الحاضرين في الواقعة الحائزين للغنيمة، فيعطى للفارس ثلاثة أسهم: سهم له وسهمان لفرسه، وللراجل سهم واحد لحديث ابن عمر في الصحيح، وبه قال أكثر أهل العلم وإليه ذهب الثوري والأوزاعي ومالك وابن المبارك والشافعي وأحمد واسحق.

وقال أبو حنيفة: للفارس سهمان وللراجل سهم والحديث يرد عليه، وظاهر الآية يدل على أنه لا فرق بين العقار والمنقول، وعند أبي حنيفة يخير الامام في العقار بين قسمه ووقفه على المصالح، ومن قتل من المسلمين مشركاً

استحق سلبه من رأس الغنيمة لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ومن قتل قتيلاً فله سلبه»[1]، أخرجه الشيخان وغيرهما، ويجوز تنفيل بعض الجيش من الغنيمة.

﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ قال الزجاج: عن فرقة أن المعنى فاعلموا أن الله مولاكم ان كنتم آمنتم بالله وقالت فرقة أخرى أن «إن» متعلقة بقوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم﴾ قال ابن عطية: وهذا هو الصحيح لأن قوله واعلموا يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله في الغنائم، فعلق ان بقوله واعلموا على هذا المعنى أي ان كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وأسلموا الأمر لله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة.

وقال في الكشاف: إنه متعلق بمحذوف يدل عليه واعلموا بمعنى ان كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به فاقطعوا عنه أطماعكم واقنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المراد بالعلم العلم المجرد ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله لأن العلم المجرد يستوي فيه المؤمن والكافر اهـ.

﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾ أي إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه إضافة تشريف وتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿يوم الفرقان﴾ يوم بدر، وبدر ماء بين مكة والمدينة وسمي يومه يوم الفرقان لأن الله فرق بين أهل الحق بإظهاره وأهل الباطل بإخماده.

﴿يوم التقى الجمعان﴾ أي الفريقان من المسلمين والكافرين، عن علي ابن أبي طالب قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿والله على كل شيء قدير﴾ ومن قدرته العظيمة نصر الفريق الأقل على الفريق الأكثر.

---

(١) مسلم ١٧١٥.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾

﴿إذ﴾ أي اذكروا أيها المسلمون اذ ﴿أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى﴾ قرىء بضم العين في الموضعين وكذا بالفتح والكسر وقرىء بهما أيضا وهي لغات بمعنى واحد، وهذا هو قول جمهور اللغويين، والعدوة شط الوادي وشفيره وحافته سميت بذلك لأنها عدت ما في الوادي من ماء ونحوه أن يتجاوزها أي منعته، وقال أبو عمرو: هي المكان المرتفع، والدنيا تأنيث الأدنى من دنا يدنو أي القرب من المدينة، والقصوى تأنيث الأقصى من قصا يقصو، ويقال القصيا والأصل الواو وهي لغة أهل الحجاز، والمعنى وقت نزولكم بالجانب الادنى من الوادي إلى جهة المدينة، وعدوكم بالجانب الاقصى منه مما يلي مكة والباء بمعنى في كقولك زيد بمكة.

﴿والركب أسفل منكم﴾ أي والحال ان الركب في مكان أسفل من المكان الذي أنتم فيه مما يلي البحر، وأجاز الاخفش والكسائي والفراء رفع أسفل على معنى أشد سفلاً منكم، وقيل الواو للعطف، والركب اسم جمع لراكب أو جمع له وهم العشرة فصاعداً، ولا تقول العرب ركب إلا للجماعة الراكبي الابل، وقد يقال لمن كان على فرس وغيرها ركب والجمع أركب وركوب كذا قال ابن فارس وحكاه ابن السكيت عن أكثر أهل اللغة.

والمراد بالركب هنا ركب أبي سفيان وهي المراد بالعير فإنهم كانوا في موضع أسفل منهم مما يلي ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر، قيل وفائدة ذكر هذه الحالة التي كانوا عليها من كونهم بالعدوة الدنيا وعدوهم بالعدوة

القصوى، والركب أسفل منهم، الدلالة على قوة شأن العدو وشوكته وذلك لأن العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضاً لا بأس بها، وأما العدوة الدنيا فكانت رخوة تسوخ فيها الأقدام ولا ماء بها وكانت العير وراء ظهر العدو مع كثرة عددهم، فامتن الله على المسلمين بنصرتهم عليهم والحال هذه.

﴿ولو تواعدتم﴾ أي أنتم والمشركون من أهل مكة على أن تلتقوا في هذا الموضع للقتال وأعلم كل منكم الآخر للخروج له ﴿لاختلفتم في الميعاد﴾ أي لخالف بعضكم بعضاً فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالوعد وثبطهم ما في قلوبهم من المهابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالميعاد معناه التواعد والميعاد المواعدة ووقتها ومكانها كما في القاموس.

﴿ولكن﴾ جمع الله بينكم في هذا الموطن بغير ميعاد ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي حقيقاً بأن يفعل من نصر أوليائه وخذلان أعدائه وإعزاز دينه وإذلال الكفر فأخرج المسلمين لأخذ العير وغنيمتها عند أنفسهم، وأخرج الكافرين للمدافعة عنها ولم يكن في حسبان الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة.

﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة﴾ أي ليموت من يموت عن بينة ويعيش من يعيش عن بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه، لئلا تبقى لأحد على الله حجة، وقيل الهلاك والحياة مستعاران للكفر والاسلام أي ليصدر إسلام من أسلم عن وضوح بينة ويقين بأنه دين الحق، ويصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة، وهو معنى قول ابن اسحق وقتادة ﴿وان الله لسميع﴾ بكفر الكافرين وإيمان المؤمنين ﴿عليم﴾ بهما لا يخفى عليه خافية.

إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ
فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ
إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ
مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ
فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾
وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾

﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر﴾ المعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم رآهم في منامه قليلاً فقص ذلك على أصحابه، فكان ذلك سبباً لثباتهم، قاله مجاهد ولو رآهم في منامه كثيراً لفشلوا وجبنوا عن قتالهم وتنازعوا في الأمر هل يلاقونهم أم لا، والمضارع بمعنى الماضي لأن نزول الآية كان بعد الإراءة.

﴿ولكن الله سلّم﴾ وعصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، قال ابن عباس: ﴿سلّم﴾ أي أتم يقول سلم لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم، وقيل عنى بالمنام محل النوم وهي العين أي في موضع منامك وهو عينك، روي ذلك عن الحسن، قال الزجاج: هذا مذهب حسن، ولكن الاول أسوغ في العربية لقوله: ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم﴾ فدل بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء وتلك رؤية النوم.

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي بما يحصل فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع، وقيل بما فيه من الحب لله عز وجل، قاله ابن عباس.

﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً﴾ أي واذكروا وقت إراءتكم إياهم حال كونهم قليلاً حتى قال القائل من المسلمين لآخر أتراهم سبعين قال هم نحو المائة، قال ابن مسعود: حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه قال: كنا ألفاً.

﴿ويقللكم في أعينهم﴾ أي وقلل المسلمين في أعين المشركين حتى قال قائلهم إنما هم أكلة جزور، وكان هذا قبل القتال والتحام الحرب، فلما شرعوا فيه كثر الله المسلمين في أعين المشركين كما قال في آل عمران ﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾ ووجه تقليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا رأوهم قليلاً أقدموا على القتال غير خائفين ثم يرونهم كثيراً فيفشلون وتكون الدائرة عليهم ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه.

﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ في علمه، وانما كرره لاختلاف الفعل المعلل به، عن عباد بن عبدالله بن الزبير قال: ليلف بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والانعام على من أراد النعمة عليه من أهل ولايته، وقيل المراد بالامر إعلاء كلمة الاسلام ونصر أهله، وإذلال كلمة الشرك وخذلان أهله، والمعاني متقاربة ﴿وإلى الله ترجع﴾ أي تصير ﴿الامور﴾ كلها يفعل فيها ما يريد ويقضي في شأنها ما يشاء.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة﴾ اللقاء الحرب والفئة الجماعة ولا واحد لها من لفظها ويجمع على فئات، وقد تجمع بالواو والنون جبراً لما نقص منها أي اذا حاربتم جماعة من المشركين ﴿فاثبتوا﴾ لهم ولا تجبنوا عنهم، وهذا

لا ينافي الرخصة المتقدمة في قوله: ﴿الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة﴾ فان الأمر بالثبات هو في حال السعة، والرخصة هي في حال الضرورة، وقد لا يحصل الثبات إلا بالتحرف أو التحيز.

﴿واذكروا الله كثيراً﴾ عند جزع قلوبكم فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد، وقيل المعنى اثبتوا بقلوبكم واذكروا بألسنتكم فان القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان.

قيل وينبغي أن يكون الذكر في هذه الحالة بما قاله أصحاب طالوت ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾.

وفي الآية دليل على مشروعية الذكر في جميع الأحوال حتى في هذه الحالة التي ترجف فيها القلوب، وتزيغ عندها البصائر.

قال قتادة: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون عند الضراب بالسيوف وأخرج الحاكم وصححه عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثنتان لا يردان الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً(١)، وأخرج الحاكم وصححه عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يكره الصوت عند القتال(٢).

﴿لعلكم تفلحون﴾ أي كونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفر ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا﴾ أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم اليه ونهاهم عن التنازع، وهو الاختلاف في الرأي فإن ذلك يتسبب عنه الفشل وهو الجبن في الحرب، وأما المنازعة بالحجة لاظهار الحق فجائزة كما قال ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ بل هي مأمور بها بشروط

---

(١) المستدرك كتاب الجهاد ٢/١١٣. (٢) المستدرك كتاب الجهاد ٢/١١٦.

منها قصد إظهار الحق على لسان أي الخصمين وعلامته ان يفرح لظهوره على لسان خصمه.

﴿وتذهب ريحكم﴾ الريح القوة والنصر كما يقال الريح لفلان إذا كان غالباً في الأمر، وقيل الريح الدولة شبهت في نفوذ امرها بالريح في هبوبها، والمختار أن الريح يطلق ويراد به القوة والغلبة والرحمة والنصرة والدولة، قال في الخازن: الريح هنا كناية عن نفاذ الأمر وجريانه على المراد، تقول العرب هبت ريح فلان إذا اقبل امره على ما يريد، وقال قتادة وابن زيد: هي ريح النصر ولم يكن نصر قط الا بريح يبعثها الله تضرب وجوه العدو ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: نصرت بالصبا واهلكت عاد بالدبور[1].

﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ امرهم بالصبر على شدائد الحرب وأخبرهم بأنه مع الصابرين بالنصر والعون في كل أمر ينبغي الصبر فيه، ويا حبذا هذه المعية التي لا يغلب من رزقها غالب، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات وان كانت كثيرة ﴿ولا تكونوا﴾ في البطر والاستكبار ﴿كالذين خرجوا من ديارهم﴾ أي مكة ﴿بطراً﴾ أي فخراً وأشراً ﴿ورئاء الناس﴾ فيصيبكم مثل ما أصابهم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة هؤلاء وهم قريش فانهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التي مع أبي سفيان ومعهم القيان[2] والمعازف فلما بلغوا الجحفة بلغهم ان العير قد نجت وسلمت فلم يرجعوا بل قالوا لا بد لهم من الوصول الى بدر ليشربوا الخمر وتغني لهم القيان وتسمع العرب بمخرجهم فكان ذلك منهم بطراً وأشراً وطلباً للثناء من الناس والتمدح اليهم، والفخر عندهم، وهو الرياء.

قيل والبطر في اللغة التقوِّي بنعم الله على معاصيه أي خرجوا بطرين مرائين أو خوجوا للبطر والرياء، قال الزجاج البطر الطغيان في النعمة وترك

---

(١) مسلم ٩٠٠.

(٢) المغنيات.

شكرها وجعلها وسيلة الى ما لا يرضاه الله، والرياء اظهار الجميل مع ابطان القبيح، وقيل معناهما الفخر بالنعمة ومقابلتها بالتكبر والخيلاء والفخر بها، والرياء مصدر راءى كقاتل قتالاً.

وظاهر النظم الكريم ان قوله بطراً متعلق بخرجوا وهو لا يوافق الواقع لأن خروجهم كان لغرض مهم، وهو المنع عن عيرهم ولهذا جعله السيوطي متعلقاً بمحذوف وقدر لخرجوا علة أخرى حيث قال خرجوا من ديارهم ليمنعوا عيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها بطراً، فجعله علة لهذا المقدر وهو قوله ولم يرجعوا والمعنى عليه واضح ولم يسلك هذا المسلك غيره ممن رأيناه من المفسرين.

وعن قتادة قال: ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يومئذ: «اللهم ان قريشاً قد أقبلت بفخرها وخيلائها لتجادل رسولك»، وقال: جاءت من مكة افلاذها وقد احتج بهذه الآية الشيخ عبد العزيز الدهلوي على انه لا يجوز طوف البلد للعروس بركوب الخيل وغيرها كما اعتاده أهل الهند في عقود مناكحاتهم.

﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ عطف على بطراً إن جعل مصدراً في موضع الحال وكذا ان جعل مفعولاً له لكن على تأويل المصدر يعني صادين عن دين الله أو للصد عنه، والصد إضلال الناس والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية، ويجوز أن يكون ويصدون معطوفاً على يخرجون والمعنى يجمعون بين الخروج على تلك الصفة والصد، ونكتة التعبير بالاسم أولاً ثم الفعل ان البطر والرئاء كانا دأبهم بخلاف الصد فانه تجدد لهم في زمن النبوة قاله الشهاب ﴿والله بما يعملون محيط﴾ لا يخفى عليه من أعمالهم خافية، فهو مجازيهم عليها.

---

(١) المغنيات.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ أي واذكر يا محمد تزيين الشيطان لهم أعمالهم بأن شجعهم وقواهم لما خافوا الخروج من أعدائهم بني بكر وهم قبيلة كنانة قريبة من قريش وبينها وبينهم الحروب الكثيرة، والتزيين التحسين، وقد روي ان الشيطان تمثل لهم يوم بدر في جند من الشياطين معه، قال ابن عباس: رأيته في صورة رجل من رجال بني مدلج سراقة بن مالك بن جعشم سيد تلك الناحية، وكانت قريش تخاف من بني بكر ان يأتوهم من ورائهم.

﴿وقال﴾ لهم ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس﴾ أي كنانة وغيرها ﴿واني جار﴾ أي مجير ومعين وناصر ﴿لكم﴾ من كل عدو أو من بني كنانة، ومعنى الجار هنا الدافع عن صاحبه أنواع الضرر كما يدفع الجار عن الجار، وقيل المعنى أنه ألقى في روعهم هذه المقالة وخيل اليهم انهم لا يغلبون ولا يطاقون.

﴿فلما تراءت﴾ التقت ﴿الفئتان﴾ أي فئة المسلمين والمشركين ورأى الملائكة وكان يده في يد الحرث بن هشام ﴿نكص﴾ أي رجع ﴿على عقبيه﴾ هارباً أي رجع القهقرى يمشي الى ظهره، وقيل معنى نكص ههنا بطل كيده وذهب ما خيله.

﴿وقال إني بريء منكم﴾ أي من جواركم وحفظكم ونصركم والذب عنكم وتبرأ منهم لما رأى امارات النصر مع المسلمين بامداد الله لهم بالملائكة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿اني أرى ما لا ترون﴾ من الملائكة ثم علل بعلة أخرى فقال ﴿اني أخاف الله﴾ قيل خاف أن يصاب بمكروه من الملائكة الذين حضروا

الوقعة، وقيل ان دعوى الخوف كذب منه ولكنه رأى أنه لا قوة له ولا للمشركين فاعتل بذلك ﴿والله شديد العقاب﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام ابليس بسطاً للعذر ويحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً من جهة الله سبحانه تهديداً لإبليس(١).

﴿إذ يقول المنافقون﴾ قيل هم الذين أظهروا الايمان وأبطنوا الكفر وكانوا بالمدينة وهو ابتداء كلام منقطع عما قبله ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ هم الشاكون من غير نفاق الكائنون بمكة لم يقو اسلامهم لكونهم حديثي عهد بالاسلام، وعن الحسن قال: مرضى القلوب هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين، وقال الكلبي: هم قوم كانوا أقروا بالاسلام وهم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا المسلمين وافقوا المنافقين في قولهم.

﴿غر هؤلاء﴾ المسلمين ﴿دينهم﴾ حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش، وعن الشعبي نحوه، وقيل هم المشركون ولا يبعد ان يراد بهم اليهود الساكنون في المدينة وما حولها وانهم هم والمنافقون من أهل المدينة قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين الى بدر لما رأوهم في قلة من العدد، وضعف من العدد.

فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿ومن يتوكل على الله﴾ يثق به ﴿فإن الله عزيز﴾ لا يغلبه غالب ولا يذل من توكل عليه ﴿حكيم﴾ له الحكمة البالغة التي تقصر عندها العقول.

---

(١) قال ابن السائب: كان إبليس في صف المشركين على صورة سراقة، آخذاً بيد الحارث بن هشام؛ فرأى الملائكة فنكص على عقبيه؛ فقال له الحارث: أفراراً من غير قتال؟ فقال: (إني أرى ما لا ترون)؛ فلما هُزم المشركون، قالوا: هَزَمَ الناس سراقة؛ فبلغه ذلك، فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم. قال قتادة: صدق عدو الله في قوله: (إني أرى ما لا ترون)، ذُكر لنا أنه رأى جبريل ومعه الملائكة، فعلم أنه لا يد له بالملائكة، وكذب عدو الله في قوله: (إني أخاف الله)، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له بهم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾

﴿ولو ترى﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له كما تقدم تحقيقه في غير موضع، والرؤية بصرية والمعنى لو رأيت ﴿إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾ لان لو يقلب المضارع ماضياً أي ولو ترى الكافرين وقت توفى الملائكة لهم قيل أراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر.

وقيل هي فيمن قتل ببدر، وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمراً عظيماً ﴿يضربون وجوههم﴾ أي جهة الأمام ﴿وأدبارهم﴾ أي جهة الخلف يعني أستاههم كنى عنها بالأدبار، وقيل ظهورهم بمقامع من حديد، وهذا نص في أن ملائكة الموت عند قبضها لروح الكافر تضربه بما ذكر وتقول له ما ذكر وإن كنا محجوبين عن رؤية ذلك وسماعه.

واختلفوا في وقت هذا الضرب، فقيل يكون عند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط من نار كما يفيده ذكر التوفي، وقيل هو يوم القيامة حين يسيرون بهم إلى النار، قال ابن جريج: يريد ما أقبل من أجسادهم وأدبر يعني يضربون جميع أجسادهم، قيل كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم على المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف، واذا ولوا أدبارهم ضربت الملائكة أدبارهم، قيل كان معهم مقامع من حديد محماة بالنار يضربون بها الكفار فتلتهب النار في جراحاتهم.

﴿و﴾ يقول لهم خزنة جهنم عند القتل ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ أي المحرق وقال ابن عباس: تقول لهم الملائكة ذلك بعد الموت، وقال الحسن: هذا يوم القيامة، والذوق قد يكون محسوساً وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار، وأصله من الذوق بالفم.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢)﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم من الضرب والحريق والعذاب والقتل ﴿بما قدمت أيديكم﴾ أي واقع بسبب ما كسبتم من المعاصي واقترفتم من الذنوب، هذا من جملة قول الملائكة، عبر بها دون غيرها لأن أكثر الأفعال تـزاول بها ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي والأمر انه لا يظلمهم أو ذلك العذاب بسبب المعاصي وبسبب أن الله ليس بذي ظلم لهم فيعذبهم بغير ذنب، لانه سبحانه قد أرسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه، وأوضح لهم السبيل وهداهم النجدين كما قال سبحانه: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها،

﴿كدأب﴾ لما ذكر سبحانه ما أنزله بأهل بدر أتبعه بما يدل على أن هذه سنته في فرق الكافرين، وأصل الدأب في اللغة إدامة العمل، يقال فلان يدأب في كذا إذا داوم عليه وأتعب نفسه فيه، ثم سميت العادة دأباً لأن الانسان يداوم على عادته ويواظب عليها، أي دأب هؤلاء في كفرهم مثل دأب ﴿آل فرعون والذين من قبلهم﴾ والمعنى انه جوزي هؤلاء كما جوزي أولئك فكانت العادة في عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله في تعذيب طوائف الكفر من الأمم الماضية المكذبة فيما فعلوا وفعل بهم.

﴿كفروا بآيات الله﴾ مفسرة لدأب آل فرعون وبيان لفعلهم أي دأبهم هذا هو أنهم كفروا بها ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ هذا بيان لما فعل بهم أي فتسبب عن كفرهم أخذ الله سبحانه لهم، والمراد بذنوبهم معاصيهم المترتبة على كفرهم، فالباء للملابسة أي فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها ﴿ان الله قوي﴾ على ما يريده ﴿شديد العقاب﴾ جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿ذلك﴾ أي العقاب الذي أنزله الله بهم ﴿بأن الله لم يك﴾ مجزوم بسكون النون المحذوفة تخفيفاً أي ما كان ﴿مغيراً نعمة أنعمها على قوم﴾ المراد بالنعمة هو محمد ﷺ أنعم بها على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله إلى الانصار، قاله السدي والجملة جارية مجرى التعليل لما حل بهم من عذاب الله أي أن ذلك العقاب بسبب أن عادة الله في عباده عدم تغيير النعمة التي ينعم بها عليهم مبدلاً لها بالنقمة.

﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ من الاحوال والاخلاق بكفران نعم الله وغمص[1] إحسانه وإهمال أوامره ونواهيه، وهذا يعم الحال المرضية والقبيحة، فكما تغير الحال المرضية الى المسخوطة كذلك تغير الحال المسخوطة الى ما هو أسوأ منها، هذا حاصل ما في الكشاف، وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم ومن قريش ومن يماثلهم من المشركين، فإن الله فتح لهم أبواب الخيرات في الدنيا ومنّ عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فقابلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم كما غيروا ما كان يجب عليهم سلوكه والعمل به من شكرها وقبولها.

وجملة ﴿وان الله سميع عليم﴾ معطوفة على ما قبلها داخلة معها في التعليل، أي ذلك بسبب ان الله لم يك مغيراً وبسبب ان الله سميع يسمع ما

---

(١) الغمص كفران النعمة إ. هـ منه.

يقولونه، وعليم يعلم ما يفعلونه.

ثم كرر ما تقدم فقال: ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم﴾ لقصد التأكيد مع زيادة أنه كالبيان للاخذ بالذنوب بأنه كان بالإغراق، وقيل ان الأول باعتبار ما فعله آل فرعون ومن شبه بهم، والثاني باعتبار ما فعل بهم وقيل المراد بالأول كفرهم بالله وبالثاني تكذيبهم الأنبياء، وقيل الاول اخبار عن عذاب لم يمكن الله أحداً من فعله وهو ضربُ الملائكة وجوههم وأدبارهم عند نزع أرواحهم والثاني إخبار عن عذاب مكن الله الناس من فعل مثله وهو الإهلاك والاغراق، وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف.

وفي قوله: ﴿كذبوا بآيات ربهم﴾ زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق والكلام في ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ كالكلام المتقدم في ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ قيل المعنى أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ، فكذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف.

﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ أي قومه معه معطوف على أهلكناهم عطف الخاص على العام لفظاعته وكونه من أشد أنواع الاهلاك ﴿وكل كانوا ظالمين﴾ حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون والذين من قبلهم ومن كفار قريش بالظلم لأنفسهم بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورمله بالظلم لغيرهم كما كان يجري منهم في معاملاتهم للناس بأنواع الظلم وبالتكذيب لأنبيائهم، وجمع الضمير في ﴿كانوا﴾ وفي ظالمين مراعاة لمعنى ﴿كل﴾ لأن كلًّا متى قطعت عن الاضافة جاز مراعاة لفظها تارة ومعناها أخرى، وانما اختير هنا مراعاة المعنى لأجل الفواصل ولو روعي اللفظ فقط فقيل وكل كان ظالما لم تتفق الفواصل، قاله السمين.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ان شر الدواب عند الله الذين كفروا﴾ أي شر ما يدب على وجه الارض في حكم الله وقضائه المصرون على الكفر المتمادون في الضلال، وجعلهم شر الدواب لا شر الناس ايماء إلى انسلاخهم عن الانسانية ودخولهم في جنس غير الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم، ومع ذلك هم شر من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ان هم إلا كالانعام بل هم أضل﴾ عن سعيد بن جبير قال: نزلت في ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت ولهذا قال: ﴿فهم لا يؤمنون﴾ أي هذا شأنهم لا يؤمنون أبداً ولا يرجعون عن الغواية أصلاً،

وهذا حكم مترتب على تماديهم في الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من أهل الطبع لا يلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف أصلاً. جيء به على وجه الاعتراض لا أنه عطف على كفروا داخل معه في حيز الصلة التي لا حكم فيها بالفعل، قاله أبو السعود ﴿الذين عاهدت منهم﴾ أي أخذت منهم عهدهم ان لا يعينوا المشركين أي كفار مكة قيل من في ﴿منهم﴾ صلة أي عاهدتهم وقيل للتبعيض أي الذين عاهدتهم، وهم بعض أولئك الكفرة يعني الاشراف منهم.

﴿ثم ينقضون عهدهم﴾ الذي عاهدتهم، وعطف المستقبل على الماضي للدلالة على استمرار النقض منهم، وهؤلاء هم قريظة عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك ﴿في كل مرة﴾ من مرات المعاهدة فنقضوا وأعانوهم بالسلاح وقالوا نسينا العهد ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤوا الكفار عليه يوم الخندق ﴿وهم﴾ أي والحال أنهم ﴿لا يتقون﴾ الله في النقض والغدر، ولا يخافون عاقبته ولا يتجنبون أسبابه.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

ثم أمر رسول الله ﷺ بالشدة والغلظة عليهم فقال: ﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ أي فإما تصادفنهم في ثقاف وتلقاهم في حالة تقدر عليهم فيها وتتمكن من غلبهم وتظفر بهم يقال ثقفت الشيء ثقفاً من باب تعب أخذته، وثقفت الرجل في الحرب أدركته وثقفته ظفرت به، وثقفت الحديث فهمته بسرعة والفاعل ثقيف وبه سمي حي من اليمن، والثقاف في أصل اللغة ما يشد به القناة ونحوها يقال فلان ثقف أي سريع الوجود لما يحاوله.

﴿فشرِّد بهم﴾ أي ففرق بقتلهم والتنكيل بهم والعقوبة لهم ﴿من خلفهم﴾ من المحاربين لك من أهل الشرك كفار مكة حتى يهابوا جانبك ويكفوا عن حربك مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء أو يخافك من وراءهم من أهل مكة واليمن والتشريد التفريق مع الاضطراب والازعاج، وقال أبو عبيدة: شرد بهم سمِّع بهم وقال الزجاج: افعل بهم فعلاً من القتل تفرق به من خلفهم، يقال شردت بني فلان قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها، ومنه شرد البعير إذا فارق صاحبه.

وقرأ ابن مسعود بالذال، قال قطرب: التشريذ هو التنكيل، وبالمهملة هو التفريق، وقال المهدوي: الذال المعجمة لا وجه لها ولا يعرف في اللغة ﴿لعلهم﴾ أي الذين خلفهم ﴿يذكرون﴾ أي يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك، قاله السدي.

﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾ أي غشاً ونقضاً للعهد من القوم المعاهدين

بأمارة تلوح لك وهم قريظة والنضير ﴿فانبذ﴾ أي فاطرح ﴿إليهم﴾ العهد الذي بينك وبينهم، والنبذ الطرح، وهذا مجاز عن إعلامهم بأن لا عهد لهم بعد اليوم فشبه العهد بالشيء الذي يرمى لعدم الرغبة فيه، وأثبت النبذ له تخييلاً ومفعوله محذوف وهو عهدهم، قاله الشهاب.

﴿على سواء﴾ أي طريقة مستوية والمعنى أنه يخبرهم اخباراً ظاهراً مكشوفاً بالنقض ولا يناجزهم الحرب بغتة، وقيل معنى على سواء على وجه يستوي في العلم بالنقض أقصاهم وأدناهم أو تستوي أنت وهم فيه لئلا يتهموك بالغدر، قال الكسائي: السواء العدل، وقد يكون بمعنى الوسط، ومنه قوله: ﴿في سواء الجحيم﴾.

وقيل معنى على سواء على جهر لا على سر، والظاهر أن هذه الآية عامة في كل معاهد يخاف من وقوع النقض منه، قال ابن عطية: والذي يظهر من ألفاظ القرآن ان أمر بني قريظة انقضى عند قوله: ﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ ثم ابتدأ تبارك وتعالى في هذه الآية يأمره بما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة ﴿ان الله لا يحب الخائنين﴾ تعليل لما قبلها يحتمل أن تكون تحذيراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المناجزة قبل أن ينبذ إليهم على سواء، ويحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين تخاف منهم الخيانة.

﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا﴾ أي فاتوا عذابه وخلصوا ونجوا منه وانهزموا يوم بدر وأفلتوا من أن يظفر بهم، وعلى القراءة بالفوقية يكون الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهي قراءة واضحة قاله أبو السعود، وقال الخفاجي: وهي ظاهرة، وقد زعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم ان قراءة من قرأ يحسبن بالتحتية لحن لا يحل القراءة بها لأنه لم يأت ليحسبن بمفعول وهو يحتاج لمفعولين.

قال النحاس: وهذا تحامل شديد، ومعنى هذه القراءة ولا يحسبن من خلفهم الذين كفروا سبقوا فيكون الضمير يعود على ما تقدم إلا أن قراءة التاء أبين، قال الخفاجي: وأما القراءة بالياء للغيبة فضعفها الزمخشري، وقال إنها غير نيرة، وقد ردوا عليه ذلك بوجهين:

الأول: ان حمزة وحفصاً وابن عامر وغيرهم قرأوا بها.

الثاني: أن قوله أنها غير نيرة ليس كما زعم فإنها أنور من الشمس في وسط النهار لأن فاعل يحسبن ضمير أي لا يحسبن هو أي قبيل المؤمنين أو الرسول أو الحاسب أو من خلفهم أو أحد لأنه معلوم من الكلام فلا يرد عليه أنه لم يسبق له ذكر، وأما حذف الفاعل فلا يخطر بالبال كما توهم، وعليه فمفعولاه ﴿الذين كفروا سبقوا﴾ وقيل الفعل مسند إلى الذين كفروا، والمفعول الأول محذوف وسبقوا هو الثاني أي لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سابقين انتهى.

﴿إنهم لا يعجزون﴾ تعليل لما قبلها أي أنهم بهذا السبق لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم والانتقام منهم، وقيل المراد بهذه الآية من أفلت من وقعة بدر من المشركين والمعنى أنهم وان أفلتوا من هذه الوقعة ونجوا فإنهم لا يعجزون بل هم واقعون في عذاب الله في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بعذاب النار، وفيه تسلية للنبي ﷺ فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم فأعلمه الله أنهم لا يعجزونه[1].

---

(١) روى مسلم عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة» قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إنما كان الغدر في حق الإمام أعظم وأفحش منه في غيره لما في ذلك من المفسدة.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)﴾

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ أمر سبحانه بإعداد القوة للاعداء الناقضي العهد كما يقتضيه السياق أو للكفار مطلقاً كما يقتضيه ما بعده، والاعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة إليه، ومن لبيان الجنس، والقوة كل ما يتقوى به في الحرب على العدو، ومن ذلك السلاح والقسيّ.

وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي قالها ثلاث مرات»(١)، وقيل هي الحصون والمعاقل، والمصير إلى التفسير الثابت عن رسول الله ﷺ متعين.

وعن ابن عباس: القوة الرمي والسيوف والسلاح، وقال ابن الزبير: أمرهم بإعداد الخيل، وعن عكرمة قال: القوة ذكور الخيل والرباط الأناث، وعن مجاهد مثله، وعن ابن المسيب قال: القوة السهم إلى الفرس فما دونه، وقال عكرمة: الحصون وقيل كل ما هو آلة يستعان بها في الجهاد فهو من جملة القوة المأمور بإعدادها، وقوله ﷺ ألا إن القوة الرمي لا ينفي كون غير الرمي ليس من القوة فهو كقوله: (الحج عرفة)(٢) وقوله: (الندم توبة)(٣) فهذا لا

---

(١) مسلم ١٩١٧.
(٢) صحيح الجامع الصغير ٣١٦٧.
(٣) الإمام احمد ١/٣٧٦.

ينفي اعتبار غيره بل يدل على أن هذا المذكور من أفضل المقصود وأجله، فكذا هنا بحمل معنى الآية على الاستعداد للقتال في الحرب وجهاد العدو بجميع ما يمكن من الآلات كالرمي بالنبل والنشاب والسيف والدرع وتعليم الفروسية، كل ذلك مأمور به لأنه من فروض الكفايات.

﴿ومن رباط الخيل﴾ قال أبو حاتم: الرباط من الخيل الخمس فما فوقها وهي الخيل التي ترتبط بإزاء العدو، قال في الكشاف: الرباط اسم للخيل التي ترتبط في سبيل الله، ويجوز أن تسمى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة، ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال اهـ والرباط ما تربط به القربة وغيرها والجمع ربط مثل كتاب وكتب ويقال للمصاب ربط الله على قلبه بالصبر كما يقال أفرغ الله عليه الصبر أي ألهمه، والرباط الذي يبنى للفقراء مولد ويجمع في القياس على ربط بضمتين ورباطات والمرابطة إقامة المسلمين بالثغور للحراسة فيها.

وربط الخيل للجهاد من أعظم ما يستعان به، قال ابن محيريز: كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وإناث الخيل عند الشتات والغارات، وقيل ربط الفحول أولى من الإناث لأنها أقوى على الكر والفر والعدو، وقيل لفظ الخيل عام يتناول الفحول والإناث فأي ذلك ربط بنية الغزاة كان في سبيل الله.

ومن فسر القوة بكل ما يتقوى به في الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام، وقد ورد في استحباب الرمي وما فيه من الأجر، واستحباب اتخاذ الخيل وإعدادها وكثرة ثواب صاحبها أحاديث كثيرة لا يسع المقام بسطها وقد أفرد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات.

﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ الترهيب التخويف والضمير في به راجع

إلى ما في ما استطعتم أو إلى المصدر المفهوم من ﴿وأعدوا﴾ وهو الإعداد فقوله ترهبون إما حال من فاعل ﴿أعدوا﴾ أو من مفعوله أي حصلوا لهم هذا حال كونكم مرهبين أو أعدوه مرهباً به، وجاز نسبته لكل منهما لأن في الجملة ضميريهما، والمراد بعدو الله وعدوهم هم المشركون من أهل مكة وغيرهم من مشركي العرب.

﴿وآخرين من دونهم﴾ معطوف على عدو الله وعدوكم ومعنى من دونهم من غيرهم، قيل هم اليهود، وقيل فارس والروم، وقيل المنافقون وفيه بعد، وقيل كفار الجن، قاله الحسن ورجحه ابن جرير الطبري وهو أبعد، وقيل المراد كل من لا تعرف عداوته، قاله السهيلي وقيل هم بنو قريظة خاصة، وقيل غير ذلك والأولى الوقف في تعيينهم لقوله.

﴿لا تعلمونهم﴾ أي لا تعرفونهم بأعيانهم، ومن عينهم قال: أي لا تعلمون بواطنهم وما انطووا عليه من النفاق، والعلم فيه قولان.

احدهما: أنه متعدّ لواحد لأنه بمعنى المعرفة ولذلك تعدى لواحد.

والثاني: أنه على بابه فيتعدى لاثنين والثاني محذوف أي لا تعلمونهم فازعين أو محاربين.

وهذان القولان لا يجوز أن يجريا في قوله: ﴿الله يعلمهم﴾ بل يجب أن

يقال إنه المتعدي إلى اثنين وأن ثانيهما محذوف للفرق بين العلم والمعرفة بوجوه (منها) أن المعرفة تستدعي سبق جهل ومنها أن متعلقها الذوات دون النسب، وقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز أن يطلق الوصف بالمعرفة على الله تعالى، وهذا لا يرد لأنه ليس في الآية اطلاق اسم العارف عليه، وإنما فيها اطلاق

اسم العلم وان كان بمعنى العرفان[1].

﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله﴾ أي في الجهاد وان كان يسيراً حقيراً، وقيل هو أمر عام في كل وجوه الخيرات والطاعات ويدخل فيه نفقة الغزو، دخولاً أولياً ﴿يوف إليكم﴾ أجره وجزاؤه في الاخرة فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة كما قررناه سابقاً، ويعجل لكم عوضه في الدنيا ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ في شيء من هذه النفقة التي تنفقونها في سبيل الله أي من ثوابها بل يصير ذلك إليكم وافياً وافراً كاملاً وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم﴾.

والتعبير عنه بالظلم مع أن الأعمال غير موجبة الثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلماً لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى.

﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ أي إن مالوا إلى المصالحة فاقبل منهم الصلح ومل الى المصالحة، والجنوح الميل، يقال جنح الرجل إلى الرجل مال اليه ومنه قيل للأضالع الجوانح لأنها مالت الى الحشوة، وجنحت الإبل إذا مالت أعناقها في السير، ويقال جنح الليل أقبل.

قال النضر بن شميل: جنح الرجل الى فلان ولفلان اذا خضع له، والجنوح الاتباع أيضاً لتضمنه الميل والجناح من ذلك لميلانه الى الطائر، والسلم

(١) ذكره ابن كثير في « تفسيره » ٢ / ٣٢٢ من رواية ابن أبي حاتم عن يزيد بن عبد الله ابن غريب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كان يقول في قول الله تعالى: ﴿ وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ﴾ قال: « هم الجن » ثم قال: ورواه الطبراني عن يزيد بن عبد الله بن غريب به وزاد: قال رسول الله ﷺ: « لا يخبل بيت فيه عتيق من الخيل » وقال: وهذا الحديث منكر لا يصح إسناده ولا متنه.

الصلح، قرىء بالكسر والفتح وهما قراءتان سبعيتان، وقرىء فاجنح بضم النون وبالفتح والأولى لغة قيس والثانية لغة تميم قال ابن جني: ولغة قيس هي القياس، والسلم يذكر ويؤنث كما يؤنث الحرب إذ هي مؤولة بالخصلة أو الفعلة.

وعن مجاهد قال: وان جنحوا يعني قريظة وعن ابن عباس قال: السلم الطاعة.

وقد اختلف أهل العلم هل هذه الأية منسوخة أم محكمة، فقيل هي منسوخة بقوله: ﴿فاقتلوا المشركين﴾ قاله ابن عباس. وقيل ليست بمنسوخة لأن المراد بها قبول الجزية وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم فتكون خاصة بأهل الكتاب، قاله مجاهد وقيل إن المشركين إن دعوا الى الصلح جاز أن يجابوا اليه.

وتمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى: ﴿ولا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم﴾ وقيدوا عدم الجواز بما إذا كان المسلمون في عزة وقوة لا إذا لم يكونوا كذلك، فإنه جائز كما وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم من مهادنة قريش، وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك، وهذا كله مبني على أن المراد بالصلح هو عقد الجزية، أما لو أريد غيره من العقود التي تفيدهم الامن وهي الهدنة والامان فلا نسخ مطلقاً إذ يصح عقدهما لكل كافر، وكلام أهل العلم في هذه المسألة معروف مقرر في مواطنه.

﴿وتوكل على الله﴾ في جنوحك للسلم ولا تخف من مكرهم وفوض أمرك اليه فيما عقدته معهم ليكون ذلك عوناً لك في جميع أحوالك ﴿إنه﴾ سبحانه ﴿هو السميع﴾ لما يقولون ﴿العليم﴾ بما يفعلون.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾

﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾ بالصلح وهم مضمرون الغدر والخدع وجواب الشرط محذوف أي فصالحهم ولا تخش منهم ﴿فإن﴾ أي لأن ﴿حسبك الله﴾ أي كافيك بنصره ومعونته ما تخافه من شرورهم بالنكث والغدر ودفع خديعتهم.

﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ تعليلية أي لا تخف من خدعهم ومكرهم، فإن الله الذي قواك عليهم بالنصر فيما مضى وهو يوم بدر، هو الذي سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخدع والنكث، والمراد بالمؤمنين المهاجرون والانصار.

فإن قلت: إذا كان الله قد أيده بنصره فأي حاجة إلى نصر المؤمنين حتى يقول وبالمؤمنين؟ قلت التأييد والنصر من الله عز وجل وحده لكنه يكون بأسباب باطنة غير معلومة، وبأسباب ظاهرة معلومة، فأما الذي يكون بالاسباب الباطنة فهو المراد بقوله: ﴿هو الذي أيدك بنصره﴾ لان أسبابه باطنة بغير وسائط معلومة وأما الذي يكون بالاسباب الظاهرة فهو المراد بقوله: ﴿وبالمؤمنين﴾ لأن أسبابه ظاهرة بوسائط معلومة وهم المؤمنون، والله تعالى هو مسبب الاسباب، وهو الذي أقامهم لنصره.

ثم بين كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال: ﴿وألّف بين قلوبهم﴾ وظاهره العموم وان ائتلاف قلوب المؤمنين هو من أسباب النصر التي أيد الله بها رسوله.

وقال جمهور المفسرين: المراد الاوس والخزرج، فقد كان بينهم عصبية شديدة وأنفة عظيمة وانطواء على الضغينة من أدنى شيء وحروب عظيمة وفتن

من منذ مائة وعشرين سنة، لا يكاد يأتلف منهم قلبان، فألف الله بين قلوبهم بالايمان برسول الله ﷺ وانقلبت تلك الحالة واستجمعت كلمتهم، وزالت حمية الجاهلية، وأبدلت تلك الضغائن بالمحبة لله وفي الله، واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصاراً لرسول الله ﷺ وأعواناً يقاتلون عنه ويحمونه، وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، وصار ذلك معجزة لرسول الله ﷺ ظاهرة باهرة دالة على صدقه.

وقيل أراد التأليف بين المهاجرين والانصار، والحمل على العموم أولى، فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضاً ولا يحترم ماله ولا دمه حتى جاء الاسلام فصاروا يداً واحدة، وذهب ما كان بينهم من العصبية والأنفة والحمية الجاهلية.

﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم﴾ مقررة لمضمون ما قبلها، والمعنى أن ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ الى حد لا يمكن دفعه بحال من الأحوال، ولو أنفق الطالب له جميع ما في الأرض لم يتم له طلبه من التأليف لأن أمرهم في ذلك قد تفاقم جداً.

﴿ولكنّ الله ألّف بينهم﴾ بعظيم قدرته وبديع صنعه، وفيه دليل على أن القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء ﴿إنه عزيز﴾ لا يغالبه مغالب ولا يستعصي عليه أمر من الأمور ﴿حكيم﴾ في تدبيره ونفوذ أمره ونهيه.

وعن ابن مسعود قال: إن هذه الآية نزلت في المتحابين في الله، وهذا يدل على أن التأليف المذكور هو بين المؤمنين الذين أيد الله بهم رسوله ﷺ وفيه رد على الرافضة حيث اعتقدوا في الصحابة ما يخالف تأليف الله تعالى بينهم، وأخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال: مكتوب على العرش لا إله إلا الله أنا الله وحدي لا شريك لي محمد عبدي ورسولي أيدته بعلي[1] وذلك قوله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين والله أعلم.

(١) من أين جاء هذا لابي هريرة وهو غيب؟ هذا لا يصح.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾ في كل شيء وعند كل مهم، ليس هذا تكريراً لما قبله فإن الأول مقيد بإرادة الخدع وان يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله فتلك كفاية خاصة، وفي هذه كفاية عامة غير مقيدة، أي حسبك الله في كل حال فيما بينك وبين الكفرة من الحراب.

والواو في قوله: ﴿ومن اتبعك من المؤمنين﴾ يحتمل أن تكون للعطف على الاسم الجليل والعلم الشريف على انه في محل الرفع، والمعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون أي كافيك الله وكافيك المؤمنون.

قال علي المهايمي في تفسيره تبصير الرحمن: حسبك الله وان لم يكن معك أحد وان نظرت الى السببية حسبك من اتبعك من المؤمنين وان لم يألفهم من لم يتم اتباعهم لك فإن لمتابعتك أثراً عظيماً في سببية النصر انتهى. وقال أبو السعود والقاضي: الجملة في محل النصب على انه مفعول معه أي كفاك وكفى اتباعك الله ناصراً كقوله:

اذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك عضب مهند

انتهى.

واختاره النحاس، وقال الفراء: انه يقدر نصبه على موضع الكاف واختاره ابن عطية ورده السفاقسي بأن اضافته حقيقية لا لفظية فلا محل له اللهم إلا أن يكون من عطف التوهم وكونه مفعولاً معه، ذكره الزجاج.

وقال أبو حيان: انه مخالف لكلام سيبويه فإنه جعل زيداً في قولهم حسبك وزيداً درهم منصوباً بفعل مقدر أي وكفى زيداً درهم وهو من عطف الجمل عنده لا يضرنا، وذكره الفراء في تفسيره، وقيل في محل الجر عطفاً على الضمير أي اسم الله تعالى أي كافيك وكافي المؤمنين الله لان عطف الظاهر على

المضمر في مثل هذه الصورة ممتنع عند البصريين كما تقرر في علم النحو، وأجازه الكوفيون وحجة المانعين انه كجزء الكلمة فلا يعطف عليه.

قال الفراء: ليس بكثير في كلامهم أن تقول حسبك وأخيك بل المستعمل أن تقول حسبك وحسب أخيك بإعادة الجار، فلو كان قوله: ﴿ومن اتبعك﴾ مجروراً لقيل حسبك الله وحسب من اتبعك، وبه قال الشعبي.

وقال شيخ الاسلام احمد بن تيمية رضي الله عنه: أي وحده حسبك وحسب المؤمنين الذين اتبعوك، ومن قال ان المعنى ان الله والمؤمنين حسبك فقد ضل بل قوله من جنس الكفر، فإن الله وحده هو حسب كل عبد مؤمن، والحسب الكافي كما قال تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ وقال تعالى ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ ولم يقل ورسوله وقالوا إنا الى الله راغبون ولم يقل هنا والى رسوله اهـ.

وضعف في الهدي النبوي رفعه عطفاً على اسم الله وقال انما هو عطف على الكاف فإن المعنى عليه، قال الخفاجي: ولا وجه له فإن الفراء والكسائي رجحاه وما قبله وما بعده يؤيده اهـ. قلت وليس كما ينبغي فتأمل.

وقيل يجوز أن يكون التقدير ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله فحذف الخبر. وعبارة البغوي في المعالم، اختلفوا في محل ﴿من﴾ فقال أكثر المفسرين محله خفض عطفاً على الكاف في قوله حسبك معناه حسبك الله وحسب من اتبعك اهـ.

قال الزهري: نزلت في الأنصار، وقيل في جميع المهاجرين والأنصار، وقال سعيد بن جبير: لما أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر نزلت هذه الآية، وعن ابن عباس نحوه.

قال الشيخ معين الدين في جامع البيان: اعترض عليه بأن الانفال كلها مدنية واسلام عمر قبل الهجرة فلا يصح هذا اهـ. لكن قال الخازن وسليمان الجمل إن هذه الآية مكية كتبت في سورة مدنية بأمر رسول الله ﷺ، وقيل نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿يـا أيها النبي حـرض المؤمنين عـلى القتـال﴾ أي حثهم وحضهم، والتحريض في اللغة المبالغة في الحث عـلى الشيء بكثرة التـرغيب وتـسهيل الخطب فيه كأنه في الأصل ازالة الحرض وهو الهلاك وهو كالتحضيض مأخوذ من الحرض وهو أن ينهكه المرض ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت كأنه ينسبه الى الهلاك لو تخلف عن المأمور به.

ثم بشرهم تثبيتاً لقلوبهم وتسكيناً لخواطرهم بأن الصـابرين منهم في القتال يغلبون عشـرة أمثالهم من الكفـار فقال: ﴿إن يكن منكم عشـرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ أي فيهم قوة وشجاعة فالمقاومة مدارها على العدد مع مراعاة المعنى لا على العدد وحده كما هو مقرر في الفروع، وفي البحر انظر الى فصاحة هذا الكلام حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر وحذف نظيره من الثانية وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة وحذفه من الأولى وهو غاية الفصاحة.

وقال الخفاجي: ولما كان الصبر شديد المطلوبية أثبت في جملتي التخفيف وحذف من الثانيـة لدلالـة السابقـة عليه، ثم ختمت بقـوله: ﴿والله مـع الصابرين﴾ مبالغة في شدة المطلوبية ولم يأت في جملتي التخفيف بقيد الكفر اكتفاء بما قبله.

قلت هذا نوع من البديع يسمى الاحتباك، وبقي عليه أنه ذكر في التخفيف بإذن الله وهو قيد لهما، وقوله: ﴿والله مع الصابرين﴾ اشارة الى تأييدهم وانهم منصورون حتماً لأن من كان الله معه لا يغلب، وبقي فيها لطائف فلّله در التنزيل ما أحلى ماء فصاحته وأنضر رونق بلاغته.

ثم زاد هذا إيضاحاً مفيداً لعدم اختصاص هذه البشارة بهذا العدد بل هي جارية في كل عدد فقال: ﴿وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾ وفي هذا دلالة على أن الجماعة من المؤمنين قليلاً كانوا أو كثيراً لا يغلبهم عشرة أمثالهم من الكفار بحال من الأحوال.

وقد وجد في الخارج ما يخالف ذلك فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين بل مثل نصفهم بل مثلهم، وأجيب عن ذلك بأن وجود هذا في الخارج لا يخالف ما في الآية لاحتمال أن لا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر عند اللقاء.

وقيل ان هذا الخبر الواقع في الآية هو في معنى الأمر كقوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن، والمطلقات يتربصن﴾ فالمؤمنون كانوا مأمورين من جهة الله سبحانه بأن يثبت الجماعة منهم لعشرة أمثالهم.

وفي الخطيب حاصل هذه العبارة المطولة أن الواحد يثبت للعشرة فما الفائدة في العدول الى تلك.

أجيب بأن هذا إيماء ورد على وفق الواقعة فكان رسول الله ﷺ يبعث السرايا، والغالب أن تلك السرايا ما كان ينقص عددها عن العشرين وما كانت تزيد على المائة، فلهذا المعنى ذكر الله هذين العددين.

﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي ان هذا الغلب بسبب جهلهم بالله وباليوم

الآخر وعدم فقههم، وانهم يقاتلون على غير بصيرة، ولا يقاتلون احتساباً وامتثالاً لأمر الله تعالى واعلاء لكلمته وابتغاء لرضوانه كما يفعله المؤمنون، وانما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع خطوات الشيطان، وإثارة ثائرة البغي والعدوان، ومن كان هكذا فهو مغلوب في الغالب.

ثم لما شق ذلك عليهم واستعظموه خفف عنهم ورخص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾ عن قتال عشرة أمثالكم، قرىء بضم الضاد وفتحها ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ منهم ﴿وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين﴾ فأوجب على الواحد أن يثبت لاثنين من الكفار.

قال سفيان وابن شبرمة: وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا ان كانا رجلين أمرهما وان كانوا ثلاثة فهو في سعة من تركهم، وقد قيل في نكتة التنصيص على غلب المائة للمائتين والألف للألفين أنه بشارة للمسلمين بأن عساكر الاسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألوف.

ثم أخبرهم بأن هذا الغلب هو ﴿باذن الله﴾ وتسهيله وتيسيره وإرادته لا بقوتهم وجلادتهم، ثم بشرهم بأنه مع الصابرين فقال: ﴿والله مع الصابرين﴾ بعونه، وفيه الترغيب الى الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية به وأنه من أعظم أسباب النجاح والفلاح والنصر والظفر لأن من كان الله معه لم يستقم لأحد ان يغلبه.

وعن النصر باذى: ان هذا التخفيف كان للأمة دون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي يقول بك أصول وبك أجول، ومن كان كذا لا يثقل عليه شيء حتى يخفف، وقد اختلف أهل العلم هل هذا التخفيف نسخ أم لا ولا يتعلق بذلك كثير فائدة.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

﴿ما كان﴾ أي ما صح وما استقام ﴿لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ هذا حكم آخر من أحكام الجهاد، والأسرى جمع أسير مثل قتل وقتيل وجرحى وجريح، ويقال في جمع أسير أسارى وهو مأخوذ من الإسار وهو القيد لأنهم كانوا يشدون به الأسير فسمي كل أخيذ وان لم يشد بالقيد أسيراً.

وقال أبو عمرو بن العلاء الأسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون، والأسارى هم الموثقون ربطاً، والاثخان كثرة القتل والمبالغة فيه تقول العرب أثخن فلان في هذا الأمر أي بالغ فيه فالمعنى ما كان لنبي أن يكون له اسرى حتى يبالغ في قتل الكافرين ويستكثر من ذلك، وقيل معنى الاثخان التمكن وقيل هو القوة، وقيل الثخانة هي الغلظة والصلابة فاستعمل هنا في لازم المعنى الأصلي وهو القوة اللازمة وأثخن في الأرض إثخاناً سار الى العدو وأوسعهم قتلاً وأثخنته أوهنته بالجراحة وأضعفته.

وعن ابن عباس: حتى يثخن حتى يظهر على الأرض، وعن مجاهد قال: الاثخان هو القتل أخبر الله سبحانه ان قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم وفدائهم ثم لما كثر المسلمون رخص الله في ذلك فقال فإما مناً بعد وإما فداء كما يأتي في سورة القتال.

قال الرازي: ان هذا الكلام يوهم أن قوله فإما مناً بعد وإما فداء يزيل

حكم الآية التي نحن في تفسيرها، وليس الأمر كذلك لأن كلتا الآيتين متوافقتان، وكلتاهما تدلان على أنه لا بد من تقديم الاثخان ثم بعده أخذ الفداء انتهى.

وقال غيره: لا تظهر دعوى النسخ من أصلها إذ النهي الضمني كما هنا مقيد بالاثخان أي كثرة القتال اللازمة لها قوة الاسلام وعزته، وما في سورة القتال من التخيير محله بعد ظهور شوكة الاسلام بكثرة القتال، فلا تعارض بين الآيتين إذ ما هناك بيان للغاية التي هنا.

﴿تريدون عرض الدنيا﴾ الخطاب لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد بعرض الدنيا نفعها ومتاعها بما قبضوا من الفداء، وسمى عرضاً لأنه سريع الزوال كما تزول الاعراض التي هي مقابلة الجواهر، قال قتادة: أراد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدر الفداء ففادوهم بأربعة آلاف درهم، وقيل كان الفداء لكل أسير أربعين أوقيه والأوقية أربعون درهما فيكون مجموع ذلك ألفا وستمائة درهم، وعن عكرمة قال عرض الدنيا الخراج.

﴿والله يريد﴾ لكم الدار ﴿الاخرة﴾ بما يحصل لكم من الثواب في الاثخان بالقتل، والمراد بالارادة هنا الرضاء وعبر بها للمشاكلة فلا يرد أن الآية تدل على عدم وقوع مراد الله وهو خلاف مذهب أهل السنة، قاله الشهاب: ﴿والله عزيز﴾ لا يغالب ﴿حكيم﴾ في أفعاله، وقد استدل بهذه الآية من يقدح في عصمة الانبياء واشتغل المفسرون برده وجوابه وما أقل فائدة ذلك[1].

﴿لولا كتاب﴾ أي حكم مكتوب ومثبت في اللوح المحفوظ ﴿من الله سبق﴾ اختلف المفسرون في هذا الكتاب الذي سبق ما هو على أقوال:

الأول: أنه ما سبق في علم الله من أنه سيحصل لهذه الأمة الغنائم والأسرى بعد أن كانت محرمة على سائر الأمم.

---

(١) سبق لنا تعليق في هذا الموضوع ص ٣٦١ ج ٢.

والثاني: أنه مغفرة الله لاهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر كما في الحديث الصحيح «ان الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(١).

القول الثالث: هو أنه لا يعذبهم ورسول الله فيهم كما قال تعالى ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾.

القول الرابع: أنه لا يعذب أحداً بذنب فعله جاهلاً لكونه ذنباً.

القول الخامس: انه ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر.

القول السادس: انه لا يعذب أحداً الا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي ولم يتقدم نهي عن ذلك، وذهب ابن جرير الطبري الى أن هذه المعاني كلها داخلة تحت اللفظ وانه يعمها.

﴿لمسكم﴾ أي لحل بكم ﴿فيما﴾ أي لأجل ما ﴿أخذتم﴾ من الفداء ﴿عذاب عظيم﴾ وهذا عتاب له صلى الله عليه وسلم على ترك الأولى اذ كان الأولى له تدارك كثرة القتل فيهم لا الفداء وليس عتاباً على فعل محرم تنزيهاً لمنصب النبوة عن ذلك.

وقد أخرج أحمد عن أنس قال: استشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس في الأسارى يوم بدر فقال: «ان الله قد أمكنكم منهم، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم عاد فقال: مثل ذلك فقام أبو بكر الصديق فقال: نرى ان تعفو عنهم وان تقبل منهم الفداء فعفا عنهم وقبل منهم الفداء فأنزل الله ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ الآية»، وفي الباب روايات كثيرة بطرق عديدة بألفاظ مختلفة(٢).

---

(١) مسلم ٢٤٩٤ ـ البخاري /١٤٢٩.

(٢) الإمام احمد ٣/٢٤٣.

وفي بعضها عند أحمد والترمذي وحسنه عن ابن مسعود فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ان الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿من تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم﴾ ومثلك يا أبا بكو مثل عيسى عليه السلام اذ قال: ﴿ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم﴾ ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام اذ قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام اذ قال: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ الحديث(١).

روي انهم أمسكوا عن الغنائم فنزل ﴿فكلوا﴾ فالفاء لترتيب ما بعدها على سبب محذوف أي قد أبحت لكم الغنائم فكلوا ﴿مما غنمتم﴾ أو المعنى اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره، وقيل ان «ما» عبارة عن الفداء أي كلوا من الفداء الذي غنمتم فانه من جملة الغنائم التي أحلها الله لكم أكلاً، ويأباه سياق النظم الكريم وسباقه.

﴿حلالاً طيباً﴾ أي أكلاً حلالاً أو النصب على الحال، عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ولم تحل الغنائم لأحد قبلنا ثم أحل الله لنا وذلك بأن رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا(٢) أخرجه البخاري ومسلم ﴿واتقوا الله﴾ فيما يستقبل فلا تقدموا على شيء لم يأذن الله لكم به ﴿ان الله غفور﴾ لما فرط منكم ﴿رحيم﴾ بكم فلذلك رخص لكم في اخذ الفداء في مستقبل الزمان.

---

(١) مسند الإمام احمد ١/٣٨٣.

(٢) البخاري كتاب الخمس باب ٨.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١﴾

﴿يا أيها النبي﴾ خاطب الله النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أي ﴿قل لمن﴾ أي لهؤلاء الذين ﴿في أيديكم من الأسرى﴾ أسرتموهم يوم بدر وأخذتم منهم الفداء ﴿ان يعلم الله في قلوبكم خيراً﴾ من حسن ايمان وصلاح نية وخلوص طوية ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ من الفداء أي يعوضكم في هذه الدنيا رزقاً خيراً منه وأنفع لكم، أو في الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالأعمال الصالحة ﴿ويغفر لكم﴾ ذنوبكم ﴿والله غفور رحيم﴾ شأنه المغفرة لعباده والرحمة بهم.

وقد أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن عائشة قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص[١] وبعثت فيه بقلادة، فلما رآها رسول الله ﷺ رق رقة شديدة وقال ان رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها[٢].

وقال العباس[٣] اني كنت مسلماً يا رسول الله قال: الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فالله يجزيك فافد نفسك وابني أخويك نوفل بن الحرث وعقيل بن أبي طالب وحليفك عتبة بن عمرو، ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه ونزلت ﴿قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ الآية[٤]، الحديث مختصراً والروايات

(١) زوجها.
(٢) المستدرك كتاب زينب بنت خديجة ٤/٤٥.
(٣) عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر اسلامه.
(٤) الإمام احمد ١/٣٥٣.

في هذا الباب كثيرة(١).

قال العباس: فأبدلني الله خيراً مما أخذ مني، عشرين عبداً كلهم تاجر يضرب بمال كثير أدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان عشرين أوقية، وأعطاني زمزم وأنا أنتظر المغفرة.

ولما ذكر ما ذكره من العوض لمن علم في قلبه خيراً ذكر من هو على ضد ذلك منهم فقال: ﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ بما قالوه لك بألسنتهم من أنهم قد آمنوا بك وصدقوك ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة، بل هو مماكرة ومخادعة فليس ذلك بمستبعد منهم فإنهم قد فعلوا ما هو أعظم منه ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ أي من قبل أن يظفر بهم فكفروا به وقاتلوا رسوله ﴿فأمكن منهم﴾ بأن نصرك عليهم في يوم بدر فقتلت منهم من قتلت وأسرت من أسرت ﴿والله عليم﴾ بما في ضمائرهم ﴿حكيم﴾ في أفعاله بهم.

---

(١) قال مقاتل: إن الله غفور لما أخذتم من الغنيمة قبل حلها، رحيم بكم إذ أحلها لكم. فجعل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، وخباب بن الأرت يوم بدر على القبض، وقسمها النبي ﷺ بالمدينة، وانطلق بالأسارى، فيهم العباس، وعقيل، ونوفل بن الحارث ابن عبد المطلب. وكان مع العباس يومئذ عشرون أوقية من ذهب، فلم تحسب له من فدائه، وكلف أن يفدي ابني أخيه، فأدى عنهما ثمانين أوقية من ذهب. وقال النبي ﷺ: «أضعفوا على العباس الفداء» فأخذوا منه ثمانين أوقية، وكان فداء كل أسير أربعين أوقية. فقال العباس لرسول الله ﷺ: لقد تركتني ما حييت أسأل قريشاً بكفي. فقال له: «أين الذهب الذي تركته عند أم الفضل»؟ فقال: أي الذهب؟ فقال: «إنك قلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث، فهو لك ولولدك» فقال: ابن أخي، من أخبرك؟ فقال: «الله أخبرني»، فقال العباس: أشهد أنك صادق، وما علمت أنك رسول الله قبل اليوم! وأمر ابني أخيه فأسلما. وفيهم نزلت: ﴿قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ الآية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾

﴿ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ ختم الله سبحانه هذه السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به، وسمى سبحانه المهاجرين الى المدينة بهذا الاسم لانهم هجروا أوطانهم وفارقوها طلباً لما عند الله واجابة لداعيه، وسبقوا للهجرة بأن هاجروا قبل العام السادس عام الحديبية بدليل قوله فيما يأتي ﴿والذين آمنوا من بعد﴾ بأن هاجروا بعد عام الحديبية وقبل الفتح.

﴿والذين آووا﴾ هم الأنصار آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المهاجرين وأسكنوهم منازلهم، وبذلوا لهم أموالهم وآثروهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴿ونصروا﴾ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاشارة بقوله ﴿أولئك﴾ الى الموصول الأول والآخر وخبره الجملة المذكورة بعده ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ في النصرة والمعونة، وقيل في الميراث وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض.

﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا﴾ من مكة بل أقاموا بها ﴿مالكم من ولايتهم﴾ بفتح الواو وكسرها أي من نصرتهم وإعانتهم أو من ميراثهم ﴿من شيء﴾ ولو كانوا من قراباتكم لعدم وقوع الهجرة منهم فلا ارث بينكم وبينهم

﴿حتى يهاجروا﴾ الى المدينة فيكون لهم ما كان للطائفة الأولى الجامعين بين الايمان والهجرة.

﴿وان استنصروكم في الدين﴾ أي هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا إذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين ﴿فعليكم﴾ أي فواجب عليكم ﴿النصر﴾ قال الزجاج: ويجوز النصر بالنصب على الاغراء أثبت للقسمين الأوّلين النصرة والارث ونفى عن هذا القسم الارث وأثبت له النصرة.

﴿إلا﴾ أن يستنصروكم ﴿على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ عهد فلا تنصرونهم عليهم ولا تنقضوا العهد الذي بينكم وبين أولئك القوم حتى تنقضي مدته وهي عشر سنين ﴿والله بما تعملون بصير﴾ تحذير عن تعدي حد الشرع الشريف.

﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ أي بعضهم ينصر بعضاً ويتولاه في أموره أو يرثه إذا مات، وفيه تعريض للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار ولا يتولونهم وهذا بمفهومه مفيد لنفي الموارثة والموازرة بينهم وبين المسلمين وإيجاب المباعدة والمصارمة وان كانوا أقارب.

﴿إلا تفعلوه﴾ الضمير يرجع إلى ما أمروا به قبل هذا من موالاة المؤمنين ومناصرتهم على التفصيل المذكور وترك موالاة الكافرين ﴿تكن﴾ أي تقع ﴿فتنة في الأرض﴾ إن لم تفعلوا ذلك وهي قوة الكفار ﴿وفساد كبير﴾ أي مفسدة كبيرة في الدين والدنيا وهو ضعف المسلمين.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

ثم بين سبحانه حكماً آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله والمؤمنين الذين آووا من هاجر اليهم ونصروهم وهم الأنصار فقال: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ أي صدقاً من غير ريب دون من آمن ومكن دار الشرك، وفي الحديث المتفق على صحته بل المتواتر «المرء مع من أحب»[1] ونصب حقاً على المصدر المؤكد أو تقديره إيماناً حقاً، قاله في جامع البيان.

وقال أبو السعود: كلام مسوق للثناء عليهم والشهادة لهم بفوزهم بالقدح المعلى من الايمان مع الوعد الكريم اهـ. والحاصل انهم هم الكاملون في الايمان لأنهم حققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الاهل والسكن، والانسلاخ من المال والدنيا لأجل الدين والعقبى، وليس في هذا تكرير لما قبله فإنه وارد في الثناء على هؤلاء، والأول وارد في إيجاب الموالاة والنصرة.

ثم أخبر سبحانه أن ﴿لهم﴾ منه ﴿مغفرة﴾ لذنوبهم في الآخرة ﴿و﴾ لهم في الدنيا ﴿رزق كريم﴾ خالص عن الكدر طيب مستلذ لا تبعة له ولا منة فيه.

ثم ألحق بهم في الأمرين من سيلحق بهم ويتسم بسيمتهم فقال:

---

(١) مسلم ٢٦٤٠ - البخاري ٢٣٥٧.

﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم﴾ اختلف في قوله: ﴿من بعد﴾ فقيل من بعد الحديبية وبيعة الرضوان.

قال القرطبي: وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقل رتبة من الهجرة الأولى، والهجرة الثانية هي التي وقع فيها الصلح ووضعت الحرب أوزارها نحو عامين ثم كان فتح مكة اهـ. وقيل بعد نزول هذه الآية، وقيل من بعد غزوة بدر، وقال الخازن: الأصح أن المراد بهم أهل الهجرة الثانية لانها بعد الهجرة الأولى لأن الهجرة قد انقطعت بعد فتح مكة لانها صارت دار الاسلام بعد الفتح.

﴿فأولئك منكم﴾ أي مثلكم في استحقاق ما استحقيتموه من الموالاة والمناصرة وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم، لكن فيه دليل على أن مرتبة المهاجرين الأولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة لأن الله تعالى ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين وجعلهم معهم، وذلك معرض المدح والشرف، ولولا أن الأولين أفضل وأشرف لما صح هذا الإلحاق.

قال في الجمل: ولم ينبهوا هنا على حكم التوارث بالهجرة الثانية هل هو ثابت كما في الهجرة الأولى أو غير ثابت لانحطاط رتبة أهل الهجرة الثانية عن رتبة أهل الهجرة الأولى إلا ما رأيته في الخطيب ونصه فأولئك منكم أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار فلهم مالكم وعليهم ما عليكم من المواريث والغنائم وغيرها ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ بين سبحانه بأن ذوي القرابات بعضهم أولى ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم في الميراث فيتناول كل قرابة، وقيل المراد بهم هنا العصبات قالوا: ومنه قول العرب وصلتك رحم فانهم لا يريدون قرابة الأم، ولا يخفاك أنه ليس في هذا ما يمنع من اطلاقه على غير العصبات.

وقد استدل بهذه الآية من أثبت ميراث ذوي الأرحام وهم من ليس بعصبة ولا ذوي سهم على حسب اصطلاح أهل علم المواريث، واليه ذهب أصحاب أبي حنيفة والخلاف في ذلك معروف مقرر في مواطنه.

وقد قيل ان هذه الآية ناسخة للميراث بالموالاة والنصرة عند من فسر ما تقدم من قوله: ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ وما بعده بالتوارث وأما من فسرها بالنصرة والمعونة فيجعل هذه الاية اخباراً منه سبحانه وتعالى بأن القرابات بعضهم أولى ببعض ﴿في كتاب الله﴾ أي في حكم الله أو في اللوح المحفوظ أو في القرآن وهو أن قسمة المواريث مذكورة في سورة النساء من كتاب الله وهو القرآن، وكذا إعطاء أهل الفروض فروضهم وما بقي للعصبات، وبهذا أجاب الشافعي أصحاب أبي حنيفة رحمه الله، ويدخل في هذه الأولوية الميراث دخولاً أولياً لوجود سببه. أعني القرابة.

﴿ان الله بكل شيء عليم﴾ لا يخفى عليه شيء من الأشياء كائناً ما كان ومن جملة ذلك ما تضمنته هذه الآيات من التوارث بمقتضى الايمان والهجرة ولو بدون قرابة الذي قد نسخ، والتوارث بمقتضى القرابة ولو بدون مشاركة في الهجرة أو النصرة والله سبحانه وتعالى أعلم[1].

---

(١) ورُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الخال وارث». وروي عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ميراث العمة والخالة فقال: «لا أدري حتى يأتيني جبريل» ثم قال: «أين السائل عن ميراث العمة والخالة»؟ قال: فأتى الرجل فقال: «سارني جبريل أنه لا شيء لهما». قال الدارقطني: لم يسنده غير مسعدة عن محمد بن عمرو وهو ضعيف، والصواب مرسل. ورُوي عن الشعبي قال قال زياد بن أبي سفيان لجليسه: هل تدري كيف قضى عمر في العمة والخالة؟ قال لا. قال: إني لأعلم خلق الله كيف قضى فيهما عمر، جعل الخالة بمنزلة الأم، والعمة بمنزلة الأب.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة براءة

هي مائة وثلاثون آية . وقيل مائة وسبع وعشرون آية . ولها أسماء منها سورة التوبة لأن فيها ذكر التوبة على المؤمنين . وعن حذيفة انكم تسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب أهـ وتسمى الفاضحة لانه ما زال ينزل فيها ﴿ ومنهم ومنهم ﴾ حتى كادت أن لا تدع أحدا . وتسمى البحوث لانها تبحث عن أسرار المنافقين وتسمى المبعثرة والبعثرة البحث. وتسمى أيضا بأسماء أخر كالمقشقشة لانها تقشقش من النفاق أي تبرئ منه. والمخزية لكونها أخزت المنافقين والمثيرة لانها تثير أسرارهم . والحافرة لكونها تحفر عنها . والمنكلة لما فيها من التنكيل لهم والمدمدمة لانها تدمدم عليهم أي تهلكهم. قال الخفاجي : وأسماؤها كلها بصيغة الفاعل الا البحوث بفتح الباء فانه صيغة مبالغة بمعنى اسم الفاعل أهـ .

قلت: والا البراءة والتوبة وسورة العذاب، وهي مدنية، قال القرطبي: باتفاق وعن ابن عباس قال: نزلت بعد فتح مكة، وعنه قال نزلت بالمدينة، وعن ابن الزبير وقتادة نحوه، وعن البراء قال: آخر سورة نزلت تامة براءة، رواه البخاري.

وقد اختلف العلماء في سبب سقوط البسملة من أولها على أقوال منها ما روي عن المبرد وغيره انه كان من شأن العرب إذا كان بينهم وبين قوم عهد فاذا أرادوا نقضه كتبوا اليهم كتاباً ولم يكتبوا فيه بسمله، فلما نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمشركين بعث بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم علي بن أبي طالب فقرأها عليهم ولم يبسمل في ذلك على ما جرت به عادة العرب في نقض العهد من ترك التسمية.

وعن علي قال: البسملة أمان، وبراءة نزلت بالسيف، أشار إلى وجه ترك كتابة البسملة في هذه السورة والتلفظ بها دون غيرها، قال الخفاجي: وللسلف فيه أقوال ثلاثة أصحها هذا اهـ.

قلت: وروي نحوه عن سفيان بن عيينة، وروي عن مالك بن أنس وابن عجلان وابن جبير أنها كانت تعدل سورة البقرة أو قريباً منها وانه لما سقط أولها سقطت البسملة.

ومن جملة الأقوال في سقوطها أنهم لما كتبوا المصحف في خلافة عثمان اختلفت الصحابة، فقال بعضهم براءة والأنفال سورة واحدة، وقال بعضهم هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان وتركت البسملة لقول من قال هما سورة واحدة فرضي الفريقان معاً، قاله خارجة وأبو عصمة وغيرهما وقول من جعلها سورة واحدة أظهر لأنهما جميعاً نزلتا في القتال ومجموعهما مائتان وخمس آيات ويعدان جميعاً سابعة السبع الطوال.

ومنها ما قال السيوطي: انه لم تكتب فيها البسملة لأنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم. اهـ.

وعن عثمان: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها فظننت أنها منها فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، أخرجه الترمذي وحسنه.

والصحيح أنها لم تكتب لأن جبريل ما نزل بها في هذه السورة، قاله القشيري قال أبو السعود: واشتهارها بهذه الأسماء يقضي بأنها سورة مستقلة وليست بعضاً من سورة الأنفال، وادعاء اختصاص الاشتهار بالقائلين باستقلالها خلاف الظاهر فيكون حكمة ترك التسمية عند النزول نزولها في رفع الأمان الذي يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعاً بوصف الرحمة، كما روي عن ابن عيينة رضي الله عنه: لا الاشتباه في استقلالها وعدمه، كما يحكى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ولا رعاية ما وقع بين الصحابة رضي الله عنهم من الاختلاف في ذلك.

على أن ذلك ينزع إلى القول بأن التسمية ليست من القرآن، وإنما كتبت للفصل بين السور كما نقل عن قدماء الحنفية، وإن مناط إثباتها في المصاحف، وتركها إنما هو رأي من تصدى لجمع القرآن دون الترقيف، ولا ريب في أن الصحيح من المذهب أنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها، وأن لا مدخل لرأي أحد في الاثبات والترك، وانما المتبع في ذلك هو الوحي والتوقيف ولا مرية في عدم نزولها ههنا، وإلا لامتنع أن يقع في الاستقلال اشتباه أو اختلاف فهو إما لاتحاد السورتين أو لما ذكرنا، لا سبيل الى الاول والا لبينه عليه الصلاة والسلام لتحقق مزيد الحاجة الى البيان لتعاضد أدلة الاستقلال من كثرة الآيات وطول المدة فيما بين نزولهما فحيث لم يبينه عليه الصلاة والسلام تعين الثاني لان عدم البيان من الشارع في موضع البيان بيان للعدم.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾

﴿براءة﴾ أي هذه براءة وتنوينه للتفخيم، وقرىء بالنصب أي اسمعوا براءة قاله عيسى بن عمر، يقال: برئت من الشيء ابرأ براءة وأنا منه بريء إذا أزلته عن نفسك وقطعت سبب ما بينك وبينه، وقيل معناها هنا التباعد مما تكره مجاورته ﴿من الله ورسوله﴾ من ابتدائية أي هذه براءة مبتدأة من جهة الله تعالى ورسوله واصلة ﴿الى الذين عاهدتم من المشركين﴾ عهدا مطلقاً أو دون أربعة أشهر أو فوقها، والعهد العقد الموثق باليمين، والخطاب للمسلمين ومن بيان للموصول وقد عاهدوا مشركي مكة وغيرهم بإذن من الله واتفاق من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

والمعنى الإخبار للمسلمين بأن الله ورسوله قد برئا من تلك المعاهدة بسبب ما وقع من الكفار من النقض فصار النبذ اليهم بعهدهم واجباً على المعاهدين من المسلمين ومعنى براءة الله سبحانه وقوع الاذن منه سبحانه بالنبذ من المسلمين لعهد المشركين بعد وقوع النقض منهم، وفي ذلك من التفخيم لشأن البراءة والتهويل لها والتسجيل على المشركين بالذل والهوان ما لا يخفى.

﴿فسيحوا﴾ أيها المشركون ﴿في الأرض أربعة أشهر﴾ أمر إباحة منه سبحانه بالسياحة بعد الإخبار بتلك البراءة والسياحة السير، يقال ساح فلان في الأرض يسيح سيحاً وسياحة وسيوحاً وسيحاناً، ومنه سيح الخيل.

قال أبو السعود: السياحة والسيح الذهاب في الأرض والسير فيها بسهولة على مقتضى المشية كسيح الماء على موجب الطبيعة، ففيه من الدلالة على كمال التوسعة والترفيه ما ليس في سيروا ونظائره، وزيادة قوله: ﴿في الأرض﴾ لقصد التعميم لأقطارها من دار الاسلام وغيرها انتهى.

ومعنى الآية ان الله سبحانه بعد أن أذن بالنبذ الى المشركين بعهدهم أباح للمشركين الضرب في الأرض والذهاب إلى حيث يريدون والاستعداد للحرب هذه الأربعة الاشهر، وليس المراد من الامر بالسياحة تكليفهم بها، وهذا القول كناية عن عقد الأمان لهم أربعة أشهر بعد نقضهم العهد بصوره الثلاث، وانما اقتصر على الاربعة لقوة المسلمين اذ ذاك بخلاف صلح الحديبية فانه كان على عشر سنين لضعف المسلمين إذ ذاك.

قال محمد بن إسحاق وغيرهما: ان المشركين صنفان صنف كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر، فأمهل تمام أربعة أشهر، والاخر كانت مدته أكثر من ذلك فقصر على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه وهو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين يُقتل حيث يوجد إلا أن يتوب ويرجع إلى الإيمان.

وابتداء هذا الاجل يوم الحج الاكبر وانقضاؤه الى عشر من ربيع الآخر، فاما من لم يكن له عهد فانما أجله انسلاخ الاشهر الحرم وذلك خمسون يوماً عشرون من ذي الحجة وشهر محرم.

وقال الكلبي: إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد دون أربعة أشهر فتتم له الأربعة ومن كان عهده أكثر من ذلك فهو الذي أمر الله ان يتم له عهده بقوله: ﴿فأتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ كما سيأتي، ورجح هذا ابن جرير وغيره.

وعن الزهري قال: نزلت في شوال فهي أربعة أشهر شوال وذو القعدة وذو الحجة ومحرم، والقول الاول أصوب وعليه الاكثرون، وفي الباب أقوال.

وقيل المقصود من هذا التأجيل ان يتفكروا ويحتاطوا لانفسهم ويعلموا أنه ليس لهم بعد هذه المدة إلا الاسلام أو القتل، فيصير هذا داعياً لهم إلى

الدخول في الاسلام ولئلا ينسب المسلمون الى الغدر ونكث العهد، وقال ابن الانباري: التقدير قل لهم فسيحوا، وليس هذا من باب الأمر بل المقصود منه الاباحة والاطلاق والاعلام بحصول الأمان وزوال الخوف يعني سيحوا في الأرض وأنتم آمنون من القتل والقتال.

وقد توهم بعضهم ان بعث علي بن أبي طالب بقراءة أول براءة عزل أبي بكر عن الامارة، وذلك جهل من هذا المتوهم والبحث مستوفى في موطنه.

﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ أي اعلموا أن هذا الامهال ليس لعجز ولكن لمصلحة ليتوب من تاب، وفي ذلك ضرب من التهديد كأنه قيل افعلوا في هذه المدة كلما أمكنكم من إعداد الالات والأدوات فانكم لا تفوتون الله ولا تغتروا بعقد الامان لكم ﴿وان الله مخزي الكافرين﴾ أي وهو مخزيكم ومذلكم ومهينكم في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالعذاب والنار، وفي وضع الظاهر موضع المضمر اشارة إلى أن سبب هذا الاخزاء هو الكفر، ويجوز أن يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولاً أولياً.

وأخرج الترمذي وحسنه وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات، ثم أتبعه علياً وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات فانطلقا وحجا فقام علي في أيام التشريق فنادى ان الله بريء من المشركين ورسوله فسيحوا في الارض أربعة أشهر، ولا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا مؤمن، فكان علي ينادي، فاذا أعيا قام أبو بكر ينادي بها[1] وفي الباب أحاديث في الصحيحين وغيرهما بألفاظ.

---

(١) المستدرك كتاب المغازي ٣/٥٢.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

﴿وأذان من الله ورسوله﴾ الاذان بمعنى الايذان وهو الاعلام كما أن الامان والعطاء بمعنى الايمان والاعطاء، ومعنى ﴿الى الناس﴾ التعميم في هذا أي إنه ايذان من الله الى كافة الناس غير مختص بقوم دون قوم، فهذه الجملة متضمنة للإخبار بوجوب الاعلام لجميع الناس، والجملة الأولى متضمنة للإخبار بالبراءة إلى المعاهدين خاصة.

﴿يوم الحج الأكبر﴾ ظرف لقوله وأذان ووصفه بالاكبر لأنه يجتمع فيه الناس أو لكون معظم أفعال الحج فيه أو احترازاً عن العمرة فهي الحج الاصغر، لأن أعمالها أقل من أعمال الحج إذ يزيد عليها بأمور كالرمي والمبيت، فكان أكبر بهذا الاعتبار، وسمي يوم الحج لان أعمال الحج يتم فيه معظمها.

وقد اختلف العلماء في تعيين هذا اليوم المذكور في الآية فذهب جمع منهم علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة ومجاهد إلى أنه يوم النحر، ورجحه ابن جرير، وذهب آخرون منهم عمر وابن عباس وطاووس إلى أنه يوم عرفة والاول أرجح لان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر من بعثه لابلاغ هذا الى المشركين أن يبلغهم يوم النحر.

وأخرج الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي قال:

سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الأكبر فقال يوم النحر[١]. وأخرج أبو داود والنسائي والحاكم وصححه عن عبدالله بن قرط قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر[٢] وعن أبي أوفى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: يوم الأضحى، هذا يوم الحج الأكبر[٣]. أخرجه ابن مردويه.

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال: أي يوم هذا؟ قالوا يوم النحر، قال: هذا يوم الحج الأكبر. أخرجه البخاري وأبو داود وابن ماجة وغيرهم[٤].

ولا يخفاك أن الأحاديث الواردة في كون يوم النحر هو يوم الحج الاكبر هي ثابتة في الصحيحين وغيرهما من طرق فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرحة بأنه يوم عرفة، وقيل أيام منى كلها، وبه قال مجاهد وسفيان الثوري هو يوم النحر، وقيل اليوم الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبه قال ابن سيرين والاول أولى، وقيل القرآن. قاله مجاهد.

﴿إن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ أي بأن الله بريء ورسوله بريء منهم، وقرىء ورسوله بالجر على أن الواو للقسم وهي ضعيفة جداً، وقرىء شاذاً أيضاً بالنصب على أنه مفعول معه، قاله الزمخشري، والرفع قراءة الجمهور باتفاق السبعة.

﴿فإن تبتم﴾ من الكفر، وفيه التفات من الغيبة الى الخطاب، وقيل

---

(١) الترمذي كتاب التفسير ٩/٤.
(٢) المستدرك كتاب الأضاحي ٢٢١/٤.
(٣) ابو داوود كتاب المناسك باب ٧١.
(٤) ابو داوود كتاب المناسك باب ٦٦.

فائدة هذا الالتفات زيادة التهديد ﴿فهو﴾ أي المتاب أو التوب أو التوبة ﴿خير لكم﴾ أي: أخير وأحسن من بقائكم على الكفر الذي هو خير في زعمكم، أو التفضيل ليس على بابه، والمعنى: هو خير لا شر، وفيه ترغيب في التوبة والإقلاع عن الشرك الموجب لدخول النار.

﴿وإن توليتم﴾ أي أعرضتم عن التوبة وبقيتم على الكفر ﴿فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ أي غير فائتين عليه، بل هو مدرككم فمجازيكم بأعمالكم، وفيه وعيد عظيم وتهديد شديد ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ عبر عن الاخبار بالبشارة تهكماً بهم وفيه من التهديد ما لا يخفى.

﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين﴾ قال ابن عباس: هم قريش، وقال قتادة: هم مشركو قريش الذين عاهدهم نبي الله زمن الحديبية، وقيل هم بنو ضمرة حي من كنانة، وعن محمد بن عبادة هم بنو جذيمة بن عامر من بني بكر ابن كنانة.

قال أبو السعود ﴿إلا الذين﴾ الخ استدراك من النبذ السابق الذي أخر فيه القتال أربعة أشهر، كأنه قيل لا تمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر، لكن الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين في المسارعة إلى قتالهم بل أتموا اليهم عهدهم، ولا يضر في ذلك تخلل الفاصل بقوله تعالى: ﴿وأذان من الله ورسوله﴾ الخ لأنه ليس بأجنبي بالكلية، بل هو أمر بإعلام تلك البراءة، كأنه قيل وأعلموها.

وقيل هو استثناء متصل من المشركين الأول، ويرده بقاء الثاني على العموم مع كونهما عبارة عن فريق واحد، وجعله استثناء من الثاني يأباه بقاء الأول كذلك، وقيل هو استدراك من المقدر في ﴿فسيحوا﴾ أي قولوا لهم سيحوا أربعة أشهر لكن الذين عاهدتم منهم.

﴿ثم لم ينقصوكم شيئاً﴾ من شروط الميثاق ولم يقتلوا منكم أحداً ولم يضروكم قط أي لم يقع منهم أي نقص وإن كان يسيراً، وقرأ عكرمة وعطاء ابن يسار بالضاد المعجمة أي لم ينقضوا عهدكم، وفيه دليل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعهده ومنهم من ثبت عليه، فأذن الله سبحانه لنبيه ﷺ بنقض عهد من نقض، وبالوفاء لمن لم ينقض إلى مدته.

وقرأ الجمهور بالصاد المهملة، قال الكرماني: قراءة المعجمة مناسبة لذكر العهد فإن من نقض العهد فقد نقص من المدة إلا أن قراءة العامة أوقع لمقابلتها التمام، وكلمة ثم للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادي المدة.

﴿ولم يظاهروا﴾ المظاهرة المعاونة أي لم يعاونوا ﴿عليكم أحداً﴾ من أعدائكم كما عدت بنو بكر على خزاعة في غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فظاهرتهم قريش بالسلاح ﴿فأتموا اليهم عهدهم﴾ أي أدوا اليهم عهدهم تاماً غير ناقص ﴿الى مدتهم﴾ التي عاهدتموهم اليها وان كانت أكثر من أربعة أشهر، ولا تعاملوهم معاملة الناكثين من القتال بعد مضي المدة المذكورة سابقاً وهي أربعة أشهر أو خمسون يوماً على الخلاف السابق.

﴿ان الله يحب المتقين﴾ الذين يتقون الله فيما حرم عليهم فيوفون بالعهد، قال السدي: فلم يعاهد النبي صلى الله عليه وسلم بعد هؤلاء الآيات أحداً.

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ انسلاخ الشهر تكامله جزءاً فجزءاً الى أن ينقضي كانسلاخ الجلد عما يحويه، شبه خروج المتزمن عن زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه، وأصله الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده فاستعير لانقضاء الأشهر، يقال سلخت المرأة درعها نزعته، وفي التنزيل ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ قال الخفاجي: السلخ يستعمل تارة بمعنى الكشط، كسلخت الاهاب عن الشاة، أي نزعته عنها، وأخرى بمعنى الاخراج كسلخت الشاة عن الاهاب أي أخرجتها منه، فإطلاق الانسلاخ على الأشهر استعارة من المعنى الأول فإن الزمان ظرف محيط بالأشياء كالاهاب، والبيضاوي جعله من الثاني، كأنه لما انقضى أخرج من الأشياء الموجودة كذا قيل، ومثل انسلخ انجرد وسنة جرداء تامة اهـ.

واختلف العلماء في تعيين الاشهر الحرم المذكورة ههنا، فقيل هي الاشهر الحرم المعروفة التي هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، ثلاثة سرد، وواحد فرد، ومعنى الآية على هذا وجوب الامساك عن قتال من لا عهد له من المشركين في هذه الاشهر الحرم.

وقد وقع النداء والنبذ إلى المشركين بعهدهم يوم النحر، فكان الباقي من الاشهر الحرم التي هي الثلاثة المسرودة خمسين يوماً تنقضي بانقضاء شهر المحرم فأمرهم الله بقتل المشركين حيث يوجدون، وبه قال جماعة من أهل العلم منهم الضحاك والباقر، وروي عن ابن عباس واختاره ابن جرير.

وقيل المراد بها شهور العهد المشار اليها بقوله: ﴿فأتموا اليهم عهدهم الى

مدتهم﴾ وسميت حرماً لان الله سبحانه حرم على المسلمين فيها دماء المشركين والتعرض لهم وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم منهم مجاهد وابن إسحاق وابن زيد وعمرو بن شعيب، وقيل هي الأشهر المذكورة في قوله: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ وقد روي ذلك عن ابن عباس وجماعة ورجحه ابن كثير، وحكاه عن مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وسيأتي بيان حكم القتال في الأشهر الحرم الدائرة في كل سنة في هذه السورة إن شاء الله تعالى.

﴿فاقتلوا المشركين حيث﴾ أي في أي مكان وأي وقت ﴿وجدتموهم﴾ من حل أو حرم ﴿وخذوهم﴾ أي إئسروهم فإن الأخيذ هو الأسير ﴿واحصروهم﴾ أي احبسوهم في القلاع والحصون حتى يضطروا ويلجئوا الى القتل أو الإسلام، ومعنى الحصر منعهم من التصرف في بلاد المسلمين إلا بإذن منهم، وقيل امنعوهم من دخول مكة خاصة والأول أولى.

﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أي طريق يسلكونه ونصب ﴿كل﴾ على نزع الخافض أي على كل طريق، والمرصد الموضع الذي يرقب فيه العدو ويقعد، ويقال رصدت فلاناً أرصده أي رقبته، أي اقعدوا لهم في المواضع التي ترتقبونهم فيها لئلا ينتشروا في البلاد، والمعنى كونوا لهم رصداً حتى تأخذوهم من أي وجه توجهوا، وقيل بكل طريق مكة حتى لا يدخلوها.

وهذه الآية المتضمنة للأمر بقتل المشركين عند انسلاخ الأشهر الحرم عامة لكل مشرك لا يخرج عنها إلا من خصته السنة وهو المرأة والصبي والعاجز الذي لا يقاتل، وكذلك يخصص منها أهل الكتاب الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم.

وهذه الآية نسخت كل آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على

أذاهم. وقال الضحاك وعطاء والسدي: هي منسوخة بقوله: ﴿فإما مناً بعد وإما فداء﴾ وان الأسير لا يقتل صبراً بل يمنّ عليه أو يفادى، وقال مجاهد وقتادة: بل هي ناسخة لقوله: ﴿فإما مناً بعد وإما فداء﴾ وانه لا يجوز في الأسارى من المشركين الا القتل، وقال ابن زيد: الآيتان محكمتان، قال القرطبي: وهو الصحيح لأن المن والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم من أول حرب حاربهم وهو يوم بدر، قال الرازي: كلتا الآيتين متوافقتان وكلتاهما تدلان على انه لا بد من تقديم الأثخان ثم بعده أخذ الفداء اهـ.

﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي تابوا عن الشرك الذي هو سبب القتل وحققوا التوبة بفعل ما هو من أعظم أركان الاسلام وهو إقامة الصلاة وهذا الركن اكتفى به عن ذكر ما يتعلق بالأبدان من العبادات لكونه رأسها، واكتفى بالركن الاخر المالي، وهو إيتاء الزكاة عن كل ما يتعلق بالأموال من العبادات لانه أعظمها[1].

﴿فخلوا سبيلهم﴾ أي اتركوهم وشأنهم فلا تأسروهم ولا تحصروهم ولا تقتلوهم ولا تمنعوهم من الدخول الى مكة والتصرف في بلادهم ولا تتعرضوا لهم ﴿ان الله غفور﴾ لهم ﴿رحيم﴾ بهم.

---

(١) ذكره القرطبي ٨/٧٤ : قوله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الزكاة حق المال . وقال ابن عباس : رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه . وقال ابن العربي .

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧)﴾

﴿وان أحد﴾ مرتفع بفعل شرط مضمر يفسره الظاهر لا بالابتداء لأن ﴿ان﴾ لا تدخل الا على الفعل ﴿من المشركين﴾ الناقضين للعهد الذين أمرت بالتعرض لهم في قوله ﴿فإذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾.

﴿استجارك﴾ استأمنك من القتل ﴿فأجره﴾ يقال استجرت فلاناً أي طلبت أن يكون جاراً أي محامياً ومحافظاً من أن يظلمني ظالم أو يتعرض لي متعرض، وفي القاموس جار واستجار طلب أن يجار وأجاره أنقذه واعاده، وفي المصباح استجاره طلب منه أن يحفظه فأجار والمعنى أمنه.

﴿حتى﴾ يصح أن تكون للغاية وللتعليل ﴿يسمع كلام الله﴾ منك ويتدبره حق تدبره ويقف على حقيقة ما تدعو اليه، ويتحقق انه ليس من كلام الخلق، والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة الى شيء آخر في الفهم لكونهم من أهل الفصاحة.

﴿ثم﴾ ان أراد الانصراف ولم يسلم ﴿أبلغه مأمنه﴾ أي الى الدار التي يأمن فيها وهو دار قومه لينظر في أمره ويعرف ما له من الثواب ان آمن، وما عليه من العقاب إن أصر على الشرك، ثم بعد أن تبلغه مأمنه قاتلة من غير عذر ولا خيانة فقد خرج من جوارك ورجع إلى ما كان عليه من اباحة دمه ووجوب قتله حيث يوجد.

عن سعيد بن أبي عروبة قال: كان الرجل يجيء اذا سمع كتاب الله وأقر به وأسلم فذاك الذي دعى اليه، وان أنكر ولم يقر به رد مأمنه ثم نسخ

ذلك فقال: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ وعن ابن زيد قال: ان لم يوافقه ما يقص عليه ويخبر به فأبلغه مأمنه، وهذا ليس بمنسوخ، قال الحسن: هذه الآية محكمة الى يوم القيامة.

﴿ذلك﴾ أي الامر بالاجارة وابلاغ المأمن ﴿بأنهم قوم لا يعلمون﴾ ما الايمان وما حقيقة ما تدعوهم اليه بسبب فقدانهم العلم النافع المميز بين الخير والشر في الحال والمآل، فلا بد لهم من أمان بقدر زمان يسمعون فيه القرآن ويتدبرون.

﴿كيف يكون للمشركين﴾ الاستفهام هنا للتعجب المتضمن للانكار، ولهذا حسن بعده ﴿الا﴾ والمراد بالمشركين الناكثون لأن البراءة هي في شأنهم ﴿عهد عند الله﴾ يأمنون به من عذابه ﴿وعند رسوله﴾ وقيل معنى الآية محال أن يثبت لهؤلاء عهد وهم أضداد لكم مضمرون للغدر، فلا تطمعوا في ذلك ولا تحدثوا به أنفسكم، والمعنى ليس لمن لم يف بعهد أن يفي الله ورسوله له بالعهد.

ثم استدرك فقال: ﴿الا الذين عاهدتم﴾ أي لكن الذين عاهدتم ولم ينقضوا ولم ينكثوا فلا تقاتلوهم، وقيل الاستثناء متصل، وفيه احتمالان.

(أحدهما) انه منصوب على أصل الاستثناء من المشركين.

(والثاني) انه مجرور على البدل منهم.

﴿عند المسجد الحرام﴾ أي عند قربه يوم الحديبية، قاله قتادة، والمراد به جميع الحرم كما هي عادته في القرآن الا ما استثنى ﴿فما استقاموا لكم﴾ أي فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذي بينكم وبينهم ولم ينقضوه، وفي ﴿ما﴾ وجهان أحدهما انها مصدرية زمانية والثاني انها شرطية ﴿فاستقيموا لهم﴾ على الوفاء به، قيل هم بنو بكر، وقيل بنو كنانة وبنو ضمرة وقال ابن عباس: هم قريش، وعن ابن زيد نحوه، وقال السدي: هم بنو جذيمة، وقال مجاهد: هم أهل العهد من خزاعة.

﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨﴾

﴿ان الله يحب المتقين﴾ اشارة الى أن الوفاء بالعهد والاستقامة عليه من أعمال المتقين، فيكون تعليلاً للامر بالاستقامة، وقد استقام صلى الله عليه وسلم على عهدهم حتى نقضوا بإعانة بني بكر على خزاعة.

﴿كيف﴾ يكون لهم عهد وهو زيادة ترق في استبعاد بقاء عهد لهم، ولهذا أعاد الاستفهام التعجبي للتأكيد والتقرير ﴿و﴾ الحال انهم ﴿إن يظهروا عليكم﴾ بالغلبة لكم ويظفروا بكم ﴿لا يرقبوا﴾ أي لا يراعوا أو لا يحفظوا أو لا ينتظروا فيكم ﴿إلا ولا ذمة﴾ قال في الصحاح: الإل العهد والقرابة، قال الزجاج: الإل عندي على ما يوجبه اللغة يدور على معنى الحدة، ومنه الإلة للحربة ومنه أذن مؤللة أي محددة، وقال الفراء: المراد به القرابة، وقيل ان الإل الجؤار وهو رفع الصوت عند التحالف، وذلك انهم كانوا إذا تحالفوا جأروا بذلك جؤاراً، ويجمع الإل في القلة على آل وفي الكثرة على إلال كقدح وقداح، والأل بالفتح قيل شدة القنوط، قال الهروي في الحديث «عجب ربكم من ألكم وقنوطكم».

وفي القاموس الإلّ بالكسر العهد والحلف وموضع، والجوار والقرابة والمعدن والحقد والعداوة والربوبية واسم الله تعالى، وكل اسم آخره ال أو إيل فمضاف الى الله تعالى، والوحي والأمان والجزع عند المصيبة ومنه ما روي عجب ربكم من إلّكم، فيمن رواه بالكسر ورواية الفتح أكثر اهـ.

وقال ابن زيد والسدي وأبو عبيدة: الإلّ العهد وقيل الذمة والنديم، وقال الأزهري: هو اسم لله بالعبرانية وأصله من الاليل وهو البريق يقال أل

لونه يؤل ألاَّ أي صفا ولمع، والذمة العهد وجمعها ذمم فمن فسر الاول بالعهد كان التكرير للتأكيد مع اختلاف اللفظين، وقيل الذمة الضمان يقال هو في ذمتي أي في ضماني وبه سمي أهل الذمة لدخولهم في ضمان المسلمين، ويقال له ذمة وذمام ومذمة وهي الذم قاله ابن عرفة.

وقال الراغب: الذمام ما يذم الرجل على إضاعته من عهد، وكذلك الذمة والمذمة بالفتح والكسر وقيل لي مذمة فلا تهتكها، وقال غيره: سميت ذمة لأن كل حرمة يلزمك من تضييعها الذم يقال لها ذمة، وقال أبو عبيدة والأزهري: الذمة الأمان كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم «ويسعى بذمتهم أدناهم» وروي عنه أيضاً ان الذمة ما يتذمم به أي ما يجتنب فيه الذم، وقال قتادة: الإل الحلف، وقال أبو مجلز: هو الله تعالى، وعن مجاهد وعكرمة مثله، وقال ابن عباس: الإل القرابة. والذمة العهد.

﴿يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم﴾ أي يقولون بألسنتهم ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم طلباً لمرضاتكم وتطييب قلوبكم، وقلوبهم تأبى ذلك وتخالفه وتود ما فيه مساءتكم ومضرتكم كما يفعله أهل النفاق وذوو الوجهين، والكلام مستأنف لبيان حالهم عند عدم الظفر فهو مقابل في المعنى لقوله: ﴿وان يظهروا عليكم﴾ الخ يقال أبى يأبى أي اشتد امتناعه فكل اباء امتناع من غير عكس، ولم يصب من فسره بمطلق الامتناع، ومجيء المضارع منه على يفعل بفتح العين شاذ، ومنه قلى يقلى في لغة قاله السمين، ثم حكم عليهم بالفسق فقال: ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ وهو التمرد والتجري والخروج عن الحق لنقضهم العهود وعدم مراعاتهم لها.

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ
ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى
دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

ثم وصفهم بقوله: ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ أي استبدلوا بآيات القرآن التي من جملتها ما فيه الأمر بالوفاء بالعهود ثمناً حقيراً، وهو ما آثروه من حطام الدنيا أي تركوا اتباعها للشهوات والهوى وكانت شهواتهم أكلة أطعمها أبو سفيان حملتهم على نقض العهد ﴿فصدوا عن سبيله﴾ أي فعدلوا وأعرضوا عن سبيل الحق، أو صرفوا الناس عنه، وذلك أن أهل الطائف أمدوهم بالأموال ليقوّوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿انهم ساء ما كانوا يعملون﴾ من الشرك ونقضهم العهد، ومنعهم الناس عن الدخول في دين الاسلام.

﴿لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة﴾ قال النحاس: ليس هذا تكريراً، ولكن الأول لجميع المشركين، والثاني لليهود خاصة، والدليل على هذا اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً يعني اليهود، وقيل هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الاطلاق، وفي الأول المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة، وقيل الأول وقع جوابا لقوله: ﴿وان يظهروا﴾ والثاني وقع خبراً عن تقبيح حالهم ﴿وأولئك هم المعتدون﴾ أي المجاوزون للحلال الى الحرام بنقض العهد أو المبالغون في الشر والتمرد إلى الغاية القصوى.

﴿فإن تابوا﴾ عن الشرك وعن نقض العهد الى الوفاء به، قال قتادة:

يقول إن تركوا اللات والعزى وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﴿وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي التزموا أحكام الاسلام المفروضة ﴿فاخوانكم﴾ أي فهم اخوانكم ﴿في الدين﴾ أي في دين الإسلام لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وكرره لاختلاف جزاء الشرط إذ جزاء الشرط في الاول، تخلية سبيلهم في الدنيا، وفي الثاني أخوتهم لنا في الدين، وهي ليست عين تخليتهم بل سببها.

﴿ونفصل الآيات﴾ أي نبينها ونوضحها ﴿لقوم يعلمون﴾ بما فيها من الأحكام ويفهمونه، وخص أهل العلم لأنهم المنتفعون بها، والمراد بالايات ما مر من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين على اختلاف أنواعهم، وعن ابن عباس قال: حرمت هذه الآية قتال أو دماء أهل الصلاة، وقال ابن مسعود: أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له.

وقال ابن زيد: افترضت الصلاة والزكاة جميعاً لم يفرق بينهما، وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه، يريد ما قاله في حق من منع الزكاة والله لا أفرق بين شيئين جمع الله بينهما، يعني الصلاة والزكاة.

﴿وإن نكثوا أيمانهم﴾ مقابل قوله: ﴿فان تابوا﴾ والنكث النقض وأصله نقض الخيط بعد إبرامه ثم استعمل في كل نقض ومنه نقض الأيمان والعهود على طريق الاستعارة ﴿من بعد عهدهم﴾ أي من بعد أن عاهدوهم والمعنى ان الكفار إن نكثوا العهود التي عاهدوا بها المسلمين ووثقوا لهم بها.

﴿وطعنوا في دينكم﴾ أي وضموا إلى ذلك الطعن في دين الاسلام والقدح فيه، وأظهروا ما في ضمائرهم من الشر، وأخرجوه من القول إلى الفعل حسبما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿ وان يظهروا عليكم لا يرقبوا ﴾ الآية

وثبتوا على ما هم عليه من النكث لا انهم ارتدوا بعد الايمان كما قيل، وعطف طعنوا على ما قبله مع ان نقض العهد كاف في إباحة القتل لزيادة تحريض المؤمنين على قتالهم، وقيل عطف تفسير.

﴿فقاتلوا﴾ أي فقد وجب على المسلمين قتالهم ﴿أئمة الكفر﴾ بهمزتين وبابدال الثانية ياء صريحة وفيه وضع الظاهر موضع المضمر، وهي جمع إمام، والمراد صناديد المشركين وأهل الرياسة فيهم على العموم، وعن قتادة: قال هم أبو سفيان بن حرب وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وسهيل ابن عمرو، وهم الذين نكثوا عهد الله وهموا باخراج الرسول من مكة، وعن مالك ابن أنس مثله، وقال ابن عباس: رؤوس قريش؛ وعن الحسن: انهم الديلم، وعن حذيفة قال: ما قوتل أهل هذه الآية، ولم يأت أهلها، وعن علي نحوه، وقال مجاهد: هم فارس والروم.

والأولى ان الآية عامة في كل رؤساء الكفر من غير تقييد بزمن معين أو بطائفة معينة اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومما يفيد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير أنه كان في عهد أبي بكر الصديق الى الناس حين وجههم الى الشام أنه قال انكم ستجدون قوماً مجوفة رؤوسهم فاضربوا مقاعد الشيطان منهم بالسيوف. فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب الي من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾.

﴿انهم لا أيمان لهم﴾ قال الزمخشري هذه الجملة تعليل لما قبلها، والأيمان جمع يمين أي لا عهد لهم، وسمي العهد يميناً لاشتماله عليه غالباً، والمعنى لا أيمان بارة لهم وان وجدت صورة، ويمين الكافر شرعية عندنا والاستدلال به على ان يمين الكافر ليست يميناً ضعفه ظاهر، لأن المراد نفي الوثوق بقرينة ﴿وان نكثوا أيمانهم﴾ لا يقال الكلام باعتبار اعتقادهم، لأن المخاطب هم

المؤمنون، قال حذيفة: لا عهود لهم، وعن عمار مثله.

وقرىء بكسر الهمزة والمعنى ان هؤلاء الناكثين للأيمان الطاعنين في الدين ليسوا من أهل الايمان بالله حتى يستحقوا العصمة لدمائهم وأموالهم فقتالهم واجب على المسلمين، وقيل لا وفاء لهم بالعهود وقيل هو من الأمان أي لا يعطون أماناً بعد نكثهم وطعنهم، يعني لا تؤمنوهم بل اقتلوهم حيث وجدتموهم.

﴿لعلهم ينتهون﴾ عن كفرهم ونكثهم وطعنهم في دين الاسلام، والمعنى إن قتالهم يكون إلى غاية هي الانتهاء عن ذلك، وقد استدل بهذه الآية على ان الذمي إذا طعن في الدين لا يقتل حتى ينكث العهد كما قال أبو حنيفة لأن الله إنما أمر بقتلهم بشرطين أحدهما: نقض العهد والثاني: الطعن في الدين، وذهب مالك والشافعي وغيرهما إلى أنه إذا طعن في الدين قتل لأنه ينقض عهده بذلك قالوا وكذلك إذا حصل من الذمي مجرد النكث فقط من دون طعن في الدين فانه يقتل[1].

---

(١) وقال سعيد بن جبير: جاء رجل من المشركين إلى عليّ بن أبي طالب فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء الأربعة الأشهر فيسمع كلام الله أو يأتيه بحاجة قتل!.

فقال عليّ بن أبي طالب: لا، لأن الله تبارك وتعالى يقول: «وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله» وهذا هو الصحيح. والآية محكمة.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم﴾ الهمزة الداخلة على حرف النفي للاستفهام التوبيخي مع ما يستفاد منها من التحضيض على القتال والمبالغة في تحققه، والمعنى أن من كان حاله كحال هؤلاء من نقض العهد فهو حقيق بأن لا يترك قتاله وان يوبخ من فرط في ذلك.

﴿وهموا بإخراج الرسول﴾ من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة لكن لم يخرجوه بل خرج باختياره بإذن الله له في الهجرة، وتقدم انهم هموا بأحد أمور ثلاثة، قتله وحبسه وإخراجه، وانما اقتصر هنا على الهم بالاخراج لأنه هو الذي وقع أثره في الخارج بحسب الظاهر، وكانت دار الندوة مكان اجتماع القوم للتحدث وكان قد بناها قصي وقد أدخلت الآن في المسجد فهي مقام الحنفي الآن.

﴿وهم بدؤوكم﴾ بالقتال ﴿أول مرة﴾ أي يوم بدر، قال مجاهد: قتال قريش حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم وهمهم باخراج الرسول، زعموا أن ذلك عام عمرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في العام التاسع للحديبية نكثت قريش العهد عهد الحديبية وجعلوا في أنفسهم إذا دخلوا مكة أن يخرجوه منها فذلك همهم باخراجه فلم تتابعهم خزاعة على ذلك، فلما خرج النبي صلى

الله عليه وسلم من مكة قالت قريش لخزاعة: عميتمونا عن اخراجه فقاتلوهم فقتلوا منهم رجالاً.

﴿أتخشونهم﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي أتخشون ان ينالكم منهم مكروه فتتركون قتالهم لهذه الخشية، ثم بين ما يجب أن يكون الأمر عليه فقال: ﴿فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين﴾ أي هو أحق بالخشية منكم فانه هو الضار النافع في الحقيقة ومن خشيتكم له أن تقاتلوا من أمركم بقتاله، فان قضية الايمان توجب ذلك عليكم.

ثم زاد في تأكيد الأمر بالقتال فقال: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم﴾ ورتب على هذا الأمر فوائد:

الأولى: تعذيب الله للكفار بأيدي المؤمنين بالقتل والاسر.

والثانية: اخزاؤهم قيل بالاسر وقيل بما نزل بهم من الذل والهوان.

والثالثة: نصر المسلمين عليهم وغلبتهم لهم.

والرابعة: أن الله يشفي بالقتال صدور قوم مؤمنين ممن لم يشهد القتال ولا حضره.

والخامسة: انه سبحانه يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين الذي نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الأمور الجالبة للغيظ وحرج الصدر.

فإن قيل شفاء الصدور وإذهاب غيظ القلوب كلاهما بمعنى فيكون تكراراً.

قيل في الجواب: إن القلب أخص من الصدر، وقيل: إن شفاء الصدور

إشارة الى الوعد بالفتح، ولا ريب أن الانتظار لنجاز الوعد مع الثقة به فيه شفاء للصدور، وأن إذهاب غيظ القلوب إشارة إلى وقوع الفتح، وقد وقعت للمؤمنين ولله الحمد هذه الأمور كلها.

عن عكرمة قال: نزلت هذه الآية في خزاعة، وعن مجاهد والسدي وقتادة نحوه، وقد ساق القصة ابن إسحاق في سيرته وأورد فيها النظم الذي أرسلته خزاعة الى النبي صلى الله عليه وسلم أوله.

يا رب اني ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلدا

وأخرج القصة البيهقي في الدلائل ثم قال: ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ وهو ابتداء كلام مستأنف يتضمن الإخبار بما سيكون، وهو أن بعض الكافرين يتوب عن كفره كما وقع من بعض أهل مكة يوم الفتح فإنهم أسلموا وحسن إسلامهم كأبي سفيان وعكرمة وسهيل ابن عمرو، فهؤلاء كانوا أئمة الكفر ثم منّ الله عليهم بالاسلام يوم فتح مكة.

فإن قيل[1] كيف تقع التوبة جزاء للمقاتلة؟ أجيب بأن القتال قد يكون سبباً لها اذا كانت من جهة الكفار، وأما إذا كانت من جهة المسلمين فوجهه أن النصر والظفر من جهة الله يكون سبباً لخلوص النية والتوبة عن الذنوب. ﴿والله عليم حكيم﴾.

---

(١) قوله فإن قيل الخ كذا في أصله ولعله مرتب على قراءة نصب يتوب كما يؤخذ من عبارة الكشاف. ا هـ مصححه.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿أم حسبتم أن تتركوا﴾ أم هذه هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة والاستفهام للتوبيخ وحرف الاضراب للدلالة على الانتقال من كلام إلى آخر، والمعنى كيف يقع الحسبان منكم بأن تتركوا على ما أنتم عليه. وقوله أن تتركوا في موضع مفعولي الحسبان عند سيبويه، وقال المبرد: انه حذف الثاني والتقدير أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق الظهور الذي يستحق به الثواب والعقاب يعني: بدون تكليفكم بالقتال الذي سئمتموه.

﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ الواو حالية ولما للنفي مع التوقع، والمراد من نفي العلم نفي المعلوم بالطريق البرهاني اذ لو شم رائحة الوجود لعلم قطعاً فلما لم يعلم لزم عدمه قطعاً، والمعنى كيف تحسبون انكم تتركون ولما يتبين المخلص منكم في جهاده من غير المخلص، و (ما) في (لما) من التوقع منبه على أن ذلك سيكون وفائدة التعبير عما ذكر من عدم التبين بعدم علم الله تعالى أن المقصود هو التبين من حيث كونه متعلقاً للعلم ومداراً للثواب وعدم التعرض لحال المقصرين لما أن ذلك بمعزل من الاندراج تحت ارادة أكرم الأكرمين.

وجملة ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ معطوفة على جاهدوا داخلة معه في حكم النفي واقعة في حيز الصلة، والوليجة من

الولوج وهو الدخول، ولج يلج ولوجاً اذا دخل، فالوليجة الدخيلة، قال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة، ويكون للمفرد وغيره بلفظ واحد وقد يجمع على ولائج وولج كصحائف وصحف[1].

قال الفراء: الوليجة البطانة من المشركين، وقيل وليجة الرجل من يداخله في باطن أموره، والمعنى واحد، أي كيف تتخذون دخيلة أو بطانة من المشركين تفشون اليهم أسراركم وتعلمونهم أموركم من دون الله، وقال قتادة: وليجة يعني خيانة، وقال الضحاك: خديعة.

وقال الراغب: الوليجة كل ما يتخذه الانسان معتمداً عليه، وليس من قولهم فلان وليجة في القوم اذا دخل فيهم ﴿والله خبير بما تعملون﴾ أي بجميع أعمالكم.

﴿ ما كان للمشركين ﴾ أي ما ينبغي ولا يصح لهم ﴿ أن يعمروا ﴾ من عمر يعمر، وقرىء من أعمر يعمر أي يجعلون لها من يعمرها عمارة معتداً بها.

﴿ مساجد الله ﴾ قرىء بالجمع واختاره أبو عبيدة، قال النحاس: لأنها أعم، والخاص يدخل تحت العام، وقد يحتمل أن يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة لقوله وعمارة المسجد الحرام، وهذا جائز فيما كان من أسماء الاجناس، كما يقال فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرساً.

---

(١) وقيل ان جماعة من المنافقين جاؤوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون الخروج معه الى الجهاد تعزيزاً فنزل هذه الآيات.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

وقرىء بالافراد ويراد به جنس المسجد، وعلى هذا يندرج فيه سائر المساجد ويدخل المسجد الحرام دخولاً أولياً، قال النحاس: وقد أجمعوا على الجمع في قوله: ﴿انما يعمر مساجد الله﴾.

قلت: وهي أيضاً محتملة للأمرين وعن الحسن البصري: إنما قال تعالى مساجد والمراد المسجد الحرام لانه قبلة المساجد كلها وإمامها فعامره كعامر جميع المساجد أو لأن كل بقعة وناحية من بقاعه ونواحيه المختلفة الجهات مسجد على حياله بخلاف سائر المساجد، إذ ليس في نواحيها اختلاف الجهة، ويؤيده القراءة بالتوحيد.

قال الفراء: العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم فلان كثير الدرهم وبالعكس، كقولهم فلان يجالس الملوك، ولعله لم يجالس إلا ملكاً واحداً، والمراد بالعمارة إما المعنى الحقيقي أو المعنى المجازي وهو ملازمته ودخوله والتعبد والقعود فيه، وكلاهما ليس للمشركين، أما الاول فلأنه يستلزم المنة على المسلمين بعمارة مساجدهم، وأما الثاني فلكون الكفار لا عبادة لهم مع نهيهم عن قربان المسجد الحرام.

قيل لو أوصى كافر ببناء المسجد لم تقبل وصيته، وكذا يمنع من دخول المسجد بغير اذن مسلم حتى لو دخل عزر، وان داخل بإذن لم يعزر، ولكن لا بد من حاجة فيشترط للجواز الاذن والحاجة، ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالاذن أن النبي ﷺ شد ثمامة بن أثال إلى سارية من سواري المسجد، وهو كافر، والاولى تعظيم المساجد ومنعهم من دخولها.

﴿شاهدين﴾ بإظهار ما هو كفر من نصب الاوثان والعبادة لها وجعلها آلهة، فإن هذا شهادة منهم ﴿على أنفسهم بالكفر﴾ وإن أبوا ذلك بألسنتهم، فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين، عمارة المساجد التي هي من شأن المؤمنين، والشهادة على أنفسهم بالكفر التي ليست من شأن من يتقرب الى الله بعمارة مساجده.

وقيل المراد بهذه الشهادة قولهم في طوافهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، مع قولهم نحن نعبد اللات والعزى، وقيل ان اليهودي يقول هو يهودي، والنصراني يقول هو نصراني، والصابىء يقول هو صابىء، والمشرك يقول هو مشرك.

وقال ابن عباس: شهادتهم سجودهم للاصنام. وقال الحسن: كلامهم بالكفر، وقيل شاهدين على رسولهم بالكفر، لانه من أنفسهم وما أبعده عن المقام.

﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾ التي يفتخرون بها ويظنون انها من أعمال الخير مثل العمارة والحجابة والسقاية، وفك العاني لانها مع الكفر لا تأثير لها، أي بطلت ولم يبق لها أثر ﴿وفي النار هم خالدون﴾ في هذه الجملة الاسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تأكيد لمضمونها.

ثم بين سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال: ﴿انما يعمر مساجد الله﴾ الظاهر أن الجمع هنا حقيقة لان المراد جميع المؤمنين العامرين لجميع مساجد أقطار الارض، والتعمير بنحو البناء والتزيين بالفرش والسراج، وبالعبادة وترك حديث الدنيا، يقال عمرت الدار عمراً من باب قتل بنيتها، والاسم العمارة بالكسر وعمرت الخراب عمراً من باب كتب فهو عامر أي معمور.

قال أبو السعود: والمراد بالعمارة ما يعم مرمة ما استرم منها وقمها وتنظيفها ودراسة العلوم فيها ونحو ذلك انتهى، وقد تقدم الكلام في وجه جمع المساجد وفي بيان ماهية العمارة، ومن يجوز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما قال أبو السعود: إدراج المسجد الحرام في ذلك غير مخالف لمقتضى الحال، فإن الايجاب ليس كالسلب، وقد قرىء بالافراد أيضاً، والمراد هنا قصر تحقق العمارة ووجودها على المؤمنين لا قصر جوازها ولياقتها، أي إنما يصح ويستقيم أن يعمرها عمارة يعتد بها.

﴿ من آمن بالله ﴾ وحده ﴿ واليوم الاخر ﴾ بما فيه من البعث والحساب والجزاء حسبما نطق به الوحي ﴿ وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴾ على ما علم من الدين فيندرج فيه الايمان بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم حتماً، وقيل هو مندرج تحت الايمان بالله خاصة فإن أحد جزأي كلمتي الشهادة علم للكل.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان، قال الله تعالى: ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر ﴾[1] أخرجه أحمد والدارقطني والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن المنذر والبيهقي وعبد بن حميد.

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من بنى لله مسجداً صغيراً كان أو كبيراً بنى الله له بيتاً في الجنة»[2] أخرجه الترمذي.

وعن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة»[3] وقد

---

(١) الدارمي كتاب الصلاة باب ٢٣.
(٢) الترمذي كتاب المواقيت باب ١٢٠.
(٣) مسلم ٥٣٣ ـ البخاري ٢٩٧.

وردت أحاديث كثيرة في استحباب ملازمة المساجد وعمارتها والتردد اليها للطاعات.

﴿ولم يخش﴾ أحداً ﴿إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ فيه حسم لأطماع الكفار في الانتفاع بأعمالهم. فإن الموصوفين بتلك الصفات الاربع اذا كان اهتداؤهم مرجواً فقط، فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشيء من تلك الصفات، وقيل عسى من الله واجبة.

وقال ابن عباس: كل عسى في القرآن فهي واجبة، كقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ وهي الشفاعة.

وقيل هي بمعنى خليق، أي فخليق أن يكونوا من المهتدين، وقيل ان الرجاء راجع الى العباد.

قال ابن عباس: يقول من وحد الله وآمن بما أنزل الله وأقام الصلوات الخمس ولم يتعبد الا الله فهو من المهتدين، فمن كان جامعاً بين هذه الاوصاف فهو الحقيق بعمارة المساجد لا من كان خالياً منها أو من بعضها.

واقتصر على ذكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيهاً بما هو أعظم أمور الدين على ما عداه مما افترضه الله على عباده لان كل ذلك من لوازم الايمان.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١)﴾

والاستفهام في قوله: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام﴾ للانكار وهو استئناف خوطب به المشركون التفاتاً عن الغيبة في قوله: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا﴾.

والسقاية والعمارة مصدران كالسعاية والحماية لا يتصور تشبيههما بالأعيان والجثث فلا بد من اضمار تقديره أجعلتم أهل سقاية الحاج أو أجعلتم سقاية الحاج كايمان من آمن، ويؤيد الاول قراءة من قرأ سقاة الحاج وعمرة المسجد جمع ساق وعامر وفيها تشبيه ذات بذات كما في الوجه الأول، وعلى هذا لا يحتاج الى تقدير المحذوف.

﴿كمن﴾ أي كايمان أو كعمل من ﴿آمن بالله واليوم الاخر وجاهد في سبيل الله﴾ حتى يتفق الموضوع والمحمول ﴿لا يستوون عند الله﴾ المعنى أن الله أنكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الاعمال التي صورتها صورة الخير وان لم ينتفعوا بها، وبين إيمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله.

وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة ويفضلونها على عمل المسلمين فأنكر الله عليهم ذلك، فصرح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين وتفاوتهم وعدم استوائهم أي لا تساوي تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام، وهذه الطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخر المجاهدة في سبيله.

ودل سبحانه بنفي الاستواء على نفي الفضيلة التي يدعيها المشركون

أي إذا لم تبلغ أعمال الكفار الى أن تكون مساوية لاعمال المسلمين، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون، وهذا الكلام استئناف مؤكد لما علم من إبطال المساواة بالتوبيخ المستفاد من الاستفهام أي لا يستوي الفريقان.

ثم حكم عليهم بالظلم فقال: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي انهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من الله سبحانه، وهو تعليل في المعنى لنفي المساواة، وفي هذا إشارة إلى الفريق المفضول ثم صرح بالفريق الفاضل فقال: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة﴾ أي الجامعون بين الايمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس أحق بما لديه من الخير، من تلك الطائفة المشركة المفتخرة بأعمالها المحبطة الباطلة.

وفي قوله: ﴿عند الله﴾ تشريف عظيم للمؤمنين ﴿وأولئك﴾ أي المتصفون بالصفات الثلاثة المذكورة ﴿هم الفائزون﴾ بسعادة الدارين المختصون بالفوز المحصلون لأصله بالنسبة لكون الغير أهل السقاية والعمارة والمحصلون لأكمله بالنسبة لكون الغير من لم يجمع الاوصاف المذكورة، ثم فسر الفوز بقوله.

﴿يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات﴾ التنكير في الثلاثة للتعظيم، والمعنى انها فوق وصف الواصفين وتصور المتصورين، قال أبو حيان: لما وصف الله المؤمنين بثلاث صفات الايمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاث، وبدأ بالرحمة في مقابلة الايمان لتوقفها عليه، وثنى بالرضوان الذي هو نهاية الاحسان في مقابلة الجهاد الذي فيه بذل الأنفس والأموال، ثم ثلث بالجنات في مقابلة الهجرة وترك الأوطان إشارة إلى أنهم لما آثروا تركها بدلهم داراً عظيمة دائمة وهي الجنات انتهى.

﴿لهم فيها نعيم مقيم﴾ الدائم المستمر الذي لا يفارق صاحبه.

خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

﴿خالدين فيها أبداً﴾ ذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له ﴿ان الله عنده أجر عظيم﴾ مؤكدة لما قبلها مع تضمنها للتعليل أي أعطاهم الله سبحانه هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذي عنده عظيماً يهب منه ما يشاء لمن يشاء وهو ذو الفضل العظيم، وهذه أعظم البشارات ونهاية المقصودات.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء﴾ يعني بطانة وأصدقاء تفشون اليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة، والخطاب للمؤمنين كافة وهو حكم باق إلى يوم القيامة، يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين والمراد النهي لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة فرد من أفراد المشركين بقضية مقابلة الجمع بالجمع الموجب لانقسام الآحاد الى الآحاد كما في قوله: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ لا عن موالاة طائفة منهم فان ذلك مفهوم من اللفظ دلالة لا عبارة.

وقالت طائفة من أهل العلم انها نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفر، فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب، نهوا أن يوالوا الآباء والأخوة فيكونون لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفر، وقال بعضهم: حمل هذه الآية على الهجرة مشكل، لأن هذه السورة نزلت بعد الفتح وهي آخر القرآن نزولاً، والأقرب ان يقال ان الله تعالى لما أمر بالتبرىء عن المشركين قالوا: كيف يمكن أن يقاطع الرجل أباه وأخاه وابنه، فذكر الله تعالى ان مقاطعة الرجل أهله وأقاربه في الدين واجبة فالمؤمن لا يوالي الكافر وإن

كان أباه أو أخاه أو ابنه.

وقال مجاهد: هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت في قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة، وقال ابن عباس: لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم الناس بالهجرة إلى المدينة فمنهم من تعلق به أهله وأولاده يقولون ننشدك بالله أن لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة، فأنزل الله هذه الآية.

وقال مقاتل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم، وأنزل هذه الآية، والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب.

﴿إن استحبوا الكفر﴾ أي أحبوا كما يقال استجاب بمعنى أجاب، وهو في الأصل طلب المحبة أي إن اختاروا الكفر وأقاموا عليه ﴿على الايمان﴾ وتركوه وقد تقدم تحقيق المقام في سورة المائدة، ثم حكم على من يتولى من استحب الكفر على الايمان من الآباء والاخوان بالظلم فقال:

﴿ ومن يتولهم ﴾ فيه مراعاة لفظ من ﴿ منكم فأولئك ﴾ فيه مراعاة معناها ﴿ هم الظالمون ﴾ فدل ذلك على أن تولي من كان كذلك واختيار المقام معه على الهجرة والجهاد من أعظم الذنوب وأشدها.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم قائلا له: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله﴾.

العشيرة الجماعة المجتمعة التي ترجع الى نسب وعقد واحد أو ود كعقد العشرة وعشيرة الرجل أهله وقرابته الأدنون وهم الذين يعاشرونه ويتكثر بهم سواء بلغوا العشرة أم فوقها وهي اسم جمع، وقرأ السلمي وأبو رجاء عشيراتكم بالجمع ووجهه ان لكل من المخاطبين عشيرة فحسن الجمع قال الأخفش: لا تكاد العرب تجمع عشيرة على عشيرات وانما يجمعونها على عشائر، وهذه القراءة حجة عليه.

وقرأ الحسن: عشائركم والباقون عشيرتكم، والاقتراف الاكتساب، وأصله اقتطاع الشيء من مكانه، والتركيب يدور على الدنو والكاسب يدني الشيء من نفسه ويدخله تحت ملكه، والتجارة الأمتعة التي يشترونها ليربحوا فيها، والكساد عدم النفاق لفوات وقت بيعها بالهجرة ومفارقة الأوطان.

ومن غرائب التفسير ما روي عن ابن المبارك أنه قال: ان المراد بالتجارة في هذه الآية البنات والأخوات إذا كسدن في البيت لا يجدون لهن خاطباً واستشهد لذلك بقول الشاعر:

كسدن من الفقر في قومهن   وقد زادهن مقامي كسادا

وهذا البيت وان كان فيه اطلاق الكساد على عدم وجود الخاطب لهن فليس فيه جواز اطلاق اسم التجارة عليهن، والمراد بالمساكن المنازل التي تعجبهم وتميل اليها أنفسهم ويرون الاقامة اليها أحب اليهم من المهاجرة إلى الله ورسوله ومن الجهاد في سبيله فقعدوا لأجل ما ذكر من الأمور الثمانية أو لأجل حبها والتعرض للصفات المذكورة للايذان بأن اللوم على محبة ما ذكر من زينة الحياة الدنيا ليس لتناسي ما فيها من مبادىء المحبة وموجبات الرغبة فيها، وانها مع ما لها من فنون المحاسن بمعزل من ان يؤثر حبها على حبه تعالى وحب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله عز وجل: ﴿ ما غرك بربك الكريم﴾ والمراد بالحب الاختياري دون الطبيعي وهو ايثارهم وتقديم طاعتهم لا ميل الطبع فانه أمر جبلي لا يمكن تركه ولا يؤاخد عليه ولا يكلف الانسان بالتحفظ عنه.

﴿فتربصوا﴾ أي فانتظروا ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ فيكم وما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم، وقيل المراد بأمر الله سبحانه القتال، وقيل فتح مكة وفيه بعد، فقد روي ان هذه السورة نزلت بعد الفتح، وقيل هو عقوبة عاجلة أو آجلة، وفي هذا وعيد شديد وتهديد لهم ويؤكده ابهام الأمر وعدم التصريح به لتذهب أنفسهم كل مذهب وتتردد بين أنواع العقوبات.

وإنما كان تهديداً لكونهم آثروا لذات الدنيا على الآخرة، وهذا قل من يتخلص منه، ولذا قيل انها أشد آية نعت على الناس كما فصله في الكشاف، وهذه الاية تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين مهمات الدنيا وجب ترجيح الدين على الدنيا ليبقى الدين سليماً ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي الخارجين عن طاعته النافرين عن امتثال أوامره ونواهيه.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾ تذكير للمؤمنين بنعمه عليهم والمواطن جمع موطن، وفي المصباح الوطن مكان الانسان ومقره، والجمع أوطان مثل سبب وأسباب، والموطن مثل الوطن والجمع مواطن كمسجد ومساجد، والموطن أيضا المشهد من مشاهد الحرب، والمواطن التي نصر الله المسلمين فيها هي يوم بدر وقريظة والنضير وكانت غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما ذكر في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم تسع عشرة غزوة زاد بريدة في حديثه «قاتل في ثمان منهن» ويقال ان جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون وقيل ثمانون.

﴿و﴾ نصركم أيضاً ﴿يوم حنين﴾ وهو واد بين مكة والطائف بينه وبين مكة ثمانية عشر ميلاً كما في الخازن وانصرف على انه اسم مكان، ومن العرب من يمنعه على أنه اسم للبقعة.

قال قتادة: قاتل بها نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم هوازن وثقيف، وعلى هوازن مالك بن عوف، وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو، وذلك في شوال سنة ثمان عقيب رمضان الذي وقع فيه الفتح، والقصة مبسوطة في كتب الحديث والسير.

﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ وانما أعجب من أعجب من المسلمين بكثرتهم

لانهم كانوا أحد عشر ألفاً، وقيل اثني عشر ألفاً، وقيل ستة عشر ألفاً، والكفار أربعة آلاف، قاله السيوطي، والذي في شرح المواهب انهم كانوا أكثر من عشرين ألفاً، وقتل من المسلمين أربعة ومن المشركين أكثر من سبعين انتهى.

وبالجملة قال بعضهم لن نُغلب اليوم من قلة فوكلوا إلى هذه الكلمة ﴿فلم تغن﴾ أي لم تدفع الكثرة ﴿عنكم شيئاً﴾ بل انهزمتم وثبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وثبت معه طائفة يسيرة منهم عمه العباس، وكان آخذا بلجام البغلة، وأبو سفيان آخذ بركابه وهو ابن عمه إذ هو ابن الحرث ابن عبد المطلب وقد أسلم هو والعباس يوم الفتح، ثم تراجع المسلمون فكان النصر والظفر.

وفي سيرة الشامي ان الذين ثبتوا معه في حنين مائة وثلاثة وثلاثون من المهاجرين، وسبعة وستون من الأنصار، والإغناء إعطاء ما يدفع الحاجة أي لم يعطكم الكثرة شيئاً يدفع حاجتكم ولم تفدكم.

﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ الرحب بضم الراء السعة، والرحب بفتحها المكان الواسع والباء بمعنى مع، وما مصدرية والمعنى ان الأرض مع كونها واسعة الأطراف ضاقت عليهم بسبب ما حل بهم من الخوف والوجل، وقيل إن الباء بمعنى على أي على رحبها.

﴿ثم وليتم﴾ أي انهزمتم حال كونكم ﴿مدبرين﴾ أي مولين أدباركم جاعلين لها الى جهة عدوكم.

أخرج ابن المنذر عن الحسن قال: لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا: الآن نقاتل حين اجتمعنا، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوا وما أعجبهم من كثرتهم، فالتقوا فهزموا حتى ما يقوم أحد منهم على

أحد، حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي أحياء العرب: إليّ فوالله ما يعرج عليه أحد حتى أعرى موضعه، فالتفت الى الانصار وهم ناحية فناداهم: يا أنصار الله وأنصار رسوله إليّ عباد الله أنا رسول الله، فجثوا يبكون وقالوا: يا رسول الله ورب الكعبة اليك والله فنكسوا، رؤوسهم يبكون وقدموا أسيافهم يضربون بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتح الله عليهم.

وقيل ناداهم العباس بإذنه، وكان صيتاً يسمع صوته من نحو ثمانية أميال، فقاتلوا، ووقعة حنين مذكورة في كتب السير والحديث بطولها وتفاصيلها فلا نطول بذلك.

﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ أي أنزل ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين بعد أن ولوا مدبرين، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت لم يفر، والمراد بالمؤمنين هم الذين لم ينهزموا وقيل الذين انهزموا، والظاهر جميع من حضر منهم لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا.

﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ هم الملائكة، واختلف في عددهم على أقوال، قيل كانوا خمسة آلاف، وقيل ثمانية آلاف، وقيل ستة عشر ألفاً، وقيل غير ذلك، وهذا لا يعرف إلا من طريق النبوة. واختلفوا أيضاً هل قاتلت الملائكة في هذا اليوم أم لا، وقد تقدم أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر وانهم إنما حضروا في غير يوم بدر لتقوية قلوب المؤمنين وادخال الرعب في قلوب المشركين وان كانوا لا يرونهم، وقيل ان الكفار كانت تراهم.

عن جبير بن مطعم قال: رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل

البجاد[1] الاسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي لم أشك أنها الملائكة، ولم تكن الا هزيمة للقوم.

وأخرج الطبراني والحاكم وصححه وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والانصار، فكنا على أقدامنا نحواً من ثمانين قدماً، ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل عليهم السكينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء يمضي قدماً فقال: ناولني كفاً من تراب فناولته فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً وولى المشركون أدبارهم[2].

﴿وعذب الذين كفروا﴾ بما وقع عليهم من القتل والأسر وأخذ الأموال وسبي الذرية، وقال السدي: قتلهم بالسيف، قيل أسر ستة الاف من نسائهم وصبيانهم، ولم تقع غنيمة أعظم من غنيمتهم فقد كان فيها من الابل اثنا عشر ألفاً ومن الغنم ما لا يحصى عدداً ومن الاسرى ما سمعته وكان فيها غير ذلك.

﴿وذلك﴾ التعذيب المفهوم من عذب ﴿جزاء الكافرين﴾ سمي ما حل بهم من العذاب في هذا اليوم جزاء مع انه غير كاف، بل لا بد من عذاب الأخرة مبالغة في وصف ما وقع عليهم وتعظيماً له.

---

(١) بجاد بالكسر كليم مخطط. إ هـ صراح.
(٢) المستدرك كتاب الجهاد ٢/١١٧.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨﴾

﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك﴾ التعذيب ﴿على من يشاء﴾ ممن هداه منهم الى الاسلام ﴿والله غفور﴾ يغفر لمن أذنب فتاب ﴿رحيم﴾ بعباده متفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه.

﴿يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس﴾ أي ذوو نجاسة لان معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، والنجس مصدر لا يثنى ولا يجمع، يقال رجل نجس، وامرأة نجس، ورجلان نجس، وامرأتان نجس، ورجال نجس، ونساء نجس، ويقال نجس ونجس بكسر الجيم وضمها، ويقال نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف من المحرك، قيل لا يستعمل إلا إذا قيل معه رجس، وقيل ذلك أكثري لا كلي.

والمشركون مبتدأ وخبره المصدر، وصفهم بذلك حتى كأنهم عين النجاسة والقذر لخبث باطنهم مبالغة في وصفهم بها. قال ابن عباس: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وقال قتادة ومعمر وغيرهما: انهم وصفوا بذلك لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يتجنبون النجاسات فهي ملابسة لهم، قيل أراد بالمشركين عبدة الأصنام دون غيرهم من أصناف الكفار، وقيل بل جميع أصنافهم من اليهود والنصارى وغيرهم.

وقد استدل بالآية من قال بأن المشرك نجس الذات كما ذهب اليه بعض الظاهرية وروي عن الحسن البصري وهو محكي عن ابن عباس، وقال الحسن ابن صالح: من مس مشركاً فليتوضأ، ويروى هذا عن الزيدية، وذهب

الجمهور من السلف والخلف ومنهم أهل المذاهب الأربعة الى أن الكافر ليس بنجس الذات لأن الله سبحانه أحل طعامهم، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك من فعله وقوله ما يفيد عدم نجاسة ذواتهم، فأكل في آنيتهم وشرب منها وتوضأ فيها وأنزلهم في مسجده وهو الحق، وعن جابر بن عبدالله في هذه الآية قال: إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة.

﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾ الفاء للتفريع فعدم قربانهم للمسجد الحرام متفرع على نجاستهم، وإنما نهوا عن الاقتراب للمبالغة في المنع من دخول الحرم، ونهى المشركين أن يقربوا راجع الى نهي المسلمين عن تمكينهم من ذلك، قاله أبو السعود فهو من باب قولهم لا أرينك ههنا، والمراد بالمسجد الحرام جميع الحرم، روي ذلك عن عطاء فيمنعون عنده من جميع الحرم، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام﴾ أراد به الحرم لأنه أسرى رسول الله ﷺ من بيت أم هانىء.

وذهب غيره من أهل العلم إلى أن المراد المسجد الحرام نفسه فلا يمنع المشرك من دخول سائر الحرم، وقد اختلف أهل العلم في دخول المشرك غير المسجد الحرام من المساجد، فذهب أهل المدينة إلى منع كل مشرك عن كل مسجد، وقال الشافعي: الآية عامة في سائر المشركين خاصة في المسجد الحرام فلا يمنعون من دخول غيره من المساجد.

قال ابن العربي وهذا جمود منه على الظاهر لأن قوله تعالى: ﴿إنما المشركون نجس﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة، ويجاب عنه بأن هذا القياس مردود بربطه صلى الله عليه وسلم لثمامة بن أثال في مسجده وانزال وفد ثقيف فيه.

وروي عن ابي حنيفة مثل قول الشافعي، وزاد انه يجوز دخول الذمي

سائر المساجد من غير حاجة، وقيده الشافعي بالحاجة، وقال قتادة انه يجوز ذلك للذمي دون المشرك.

والحاصل أن بلاد الاسلام في حق الكفار ثلاثة أنواع (أحدها) الحرم فلا يجوز لكافر أن يدخله بحال،ذمياً كان أو مستأمناً لظاهر هذه الاية، وبه قال الشافعي وأحمد ومالك: واذا جاء رسول من دار الكفر الى الامام والامام في الحرم لا يأذن له في دخول الحرم، بل يخرج اليه الامام أو يبعث اليه من يسمع رسالته خارج الحرم.

والثاني الحجاز وحدَّه ما بين يمامة واليمن ونجد والمدينة الشريفة، قيل نصفها تهامي ونصفها حجازي، وقيل كلها حجازي، وقال ابن الكلبي: حد الحجاز ما بين جبل طي وطريق العراق.

قال الحربي: وتبوك من الحجاز فيجوز للكفار دخول أرض الحجاز بالإذن ولكن لا يقيمون فيها أكثر من مقام المسافر وهو ثلاثة أيام لاحاديث صحيحة في هذا الباب. منها ما روي عن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع الا مسلماً، وأجلاهم عمر في خلافته وأجل لمن قدم منهم تاجراً ثلاثة، وجزيرة العرب من أقصى عدن الى ريف العراق في الطول، وأما في العرض فمن جدة وما والاها من ساحل البحر الى أطراف الشام.

والثالث سائر بلاد الاسلام فيجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد أو أمان وذمة لكن لا يدخلون المساجد الا بإذن مسلم لحاجة.

﴿بعد عامهم هذا﴾ فيه قولان (أحدهما) انه سنة تسع وهي التي حج فيها أبو بكر على الموسم وهو عام نزول السورة (الثاني) أنه سنة عشر، قاله

قتادة. قال ابن العربي: وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ.

وان من العجب أن يقال انه سنة تسع وهو العام الذي وقع فيه الاذان، ولو دخل غلام رجل داره يوماً فقال له مولاه: لا تدخل هذه الدار بعد يومك لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه اهـ.

ويجاب عنه بأن الذي يعطيه مقتضى اللفظ هو خلاف ما زعمه، فإن الاشارة بقوله: ﴿بعد عامهم هذا﴾ الى العام المذكور قبل اسم الاشارة وهو عام النداء، وهكذا في المثال الذي ذكره، المراد النهي عن دخولها بعد يوم الدخول الذي وقع فيه الخطاب، والامر ظاهر لا يخفى، ولعله أراد تفسير (بعد) المضاف الى عامهم ولا شك أنه عام عشر.

وأما تفسير العام المشار إليه بهذا فلا شك ولا ريب أنه عام تسع، وعلى هذا يحمل قول قتادة، وقد استدل من قال بأنه يجوز للمشركين دخول المسجد الحرام وغيره من المساجد بهذا القيد، أعني قوله: ﴿بعد عامهم هذا﴾ قائلاً: إن النهي مختص بوقت الحج والعمرة، فهم ممنوعون عن الحج والعمرة فقط، لا عن مطلق الدخول، ويجاب عنه بأن ظاهر النهي عن القربان بعد هذا العام يفيد المنع من القربان في كل وقت من الاوقات الكائنة بعده، وتخصيص بعضها بالجواز يحتاج إلى مخصص.

﴿وان خفتم عيلة﴾ بالفتح الفقر، يقال عال الرجل يعيل اذا افتقر، وقرأ علقمة وغيره عائلة، وهو مصدر كالقائلة، والعافية والعاقبة، وقيل معناه خصلة شاقة، يقال عالني الامر يعولني أي شق عليّ واشتد. وحكى ابن جرير الطبري انه يقال عال يعول اذا افتقر، وعيال الرجل من يعولهم، وواحد العيال عيل كجيد والجمع عيائل كجيائد، وأعال الرجل كثرت عياله فهو معيل، والمرأة معيلة قال الاخفش: أي صار ذا عيال.

وكأن المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم وهم كانوا يجلبون اليه الأطعمة والتجارات قذف في قلوبهم الشيطان الخوف من الفقر بانقطاع تجارتهم عنهم وقالوا من أين نعيش، فوعدهم الله أن يغنيهم وقال: ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ قال الضحاك: ففتح الله عليهم باب الحرب من أهل الذمة بقوله: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾ الآية.

وقال عكرمة: أغناهم بإدرار المطر والنبات وخصب الأرض وأسلمت العرب فحملوا إلى مكة ما أغناهم الله به، وقيل أغناهم بالفيء، قال مقاتل: أسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون، وقال الضحاك وقتادة عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها.

﴿ان شاء﴾ فائدة التقييد بالمشيئة التعليم للعباد بأن يقولوا ذلك في كل ما يتكلمون به مما له تعلق بالزمن المستقبل، ولئلا يفتروا عن الدعاء والتضرع ويعلموا ان الغنى الموعود به يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام ﴿ان الله عليم﴾ بأحوالكم ﴿حكيم﴾ في إعطائه ومنعه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾ فيه الأمر بقتال من جمع بين هذه الأوصاف الآتية، ولما فرغ من الكلام على مشركي العرب بقوله: ﴿براءة من الله﴾ إلى هنا أخذ يتكلم على أهل الكتابين وهو نص في ان أهل الكتاب لا يؤمنون بالله تعالى فاليهود كفروا لأنهم ما قدروا الله حق قدره ولا عرفوه بصفات كماله، وفرقوا بين الايمان بالله ورسوله، وغلوا في عزير فقالوا هو ابن الله، والنصارى كفروا لانهم غلوا في المسيح وقالوا هو ثالث ثلاثة.

قال مجاهد: نزلت هذه الآية حين أمر محمد وأصحابه بقتال الروم فغزا بعد نزولها غزوة تبوك، وقال الكلبي: نزلت في قريظة والنضير من اليهود فصالحهم فكانت أول جزية أصابها أهل الاسلام وأول ذل أصاب أهل الكتاب بأيدي المسلمين.

﴿و﴾ نص الله تعالى في الآية بأنهم ﴿لا﴾ يؤمنون ﴿باليوم الاخر﴾ فإن قلت إنهم قد قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى واثبات الجنة والنار فرع اثبات اليوم الآخر.

قلت: لما كان اثباتهم إياه بغير صفاته ودعوى كاذبة بأنهم أهل الجنة لا غير وانهم يعذبون أياماً معينة، كان إثباته بهذه الصفة نفياً له فانه ايمان باطل، وإلا لآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقيل انهم يعتقدون بعثة الأرواح دون الاجسام ويعتقدون ان أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون، ومن اعتقد ذلك فليس ايمانه كايمان المؤمنين وان زعم أنه مؤمن.

﴿ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾ مما ثبت في كتبهم بأن الله حرم الشحوم فأذابوها وباعوها وأكلوا أثمانها وحرم عليهم أشياء كثيرة فأحلوها، قال سعيد ابن جبير في الآية: يعني الذين لا يصدقون بتوحيد الله وما حرم الله من الخمر والخنزير، وقيل معناه لا يحرمون ما حرم الله في القرآن ولا ما حرم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في السنة، والأول أولى وقيل لا يعلمون بما في التوراة والانجيل بل حرفوها وأتوا بأحكام من قبل أنفسهم وقلدوا أحبارهم ورهبانهم واتخذوهم أرباباً من دون الله.

﴿ولا يدينون دين الحق﴾ أي دين الاسلام الثابت الناسخ لسائر الأديان وقيل دين أهل الحق وهم المسلمون، وقيل دين الله، والمعنى واحد وفيه ان دينهم بعد بعثته ﷺ قد صار ديناً باطلاً.

ثم انه تعالى لما وصل اليهم بهذه الصلات الأربع بينهم بقوله: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ فكلمة من بيانية كما في قوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الاوثان﴾ وانما أبهم أولاً ثم بين ثانياً زيادة في تمكن العلم في قلب السامع فيعلم المأمور به علمين، علماً اجمالياً ثم علماً تفصيلياً فيكون زيادة في تمكن الخبر عنده، ولما في ذلك من تشويق النفس إلى البيان بعد الابهام.

فهذا بيان لاسم المبهم الموصول مع ما في حيزه وهم اليهود والنصارى أهل التوراة والانجيل بالاتفاق، ويدل له قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل﴾ فإذا أتى لفظ أهل الكتاب فالمراد به الفريقان وإذا قيل بنو إسرائيل فالمراد بهماليهود وإذا قيل النصارى فهم الذين أنزل اليهم الانجيل، والمجوس ليسوا من أهل الكتاب لقوله ﷺ: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» أخرجه البخاري من حديث عبد الرحمن بن عوف.

ويدل له أيضاً قوله تعالى: ﴿أن يقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا﴾ وهذا صريح في أنهم ليسوا منهم.

قال أبو الوفاء بن عقيل في الآية: ان قوله قاتلوا أمر بالعقوبة ثم قال ﴿لا يؤمنون بالله﴾ فبين الذنب الذي يوجب العقوبة ثم قال: ﴿واليوم الآخر﴾ فأكد الذنب الذي في جانب الاعتقاد ثم قال: ﴿ولا يحرمون﴾ وفيه زيادة للذنب في مخالفة الأعمال ثم قال: ﴿ولا يدينون﴾ وفيه اشارة الى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والأنفة عن الاستسلام ثم قال: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ تأكيداً للحجة عليهم لأنهم كانوا يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ثم قال: ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ فبين الغاية التي تمتد اليها العقوبة أ هـ .

والجزية وزنها فعلة من جزى يجزي إذا كافى عما أسدي اليه وكأنهم أعطوها جزاء عما منحوا من الأمن، وقيل سميت جزية لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه أي يقضوه، وهي في الشرع ما يعطيه المعاهد على عهده وهو الخراج المضروب على رقابهم كل عام إذلالاً وصغاراً.

قال أحمد بن تيمية رحمه الله: والأول أصح وهذا يرجع إلى انها عقوبة أو أجرة فهي غاية للقتال، والمراد باعطائها التزامها بالعقد وان لم يجيء وقت دفعها ﴿عن يد﴾ في موضع النصب على الحال أي يعطوها أذلاء مقهورين عن يد متوانية غير ممتنعة، هذا إن أريد به المعطي، وان أريد به الآخذ فالمراد عن يد قاهرة مستولية وقيل معناه يعطونها بأيديهم غير مستنيبين فيها أحداً، وقيل المعنى نقداً غير نسيئة، وقيل عن انعام منكم عليهم لأن أخذها منهم نوع من أنواع الانعام عليهم، قاله في الكشاف، وقيل معناه مذمومون.

وفي زاده « اليد » قد تجعل كناية عن الانقياد أعطى فلان بيده إذا أسلم وانقاد لأن من أبى وامتنع لم يعط يده بخلاف المطيع المنقاد كأنه قيل قاتلهم حتى يعطوا الجزية عن طيب نفس وانقياد ، دون أن يكرهوا عليه فإذا احتيج في أخذها منهم إلى الاكراه لا يبقى عقد الذمة أ هـ .

وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم الشافعي وأحمد وأبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي وأبو ثور إلى أنها لا تقبل الجزية إلا من أهل

الكتاب، وقال الأوزاعي ومالك: ان الجزية تؤخذ من جميع أجناس الكفرة كائناً من كان ويدخل في أهل الكتاب على القول الأول المجوس، قال ابن المنذر لا أعلم خلافاً في ان الجزية تؤخذ منهم.

قال علي بن أبي طالب: أنا أعلم الناس بالمجوس كان لهم علم يعلمونه وكتاب يدرسونه. الحديث ولكن ضعفه جماعة من الحفاظ كما قاله ابن القيم، ويدل له ما في البخاري ان عمر توقف في أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر.

وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ان رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها وكان هو ﷺ صالح أهل البحرين وأمّر عليهم العلاء بن الحضرمي.

وذكر أبو عبيدة في كتاب الأموال عن الزهري قال: قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوساً، فالجزية تؤخذ من هذه الطوائف الثلاث اتفاقاً، فاليهود والنصارى تؤخذ منهم بنص القرآن، والمجوس تأخذ منهم بنص السنة لقوله صلى الله عليه وسلم: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» أخرجه البخاري.

ثم اختلف أهل العلم في مقدار الجزية فقال عطاء: لا مقدار لها، وانما تؤخذ على ما صولحوا عليه، وبه قال يحيى بن آدم وأبو عبيد وابن جرير إلا أنه قال: أقلها دينار وأكثرها لا حد له، وقال الشافعي: دينار على الغني والفقير من الاحرار البالغين لا ينقص منه شيء، وبه قال أبو ثور، وقال الشافعي: وان صولحوا على أكثر من دينار جاز، وإذا زادوا وطابت بذلك أنفسهم قبل منهم.

وقال مالك: إنها أربعة دنانير على أهل الذهب وأربعون درهماً على أهل الورق الغني والفقير سواء ولو كان مجوسياً لا تزيد ولا تنقص، وقال أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل: اثنا عشر وأربعة وعشرون وثمانية

وأربعون ولا تجب على صبي ولا مجنون ولا امرأة، وهو اتفاق.

وفي كتابه صلى الله عليه وسلم لمعاذ إلى أهل اليمن أنه يأخذ من كل حالم ديناراً فخص الحالم دون المرأة والصبي، وقد روي في ذلك حالمة، قال الأئمة من المحدثين: ان هذه الزيادة غير محفوظة، ولأن عمر بن الخطاب لما فتح الأمصار لم يأخذ الجزية إلا من الرجال دون النساء وأقره الصحابة واستمروا عليه.

وقال أبو محمد بن حزم رحمه الله: تلزم الجزية الأنثى لقوله تعالى: ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ ولا شك أن الدين لازم النساء كلزومه للرجال، ولم يأت نص بالفرق بينهما في الجزية، ثم ساق حديث معاذ بلفظ حالم وحالمة، وأسنده إلى ابن جريج وساق حديثاً مرسلاً مثله، ولا يخفى ضعف ما ذهب اليه.

وأما العبد فإن كان سيده مسلماً فلا جزية عليه بالاتفاق، ومن اليهود السامرية وانهم فرق كثيرة وقد فتح الصحابة الأمصار وأقروهم على تسليم الجزية وكذلك الأئمة والخلفاء بعدهم.

وأما الصابئة فقال ابن القيم: انهم أمة كثيرة وأكثرهم فلاسفة ولهم مقالات مشهورة، ثم ذكر انها تؤخذ منهم الجزية فإنهم أحسن حالاً من المجوس، فأخذها من المجوس تنبيه على أخذها من الصابئة بالطريق الأولى، فإن المجوس من أخبث الأمم ديناً ومذهباً، ثم ساق مذاهبهم.

وأما بنو تغلب وهم فرقة انتقلوا في الجاهلية الى النصرانية فهم من النصارى كانت لها شوكة وقوة، وجاء الاسلام وهم كذلك وأنفوا من الجزية فضوعفت عليهم الصدقة عوضاً عن الجزية، فهذه الطوائف التي تؤخذ منها الجزية أو ما صولحوا عليه.

ويهود خيبر وغيرهم داخلون في عموم الآية، ولم يأت لهم مخصص، وإنما لم يأخذها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من يهود المدينة ولا من يهود خيبر لانه أجلى يهود المدينة، وقاتل من قاتل منهم قبل نزولها، وأما أهل خيبر

فإنه صالحهم قبل نزول فريضة الجزية ولم ينزل فرضها إلا في التاسعة من الهجرة.

واختلف الناس في أخذ الجزية ممن عدا من ذكرناه بعد الاتفاق على أخذها من أهل الكتابين والمجوس، فقالت الحنفية: تؤخذ أيضاً من عبدة الأوثان من العجم، ولا تؤخذ من عبدة الاوثان من العرب، واستدلوا بالحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي عن ابن عباس مرفوعاً قال: «أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدي الجزية بها اليهم العجم»[1] وذهب مالك وأبو يوسف إلى أنها تقبل الجزية من العربي الوثني مستدلين بحديث بريدة الذي أخرجه مسلم، وهو حديث طويل شريف فيه وصايا لأمراء السرايا، وفيه «إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال وفيه: فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم» فدل على أن الجزية تؤخذ من كل كافر[2].

هذا ظاهر الحديث ولم يستثن منهم كافراً دون كافر، ولا يقال هذا خاص بأهل الكتاب فإن اللفظ يأبى اختصاصه بهم، وأيضاً سرايا رسول الله ﷺ وجيوشه أكثر ما كانت تقاتل عبدة الأوثان من العرب، فيؤخذ من عموم الكفار بالسنة، ومن أهل الكتاب بالقرآن، وقد أخذها صلى الله عليه وسلم من المجوس عباد النار. ولا فرق بينهم وبين عباد الأوثان.

فإن قيل إنه لم يأخذها من أحد من عباد الأوثان مع كثرة قتاله لهم، قلنا آية الجزية إنما نزلت عام تبوك في التاسعة بعد إسلام من كان في جزيرة العرب، ولم يبق بها أحد من عبّاد الأوثان.

قال الحافظ بن القيم: والمسألة مبنية على حرف واحد، وهو أن الجزية هل وضعت عاصمة للدم أو مظهرة لصغار الكفر وإذلال أهله، والثاني راجح،

---

(١) الإمام احمد ١/٢٢٧.

(٢) مسلم ١٧٣١.

وقد جاز استرقاق العربي الوثني، فإنه صح ذلك بلا مرية، ويبقى على كفره، والمقصود انه لا فرق بين الكفار في أخذ الجزية والاسترقاق، وأطال في هذا واختاره.

وأما تقدير الجزية كما تقدم فيرد على الجميع انه صلى الله عليه وسلم أمر معاذاً يقبض ديناراً من كل حالم، وجعله صنفا واحداً لا ثلاثة أصناف، وأول من جعلهم ثلاثة عمر بن الخطاب.

وقد اختلف الجواب عن حديث معاذ.

ثم اعلم انه لا يتعين في الجزية ذهب ولا فضة بل يجوز أخذها مما تيسر من أموالهم من ثياب وسلاح يعملونه وحديد ونحاس ومواش وحبوب وغير ذلك وهذا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه أخرج أحمد بسند جيد عن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عدله معافرياً[1]، ورواه أهل السنن وقال الترمذي حسن. وكذلك أهل نجران لم يأخذ في جزيتهم ذهباً ولا فضة، انما أخذ الحلل والسلاح.

واذا عرف هذا فقد تبين أن الجزية غير مقدرة بالشرع تقديراً لا يقبل الزيادة والنقصان، ولا معينة في جنس من الأجناس.

وأما وقت قبض الجزية فإنها تجب في آخر الحول ولا يطالبون بها قبل ذلك وبه قال أحمد والشافعي. وقال أبو حنيفة: تجب بأول الحول ويؤخذ منه كل شهر بقسطه، وقال غيرهم وهم الأكثرون: انه صلى الله عليه وسلم لما ضرب الجزية على أهل الكتاب والمجوس لم يطالبهم بها حين ضربها، ولا ألزمهم بأدائها في الحال وقت نزول الآية بل صالحهم عليها، وكان يبعث رسله

(١) الإمام احمد ٥/٢٤٧.

وسعاته فيأتون بالجزية والصدقة عند محلها، وأستمرت على ذلك سيرة خلفائه من بعده.

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله: وهذا مقتضى قواعد الشريعة وأصولها، فإن الأموال التي تتكرر بتكرر الأعوام انما تجب في آخر العام لا في أوله.

وأما قوله: ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ فليس المراد به العطاء الأول بل العطاء المستمر المتكرر. وهذه كانت سنة رسول الله ﷺ فيهم.

وقال أصحاب الشافعي: تجب بأول السنة دفعة واحدة، ولكن يستقر جزء بعد جزء، وقال بعضهم: انما يدخل وقت وجوبها عند انقضاء السنة، وتسقط الجزية بالاسلام ولو اجتمعت عليه جزية سنين، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «ليس على مسلم جزية»(١).

﴿وهم صاغرون﴾ أي يعطي الذمي الجزية حال كونه صاغراً والصغار الذل واختلف العلماء في المراد من الصغار فقال عكرمة أن يدفعها وهو قائم، والآخذ جالس، وقيل أن يأتي بها بنفسه ماشياً لا راكباً، ويطال وقوفه عند اتيانه بها ويجر الى الموضع الذي فيه الاخذ ثم تجر يده ويمتهن.

وفي الكشاف انه يتلتل تلتلة ويؤخذ بتلابيبه ويقال له أد الجزية وان كان يؤديها ويزج في قفاه انتهى. وقال ابن عباس: يمشون بها متلتلين، وعنه قال: يلكزون، وقال الكلبي: إذا أعطى يصفع قفاه، وقيل هو أن يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه، ويقال له: أد حق الله يا عدو الله وقال سلمان: معنى صاغرين غير محمودين وقيل غير ذلك مما لم يدل عليه دليل.

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله: وهذا كله مما لا دليل عليه ولا هو مقتضى الآية، ولا نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه، قال: والصواب في الآية أن الصغار هو التزامهم بجريان أحكام الله تعالى عليهم وإعطاء الجزية، فإن ذلك هو الصغار، وبه قال الشافعي.

قلت: ومن الصغار ما أخذه عمر رضي الله عنه في العهد العمري وهو

---

(١) الترمذي، كتاب الزكاة، باب ١١.

ما أخرجه عبد الله بن أحمد عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتبت لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى الشام وشرط عليهم فيه.

أن لا يحدثوا في مدينتهم ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا يجددوا ما خرب، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونه، ولا يؤووا جاسوساً ولا يكتموا غشاً للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن ولا يظهروا شركاً ولا يمنعوا ذوي قراباتهم الاسلام إن أرادوه وأن يوقروا المسلمين وأن يقوموا لهم من مجالسهم إذا أرادوا الجلوس، ولا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم، ولا يتكنوا بكناهم ولا يركبوا سرجاً ولا يتقلدوا سيفاً ولا يبيعوا الخمور، وان يجزوا مقادم راويتهم وأن يلزموا زيهم حيثما كانوا، وأن يشدوا على أوساطهم ولا يظهروا صليباً ولا شيئاً من كتبهم في شيء من طرق المسلمين، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم ولا يضربوا بالناقوس إلا ضرباً خفيفاً ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من حضرة المسلمين، ولا يخرجوا شعانين ولا يرفعوا مع موتاهم أصواتهم ولا يظهروا النيران معهم، ولا يشتروا من الرقيق ما جرت فيه سهام المسلمين، فإن خالفوا في شيء مما شرطوه فلا ذمة لهم وقد حل للمسلمين ما يحل من ذوي المعاندة والشقاق.

قال الحافظ ابن القيم: وشهرة هذه الشروط تغني عن اسنادها، فإن الأئمة تلقوها بالقبول، وذكروها في كتبهم واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفي كتبهم، وقد أنفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها. انتهى.

قلت: الدير للنصارى خاصة يبنونه للرهبان خارج البلد يجتمعون فيه للرهبانية وينفردون عن الناس، وأما القلاية بقاف مكسورة وباء موحدة فيبنيها رهبانهم مرتفعة كالمنارة والفرق بينها وبين الدير أن الدير يجتمعون فيه، والقلاية لا تكون إلا لواحد ينفرد بها بنفسه ولا يكون لها باب بل فيها طاقة يتناول منها شرابه وطعامه وما يحتاج اليه، وأما الصومعة فهي كالقلاية تكون للراهب وحده، والبيع جمع بيعة وهي متعبد النصارى.

وعن ابن عباس: انها مساجد اليهود، والكنائس جمع كنيسة وهي لأهل الكتابين.

ثم اعلم أنه لا يحل تكليفهم بما لا يقدرون عليه ولا حبسهم ولا تعذيبهم على أداء الجزية ولا ضربهم لما أخرج أبو عبيد أن هشام بن حكيم مر على قوم يعذبون في الجزية بفلسطين فقال هشام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ان الله يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس في الدنيا»[1]، وعن عياض بن غنم مثله رواه الزهري عن عروة بن الزبير.

وقد أخرج عن جبير بن نفير عن أبيه أنه أتى عمر بن الخطاب بمال كثير أحسبه قال: الجزية فقال: إني لأظنكم قد أهلكتم الناس، قالوا: لا والله ما أخذنا إلا عفواً، قال: بلا سوط ولا نوط قالوا: نعم، قال: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في سلطاني.

وعن علي بن أبي طالب أنه استعمل رجلاً على عكبرى فقال له: لا تبيعن لهم في خراجهم حماراً ولا بقرة ولا كسوة شيئاً ولا صنفاً وارفق بهم، وكان رضي الله عنه يأخذ من صاحب الابر ابراً، ومن صاحب الحبال حبالاً ونحوه من الامتعة.

قال أبو عبيد انما كان يأخذ منهم هذه الأمتعة بقيمتها من الدراهم التي كانت عليهم من جزية رؤوسهم، ولا يحملهم على بيعها إرادة الرفق بهم والتخفيف عليهم ولهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً بأخذ معافر عدلاً عن الدينار، وانما يراد بهذا كله الرفق بأهل الذمة لا يباع عليهم من متاعهم شيء، ولكن يؤخذ مما سهل عليهم في القيمة، والكلام في الجزية مقرر في مواطنه، والحق ان هذه الأقوال ما قد قرره الشوكاني في شرحه للمنتقى وفي غيره من مؤلفاته، وفي الباب كتاب افادة الأمة في أحكام أهل الذمة للسيد محمد بن إسماعيل الأمير اليمني وهو حافل جداً.

---

(1) مسلم، ٢٦١٣.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ كلام مبتدأ لبيان شرك أهل الكتابين، وظاهر الآية ان هذه المقالة لجميعهم، وقيل هو لفظ خرج على العموم ومعناه الخصوص، لأنه لم يقل ذلك إلا البعض منهم أو من متقدميهم أو ممن كانوا بالمدينة، وقال النقاش: لم يبق يهودي يقولها بل قد انقرضوا، وقيل انه قال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم جماعة منهم، فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود لأن قول بعضهم لازم لجميعهم.

وقوله: ﴿عزير﴾ بتنوين الصرف وتركه قراءتان سبعيتان فالأولى بناء على انه عربي وليس فيه إلا علة والثانية بناء على أنه أعجمي ففيه العلتان، وعلى كل هو مبتدأ وابن الله خبر، فلذلك ثبتت الألف في ابن لانها لا تحذف منه إلا إن كان صفة ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ قالوا: هذا لما رأوا من احيائه للموتى مع كونه من غير أب فكان ذلك سبباً لهذه المقالة، والأولى أن يقال انهم قالوا هذه المقالة لكون وصفه في الانجيل تارة بابن الله وتارة بابن الإنسان كما رأينا ذلك في مواضع متعددة من الانجيل، ولم يفهموا ان ذلك لقصد التشريف والتكريم أو لم يظهر لهم ان ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الاغراض الفاسدة.

قال الرازي: والاقرب عندي ان يقال لعله ذكر لفظ الابن في الانجيل على سبيل التشريف كما ورد لفظ الخليل في حق إبراهيم على سبيل التشريف، فبالغوا وفسروا لفظ الإبن بالبنوة الحقيقية، والجهال قبلوا ذلك منهم، وفشا هذا

المذهب الفاسد في أتباع عيسى عليه السلام.

﴿ذلك قولهم﴾ الاشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة، ووجه قوله ﴿بأفواههم﴾ مع العلم بأن القول لا يكون إلا بالفم، بأن هذا القول لما كان ساذجاً ليس فيه بيان ولا عضده برهان كان مجرد دعوى لا معنى تحتها فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التي ليس فيها إلا كونها خارجة من الافواه غير مفيدة لفائدة يعتد بها.

وقيل لان اثبات الولد له مع أنه منزه عن الحاجة والشهوة والمضاجعة والمباضعة قول باطل ليس له تأثير في العقل، وقيل ان ذكر الافواه لقصد التأكيد كما في ﴿كتبت بيدي﴾ ومشيت برجلي، ومنه قوله تعالى: ﴿يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ وقوله: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾.

وقال بعض أهل العلم: ان الله سبحانه لم يذكر قولا مقروناً بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولاً زوراً، كقوله: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ وقوله: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ وقوله:﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾.

﴿يضاهئون قول الذين كفروا من قبل﴾ المضاهاة المشابهة قيل ومنه قول العرب امرأة ضهيأ وهي التي لا تحيض لأنها شابهت الرجال، قال أبو علي الفارسي: هذا خطأ لأن الهمزة في ضاهأ أصلية وفي ضهيأ زائدة كحمراء وأصله يضاهئون، وقيل فيه لغتان ضاهأت وضاهيت، والأولى لغة ثقيف، قال الحسن: يوافقون، وقال مجاهد: يواطئون.

ومعنى مضاهاتهم لقولهم فيه أقوال لأهل العلم.

الأول: انهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان في قولهم اللات والعزى ومناة بنات الله.

الثاني : شابهوا قول من يقول من الكافرين ان الملائكة بنات الله .

الثالث : انهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيراً ابن الله والمسيح ابن الله .

﴿قاتلهم الله﴾ دعاء عليهم بالهلاك لأن من قاتله الله هلك، وقيل هو تعجب من شناعة قولهم وقيل معناه لعنهم الله، وحكى النقاش أن أصل قاتل الله الدعاء ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء.

﴿أنى يؤفكون﴾ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الدليل واقامة الحجة بأن الله واحد أحد، فجعلوا له ولداً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ الأحبار جمع حبر، وهو الذي يحسن القول ومنه ثوب محبر، وقيل جمع حبر بكسر الحاء قال يونس: لم أسمعه إلا بكسر الحاء، وقال الفراء: الفتح والكسر لغتان، وقال ابن السكيت: الحبر بالكسر العالم، والحبر بالفتح العالم، قال الأصمعي: لا أدري أهو الحبر أو الحبر وقال أبو الهيثم: هو بالفتح وأنكر الكسر.

وقيل الكسر أفصح لأنه يجمع على أفعال دون فعول، وقال أبو عبيد: هو بالفتح، وقال الليث: الحبر العالم ذمياً كان أو مسلماً بعد أن يكون من أهل الكتاب والحبر الذي يكتب به وموضعه المحبرة بالكسر، والحبر أيضاً الأثر، وفي الحديث «يخرج رجل من النار قد ذهب حبره وسبره» قال الفراء: أي لونه وهيئته، وقال الاصمعي: الجمال والبهاء وأثر النعمة، وتحبير الخط والشعر وغيرهما تحسينه، والحبر بالفتح الحبور، وهو السرور وحبره أي سره وبابه نصر وحبرة أيضا بالفتح، ومنه قوله تعالى: ﴿فهم في روضة يحبرون﴾ أي يسرون وينعمون ويكرمون.

والرهبان جمع راهب مأخوذ من الرهبة وهم علماء النصارى كما ان الاحبار علماء اليهود، وقيل الرهبان أصحاب الصوامع من النصارى، وقيل الرهبان النساك وقيل القراء، ومعنى الآية لما اطاعوهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم أرباباً لانهم أطاعوهم كما تطاع الارباب.

وقال الربيع: قلت لابي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل قال: انهم ربما وجدوا في كتاب الله ما يخالف أقوال الاحبار والرهبان فكانوا يأخذون بأقوالهم، وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى.

قال الرازي في تفسيره: قال شيخنا رضي الله عنه: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى في بعض المسائل وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا اليها، وبقوا ينظرون إلي كالمتعجب، يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الأيات مع ان الرواية عن سلفنا وردت على خلافها.

ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا.

والقول الثاني في تفسير هذه الربوبية ان الجهال والحشوية إذا بالغوا في تعظيم شيخهم وقدوتهم فقد يميل طبعهم إلى الحلول والاتحاد، وذلك الشيخ إذا كان طالباً للدنيا بعيداً عن الدين كان يأمر أتباعه وأصحابه بأن يسجدوا له، وكان يقول لهم أنتم عبيدي فكان يلقي اليهم من حديث الحلول والاتحاد أشياء ولو خلا ببعض الحمقاء من أتباعه فربما ادعى الإلٓهية، فإذا كان ذلك مشاهداً في هذه الأمة فكيف يبعد ثبوته في الأمم السالفة.

وحاصل الكلام أن تلك الربوبية تحتمل أن يكون المراد منها انهم أطاعوهم فيما كانوا مخالفين فيه لحكم الله، وأن يكون المراد منها انهم قبلوا أنواع الكفر فكفروا بالله فصار ذلك جارياً مجرى انهم اتخذوا أرباباً من دون الله، ويحتمل أنهم أثبتوا في حقهم الحلول والاتحاد، وكل هذه الوجوه الاربعة مشاهد وواقع في هذه الأمة. انتهى.

﴿والمسيح ابن مريم﴾ أي اتخذه النصارى رباً معبوداً، وفيه اشارة إلى أن

اليهود لم يتخذوا عزيراً رباً معبوداً، وانظر لم ثبت الالف في ابن هنا مع انه صفة بين علمين لأن المسيح لقب وهو من أقسام العلم.

وفي هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله وتأثير ما يقوله الاسلاف على ما في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الامة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبياؤه. هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا وحللوا ما حللوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الامة وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة والتمرة بالتمرة والماء بالماء.

فيا عباد الله ويا أتباع محمد بن عبدالله ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانباً وعمدتم الى رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما وطلبه للعمل منهم بما دلا عليه وأفاداه، فعملتم بما جاءوا به من الآراء التي لم تعمد بعماد الحق ولم تعضد بعضد الدين، ونصوص الكتاب والسنة تنادي بأبلغ نداء وتصوّت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه فاعرتموها آذاناً صماً وقلوباً غلفاً، وأفهاماً مريضة وعقولاً مهيضة وأذهاناً كليلة وخواطر عليلة، وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية أرشد

فدعوا أرشدكم الله واياي كتباً كتبها لكم الاموات من أسلافكم واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم، ومتعبدهم ومتعبدكم، ومعبودهم ومعبودكم، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاءوكم به من الرأي بأقوال إمامكم وإمامهم وقدوتهم وقدوتكم، وهو الامام الأول محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن في دينه كمخاطر

اللهم هادي الضال مرشد التائه موضح السبيل، اهدنا إلى الحق وأرشدنا الى الصواب وأوضح لنا منهج الهداية.

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ أي والحال أنهم ما أمروا في الكتب القديمة المنزلة عليهم على ألسنة أنبيائهم إلا بعبادة الله وحده، أو ما أمر الذين اتخذوهم أرباباً من الأحبار والرهبان إلا بذلك فكيف يصلحون لما أهلوهم له من اتخاذهم أرباباً.

﴿لا إله إلا هو﴾ صفة ثانية لقوله إلهاً أو استئناف مقرر للتوحيد ﴿سبحانه عما يشركون﴾ أي تنزيهاً له عن الاشراك في طاعته وعبادته.

وقد أخرج ابن سعد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ في سورة براءة ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ فقال: «أما انهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه»[1]، وأخرجه أيضا أحمد وابن جرير.

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ هذا كلام يتضمن ذكر نوع آخر من أنواع ضلالهم وبعدهم عن الحق، وهو ما راموه من ابطال الحق بأقاويلهم الباطلة التي هي مجرد كلمات ساذجة ومجادلات زائفة، وهذا تمثيل لحالهم في محاولة ابطال دين الحق ونبوة نبي الصدق بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم

(١) الترمذي تفسير سورة ٩/١٠.

قد أنارت به الدنيا وانقشعت به الظلمة ليطفئه ويذهب أضواءه، قيل المراد بالنور شرائعه وبراهينه، وسميت الدلائل نوراً لأنه يهتدى بها الى الصواب كما يهتدى بالنور الى المحسوسات.

وقيل المراد به الدلائل الدالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وهي أمور:

أحدها: المعجزات الباهرات الخارقة للعادات.

وثانيها: القرآن العظيم وهو معجزة له باقية على الأبد.

وثالثها: ان دينه الذي أمر به هو دين الاسلام ليس فيه شيء سوى تعظيم الله والثناء عليه والانقياد لأمره ونهيه والتبري من كل معبود سواه: فهذه أمور نيرة ودلائل واضحة في صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صدقه، فمن أراد ابطال ذلك بكذب وتزوير فقد خاب سعيه وبطل عمله.

﴿ويأبى الله الا أن يتم نوره﴾ أي دينه القويم بإعلاء كلمته، قال في الكشاف ان أبى قد أجري مجرى لم يرد أي ولا يريد إلا أن يتم نوره، وقال علي بن سليمان: انما جاز هذا في أبى لأنها منع أو امتناع فضارعت النفي. قال النحاس: وهذا أحسن وقال الزجاج: التقدير ويأبى الله كل شيء إلا أن يتم، وقال الفراء: انما دخلت (الا) لأن في الكلام طرفاً من الجحد، وانما صح الاستثناء المفرغ من الموجب لكونه بمعنى النفي، وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس في نفي الإرادة، أي لا يريد شيئاً من الأشياء الا اتمام نوره، فيندرج في المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه فضلا عن الاطفاء. قاله الكرخي.

﴿ولو كره الكافرون﴾ أي أبى الله إلا أن يتم نوره ويعلي دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعث الله به رسوله ولو كره ذلك الكافرون، وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه، والتقدير ولو كره الكافرون تمام نوره لأتمه ولم يبال بكراهتهم وقيل لو لم يكرهوه أو كرهوه أي على كل حال مفروضة.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾﴾

ثم أكد هذا بقوله: ﴿هو الذي أرسل رسوله﴾ يعني محمداً ﴿بالهدى﴾ أي بما يهدي به الناس من البراهين والمعجزات والأحكام التي شرعها الله لعباده والتوحيد والاسلام والقرآن ﴿ودين الحق﴾ وهو دين الاسلام، وفائدة ذكره مع دخوله في الهدى قبله بيان شرفه وتعظيمه كقوله والصلاة الوسطى ﴿ليظهره﴾ أي ليظهر رسوله أو دين الحق بما يشتمل عليه من الحجج والبراهين.

﴿على الدين كله﴾ أي على سائر الأديان، وهو أن لا يعبد الله إلا به، فلا دين بخلاف الاسلام إلا وقد قهرهم المسلمون وظهروا عليهم في بعض المواضع وان لم يكن كذلك في جميع مواضعهم، فقهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب، وغلبوا النصارى على بلاد الشام وما والاها الى ناحية الروم والغرب، وغلبوا المجوس على ملكهم، وغلبوا عباد الأصنام على كثير من بلادهم مما يلي الترك والهند وكذلك سائر الأديان.

فثبت أن الذي أخبر الله عنه في هذه الآية قد وقع وحصل، وكان ذلك إخباراً عن الغيب فكان معجزاً، وقد ذكرنا فتوح الاسلام في كتابنا حجج الكرامة في آثار القيامة الذي حررناه بعد هذا التفسير، وقيل ذلك عند نزول عيسى وخروج المهدي فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الاسلام، ويدل له بعض الأحاديث، فمنها حديث أبي هريرة: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«وتهلك في زمانه الملل كلها إلا الاسلام»(١).

وقال الشافعي: قد أظهر الله دين رسوله على الأديان كلها بأن أبان لكل من سمعه انه الحق وما خالفه من الأديان باطل، وقيل قهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاميين حتى دانوابالاسلام طوعاً وكرهاً، وقتل أهل الأصنام وسبى حتى دان بعضهم بالاسلام، وأعطى بعضهم الجزية وجرى عليهم حكمه، فهذا ظهوره على الدين كله.

وقيل المراد ظهوره على الدين كله في جزيرة العرب وقد حصل ذلك، فإنه تعالى ما أبقى فيها أحداً من الكفار، وقيل المراد أن يوقفه على جميع شرائع الدين ويطلعه عليها بالكلية حتى لا يخفى عليه منها شيء، وقيل المراد ظهوره على الدين كله بالحجة والبيان، وفيه ضعف لان هذا وعد بأنه تعالى سيفعله والتقوية بالحجة والبرهان كان حاصلاً من أول الامور.

﴿ولو كره المشركون﴾ الكلام فيه كالكلام في ﴿ولو كره الكافرون﴾ كما قدمنا ذلك ووصفهم بالشرك بعد وصفهم بالكفر للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول الى الكفر بالله تعالى، وهذا آخر الآيات التي أمر علي بالتأذين بها في موسم الحج.

﴿يا أيها الذين آمنوا ان كثيراً من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾ لما فرغ سبحانه من ذكر حال أتباع الاحبار والرهبان المتخذين لهم أرباباً، ذكر حال المتبوعين وبين إغواءهم لأراذلهم، قال الضحاك: يعني علماء اليهود والنصارى.

وفي قوله: ﴿ان كثيراً﴾ دليل على أن الاقل منهم لم يأكلوا أموال الناس بالباطل ولم يتلبسوا بذلك بل بقوا على ما يوجبه دينهم من غير تحريف ولا تبديل ولا ميل الى حطام الدنيا، ولعلهم الذين كانوا قبل مبعث النبي صلى الله

(١) ابو داوود كتاب الملاحم باب ١٤.

عليه وسلم وعبر عن أخذ الاموال بالاكل لأن المقصود الاعظم من جمع المال الاكل، فسمى الشيء باسم ما هو أعظم مقاصده، والباطل كتب كتبوها لم ينزلها الله فأكلوا بها أموال الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله﴾.

وقيل المعنى انهم يأخذونها بالوجوه الباطلة كالرشوة في تخفيف الاحكام والمسامحة في الشرائع، وقيل انهم كانوا يدعون عند العوام والحشرات انه لا سبيل لأحد الى الفوز بمرضاة الله تعالى الا بخدمتهم وطاعتهم وبذل الاموال في طلب مرضاتهم، والعوام كانوا يغترون بتلك الاكاذيب.

وقيل التوراة كانت مشتملة على آيات دالة على مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فكانوا يذكرون في تأويلها وجوهاً فاسدة ويحملونها على محامل باطلة وكانوا يأخذون الرشوة، وقيل كانوا يقررون عند عوامهم ان الدين الحق هو الذي هم عليه، فإذا قرروا ذلك قالوا وتقوية الدين الحق واجبة، ثم قالوا ولا طريق الى تقويته إلا اذا كان أولئك الفقهاء أصحاب الاموال الكثيرة والجمع العظيم، فبهذا الطريق يحملون العوام على أن يبذلوا في خدمتهم نفوسهم وأموالهم، فهذا هو الباطل الذي كانوا به يأكلون أموال الناس.

قال الرازي: وهي بأسرها حاضرة في زماننا وهو الطريق لأكثر الجهال والمزورين الى أخذ أموال العوام والحمقى من الخلق، انتهى.

ولقد اقتدى بهؤلاء الاحبار والرهبان من علماء الاسلام ومشايخه من لا يأتي عليه الحصر في كل زمان، قال الرازي: ولعمري من تأمل في أحوال أهل الناموس والتزوير في زماننا وجد هذه الآيات كأنها ما أنزلت إلا في شأنهم، وفي شرح أحوالهم، فترى الواحد منهم يدعي انه لا يلتفت إلى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات، وأنه في الطهارة والعصمة مثل الملائكة المقربين حتى إذا آل الأمر إلى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ويتحمل نهاية الذل والدناءة في تحصيله انتهى، ولنعم ما قيل:

عجبت من شيخي ومن زهده وذكره النار وأهوالها
يكره ان يشرب في فضة ويسرق الفضة إن نالها

﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي عن الطريق اليه وهو دين الإسلام، وعن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وعما كان حقاً في شريعتهم قبل نسخها بسبب أكلهم لأموال الناس بالباطل.

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ قيل هم المتقدم ذكرهم من الأحبار والرهبان وأنهم كانوا يصنعون هذا الصنع، قاله معاوية بن أبي سفيان، وقيل هم من يفعل ذلك من المسلمين قاله ابن عباس، وقال السدي: نزلت في مانعي الزكاة من المسلمين، وقال أبو ذر: نزلت في أهل الكتاب وفي المسلمين جميعاً.

والاولى حمل الآية على عموم اللفظ فهو أوسع من ذلك، وأصل الكنز في اللغة الضم والجمع، ولا يختص بالذهب والفضة، قال ابن جرير: الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الارض كان أو على ظهرها انتهى، ومنه ناقة كناز أي مكتنزة اللحم، يقال كنزت المال كنزاً من باب ضرب جمعته وادخرته، وكنزت التمر في وعائه كنزاً أيضاً وهذا زمن الكناز.

قال ابن السكيت: لم يسمع الا بالفتح، وحكى الأزهري الفتح والكسر، والكنز المال المدفون معروف تسمية بالمصدر والجمع كنوز، واكتنز الشيء اكتنازاً اجتمع وامتلأ ومال مكنوز أي مجموع.

واختلف أهل العلم في المال الذي أديت زكاته هل يسمى كنزاً أم لا فقال قوم: هو كنز، وقال آخرون: ليس بكنز، ومن القائلين بالاول أبو ذر وقيده بما فضل عن الحاجة، وبالثاني عمر بن الخطاب وابن عمر وابن عباس وجابر وأبو هريرة وعمر بن عبد العزيز وغيرهم وهو الحق لما سيأتي من الادلة المصرحة بأن ما أديت زكاته فليس بكنز.

أخرج أحمد في الزهد والبخاري وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في

سننه عن ابن عمر قال: إنما كان هذا قبل ان تنزل الزكاة، فلما نزلت الزكاة جعلها الله طهرة للاموال ثم قال: ما أبالي لو كان عندي مثل أحد ذهباً أعلم عدده وأزكيه وأعمل فيه بطاعة الله، وعن أم سلمة مرفوعاً نحوه.

ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة يقتنون الأموال ويتصرفون فيها وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية لأن الإعراض اختيار للأفضل، والاقتناء مباح لا يذم صاحبه.

وعن ابن عباس: لما نزلت هذه الآية انطلق عمر واتبعه ثوبان، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية فقال: ان الله لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم، الحديث مختصراً أخرجه أبو داود والحاكم وصححه والبيهقي وابن أبي شيبة وأبو يعلى وغيرهم[1].

وعن علي قال: أربعة آلاف وما دونها نفقة، وما فوقها كنز، وعن أبي أمامة قال: حلية السيوف من الكنوز ما أحدثكم الا ما سمعت، وعن عراك ابن مالك وعمر بن عبد العزيز قالا نسختها الآية الأخرى ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الآية.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها الا جعل له يوم القيامة صفائح ثم أحمي عليها في نار جهنم ثم تكوى بها جنباه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين الناس فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»[2].

﴿ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ اختلف في وجه إفراد الضمير مع كون

---

(١) المستدرك كتاب الزكاة ١/٤٠٩.

(٢) مسلم ٩٨٧.

المذكور قبله شيئين هما الذهب والفضة فقال ابن الأنباري: أنه قصد إلى الأعم الأغلب وهو الفضة، قال ومثله قوله تعالى: ﴿استعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة﴾ رد الكناية إلى الصلاة لأنها أعم، ومثله قوله تعالى: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها﴾ أعاد الضمير الى التجارة لأنها الأعم، وقيل ان الضمير راجع إلى الذهب، والفضة معطوفة عليه والعرب تؤنث الذهب وتذكره.

وقيل الضمير راجع إلى الكنوز المدلول عليها بقوله: ﴿يكنزون﴾ لأنه أعم من النقدين وغيرهما، وقيل إلى الأموال، وقيل إلى الزكاة: وقيل إنه اكتفى بضمير أحدهما عن ضمير الآخر مع فهم المعنى وهو كثير في كلام العرب.

وقيل ان إفراد الضمير من باب الذهاب إلى المعنى دون اللفظ، لأن كل واحد من الذهب والفضة جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم، فهو كقوله: ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ وإنما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الأموال لكونها أثمن الأشياء وغالب ما يكنز وان كان غيرهما له حكمهما في تحريم الكنز.

﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ هذا من باب التهكم بهم كما في قوله:

* تحية نبيهم ضرب وجيع *

وقيل ان البشارة هي الخبر الذي يتغير له لون البشرة لتأثيره في القلب سواء كان من الفرح أو من الغم، وعن أبي ذر قال: انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: «هم الأخسرون ورب الكعبة» قال: فقلت: يا رسول الله فداك أبي وأمي من هم قال: «هم الأكثرون اموالاً إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم» الحديث مختصراً أخرجه مسلم وفرقه البخاري في موضعين[1].

---

(١) مسلم ٩٩٠ - البخاري ٧٧٥.

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ أي أن النار توقد عليها وهي ذات حمى وحر شديد، ولو قال: يوم تحمى أي الكنوز لم يعط هذا المعنى، فجعل الاحماء للنار مبالغة، ويحمى يجوز أن يكون من حميت وأحميت ثلاثياً ورباعياً، يقال حميت الحديدة وأحميتها أي أوقدت عليها لتحمى، والتقدير يوم تحمى النار عليها وخص الجباه والجنوب والظهور لان التألم بكيها أشد لما في داخلها من الاعضاء الشريفة.

وقيل ليكون الكي في الجهات الاربع من قدام وخلف وعن يمين ويسار، وقيل لان الجمال في الوجه والقوة في الظهر والجنبين والانسان إنما يطلب المال للجمال والقوة، وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تكلف.

﴿هذا ما كنزتم لانفسكم﴾ أي كنزتموه لتنتفعوا به فهذا نفعه، ويقال لهم ذلك على طريق التهكم والتوبيخ ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ أي ذوقوا وباله وسوء عاقبته وقبح مغبته وشؤم فائدته، لأن الكنوز لا تذاق، وما بمعنى الذي، والآية عامة، وفي الباب أحاديث صحيحة توافق معنى هذه الآية لا نطول بذكرها.

﴿ان عدة الشهور﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نوع آخر من قبائح الكفار وذلك ان الله سبحانه لما حكم في كل وقت بحكم خاص غيروا تلك الأوقات بالنسيء والكبيسة، فأخبرنا الله بما هو حكمه فقال ان عدة الشهور أي عدد الشهور المعتد بها للسنة.

﴿عند الله﴾ أي في حكمه وقضائه، وحكمته لا بابتداع الناس ﴿اثنا عشر شهراً﴾ هي المحرم وصفر وربيع الأول وربيع الآخر وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة، فهذه شهور السنة القمرية التي تدور على سير القمر في المنازل، وهي شهور العرب التي يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم، وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوماً، والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس في الفلك دورة تامة وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوم وربع يوم فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام، فبسبب هذا النقصان يقع الحج والصوم تارة في الشتاء وتارة في الصيف.

﴿في كتاب الله﴾ أي فيما أثبته في كتابه أي القرآن لأن فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر، وقيل الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه جميع أحوال الخلائق وما يأتون وما يذرون، وقيل المراد بالكتاب الحكم الذي أوجبه وأمر عباده بالأخذ به، وفي هذه الآية بيان ان الله سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف.

﴿يوم خلق السموات والأرض﴾ أي منذ خلق الاجرام والأزمنة وبيان ان هذا هو الذي جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتب، وأنه لا اعتبار بما عند العجم والروم والقبط من الشهور التي يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين وبعضها أكثر وبعضها أقل.

﴿منها أربعة حُرم﴾ أي محترمة قد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي بكرة ان النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته فقال: «ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»(١) والمعنى رجعت الاشهر إلى ما كانت عليه من الحل والحرمة وعاد الحج الى ذي الحجة بعد ما كانوا أزالوه عن محله بالنسيء الذي أحدثوه في الجاهلية، وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة، وكانت حجة أبي بكر قبلها في ذي القعدة.

واختلف في ترتيبها فقيل أولها المحرم وآخرها ذو الحجة فهي شهور عام، وقيل أولها رجب فهي من عامين، وقيل أولها ذو القعدة وهو الصحيح لتواليها، قاله النووي، وأورد عليه ابن المنير في تفسيره انه إنما يتمشى على أن أول السنة المحرم وهو حدث في زمن عمر رضي الله تعالى عنه، وكان يؤرخ قبله بعام الفيل ثم أرخ في صدر الإسلام بربيع الاول فتأمل.

وقال الضحاك: انما سمين حرماً لئلا يكون فيهن حرب.

قلت: وكانت العرب في الجاهلية تعظمها وتحرم فيها القتال حتى ان أحدهم لو لقي قاتل أبيه أو ابنه أو أخيه في هذه الأربعة الأشهر لم يزعجه، ولما جاء الاسلام لم يزدها إلا حرمة وتعظيماً لان الحسنات والطاعات فيها تتضاعف، والسيئآت فيها أشد من غيرها فلا تنتهك حرمة هذه الأشهر الحرم.

﴿ذلك الدين القيم﴾ أي كون هذه الشهور كذلك ومنها أربعة حرم هو الدين المستقيم دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منها وقيل الحساب الصحيح والعدد المستوفى، وقيل الدين القيم هو الحكم

(١) مسلم، ١٦٧٩ - البخاري، ٥٩.

الذي لا يغير ولا يبدل ولا يزول.

﴿فلا تظلموا فيهن﴾ أي في هذه الاشهر الحرم ﴿أنفسكم﴾ بايقاع المعاصي فإنها فيها أعظم وزراً، وبايقاع القتال فيها والهتك لحرمتها، وبه قال أكثر المفسرين، وقيل ان الضمير يرجع الى الشهور كلها الحرم وغيرها وان الله نهى عن الظلم فيها والاول أولى.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ لهذه الآية ولقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام﴾ ولقوله: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾ الآية.

وذهب جماعة آخرون إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف، ويجاب عنه بأن الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم كما في الآية المذكورة، فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد في تحريم القتال في الأشهر الحرم كما هي مقيدة بتحريم القتال في الحرم للأدلة الواردة في تحريم القتال فيه.

وأما ما استدلوا به من أنه صلى الله عليه وسلم حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين وغيرهما فقد أجيب عنه بأنه لم يبتدىء محاصرتهم في ذي القعدة بل في شوال، والمحرم إنما هو ابتداء القتال في الأشهر الحرم لا إتمامه، وبهذا يحصل الجمع.

﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ أي جميعاً في كل الشهور لأن عموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال والازمنة والبقاع، وهو مصدر في موضع الحال من ضمير الفاعل في قاتلوا أو من المفعول وهو المشركين، قال الزجاج: مثل هذا من المصادر كعامة وخاصة لا يثنى ولا يجمع ولا تدخله أل ولا يتصرف فيه بغير الحال.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾

﴿كما يقاتلونكم كافة﴾ فيه دليل على وجوب قتال المشركين وانه فرض على الاعيان ان لم يقم به البعض ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي ينصرهم ويثبتهم ومن كان الله معه فهو الغالب وله العاقبة.

﴿إنما النسيء﴾ قال الجوهري: النسيء فعيل بمعنى مفعول، من قولك نسأت الشيء فهو منسوء إذا أخرته ثم تحول منسوء الى نسيء كما تحول مقتول إلى قتيل. وإلى ذلك نحا أبو حاتم، وقيل مصدر على فعيل من أنسأ أي أخر كالنذير من أنذر والنكير من أنكر، وهذا ظاهر قول الزمخشري لانه يحتاج إلى تقدير بخلاف ما إذا كان صفة فإنه لا يخبر عنه بزيادة إلا بتأويل أي ذو زيادة أو انساء النسيء زيادة. قال ابن جرير: في النسيء بالهمزة معنى الزيادة، يقال نسأ اذا زاد، ولا يكون بترك الهمزة الا من النسيان كما قال تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾.

وقرأ الجمهور النسيء بهمزة بعد الياء وغيرهم بإدغام الياء، وقرىء النسء بإسكان السين، والنسؤ بزنة فعول وهو التأخير، وفعول في المصادر قليل، والنسيئة كالفعيلة التأخير، وكذلك النساء بالفتح والمد التأخير، والنسيء في الآية فعيل بمعنى مفعول كما تقدم.

وكانت العرب تحرم القتال في الاشهر الحرم المذكورة، فإذا احتاجوا الى القتال فيها قاتلوا فيها وحرموا غيرها، فإذا قاتلوا في المحرم حرموا بدله شهر صفر وهكذا في غيره، وكان الذي يحملهم على هذا ان كثيراً منهم انما كانوا يعيشون بإغارة بعضهم على البعض، ونهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه، ويقع بينهم بسبب ذلك القتال، وكانت الاشهر الثلاثة المسرودة يضربهم تواليها وتشتد حاجاتهم وتعظم فاقتهم، فيحلون بعضها ويحرمون مكانه بقدره من غير الاشهر الحرم. فهذا هو معنى النسيء الذي كانوا يفعلونه.

وقد وقع الخلاف في أول من فعل ذلك، فقيل هو رجل من بني كنانة يقال له حذيفة بن عبيد ويلقب القلمس، وقيل هو عمرو بن لحي، وقيل هو نعيم بن ثعلبة من بني كنانة.

﴿زيادة في الكفر﴾ أي نوع من أنواع كفرهم ومعصية من معاصيهم المنضمة الى كفرهم بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وفي الشهاب يعني أنهم لما توارثوه على انها شريعة ثم استحلوه كان ذلك مما يعد كفراً.

﴿يضل به الذين كفروا﴾ قرىء على البناء للمعلوم والمجهول، ومعنى الاولى أن الكفار يضلون بما يفعلون من النسيء، ومعنى الثانية ان الذي سن لهم ذلك يجعلهم ضالين بهذه السنة السيئة، والاولى من طريق العشرة، والثانية سبعية.

﴿يحلونه﴾ أي النسيء ﴿عاماً ويحرمونه عاماً﴾ أو الشهر الذي يؤخرونه ويقاتلون فيه، أي يحلونه عاماً بإبداله بشهر آخر من شهور الحل ويحرمونه عاماً أي يحافظون عليه فلا يحلون فيه القتال بل يبقونه على حرمته، والجملة تفسيرية للضلال أو حالية.

﴿ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾ أي لكي يواطئوا، والمواطأة الموافقة، يقال

تواطأ القوم على كذا أي توافقوا عليه واجتمعوا، والمعنى انهم لم يحلوا شهراً إلا حرموا شهراً لتبقى الأشهر الحرم أربعة، قال قطرب: معناه عمدوا إلى صفر فزادوه في الأشهر الحرم وقرنوه بالمحرم في التحريم، وكذا قال الطبري.

﴿فيحلوا ما حرم الله﴾ من الاشهر الحرم التي أبدلوها بغيرها، ولم ينظروا الى أعيانها ﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾ أي زين لهم الشيطان أعمالهم السيئة التي يعملونها ومن جملتها النسيء فظنوه حسناً، وقرىء على البناء للفاعل ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي المصرين على كفرهم المستمرين عليه فلا يهديهم هداية توصلهم الى المطلوب، وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والارشاد اليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده.

﴿يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض﴾ لما شرح معائب أولئك الكفار عاد الى ترغيب المؤمنين في قتالهم، والاستفهام في ﴿ما لكم﴾ للانكار والتوبيخ، أي أيّ شيء يمنعكم عن ذلك، ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً لمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وكانت في رجب سنة تسع من الهجرة بعد رجوعه من الطائف بعد الفتح بعام، وتبوك مكان على طرف الشام بينه وبين المدينة عشرة مراحل، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث وبعضهم يصرفه على ارادة الموضع، فقد جاء في البخاري مصروفاً وممنوعاً منه، وقصة هذه الغزوة في سيرة الحلبي مفصلة.

والنَّفر هو الانتقال بسرعة من مكان الى مكان لأمر يحدث، يقال استنفر الامام الناس اذا حثهم على الخروج الى الجهاد ودعاهم اليه، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «اذا استنفرتم فانفروا»[1]، والاسم النفير.

---

(١) مسلم ١٨٦٤.

واثاقلتم معناه تباطأتم وعدي بإلى لتضمنه معنى الميل والاخلاد، وقيل معناه ملتم الى الاقامة بأرضكم والبقاء فيها عن الجهاد، وقرىء أثاقلتم على الاستفهام ومعناه التوبيخ مع النفي.

﴿أرضيتم﴾ استفهام توبيخ وتعجيب ﴿بالحياة الدنيا﴾ أي بخفض العيش وزهرة الدنيا ودعتها ونعيمها بدلاً ﴿من الآخرة﴾ كقوله تعالى: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة﴾ أي بدلاً منكم ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة﴾ أي محسوباً في جنبها وفي مقابلتها، و﴿في﴾ هذه تسمى قياسية ﴿إلا قليل﴾ أي إلا متاع حقير لا يعبأ به لأن لذات الدنيا خسيسة في نفسها ومشوبة بالآفات والبليات، ومنقطعة عن قرب لا محالة، ومنافع الآخرة شريفة عالية خالصة عن الآفات دائمة أبدية سرمدية وذلك يوجب القطع بأن متاع الدنيا في جنب متاع الآخرة قليل.

ويجوز أن يراد بالقليل العدم إذ لا نسبة للمتناهي الزائل الى غير المتناهي الباقي والظاهر أن هذا التثاقل لم يصدر من الكل إذ من البعيد أن يطبقوا جميعاً على التباطؤ والتثاقل، وإنما هو من باب نسبة ما يقع من البعض إلى الكل وهو كثير شائع، وفي الآية دليل على وجوب الجهاد في كل حال وفي كل وقت لأن الله سبحانه نص على ان تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر، فلو لم يكن منكراً لما عاتبهم على ذلك.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

ويؤيد هذا قوله: ﴿إلّا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ أي يهلككم بعذاب شديد مؤلم، قيل في الدنيا فقط باحتباس المطر وغيره، وقيل هو أعم من ذلك لأن العذاب الأليم لا يكون إلا في الآخرة، قال الحسن وعكرمة:

هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ وقال الجمهور: هذه الآية محكمة لانها خطاب لقوم استنفرهم رسول الله ﷺ فلم ينفروا كما نقل عن ابن عباس، وعلى هذا التقدير فلا نسخ، وفي الآية تهديد شديد ووعيد مؤكد لمن ترك النفر مع رسول الله ﷺ.

﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ أي يجعل لرسله بدلاً منكم ممن لا يتباطأ عند حاجتهم اليهم ويكون خيراً منكم وأطوع، واختلف في هؤلاء القوم من هم فقيل أهل اليمن، وقيل أهل فارس، قاله سعيد بن جبير، ولا وجه للتعيين بدون دليل

﴿ ولا تضروه ﴾ أي الله بترك امتثال أمره بالنفير ﴿ شيئاً ﴾ لأنه غني عن العالمين أو لا تضروا رسول الله بترك نصره والنفير معه شيئاً فان الله ناصره على أعدائه ولا يخذله أبداً نفرتم أو اثاقلتم.

﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ ومن جملة مقدوراته تعذيبكم والاستبدال بكم .

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إلاّ تنصروه فقد نصره الله﴾ أي ان تركتم نصره فالله متكفل به أعنتموه أو لا فقد نصره في مواطن القلة وأظهره على عدوه بالغلبة والقهر أو فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ أي وقت اخراجهم إياه حال كونه ﴿ثاني اثنين﴾ وقرىء بسكون الياء على لغة من يجري الناقص مجرى المقصور في الاعراب أي أحد اثنين وهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله عنه من غير اعتبار كونه ﷺ ثانياً فان معنى قولهم ثالث ثلاثة ورابع أربعة ونحو ذلك أحد هذه الاعداد مطلقاً لا الثالث والرابع خاصة، ولذلك منع الجمهور ان ينصب ما بعده بأن يقال ثالث ثلاثة ورابع أربعة.

﴿اذ هما في الغار﴾ هو ثقب عظيم في الجبل المسمى ثوراً، وهو المشهور بغار ثور وهو جبل قريب من مكة وبينهما مسيرة ساعة ويجمع على غيران، والغار أيضا نبت طيب والجماعة والغاران البطن والفرج، وألف الغار منقلبة عن واو، وقصة خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة هو وأبو بكر ودخولهما الغار ومكثهما فيه ثلاثاً مشهورة مذكورة في كتب السير والحديث، وسياق حديث الهجرة من أفراد البخاري وهو طويل جداً.

﴿إذ يقول لصاحبه﴾ أي وقت قوله لابي بكر ﴿لا تحزن﴾ أي دع الحزن ﴿ان الله﴾ بنصره وعونه وتأييده وعصمته وحفظه وولايته ومعونته وتسديده

﴿معنا﴾ والمراد بالمعية المعية الدائمة التي لا تحوم حول صاحبها شائبة شيء من الحزن، وما هو المشهور من اختصاص «مع» بالمتبوع فالمراد بما فيه من المتبوعية هو المتبوعية في الأمر المباشر، قاله أبو السعود، وقال الخفاجي: انها معية مخصوصة والا فهو مع كل أحد اهـ.

والمعنى من كان الله معه فلن يغلب ومن لا يغلب فيحق له أن لا يحزن وذلك ان أبا بكر خاف من الطلب[1] أن يعلموا بمكانهم، فجزع من ذلك وكان حزنه على رسول الله ﷺ لا على نفسه وقال: إذا أنا مت فانا رجل واحد وإذا مت أنت هلكت الأمة والدين.

أخرج الشيخان عنه رضي الله عنه قال: نظرت الى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[2] وزاد البزار والطبراني والبيهقي في الدلائل عن أنس والمغيرة بن شعبة فأعماهم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله فلم يروه.

قال النووي: هو داخل في قوله سبحانه: ﴿ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ وفيه بيان عظيم توكل النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى في هذا المقام وفيه فضيلة لأبي بكر وهي من أجل مناقبه، وقال الشعبي: عاتب الله عز وجل أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر.

وقال الحسن بن الفضل: من قال ان أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لإنكاره نص القرآن، وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر: أنت صاحبي على الحوض وصاحبي في الغار[3]، أخرجه الترمذي، وقال حديث صحيح حسن غريب، وعبارة أبي

---

(١) وهم رجال اقتصوا أثر الرسول يطلبون رده إلى قريش.
(٢) مسلم ٢٣٨١ ـ البخاري ١٧١٦.
(٣) الترمذي كتاب المناقب باب ١٦.

السعود وفيه من الدلالة على علو طبقة الصديق رضي الله تعالى عنه وسابقة صحبته ما لا يخفى اهـ.

وفي الكشاف: وقالوا من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لانكاره كلام الله، وليس ذلك لسائر الصحابة، وقيل انه ليس بمنصوص عليه فيها بل المنصوص عليه أن له ثانياً هو صاحبه فيه، فانكار ذلك يكون كفراً لا انكار صحبته بخصوصه، ولذا قال قالوا فجعل العهدة فيه على غيره، وفيه نظر، قاله الخفاجي، وقد استنبط أهل العلم من هذه الآية وجوهاً كثيرة على فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه يطول ذكرها.

﴿فأنزل الله سكينته﴾ هي تسكين جأشه وتأمينه حتى ذهب روعه وحصل له الأمن على أن الضمير في ﴿عليه﴾ لأبي بكر، وبه قال ابن عباس وأكثر المفسرين، وقيل هو للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ويكون المراد بالسكينة النازلة عليه عصمته عن حصول سبب من أسباب الخوف له.

ويؤيد كون الضمير في ﴿عليه﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم الضمير في ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ فانه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه المؤيد بهذه الجنود التي هي الملائكة في الغار يحرسونه ويسكنون روعه ويصرفون أبصار الكفار عنه كما كان في يوم بدر، وقيل انه لا محذور في رجوع الضمير من ﴿عليه﴾ الى أبي بكر، ومن ﴿وأيده﴾ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فان ذلك كثير في القرآن وفي كلام العرب.

﴿وجعل كلمة الذين كفروا﴾ أي كلمة الشرك وهي دعوتهم اليه ونداؤهم للاصنام أو كل ما يدل على الشرك أو المراد بها عقيدة الشرك أي الكفر مطلقاً بسائر أنواعه، أقوال للمفسرين ﴿السفلى﴾ المغلوبة إلى يوم القيامة ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ في ضمير الفصل أعني هي تأكيد لفضل كلمته في العلو، وانها المختصة به دون غيرها، والمراد بها كلمة التوحيد والدعوة الى الاسلام، فهي ظاهرة غالبة باقية الى يوم القيامة عالية ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي غالب قاهر لا يفعل إلا ما فيه حكمة وصواب.

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ثم لما توعد من لم ينفر مع الرسول صلى الله عليه وسلم وضرب له من الامثال ما ذكره، عقبه بالأمر بالجزم فقال: ﴿انفروا﴾ حال كونكم ﴿خفافاً وثقالاً﴾ أي على الصفة التي يخف عليكم الجهاد فيها وعلى الصفة التي يثقل عليكم الجهاد فيها وهذان الوصفان يدخل تحتهما أقسام كثيرة فلهذا اختلفت عبارات المفسرين فيهما فقيل المراد منفردين أو مجتمعين، وقيل نشاطاً وغير نشاط، وقيل فقراء وأغنياء وقيل شباباً وشيوخاً، وقيل ركباناً ومشاة رجالاً وفرساناً، وقيل من سبق إلى الحرب كالطلائع ومن يتأخر كالجيش.

وقيل أهل الميسرة وأهل العسرة، وقيل مقلين من السلاح ومستكثرين منه وقيل مشاغيل وغير مشاغيل، وقيل أصحاء ومرضى وقيل عزاباً ومتأهلين، وقيل خفافاً من الحاشية والأتباع وثقالاً مستكثرين منهم، وقيل مسرعين في الخروج إلى الغزو ساعة سماع النفير وبعد التروي فيه والاستعداد له، وقيل غير ذلك.

ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني، لأن معنى الآية انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت، فالاولى أن هذا عام لكل الاحوال فيها، والامر محمول على الوجوب.

قال السدي: وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا

على المرضى﴾ وقيل الناسخ لها قوله: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ الآية. قاله ابن عباس.

وقيل الأمر محمول على الندب وهي محكمة وليست بمنسوخة، ويكون إخراج الأعمى والأعرج بقوله: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج﴾ وإخراج الضعيف والمريض بقوله: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ من باب التخصيص لا من باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله: ﴿خفافاً وثقالاً﴾ والظاهر عدم دخولهم تحت العموم، ويدل عليه ان هذه الآية نزلت في غزوة تبوك وأن النبي صلى الله عليه وسلم خلف في المدينة في تلك الغزوة النساء وبعض الرجال فذلك دل على أن الجهاد من فروض الكفايات ليس على الأعيان.

﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والاموال وإيجابه على العباد، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، والاغنياء بأموالهم وأنفسهم، والجهاد من أكبر الفرائض وأعظمها، وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدو ويدفعه، فإن كان لا يقوم بالعدو الا جميع المسلمين في قطر من الأرض أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين.

﴿ذلكم﴾ أي ما تقدم من الأمر بالنفير والامر بالجهاد ﴿خير لكم﴾ عظيم في نفسه وخير من السكون والدعة ﴿ان كنتم تعلمون﴾ ذلك وتعرفون الاشياء الفاضلة وتميزونها عن المفضولة فافعلوه.

ونزل في الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ﴿لو كان﴾ المدعو اليه أو ما تدعوهم اليه ﴿عرضاً﴾ هو ما يعرض من منافع الدنيا ومتاعها، يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر، والفاجر ﴿قريباً﴾ والمعنى غنيمة سهلة قريبة التناول غير بعيدة ﴿وسفراً قاصداً﴾ أي متوسطاً بين القرب والبعد، وكل

متوسط بين الافراط والتفريط فهو قاصد ﴿لاتَّبعوك﴾ أي لوافقوك في الخروج ولخرجوا معك طمعاً في تلك المنافع التي تحصل لهم ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ قال أبو عبيدة وغيره: إن الشقة السفر إلى أرض بعيدة، يقال منه شقة وشاقة، والشقة المسافة التي تقطع بمشقة. قال الجوهري: الشقة بالضم من الثياب والشقة أيضاً السفر البعيد، وربما قالوه بالكسر فهي مشتقة من المشقة كما في السمين، والمراد بها غزوة تبوك فإنها كانت سفرة بعيدة شاقة وكانوا يستعظمون غزو الروم، لا جرم تخلفوا بهذا السبب.

﴿وسيحلفون﴾ أي المتخلفون عن غزوة تبوك، وأتى بالسين لأنه من قبيل الإخبار بالغيب فإن الله أنزل هذه الآية قبل رجوعه من تبوك أي سيحلفون ﴿بالله﴾ اعتذاراً عنه حال كونهم قائلين ﴿لو استطعنا﴾ أي لو قدرنا على الخروج ووجدنا ما نحتاج اليه فيه مما لا بد منه، وقيل: لو كان لنا استطاعة من جهة العدة أو من جهة الصحة أو من جهتهما حسبما عنَّ لهم من الكذب والتعلل وعلى كلا التقديرين فقوله: ﴿لخرجنا معكم﴾ ساد مسد جوابي القسم والشرط جميعاً وقد وقع حسبما أخبر به وهو من جملة المعجزات الباهرة.

وقوله: ﴿يهلكون أنفسهم﴾ بدل من قوله: ﴿سيحلفون﴾ لأن من حلف كذباً فقد أهلك نفسه، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: «اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع» أو يكون حالاً أي مهلكين أنفسهم موقعين لها موقع الهلاك بسبب هذه الأيمان الكاذبة ﴿والله يعلم انهم لكاذبون﴾ في حلفهم الذي سيحلفون به لك لأنهم كانوا مستطيعين للخروج.

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن
يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾

﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ الاستفهام للانكار من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث وقع منه الاذن لمن استأذنه في القعود قبل أن يتبين من هو صادق منهم في عذره الذي أبداه، ومن هو كاذب فيه، وفي ذكر العفو عنه صلى الله عليه وسلم ما يدل على أن هذا الاذن الصادر منه كان خلاف الاولى، وفي هذا عتاب لطيف من الله سبحانه، وقيل ان هذا عتاب له صلى الله عليه وآله وسلم في إذنه للمنافقين بالخروج معه لا في إذنه لهم بالقعود عن الخروج، قاله الطبري والاول أولى.

وقد رخص له سبحانه في سورة النور بقوله: ﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأْذن لمن شئت منهم﴾ ويمكن أن يجمع بين الآيتين بأن العتاب هنا متوجه إلى الاذن قبل الاستثبات حتى يتبين الصادق من الكاذب، والاذن هنالك متوجه الى الاذن بعد الاستثبات والله أعلم.

وقيل إن قوله: ﴿عفا الله عنك﴾ افتتاح كلام كما تقول أصلحك الله وأعزك ورحمك كيف فعلت كذا وكذا، حكاه مكي والنحاس والمهدوي، وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على ﴿عفا الله عنك﴾ وعلى التأويل الاول لا يحسن، ولا يخفاك أن التفسير الاول هو المطابق لما يقتضيه اللفظ على حسب اللغة العربية، ولا وجه لإخراجه عن معناه العربي.

وفي الآية دليل على جواز الاجتهاد منه صلى الله عليه وسلم والمسألة

مدونة في الاصول، وفيها أيضاً دلالة على مشروعية الاحتراز عن العجلة والاغترار بظواهر الامور.

وقال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ باجتهاده لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين في التخلف، وأخذه الفداء من أسارى بدر، فعاتبه الله كما تسمعون، قال سفيان بن عيينة: انظر هذا التلطف به، بدأ بالعفو قبل أن يعيره بالذنب.

و﴿حتى﴾ في قوله: ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ للغاية، كأنه قيل لم سارعت الى الاذن لهم، وهلا تأنيت حتى يتبين لك صدق من هو صادق منهم في العذر الذي أبداه، وكذب من هو كاذب منهم في دعواه، قال ابن عباس: لم يكن يعرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنافقين يومئذ حتى نزلت سورة براءة.

ثم ذكر سبحانه أنه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ في القعود عن الجهاد، بل كان من عادتهم أنه صلى الله عليه وسلم اذا أذن لواحد منهم بالقعود شق عليه ذلك فقال: ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ وهذا على أن معنى الآية أن لا يجاهدوا وقيل المعنى لا يستأذنك في التخلف كراهة الجهاد، وقيل ان معنى الاستئذان في الشيء الكراهة.

وأما على ما يقتضيه ظاهر اللفظ فالمعنى لا يستأذنك المؤمنون في الجهاد بل دأبهم أن يبادروا اليه من غير توقف ولا ارتقاب منهم لوقوع الاذن منك فضلاً أن يستأذنوك في التخلف، فحيث استأذنك هؤلاء في التخلف كان ذلك مظنة للتأني في أمرهم بل دليلاً على نفاقهم ﴿والله عليم بالمتقين﴾ الذين لم يستأذنوا.

إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى
رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن
كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾

﴿انما يستأذنك﴾ في القعود عن الجهاد والتخلف عنه من غير عذر، وكذا يقال فيما بعده ﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ وهم المنافقون وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً، وذكر الايمان بالله أولاً ثم باليوم الاخر ثانياً في الموضعين لانهما الباعثان على الجهاد في سبيل الله ﴿وارتابت قلوبهم﴾ جاء بالماضي للدلالة على تحقق الريب في قلوبهم وهو الشك فإذا دخلها الشك كان ذلك نفاقاً.

﴿فهم في ريبهم يترددون﴾ أي في شكهم الذي حل بقلوبهم يتحيرون، والتردد التحير، والمعنى فهؤلاء الذين يستأذنونك ليسوا بمؤمنين، بل كانوا مرتابين حائرين لا يهتدون إلى طريق الصواب ولا يعرفون الحق، والآية محكمة كلها، وقال ابن عباس: نسختها الآية التي في سورة النور ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله﴾ إلى قوله: ﴿غفور رحيم﴾ فجعل الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأعلى النظرين في ذلك من غزا غزا في فضيلة، ومن قعد قعد في غير حرج إن شاء الله.

﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ أي لو كانوا صادقين فيما يدعونه ويخبرونك به من انهم يريدون الجهاد معك ولكن لم يكن معهم من العدة للجهاد ما يحتاجون اليه لما تركوا إعداد العدة وتحصيلها قبل وقت الجهاد كما يستعد لذلك المؤمنون، فمعنى هذا الكلام انهم لم يريدوا الخروج أصلاً ولا استعدوا للغزو، والعدة ما يحتاج اليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح.

﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم﴾ الاستدراك هنا يحتاج إلى تأمل،

فلذلك قال الزمخشري: ما حاصله ولكن كره الله خروجهم فثبطوا عن الخروج فيكون المعنى ما خرجوا ولكن ثبطوا لأن كراهة الله انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج، والانبعاث الخروج أي حبسهم الله عن الخروج معك وخذلهم وكسلهم لأنهم قالوا إن لم يؤذن لنا في الجلوس أفسدنا وحرضنا على المؤمنين.

وقيل المعنى لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن ما أرادوه لكراهة الله له، وعلى هذا فهو استدراك على نفس المقدم على نهج ما في الأقيسة الاستثنائية، وكان في خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مفسدة عظيمة بدليل أنه تعالى أخبر عنها بقوله الآتي ﴿ما زادوكم إلا خبالاً﴾ وأما عتاب الله لرسوله بقوله ﴿لم أذنت لهم﴾ فإنه أذن لهم قبل تمام الفحص وإكمال التأمل والتدبر في حالهم، فلهذا السبب عاتبه، وقيل إنما عاتبه لأجل أنه أذن لهم قبل أن يوحى اليه في أمرهم بالقعود.

﴿وقيل اقعدوا﴾ والقائل لهم هو الشيطان بما يلقيه إليهم من الوسوسة، وقيل قاله بعضهم لبعض، وقيل قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم غضباً عليهم، وقيل هو عبارة عن الخذلان أي أوقع الله في قلوبهم القعود خذلاناً لهم، وقال السيوطي: أي قدر الله ذلك أي القعود يعني فلا قول بالفعل لا من الله ولا من النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿مع القاعدين﴾ أي مع أولى الضرر من العميان والمرضى والنساء والصبيان وفيه من الذم لهم والإزراء عليهم والتنقص بهم ما لا يخفى.

لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ
وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ
وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

﴿لو خرجوا﴾ شروع في بيان المفاسد التي تترتب على خروجهم، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عن تخلف المنافقين، ومعنى ﴿فيكم﴾ في جيشكم أو (في) بمعنى مع أي معكم ﴿ما زادوكم إلا خبالاً﴾ هو الشر والفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف، وأصله اضطراب ومرض يؤثر في العقل كالجنون، قيل هذا الاستثناء منقطع أي ما زادوكم قوة، ولكن طلبوا الخبال وليس بذاك لأنه لا يكون مفرغاً، قاله الزمخشري والبيضاوي وأبو السعود.

قال الخفاجي: وفيه بحث لأنه لا مانع منه إذا دلت القرينة عليه، كما إذا قيل ما أنيسك في البادية؟ فقلت ما لي بها إلا اليعافير، أي ما لي أنيس إلا هذه، انتهى.

وقيل المعنى لا يزيدونكم فيما يترددون فيه من الرأي إلا خبالاً، فيكون متصلاً، وقيل قوله استثناء من أعم العام أي ما زادوكم شيئا الا خبالاً فيكون الاستثناء من قسم المتصل لأن الخبال من جملة ما يصدق عليه الشيء.

﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ الايضاع سرعة السير، يقال أوضع البعير إذا أسرع السير، وقيل هو سير الخبب، وأوضع يستعمل لازماً كما في القاموس ومتعدياً كما في المختار، والخلة الفرجة بين الشيئين والمفرد خلل، والجمع الخلال كجمل وجمال أي الفرج التي تكون بين الصفوف.

والمعنى على الأول لسعوا بينكم بالإفساد بما يختلقونه من الأكاذيب المشتملة على الأرجاف والنمائم الموجبة لفساد ذوات البين، وعلى الثاني أسرعوا ركائبكم بينكم بالنميمة، وفيه استعارة تخييلية ومكنية، وقيل إنه استعارة تبعية شبه سرعة إفسادهم لذات البين بالنميمة بسرعة سير الركائب المسماة بالايضاع وهو إسراع سير البعير، ثم استعير لسرعة الافساد لفظ الايضاع وهو للابل ثم اشتق منه أوضعوا وأصل الاستعارة ولأوضعوا ركائب نمائمهم خلالكم، ثم حذف النمائم وأقيم المضاف اليه مقامها لدلالة سياق الكلام على أن المراد النميمة ثم حذف الركائب، قاله الطيبي كما ذكره زكريا.

﴿يبغونكم﴾ يقال بغيته كذا طلبته له وأبغيته كذا أعنته على طلبه، والمعنى يطلبون لكم ﴿الفتنة﴾ أي ما يفتنون به في ذات بينكم بما يصنعونه من التحريش والافساد، وقولهم للمؤمنين لقد جمعوا لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وانكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم، ونحو ذلك من الاحاديث الكاذبة التي تورث الجبن والفشل، وقيل الفتنة العيب والشر، وقيل الفتنة هنا الشرك.

﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أي والحال أن فيكم من يستمع ما يقولونه من الكذب فينقله اليكم، فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم والفساد لأحوالكم، قال مجاهد: معناه محدثون لهم بأحاديثكم غير منافقين وهم عيون للمنافقين. انتهى. فعلى هذا يكون المراد فيكم جواسيس منهم يسمعون لهم الاخبار منكم فاللام على الاول للتقوية، وعلى الثاني للتعليل أي لاجلهم ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم فلذلك اقتضت حكمته البالغة أن لا يخرجوا معكم وكره انبعاثهم معكم.

ولا ينافي حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقدم من عتابه على الاذن لهم في التخلف، لانه سارع الى الاذن لهم ولم يكن

قد علم من أحوالهم لو خرجوا انهم يفعلون هذه الأفاعيل، فعوتب صلى الله عليه وسلم على تسرعه إلى الاذن لهم قبل أن يتبين له الصادق منهم في عذره من الكاذب، ولهذا قال الله سبحانه فيما يأتي في هذه السورة ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً﴾ الآية.

وقال في سورة الفتح ﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها﴾ إلى قوله: ﴿قل لن تتبعونا﴾ وفي الآية وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين، ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد في الوعيد والاشعار بترتبه على الظلم، قال أبو السعود: ولعله شامل للفريقين السماعين والقاعدين.

﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ أي لقد طلبوا الافساد والخبال وتفريق كلمة المؤمنين وتشتت شملهم من قبل هذه الغزوة التي تخلفوا عنك فيها، كما وقع من عبدالله بن أبيّ وغيره يوم أحد حيث انصرف بأصحابه عنك، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

﴿وقلبوا لك الأمور﴾ أي صرفوها من وجه إلى وجه ودبروا لك الحيل والمكايد، وردوا الآراء في إبطال أمرك وتقليب الأمر تصريفه من أمر إلى أمر وترديده لأجل التدبير والاجتهاد في المكر والحيلة، ومنه قول العرب للرجل حوَّل وقلب إذا كان دائراً حول المكايد والحيل يدبر الرأي فيها ويتدبره، وقرىء بالتخفيف.

﴿حتى جاء الحق﴾ أي إلى غاية هي مجيء الحق وهو النصر لك والتأييد، وقيل الحق القرآن ﴿وظهر أمر الله﴾ بإعزاز دينه وإعلاء شريعته وقهر أعدائه ﴿وهم كارهون﴾ لمجيء الحق وظهور أمر الله، ولكن كان ذلك على رغم منهم

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿ومنهم﴾ أي من المنافقين ﴿من يقول﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ائذن لي﴾ في التخلف عن الجهاد ﴿ولا تفتني﴾ أي لا توقعني في الفتنة أي المعصية والاثم إذا لم تأذن لي فتخلفت بغير إذنك، وقيل معناه لا توقعني في الهلكة بالخروج.

عن ابن عباس قال: لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج الى غزوة تبوك قال للجدّ بن قيس: يا جد بن قيس ما تقول في مجاهدة بني الاصفر؟ فقال: يا رسول الله اني امرؤ صاحب نساء، ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتتن، فأذن لي ولا تفتني، فأنزل الله ﴿ومنهم من يقول ائذن لي﴾ الآية(١).

﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ أي في نفس الفتنة، وهي فتنة التخلف عن الجهاد والاعتذار الباطل، والمعنى انهم ظنوا انهم بالخروج أو بترك الاذن لهم يقعون في الفتنة وهم بهذا التخلف سقطوا في الفتنة العظيمة، وفي التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقوع من يهوي من أعلى إلى أسفل، وذلك أشد من مجرد الدخول في الفتنة.

ثم توعدهم على ذلك فقال: ﴿وان جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي مشتملة عليهم من جميع الجوانب لا يجدون عنها مخلصاً، ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الاحوال، وهذا وعيد لهم على ما فعلوا معطوف على

---

(١) ابن كثير ٢/٣٦١.

الجملة السابقة داخل تحت التنبيه، وقصة تبوك مذكورة في كتب الحديث والسير فلا نطول بذكرها. ﴿إن تصبك حسنة تسؤهم﴾ أي حسنة كانت بأي سبب اتفق كما يفيده وقوعها في حيز الشرط وكذلك القول في المصيبة وتدخل الحسنة والمصيبة الكائنة في القتال كما يفيده السياق دخولاً أولياً.

فمن جملة ما يصدق عليه الحسنة الغنيمةوالظفر، ومن جملة ما يصدق عليه المصيبة الخيبة والانهزام، وهذا ذكر نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين وسوء أفعالهم والاخبار بعظم عدواتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين، فإن المساءة بالحسنة، والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدل على انهم قد بلغوا في العداوة الى الغاية.

﴿وان تصبك مصيبة﴾ أي هزيمة أو شدة كما تقدم، وقابل الله هنا الحسنة بالمصيبة ولم يقابلها بالسيئة كما قال في سورة آل عمران ﴿وان تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ لأن الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم وهي في حقه مصيبة يثاب عليها لا سيئة يعاتب عليها، والتي هناك خطاب للمؤمنين. قاله الشهاب.

﴿يقولوا﴾ أي المنافقون حامدين لرأيهم ﴿قد أخذنا أمرنا من قبل﴾ أي احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحزم واعتزلنا عنهم، وقعدنا عن الحرب، فلم نخرج للقتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم ما نالهم من المصيبة ﴿ويتولوا وهم فرحون﴾ أي رجعوا إلى أهلهم عن مقامات الاجتماع ومواطن التحدث حال كونهم فرحين بالمصيبة التي أصابت المؤمنين وبما صنعوا من أخذ الأمر، وبما أصابه صلى الله عليه وآله وسلم، والجملة حال من الضمير في يقولوا ويتولوا لا من الاخير فقط لمقارنة الفرح لهما معاً.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾

ثم لما قالوا هذا القول أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يجيب عليهم فقال: ﴿قل﴾ لهم بياناً لبطلان ما بنوا عليه مسرتهم من الاعتقاد ﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ في اللوح المحفوظ أو في كتابه المنزل علينا، وفائدة هذا الجواب أن الإنسان إذا علم أن ما قدره الله كائن وان كل ما ناله من خير أو شر انما هو بقدر الله وقضائه، هانت عليه المصائب ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفي الحسدة.

﴿هو مولانا﴾ أي ناصرنا وجاعل العاقبة لنا ومظهر دينه على جميع الأديان ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ الفاء سببية والأصل ليتوكل قدم الظرف على الفعل لإفادة القصر، ثم أدخلت الفاء للدلالة على استيجابه تعالى للتوكل كما في قوله: ﴿واياي فارهبون﴾ والتوكل على الله تفويض الأمور اليه والمعنى ان من حق المؤمنين أن يجعلوا توكلهم في جميع أمورهم مختصاً بالله سبحانه لا يتوكلون على غيره.

﴿قل هل تربصون بنا﴾ أي هل تنتظرون أيها المنافقون أن يقع بنا ﴿إلا إحدى﴾ الخصلتين ﴿الحسنيين﴾ إما النصرة والغنيمة أو الشهادة والمغفرة وكلاهما مما يحسن لدينا، والحسنى تأنيث الأحسن ومعنى الاستفهام التقريع والتوبيخ، وهذا ايضاح وكشف لقوله إلا ما كتب الله لنا.

﴿ونحن نتربص بكم﴾ احدى المساءتين لكم من العواقب إما ﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده﴾ أي قارعة نازلة من السماء كما أصاب من قبلكم من الأمم المهلكة فيسحتكم بعذابه ﴿أو﴾ بعذاب لكم ﴿بأيدينا﴾ أي بإظهار الله لنا عليكم بالقتل والاسر والنهب والسبي، والفاء في ﴿فتربصوا﴾ فصيحة والأمر للتهديد كما في قوله: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ أي تربصوا بنا ما ذكرنا من عاقبتنا ﴿إنا﴾ أي نحن ﴿معكم متربصون﴾ ما هو عاقبتكم فستنظرون عند ذلك ما يسرنا ويسوءكم.

﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم﴾ هذا الأمر معناه الشرط والجزاء لأن الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم، والتقدير ان أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل منكم، وقيل هو أمر في معنى الخبر أي أنفقتم طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم فهو كقوله: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ وفيه الاشعار بتساوي الأمرين في عدم القبول.

وانتصاب طوعاً وكرهاً على الحال فهما مصدران في موقع المشتقين أي انفقوا طائعين من غير أمر من الله ورسوله أو مكرهين بأمر منهما، وليس المراد بالطوع الرغبة لقوله الآتي: ﴿إلا وهم كارهون﴾ أي لا رغبة لهم وسمى الأمر منهما اكراهاً لأنهم منافقون لا يأتمرون بالأمر فكانوا بأمرهم الذي لا يأتمرون به كالمكرهين على الانفاق أو طائعين من غير اكراه من رؤسائكم أو مكرهين منهم، قال الخطيب: وهذه الاية وان كانت خاصة في انفاق المنافقين فهي عامة في حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله بل أنفقه رياء وسمعة فانه لا يقبل منه ﴿انكم كنتم قوماً فاسقين﴾ تعليل لعدم قبول انفاقهم، والفسق هنا التمرد والعتو وقد سبق بيان الفسق لغة وشرعا.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

ثم بين سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال: ﴿وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم إلا انهم كفروا بالله وبرسوله﴾ استثناء من أعم الاشياء أي ما منعهم من قبول نفقاتهم شيء من الأشياء إلا كفرهم بهما، جعل المانع من القبول ثلاثة أمور.

الاول: الكفر.

والثاني ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ أي أنهم لا يصلون في حال من الاحوال إلا في حال الكسل والتثاقل لانهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً فصلاتهم ليست إلا رياء للناس وتظاهراً بالاسلام الذي يبطنون خلافه والثالث انهم ﴿لا ينفقون﴾ أموالهم ﴿إلا وهم كارهون﴾ ولا ينفقونها طوعاً لانهم يعدون انفاقها وضعاً لها في مضيعة لعدم ايمانهم بما وعد الله ورسوله.

لا يقال ان الكفر سبب مستقل لعدم القبول، فما وجه التعليل بمجموع الأمور الثلاثة وعند حصول السبب المستقل لا يبقى لغيره أثر، لأن هذا إنما يتوجه على قول المعتزلة القائلين بأن العلل مؤثرة في الحكم، وأما أهل السنة فانهم يقولون هذه الاسباب معرفة غير موجبة للثواب ولا للعقاب، واجتماع المعرفات الكثيرة على الشيء الواحد جائز، قاله الشهاب.

﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾ الاعجاب بالشيء ان تسر به سرور راض به متعجب من حسنه، قيل مع نوع من الافتخار به واعتقاد انه ليس لغيره ما يساويه، وهذا المعنى انما يناسب في اعجاب الشخص بمال نفسه، يقال

أعجب بماله أو ولده أي فرح به واغتر به، وما هنا في اعجاب المرء بمال غيره، والمعنى عليه لا تستحسن ما معهم من الاموال والاولاد ولا تحمدها ولا تخبر برضاك بها فهي استدراج، وقيل يقال في الاستحسان أعجبني بالالف، وفي الذم والانكار عجبت، وزان تعبت، وهذا الخطاب وان كان مختصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم لكن يعم جميع المؤمنين.

﴿انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ بما يحصل معهم من الغم والحزن عند ان يغنمها المسلمون ويأخذوها قسراً من أيديهم مع كونها زينة حياتهم وقرة أعينهم أو بما يلقون في جمعها من المشقة والمتاعب، وفيها من المصائب، ومنه قول العرب بلوغ الآمال في ركوب الاهوال.

والمؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة، وانه يثاب بالمصائب الحاصلة في الدنيا فلم يكن المال والولد في حقه عذاباً في الدنيا، وأما المنافق فإنه لا يعتقد كون الآخرة له ولا ان له فيها ثواباً فبقي ما يحصل له في الدنيا من التعب والحزن على المال والولد عذاباً عليه في الدنيا، فثبت بهذا الاعتبار أن المال والولد عذاب على المنافق في الدنيا دون المؤمن، وكذا في الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذي أعطاهم ذلك وترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها والتصدق بما يحق التصدق به.

وقيل في الكلام تقديم وتأخير والمعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة لأنهم المنافقون فهم ينفقون كارهين فيعذبون بما ينفقون.

﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ الزهوق الخروج بصعوبة والمعنى ان الله يريد أن يزهق أنفسهم ويخرج أرواحهم حال كفرهم لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء وأرسلت به الرسل، وتصميمهم على الكفر وتماديهم في الضلالة، قال الزمخشري: والمراد الاستدراج بالنعم كقوله: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ كأنه قيل ويريد أن يديم عليهم نعمه إلى أن يموتوا وهم كافرون مشغولون بالتمتع عن النظر للعاقبة.

وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾

ثم ذكر الله سبحانه نوعاً آخر من قبائح المنافقين فقال: ﴿ويحلفون بالله انهم لمنكم﴾ أي من جملتكم في دين الاسلام والانقياد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكتاب الله سبحانه ﴿وما هم منكم﴾ في ذلك إلا بمجرد ظواهرهم دون بواطنهم ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أي يخافون أن ينزل بهم ما نزل بالمشركين من القتل والسبي فيظهرون لكم الاسلام تقية منهم لا عن حقيقة.

﴿لو يجدون ملجأ﴾ أي مكاناً يلتجئون اليه ويحفظون نفوسهم فيه منكم من حصن أو رأس جبل أو قلعة أو جزيرة، والملجأ يصلح للمصدر والزمان والمكان والظاهر منها هنا المكان، قال ابن عباس: الملجأ الحرز في الجبال وقيل حصناً ومعقلاً ﴿أو مغارات﴾ جمع مغارة من غار يغير.

قال الأخفش: ويجوز أن يكون من أغار يغير، والمغارات الغيران والسراديب وهي المواضع التي يستتر فيها، ومنه غار الماء وغارت العين، والمغارة هي المكان المنخفض في الأرض أو في الجبل. والغور من كل شيء قعره والغور المطمئن من الأرض، وغار الرجل غوراً أتى الغور وأغار بالألف مثله، والغار والمغار والمغارة كالكهف في الجبل، والكهف كالبيت في الجبل، وقيل المغارة السرب في الأرض كنفق اليربوع، والغار الثقب في الجبل.

وهذا من أبدع النظم، ذكر أولاً الأمر الأعم وهو الملجأ من أي نوع كان، ثم ذكر الغيران التي يختفى فيها في أعلى الأماكن وهي الجبال ثم الأماكن

التي يختفى فيها في الأكن السافلة وهي السروب، وهي التي عبر عنها بالمدخل، والمعنى لو وجدوا أمكنة يغيبون فيها أشخاصهم هرباً منكم.

﴿أو مدخلاً﴾ من الدخول أي مكاناً يدخلون فيه من الأمكنة التي ليست مغارات. قال ابن عباس: المدخل السرب كنفق اليربوع، وقال الحسن: وجهاً يدخلونه على خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لَّوَلَّوْاْ اليه﴾ أي لالتجأوا اليه وأدخلوا أنفسهم فيه، وقيل المعنى لو كانوا يجدون مهرباً لهربوا اليه أو قوماً يأمنون عندهم على أنفسهم لصاروا اليهم ولفارقوكم.

﴿وهم يجمحون﴾ أي والحال انهم يسرعون إسراعاً الى ذلك المكان لا يردهم شيء، من جمح الفرس براكبه يجمح إذا لم يرده اللجام واستعصى عليه حتى غلبه فهو جموح وجامح يستوي فيه المذكر والمؤنث، وحاصل المعنى لو وجدوا شيئاً من هذه الأشياء المذكورة وهي شر الأمكنة وأضيقها لولوا اليه مسرعين، هرباً من المسلمين لشدة بغضهم إياهم تستراً عنهم واستكراهاً لرؤيتهم.

﴿ومنهم من يلمزك﴾ هذا ذكر نوع آخر من قبائحهم، واللمز بمعنى العيب كما قال النحاس والجوهري يقال: لمزه يلمزه إذا عابه، وأصله الاشارة بالعين ونحوها، ورجل لماز ولمزة أي عياب فهو أخص من الغمز إذ هو الإشارة بالعين ونحوها، سواء كان على وجه الاستنقاص أو لا، وأما اللمز فهو خاص بكونه على وجه العيب.

وقال الزجاج: لمزت الرجل ألمزه وألمزه بكسر الميم وضمها اذا عبته وكذا همزته وروي عن مجاهد أنه قال: معنى يلمزك يرزؤك ويسألك، والقول عند أهل اللغة هو الأول.

وقال الأزهري: أصله الدفع، يقال لمزته أي دفعته، وقال الليث هو الغمز في الوجه، ومنه همزة لمزة أي كثير هذين الفعلين، وقرىء يلمزك بكسر العين مع التشديد وضمها وهما لغتان في المضارع.

ومعنى الآية ومن المنافقين من يعيبك ﴿في الصدقات﴾ أي الزكوات أو الغنائم وتفريقها وقسمتها.

﴿فإن أعطوا منها﴾ أي من الصدقات بقدر ما يريدون ﴿رضوا﴾ بما وقع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعيبوه، وذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا وليسوا من الدين في شيء ﴿وان لم يعطوا منها﴾ ما يريدونه ويطلبونه ﴿اذا هم يسخطون﴾ أي فاجئوا السخط، وفائدة اذا الفجائية أن الشرط مفاجىء للجزاء وهاجم عليه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ أي ما فرضه الله لهم وقسمه وما أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصدقات، وقيل ذكر الله للتّعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول كان بأمره تعالى، والأصل ما آتاهم الرسول، وجواب لو محذوف أي لكان خيراً لهم، فإن فيها أعطاهم الخير العاجل والآجل.

﴿وقالوا﴾ عند أن أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو لهم ﴿حسبنا﴾ أي كفانا ﴿الله سيؤتينا﴾ أي سيعطينا ﴿الله من فضله و﴾ يعطينا ﴿رسوله﴾ بعد هذا ما نرجوه ونؤمله ﴿انا الى الله راغبون﴾ فهاتان الجملتان كالشرح لقولهم ﴿حسبنا الله﴾ فلذلك لم يتعاطفا لأنهما كالشيء الواحد، فشدة الاتصال منعت العطف. قاله الكرخي.

وقد أخرج البخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم قسماً اذ جاءه ابن ذي الخويصرة التيمي فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: ويحك ومن يعدل اذا لم أعدل، فقال عمر بن الخطاب: ائذن لي فأضرب عنقه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[1] الحديث حتى قال: وفيهم نزلت هذه الآية.

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: لما قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائم حنين سمعت رجلاً يقول: ان هذه القسمة ما أريد بها الله، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم وذكرت ذلك له فقال: «رحمة الله على موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر» ونزل يعني هذه الآية.

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب ٦١.

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

﴿انما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ لما لمز المنافقون رسول الله صلى الله عليه وسلم في قسمة الصدقات، بين الله لهم مصرفها دفعاً لطعنهم وقطعاً لشغبهم و﴿انما﴾ من صيغ القصر، وتعريف الصدقات للجنس، أي جنس هذه الصدقات مقصورة على هذه الأصناف الثمانية المذكورة لا يتجاوزها بل هي لهم لا لغيرهم، ولا تعلق لرسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء منها، ولم يأخذ لنفسه منها شيئاً.

وقد اختلف العلماء هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الاصناف الثمانية أو يجوز صرفها الى البعض دون البعض على حسب ما يراه الامام أو صاحب الصدقة، فذهب الى الأول حذيفة والشافعي وجماعة من أهل العلم، وذهب الى الثاني مالك وأبو حنيفة وبه قال عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران.

قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، احتج الأولون بما في الآية من القصر وبحديث زياد بن الحرث الصدائي عند أبي داود والدارقطني قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فبايعته فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة، فقال له: إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك[1].

وأجاب الآخرون بأن ما في الآيه من القصر انما هو لبيان الصرف

(١) الدارقطني كتاب الزكاة ٢ / ١٣٧.

والمصرف لا لوجوب استيعاب الأصناف، وبان في اسناد الحديث: عبد الرحمن ابن زياد ابن أنعم الافريقي وهو ضعيف.

ومما يؤيد ما ذهب اليه الآخرون قوله تعالى: ﴿ان تبدو الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ والصدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المندوبة، وصح عنه صل الله عليه وسلم أنه قال: أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها في فقرائكم(١).

وقد ادعى مالك الاجماع على القول الآخر. قال ابن عبد البر: يريد اجماع الصحابة فإنه لا يعلم له مخالفاً منهم وقدم الفقراء لأنهم أحوج من البقية على المشهور لشدة فاقتهم وحاجتهم.

وقد اختلف أهل العلم في الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال، فقال يعقوب ابن السكيت والقتيبي ويونس بن حبيب: ان الفقير أحسن حالاً من المسكين. قالوا لأن الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه، والمسكين الذي لا شيء له، وذهب الى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة.

وقال آخرون بالعكس فجعلوا المسكين أحسن حالاً من الفقير، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين﴾ فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر وربما ساوت جملة من المال ويؤيده تعوذ النبي ﷺ من الفقر مع قوله: «اللهم احيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين» والى هذا ذهب الاصمعي وغيره من أهل اللغة وحكاه الطحاوي عن الكوفيين وهو أحد قولي الشافعي وأكثر أصحابه. وقال قوم ان الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما وهو أحد قولي الشافعي واليه ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك وبه قال أبو يوسف.

وقال قوم: الفقير المحتاج المتعفف والمسكين السائل، قاله الازهري

---

(١) الإمام احمد ٥/٣٦٩.

واختاره ابن شعبان وهو المروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة.

وقد قيل غير هذه الأقوال مما لا يأتي الاستكثار منه بفائدة يعتد بها.

والاولى في بيان ماهية المسكين ما ثبت عن رسول الله ﷺ عند البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان قالوا فما المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجد غني يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً»(١).

﴿والعاملين عليها﴾ أي السعاة والجباة الذين يبعثهم الامام لتحصيل الزكاة فإنهم يستحقون منها قسطاً. واختلف في القدر الذي يأخذونه منها فقيل الثمن روي ذلك عن مجاهد والشافعي، وقيل على قدر أعمالهم من الاجرة، روي ذلك عن أبي حنيفة وأصحابه، وقيل يعطون من بيت المال قدر أجرتهم، روي ذلك عن مالك ولا وجه لهذا، فإن الله قد أخبر بأن لهم نصيباً من الصدقة فكيف يمنعون منها ويعطون من غيرها.

واختلفوا هل يجوز أن يكون العامل هاشمياً أم لا؟ فمنعه قوم وأجازه آخرون، قالوا: ويعطى من غير الصدقة ولا ينحصر العامل في الساعي والجابي، اذ منه القاسم والكاتب الذي يكتب ما أعطاه أرباب الاموال، والحاشر الذي يجمع المستحقين والعريف والحاسب.

﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ هم قوم كانوا في صدر الاسلام فقيل هم الكفار الذين كان النبي ﷺ يتألفهم ليسلموا وكانوا لا يدخلون في الاسلام بالقهر والسيف بل بالعطاء، وقيل هم أسلموا في الظاهر ولم يحسن اسلامهم فكان رسول الله ﷺ يتألفهم بالعطاء، وقيل هم من أسلم من اليهود والنصارى.

وقيل هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع أعطاهم النبي صلى الله عليه

(١) مسلم ١٠٣٩ - البخاري ٧٨٨.

وسلم ليؤلفوا أتباعهم على الاسلام، وقد أعطى النبي صلى الله عليه وآله وسلم جماعة ممن أسلم ظاهراً كأبي سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل ابن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، أعطى كل واحد منهم مائة من الابل يؤلفهم بذلك وأعطى آخرين دونهم.

وقد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الاسلام أم لا فقال عمر والحسن والشعبي: قد انقطع هذا الصنف بعزة الاسلام وظهوره، وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي، وقد ادعى بعض الحنفية ان الصحابة أجمعت على ذلك وقد صار اليه الروياني وجماعة، وقال جماعة من العلماء منهم الشافعي وهو الموافق لظاهر الآية ان سهمهم باق لان الامام ربما احتاج أن يؤلف على الاسلام، وانما قطعهم عمر لما رأى من اعزاز الدين، وبه أفتى الماوردي في كتابه الاحكام السلطانية، قال يونس: سألت الزهري عنهم فقال: لا أعلم نسخ ذلك وعلى القول الاول يرجع سهمهم لسائر الاصناف.

ومن المؤلفة قلوبهم كفار يخاف شرهم بحيث لو أعطوا لانكف شرهم وهذا لا يعطى من زكاة ولا من غيرها باتفاق ومنهم من يذب عن المسلمين ومنهم من يقاتل من يليهم ويجاورهم من مانعي الزكاة ويقبض زكاتهم، فتلخص ان المؤلفة أقسام، وفي هذه الاقسام أقوال ذكرها في الجمل.

﴿وفي الرقاب﴾ أي مصروفة في فكها بأن يشتري رقاباً ثم يعتقها، روي ذلك عن ابن عباس وابن عمر، وبه قال مالك وأحمد بن حنبل واسحاق وأبو عبيد وقال الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهري وابن زيد: انهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة وهو قول الشافعي وأكثر الفقهاء وأصحاب الرأي، ورواية عن مالك، وبه قال سعيد بن جبير والضحاك والزهري والليث.

ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾

والأولى حمل ما في الآية على القولين جميعاً لصدق الرقاب على شراء العبد واعتاقه، وعلى اعانة المكاتب على مال الكتابة.

﴿والغارمين﴾ هم الذين ركبتهم الديون ولا وفاء عندهم بها، ولا خلاف في ذلك إلا من لزمه دين في سفاهة فانه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب وقد أعان النبي صلى الله عليه وسلم من الصدقة من تحمل حمالة وأرشد إلى اعانته منها، وقال السيوطي: ولإصلاح ذات البين ولو أغنياء إذا استدانوه لذلك، وأصل الغرم في اللغة لزوم ما يشق على النفس وسمي الدين غرماً لكونه شاقاً على الإنسان ومنه قيل للعشق غرام ويعبر به عن الهلاك في قوله تعالى: ﴿ان عذابها كان غراماً﴾ وغرامة المال فيه مشقة عظيمة.

﴿وفي سبيل الله﴾ هم الغزاة والمرابطون يعطون من الصدقة ما ينفقون في غزوهم ومرابطتهم وان كانوا أغنياء، وهذا قول أكثر العلماء وقال ابن عمر: هم الحجاج والعمار، وروي عن أحمد واسحاق انهما جعلا الحج من سبيل الله، وقال أبو حنيفة وصاحباه: لا يعطى الغازي إلا إذا كان فقيراً منقطعا به، وقيل ان اللفظ عام فلا يجوز قصره على نوع خاص، ويدخل فيه جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك والأول أولى لاجماع الجمهور عليه.

﴿وابن السبيل﴾ هو المسافر، والسبيل الطريق ونسب اليها المسافر لملازمته إياها، والمراد الذي انقطعت به الاسباب في سفره عن بلده ومستقره فإنه يعطى منها وان كان غنياً في بلده، وان وجد من يسلفه، وقال مالك: إذا وجد من يسلفه فلا يعطى، وقال قتادة: هو الضعيف، وقال فقهاء العراق: هو الحاج المنقطع في سفره والأول أولى.

أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة العامل عليها أو الرجل اشتراها بماله أو غارم أو غاز

في سبيل الله أو مسكين تصدق عليه فأهدى منها لغني[١].

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي عن عبدالله بن عدي بن الخيار قال: أخبرني رجلان أنهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسألاه منها فرفع فينا البصر وخفضه فرآنا جلدين فقال: ان شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب[٢].

﴿فريضة من الله﴾ مصدر مؤكد لأن قوله: ﴿انما الصدقات للفقراء﴾ معناه فرض الله الصدقات لهم، والمعنى أن كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف هو حكم لازم فرضه الله على عباده ونهاهم عن مجاوزته، وقيل انها حال من الفقراء قاله الكرماني وأبو البقاء أي كائنة لهم حال كونها فريضة أي مصروفة أو هي بمعنى مفروضة أو مصدر وقع موقع الحال.

قال في الكشاف: فإن قلت لم عدل عن اللام إلى (في) في الأربعة الأخيرة قلت للايذان بأنها أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره وقيل النكتة في العدول ان الأصناف الأربعة الأول يصرف المال اليهم حتى يتصرفوا به كما شاءوا، وفي الأربعة الأخيرة لا يصرف المال اليهم بل يصرف إلى جهات الحاجات المعتبرة في الصفات التي لأجلها استحقوا سهم الزكاة.

﴿والله عليم﴾ بمصالح عباده ﴿حكيم﴾ فيما فرض لهم لا يدخل في تدبيره وحكمه نقص ولا خلل، قال السيوطي: فلا يجوز صرفها لغير هؤلاء ولا منع صنف منهم إذا وجد، فيقسمها الإمام عليهم على السواء وله تفضيل بعض آحاد الصنف على بعض، وأفادت اللام وجوب استغراق افراده اهـ وهو ظاهر الآية.

وقال الرازي: لا دلالة في الآية على قول الشافعي في أنه لا بد من صرفها إلى الأصناف وقد أشار إلى ذلك القاضي ورد عليه بعض الشيوخ، وقال: ظاهر الآية يؤيد قوله، وتمام البحث في الجمل.

---

(١) أبو داوود، كتاب الزكاة، باب ٢٥.

(٢) أبو داوود، كتاب الزكاة، باب ٢٤.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أُذُنٌ﴾ هذا نوع آخر مما حكاه الله من فضائح المنافقين وقبائحهم وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم على وجه الطعن والذم هو أذن.

قال الجوهري: يقال رجل اذن اذا كان يسمع مقال كل أحد، يستوي فيه الواحد والجمع ومرادهم أقمأهم الله انهم إذا آذوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبسطوا فيه ألسنتهم وبلغه ذلك اعتذروا له وقَبِل ذلك منهم، لأنه يسمع كل ما يقال له فيصدقه، وإنما أطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدقه انه أذن مبالغة لأنهم سموه بالجارحة التي هي آلة السماع حتى كأن جملته أذن سامعة، ونظيره قولهم للربيئة أي الطليعة عين.

وفي اطلاق الاذن عليه مجاز مرسل من اطلاق اسم الجزء على الكل للمبالغة في استماعه وايذاؤهم له هو قولهم أذن لانهم نسبوه الى أنه يصدق كلما يقال له ولا يفرق بين الصحيح والباطل اغتراراً منهم بحلمه عنهم وصفحه عن جناياتهم كرماً وحلماً وتغاضياً.

ثم أجاب الله عن قولهم هذا فقال: ﴿قل﴾ هو ﴿أذن خير﴾ بالاضافة وقرىء بالتنوين كأنه قيل نعم هو أذن ولكن نعم الأذن هو لكونه أذن خير ﴿لكم﴾ وليس بأذن في غير ذلك كقولهم رجل صدق يريدون الجودة والصلاح والمعنى انه يسمع الخير ولا يسمع الشر.

﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ أي يصدق بالله ويصدق المؤمنين لما علم فيهم من خلوص الايمان ويقبل قولهم ويسلم ويرضى لهم ولا يقبل قول

المنافقين، واللام زائدة للفرق بين ايمان الأمان من الخلود في النار وهو الايمان المقابل للكفر، وحقه ان يعدى بالباء، وبين ايمان التسليم والتصديق فإنه يعدى باللام وان كان حقه ان يعدى بنفسه كالتصديق.

وهذا موافق لكثير من الآيات كقوله: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ وقوله أن يؤمنوا لكم وقوله أنؤمن لك.

وأما قوله: ﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾ وقوله: آمنتم به فمشترك الدلالة بين الايمان بموسى والايمان بالله لأن من آمن بموسى حقيقة آمن بالله كعكسه.

﴿ورحمة﴾ أي وانه رحمة لهم، وقرىء رحمة بالخفض واستبعده النحاس عند أهل العربية، والمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن خير للمنافقين ورحمة لهم حيث لم يكشف أسرارهم ولم يهتك أستارهم ولا فضحهم، فكأنه قال هو أذن كما قلتم لكنه أذن خير لكم لا أذن سوء، فسلم لهم قولهم فيه إلا انه فسره بما هو مدح له وثناء عليه وان كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته.

﴿للذين آمنوا منكم﴾ أي أظهروا الايمان وان لم يكونوا مؤمنين حقيقة ﴿والذين يؤذون رسول الله﴾ صلى الله عليه وسلم لما تقدم من قولهم هو أذن ونحو ذلك مما يصدق عليه أنه أذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لهم عذاب أليم﴾ أي شديد الألم.

عن ابن عباس قال: كان نبتل بن الحرث يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجلس اليه ويسمع منه ثم ينقل حديثه الى المنافقين وهو الذي قال لهم انما محمد أذن من حدثه بشيء صدقه فأنزل الله فيه هذه الآية، وعن عمير بن سعد قال: فيَّ أنزلت هذه الآية؟ وذلك ان عميراً كان يسمع أحاديث أهل المدينة فيأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيسارّه حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد وكرهوا مجالسته وقالوا هو أذن فأنزلت فيه.

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾ الخطاب للمؤمنين وذلك ان المنافقين كانوا في خلواتهم يطعنون على المؤمنين وعلى النبي صلى الله عليه وسلم فإذا بلغ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم، قاصدين بهذه الأيمان الكاذبة ان يرضوا رسول الله ومن معه من المؤمنين فنعى الله ذلك عليهم فقال: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ من ارضاء المؤمنين بالأيمان الكاذبة فانهم لو اتقوا الله وتركوا النفاق لكان ذلك أولى لهم.

وافراد الضمير في يرضوه إما للتعظيم للجناب الالٓهي بإفراده بالذكر، أو لكونه لا فرق بين ارضاء الله وارضاء رسوله، فارضاء الله ارضاء لرسوله أو المراد الله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك كما قال سيبويه ورجحه النحاس أو لأن الضمير موضوع موضع الإشارة فإنه يشار به الى الواحد والمتعدد أو الضمير راجع إلى المذكور وهو يصدق عليهما، وقال الفراء: المعنى ورسوله أحق أن يرضوه، والله افتتاح كلام كما تقول ما شاء الله وشئت.

وجواب ﴿ان كانوا مؤمنين﴾ محذوف أي فليرضوا الله ورسوله فإنهما أحق بالارضاء ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والمتابعة وإيفاء الحقوق في باب الاجلال والاعظام مشهداً ومغيباً.

﴿ألم يعلموا﴾ أي أولئك المنافقون والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من الجريمة العظيمة مع علمهم بسوء عاقبتها، أي ألم يعلموا بما سمعوا

من رسول الله صلى الله عليه وسلم من فنون القوارع والإنذارات، وقرىء بالتاء على الالتفات لزيادة التقريع والتوبيخ.

قال الخازن: قال أهل المعاني: ألم تعلم خطاب لمن علم شيئاً ثم نسيه أو أنكره فيقال له ألم تعلم أنه كان كذا وكذا، ولما طال مكث رسول الله ﷺ بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون اليه خاطب المنافقين بقوله: ألم تعلموا، يعني من شرائع الدين التي علمهم رسولنا.

﴿أنه من يحادد الله﴾ أي يخالفه ﴿و﴾ يخاصم ﴿رسوله﴾ وأصل المحاددة في اللغة وقوع هذا في حد وذلك في حد كالمشاقة، يقال حاد فلان فلاناً أي صار في حد غير حده، وكأن كل واحد من المتخاصمين صار في محل غير محل صاحبه ﴿فَأَن له﴾ أي فحق أن له.

وقال الأخفش: المعنى فوجوب النار له، وأنكره المبرد وقال هذا خطأ. ﴿نار جهنم﴾ جزاء ﴿خالداً فيها﴾ على الدوام ﴿ذلك﴾ أي ما ذكر من العذاب ﴿الخزي العظيم﴾ أي البالغ إلى الغاية التي لا يبلغ اليها غيره وهو الذل والهوان

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)﴾

﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾ قيل هو خبر وليس بأمر، وقال الزجاج: معناه ليحذر، والمعنى على الأول إن المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم خوفاً من الفضيحة، وعلى الثاني الأمر لهم بأن يحذروا ذلك، ومعنى عليهم على المؤمنين في شأن المنافقين على أن الضمير للمؤمنين ولا يبالي بتفكيك الضمائر عند ظهور الأمر لعود المعنى اليه. قاله الكرخي، والأولى أن يكون الضمير للمنافقين أي في شأنهم.

﴿تنبئهم﴾ أي المنافقين ﴿بما في قلوبهم﴾ مما يسرونه فضلاً عما يظهرونه، وهم وإن كانوا عالمين بما في قلوبهم فالمراد من أنباء السورة لهم اطلاعهم على أن المؤمنين قد علموا بما في قلوبهم قال قتادة: وهذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة لأنها فضحت المنافقين وبعثرت عن أخبارهم واثارتها وأسفرت عن مخازيهم ومثالبهم.

ثم أمر الله رسوله بأن يجيب عليهم فقال: ﴿قل استهزؤوا﴾ هو أمر تهديد أي افعلوا الاستهزاء ﴿إن الله مخرج ما تحذرون﴾ من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون إما بإنزال سورة أو بإخبار رسوله ﷺ بذلك أو نحو ذلك ﴿ولئن﴾ لام قسم أي والله لئن ﴿سألتهم﴾ عما قالوه من الطعن في الدين وثلب المؤمنين وهم سائرون معك الى تبوك بعد أن يبلغ اليك ذلك، ويطلعك الله عليه ﴿ليقولن

انما كنا نخوض ونلعب﴾ في الحديث لنقطع به الطريق ولم نقصد ذلك، ولم يكن في شيء من أمرك ولا أمر المؤمنين.

ثم أمره الله أن يجيب عنهم فقال: ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، وأثبت وقوع ذلك منهم ولم يعبأ بإنكارهم لأنهم كانوا كاذبين في الانكار، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيث جعل المستهزأ به والياً لحرف النفي فإن ذلك إنما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته. ثم قال: ﴿لا تعتذروا﴾ نهياً لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطلة فإن ذلك غير مقبول منهم.

وقد نقل الواقدي عن أئمة اللغة أن معنى الاعتذار محو أثر الذنب وقطعه من قولهم اعتذر المنزل اذا درس، واعتذرت المياه اذا انقطعت ﴿قد كفرتم﴾ أي أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور، وفيه أن محمداً يزعم انه ترك في أصحابنا قرآناً وانما هو قوله وكلامه، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على قولهم ﴿بعد إيمانكم﴾ أي بعد اظهاركم الايمان مع كونكم تبطنون الكفر.

﴿إن نعف عن طائفة منكم﴾ وهم من أخلص الايمان وترك النفاق وتاب عنه كجحش بن حمير.

قال الزجاج: الطائفة في اللغة الجماعة، قال ابن الأنباري: ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب ﴿نعذب طائفة بأنهم﴾ أي بسبب أنهم ﴿كانوا مجرمين﴾ مصرين على النفاق لم يتوبوا منه.

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ
جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

﴿المنافقون﴾ وكانوا ثلثمائة ﴿والمنافقات﴾ وكن مائة وسبعين ﴿بعضهم من بعض﴾ أي متشابهون في الدين كأبعاض الشيء الواحد، ذكر ههنا جملة أحوال المنافقين وأن ذكورهم في ذلك كإناثهم وانهم متناهون في النفاق والبعد عن الايمان، وفيه إشارة إلى نفي أن يكونوا من المؤمنين ورد لقولهم ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾.

ثم فصل ذلك المجمل ببيان مضادة حالهم لحال المؤمنين فقال: ﴿يأمرون﴾ أي يأمر بعضهم بعضاً ﴿بالمنكر﴾ هو كل قبيح عقلاً أو شرعاً ﴿وينهون عن المعروف﴾ هو كل حسن عقلاً أو شرعاً، قال الزجاج: هذا متصل بقوله يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم، أي ليسوا من المؤمنين ولكن بعضهم من بعض، أي متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

﴿ويقبضون أيديهم﴾ أي يشحون فيما ينبغي إخراجه من المال في الصدقة والصلة والجهاد، فالقبض كناية عن الشح كما أن البسط كناية عن الكرم ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ النسيان الترك، أي تركوا ما أمرهم به فتركهم من رحمته وفضله أو تركوا ذكر الله وعبادته فترك الله ذكرهم فيمن ذكرهم بالرحمة والاحسان. لأن النسيان الحقيقي لا يصح إطلاقه على الله سبحانه، وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة في علم البيان، فهو مجاز مرسل.

ثم حكم عليهم بالفسق فقال: ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ الفسق

الخروج عن طاعة الله إلى معاصيه والانسلاخ من كل خير، وهذا التركيب يفيد أنهم هم الكاملون في الفسق والتمرد والاظهار في موضع الاضمار لزيادة التقرير أو للاهانة والتحقير، فإن الاظهار كما يأتي للتعظيم يأتي للتحقير كما نص عليه بعضهم.

﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار﴾ يقال وعده في الخير والشر، والاختلاف إنما هو بالمصدر. فمصدر الأول وعد ومصدر الثاني وعيد، فاستعمل وعد في الشر كما هنا وفي الخير فيما سيأتي في قوله: ﴿وعد الله المؤمنين﴾.

ثم بين مآل حال أهل النفاق والكفر بأن لهم ﴿نار جهنم خالدين﴾ أي يصلونها مقيمين ﴿فيها﴾ مقدرين الخلود ﴿هي﴾ أي النار ﴿حسبهم﴾ أي كافيهم جزاء وعقاباً لا يحتاجون الى زيادة على عذابها ﴿ولعنهم الله﴾ أي ومع ذلك فقد طردهم عن بابه وأبعدهم عن رحمته ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ أي نوع آخر من العذاب غير النار دائم لا ينفك عنهم كالزمهرير أو عذاب في الدنيا وهو ما يقاسونه من تعب النفاق إذ هم دائماً في حذر من أن يطلع المسلمون على نفاقهم.

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

﴿كالذين من قبلكم﴾ شبه حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم ملتفتاً من الغيبة الى الخطاب، أي أنتم مثل الناس قبلكم أو المعنى فعلتم مثل فعل الذين مضوا من قبلكم من الأمم.

وقال الزجاج: التقدير وعد الله الكفار نار جهنم وعداً كما وعد الذين من قبلهم وقيل المعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقبض الأيدي.

ثم وصف حال هؤلاء الكفار الذين من قبلهم وبين وجه تشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم بأنهم ﴿كانوا أشد منكم قوة﴾ أي بطشاً في الأبدان ومنعة من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وأكثر أموالاً وأولاداً﴾ منكم.

﴿فاستمتعوا﴾ أي تمتعوا، وفي صيغة الاستفعال ما ليس في صيغة التفعل من الاستزادة والاستدامة في التمتع ﴿بخلاقهم﴾ أي نصيبهم الذي قدره الله لهم من ملاذ الدنيا وخاضوا في الباطل واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير، فإنه ما قدر لصاحبه ﴿فاستمتعتم﴾ أنتم ﴿بخلاقكم﴾ أي نصيبكم الذي قدره الله لكم ﴿كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ أي انتفعتم به كما انتفعوا به.

والغرض من هذا التمثيل ذم هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم بمن قبلهم من الكفار في الاستمتاع بما رزقهم الله من الشهوات الفانية والتشاغل بها عن السعي في العاقبة والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية.

وقد قيل ما فائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق في حق الأولين مرة ثم ذكره في حق المنافقين ثانياً ثم تكريره في حق الاولين ثالثاً، وأجيب بأنه تعالى ذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا وشهواتها ورضائهم بها وحرمانهم من سعادة الآخرة بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ الفانية، فلما قرر تعالى هذا عاد فشبه حال المنافقين بحالهم، فيكون ذلك نهاية في المبالغة في ذم المخاطبين وتقبيح حالهم. ولم يسلك هذه الطريقة في التشبيه الثاني وهو قوله خضتم حيث لم يقل وخاضوا وخضتم كخوضهم اكتفاء بالتمهيد الأول فاستغنى عن ذكر التمهيد في التشبيه الثاني.

قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة، هؤلاء بنو اسرائيل أشبهناهم والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه.

﴿وخضتم﴾ في الباطل وتلبستم بـه ﴿كالـذي خاضـوا﴾ أي خوضـاً كخوضهم أو كالذين خاضوا، أو كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوه، يقال: خضت الماء أخوضه خوضاً وخياضاً والموضع مخاضة، وهو ما جاز الناس فيه مشاة وركباناً وجمعها المخاض والمخاوض، ويقال منه خاض القوم في الحديث، والمعنى خضتم في أسباب الدنيا واللهو واللعب، وقيل في أمر محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب، ودخلتم في ذلك.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى كل من المشبهين والمشبه بهم فهي لمجموع الفريقين ﴿حبطت﴾ بطلت ﴿أعمالهم﴾ أي ما عملوه مما هو في صورة طاعة لا هذه الأعمال المذكورة هنا فإنها من المعاصي وعاقبتها غنية عن البيان ﴿في الدنيا والآخرة﴾ أي إنها باطلة على كل حال، أما بطلانها في الدنيا فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها من السعة والصحة وغير ذلك لا يحصل لهم بل يصير ما يرجونه من الغنى فقراً، ومن العز ذلاً ومن القوة ضعفاً، وأما في الآخرة فلأنهم يصيرون إلى عذاب النار، ولا ينتفعون بشيء مما عملوه من الأعمال التي يظنونها طاعة وقربة.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿وأولئك هم الخاسرون﴾ أي المتمكنون في الخسران الكاملون فيه في الدنيا والآخرة.

﴿ألم يأتهم﴾ أي المنافقين، رجوع الى الغيبة عن الخطاب ففيه التفات وهو استفهام بمعنى التقرير والتحذير، أي قد أتاهم ﴿نبأ الذين من قبلهم﴾ أي خبرهم الذي له شأن، وهو ما فعلوه من التكذيب وما فعل بهم من الاهلاك، ولما شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الاجمال في المشبه بهم، ذكر منهم ههنا ست طوائف قد سمع العرب أخبارهم لأن آثارهم باقية، وبلادهم بالشام والعراق واليمن، وكل ذلك قريب من أرض العرب، فكانوا يمرون عليهم ويعرفون أخبارهم.

﴿قوم نوح﴾ وقد هلكوا بالاغراق وأهلكوا بالطوفان وهم أولهم ﴿و﴾ ثانيهم قوم ﴿عاد﴾ وقد أهلكوا بالريح العقيم ﴿و﴾ ثالثهم قوم ﴿ثمود﴾ وقد أخذوا بالصيحة وأهلكوا بالرجفة ﴿وقوم ابراهيم﴾ وقد سلط الله عليهم البعوض وقيل أهلكوا بسلب النعمة عنهم وهم رابعهم ﴿وأصحاب مدين﴾ وهم قوم شعيب وقد أخذتهم الرجفة وأهلكوا بعذاب يوم الظلة وهي غمامة أطبقت عليهم وهم خامسهم ﴿و﴾ سادسهم أصحاب ﴿المؤتفكات﴾ وهي قرى قوم لوط وقد أهلكهم الله بما أمطر عليهم من الحجارة، فإن كانت مرادة به فهي على حقيقتها وان كان المراد مطلق قرى المكذبين وهي لم تخسف بأجمعها فيكون المراد به مجازاً انقلاب حالها من الخير إلى الشر تشبيهاً له بالخسف على

طريق الاستعارة كقول ابن الرومي:

وما الخسف أن تلقى أسافل بلدة أعاليها بل أن تسود الاراذل

وهي بدل من الذين بدل بعض من كل، فقوله: وعاد إلى آخر المعطوفات كلها على قوم نوح لا على نوح غير أن الاخير وهو المؤتفكات على حذف مضاف كما قدرنا اذ هي القرى، وليست من الذين خلوا حتى تكون من جملة البدل، وسميت مؤتفكات لأنها انقلبت بهم حتى صار عاليها سافلها، والائتفاك الانقلاب يقال أفكه اذا قلبه وبابه ضرب، ويقال أفكته فائتفك أي قلبته فانقلب، والمادة تدل على التحول والصرف، ومنه ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي يصرف.

﴿آتتهم﴾ استئناف لبيان نبأهم ﴿رسلهم﴾ أي رسل هذه الطوائف الست، وقيل رسل أصحاب المؤتفكات لأن رسولهم لوط وقد بعث الى كل قرية من قراهم رسولاً ﴿بالبينات﴾ أي المعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا، فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم، والفاء في ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ للعطف على مقدر يدل عليه الكلام، أي فكذبوهم فأهلكهم الله فما ظلمهم بذلك ولم يعجل العقوبة لهم، لأنه قد بعث اليهم رسله فأنذروهم وحذروهم.

﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بسبب ما فعلوه من الكفر بالله وعدم الانقياد لأنبيائه، وهذا التركيب يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان مستمراً. وقيل تقديم المفعول لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد الى قصر المظلومية عليهم.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ
سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ
وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ أي قلوبهم متحدة في التوادد والتحابب والتعاطف واتفاق الكلمة والعون والنصر بسبب ما جمعهم من أمر الدين وضمهم من الايمان بالله. قال ابن عباس: آخاهم في الله يتحابون بجلال الله والولاية له فظهر الفرق بين الفريقين.

ثم بين أوصافهم الحميدة كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين فقال: ﴿يأمرون بالمعروف﴾ أي بما هو معروف في الشرع غير منكر، ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره ﴿وينهون عن المنكر﴾ أي عما هو منكر في الدين غير معروف أي جنس المعروف وجنس المنكر الشاملين لكل خير وشر، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الاحاديث ما هو معروف.

﴿ويقيمون الصلاة﴾ المفروضة ويتمون أركانها وحدودها فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو في مقابلة ما سبق من قوله نسوا الله ﴿ويؤتون الزكاة﴾ الواجبة عليهم وهو في مقابلة قوله: ﴿يقبضون أيديهم﴾ قيل خصصهما بالذكر من جملة العبادات لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان والأموال، وقد تقدم معنى هذا.

﴿ويطيعون الله ورسوله﴾ في جميع ما أمرهم بفعله أو نهاهم بتركه، وهذا في

مقابلة وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة.

﴿أولئك﴾ يعني المؤمنين والمؤمنات المتصفين بهذه الأوصاف الفاضلة ﴿سيرحمهم الله﴾ السين للمبالغة في إنجاز الوعد والدلالة على تحقق ذلك وتقرره بمعونة المقام كما هنا إذ السين موضوعة للدلالة على الوقوع مع التأخير، فإذا كان المقام ليس مقام تأخير لكونه بشارة ووعداً تمحضت لتأكيد الوقوع أي وقوع ما وعد به من الرحمة والرضوان وما أعد لهم من النعيم المقيم في الجنان.

﴿إن الله عزيز﴾ لا يغالب ولا يعجزه شيء عن انجاز وعده ووعيده ﴿حكيم﴾ في أفعاله وأقواله لا يضع شيئاً إلا في محله، وفيه ترغيب وترهيب وتعليل لقوله سيرحمهم الله.

ثم ذكر تفصيل ما يدخل تحت آثار الرحمة إجمالاً باعتبار الرحمة في الدار الآخرة فقال: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات﴾ أي كل مؤمن ومؤمنة ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ الاظهار في موضع الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بعلية وصف الايمان للوعد المذكور، ومعنى جري الأنهار من تحت الجنات انها تجري تحت أشجارها وغرفها، والمراد البساتين التي يتحير في حسنها الناظر.

﴿خالدين﴾ أي مقدرين الخلود ﴿فيها﴾ وقد تقدم تحقيق الآية في البقرة ﴿ومساكن﴾ أي منازل يسكنون فيها من الدر والياقوت ﴿طيبة﴾ تستطيبها النفوس ويطيب فيها العيش ﴿في جنات عدن﴾ إقامة، يقال عدن بالمكان إذا أقام به ومنه المعدن أي بساتين خلد، وقيل هي أعلى الجنة، وقيل أوسطها، وقيل قصور من ذهب لا يدخلها إلا نبي أو صديق أو شهيد.

وأخرج ابن أبي حاتم والطبري بسنده عن عمران وابن مردويه عن الحسن قال: سألت عمران بن حصين وأبا هريرة عن تفسير قوله تعالى:

﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ قالا: على الخبير سقطت، سألنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قصر من لؤلؤة في الجنة في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء في كل بيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون على كل فراش امرأة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة في كل مائدة سبعون لوناً من كل طعام في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة فيعطى المؤمن من القوة في كل غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله أجمع: قلت: ووصف الله الجنة هنا بأوصاف.

الأول: جري الانهار من تحتها ليميل الطبع اليها.

والثاني: أنهم فيها خالدون لا يعتريهم فيها فناء ولا تغير.

والثالث: طيب مساكنها الخالية عن الكدورات، والرابع: انها ذات عدن إي إقامة غير منقطعة، هذا على ما هو معنى عدن لغة وقيل هو علم.

قال الرازي: والحاصل أن في عدن قولين: أحدهما أنه اسم علم لموضع معين في الجنة، والآثار والاخبار تقوي ذلك، وقال الزمخشري: انه علم بدليل قوله جنات عدن التي وعد الرحمن عباده. والثاني أنه صفة للجنة بمعنى إقامة، فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها عدن، والاحاديث في صفة الجنات وأصنافها كثيرة، وقد أوضحت المقام في كتابي مثير ساكن الغرام إلى روضات دار السلام فليرجع إليه.

﴿ورضوان﴾ يسير ﴿من الله أكبر﴾ من ذلك كله الذي أعطاهم الله إياه إذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة، وبه يناط كل شرف وسيادة، ولعل عدم نظمه في سلك الموعود به مع عزته في نفسه لأنه متحقق في ضمن كل موعود، ولأنه مستمر في الدارين.

وفيه دليل على أنه لا شيء من النعم وإن جلت وعظمت يماثل رضوان الله سبحانه، وإن أدنى رضوان الله لا يساويه شيء من اللذات الجسمانية وإن كانت على غاية ليس وراءها غاية، اللهم ارض عنا رضاً لا يشوبه سخط، ولا يكدره نكد يا من بيده الخير دقه وجله.

﴿ذلك﴾ أي ما تقدم مما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات ﴿هو الفوز العظيم﴾ دون كل فوز مما يعده الناس فوزاً من حطام الدنيا، وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول هل رضيتم؟ فيقولون ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك، فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك، قال: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً[1].

(١) مسلم ٢٨٢٩ ـ البخاري ٢٤٥٨.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ
وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟
بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ
فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ
وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بهذا الجهاد أمر لأمته من بعده، وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم بالسيف والسنان حتى يسلموا، وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم باللسان والبيان حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله، وبه قال ابن مسعود، قال الحسن: إن جهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم، واختاره قتادة، قيل في توجيهه إن المنافقين كانوا أكثر من يفعل موجبات الحدود.

قال ابن العربي: ان هذه دعوى لا برهان عليها وليس العاصي بمنافق، انما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق دائماً لا بما يتلبس به الجوارح ظاهراً، وأخبار المحدودين تشهد سياقتها انهم لم يكونوا منافقين. وقال الطبري: أولى الأقوال قول ابن مسعود لأن الجهاد عبارة عن بذل الجهد، وقد دلت الآية على وجوب جهاد المنافقين، وليس في الآية ذكر كيفية ذلك الجهاد فلا بد من دليل آخر، وقد دلت الدلائل المنفصلة أن الجهاد مع الكفار انما يكون بالسيف، ومع المنافقين بإظهار الحجة عليهم تارة، وبترك الرفق بهم تارة، وبالانتهار تارة، وهذا هو قول ابن مسعود.

﴿واغلظ﴾ أي شدد ﴿عليهم﴾ أي الفريقين بالانتهار والمقت والجهاد، وأصل الغلظ قبض الرأفة وهو شدة القلب وخشونة الجانب، قيل وهذه الآية

نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح ﴿ومأواهم﴾ أي مسكنهم ﴿جهنم﴾ قال أبو البقاء: ان قيل كيف حسنت الواو هنا والفاء أشبه بهذا الموضع، ففيه ثلاثة أجوبة.

أحدها: أن الواو واو الحال وتلك الحال حال كفرهم، والتقدير افعل ذلك في حال استحقاقهم جهنم. والثاني تقديره واعلم أن مأواهم جهنم. والثالث أن الكلام قد حمل على المعنى، والمعنى انه قد اجتمع لهم عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة وعذاب الاخرة، فيجعل جهنم مأواهم، قال السمين: ولا حاجة الى هذا كله بل هذه جملة استئنافية. قال أبو السعود: مستأنفة لبيان مآل أمرهم بعد بيان عاجله ﴿وبئس المصير﴾ مصيرهم اليها.

ثم ذكر من خصال المنافقين انهم يحلفون الأيمان الكاذبة فقال: ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ استئناف مسوق لبيان ما صدر عنهم من الجرائم الموجبة للأمر بجهادهم والغلظة عليهم.

وقد اختلف أئمة التفسير في سبب نزول هذه الآية، فقيل نزلت في الجلاس ابن سويد بن الصامت ووديعة بن ثابت، وذلك انه لما كثر نزول القرآن في غزوة تبوك في شأن المنافقين وذمهم فقالا: لئن كان محمد صادقاً على اخواننا الذين هم سادتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير، فقال له عامر بن قيس أجل والله ان محمداً لصادق مصدق، وانك لشر من الحمار، وأخبر عامر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وجاء الجلاس فحلف بالله ان عامراً لكاذب، وحلف عامر لقد قال، وقال: اللهم أنزل على نبيك شيئاً فنزلت. وقيل إن الذي سمع ذلك عاصم بن عدي وقيل حذيفة.

وقيل بل سمعه ولد امرأته ـ أي امرأة الجلاس ـ واسمه عمير بن سعد فهمّ الجلاس بقتله لئلا يخبر بخبره.

وقيل إن هذه الآية نزلت في عبدالله بن أُبيّ رأس المنافقين لما قال ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل سمّن كلبك يأكلك، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فجاء عبدالله بن أبيّ فحلف أنه لم يقله.

وقيل انه قول جميع المنافقين، وان الآية نزلت فيهم، وعلى تقدير أن القائل واحد أو اثنان فنسبة القول إلى جميعهم هي باعتبار موافقة من لم يقل ولم يحلف من المنافقين لمن قد قال وحلف، وفي الباب أحاديث مختلفة في سبب نزول هذه الآية وفيما ذكرناه كفاية.

ثم رد الله على المنافقين وكذبهم وبين انهم حلفوا كذباً فقال: ﴿ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ وهي ما تقدم بيانه على اختلاف الأقوال السابقة ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ أي كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم الاسلام وان كانوا كفاراً في الباطن، والمعنى انهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم.

﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ قيل هو همهم بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة في غزوة تبوك وهم بضعة عشر رجلاً فضرب عمار بن ياسر، وفي قول حذيفة بن اليمان وجوه الرواحل لما غشوه فرجعوا، والقصة مبسوطة في سيرة الحلبي وغيرها، وقيل هموا بعقد التاج على رأس عبدالله بن أبيٍّ، وقيل هو همّ الجلاس بقتل من سمعه يقول تلك المقالة فأخبر رسول الله ﷺ.

﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ أي ما عابوا وأنكروا وكرهوا الا ما هو حقيق بالمدح والثناء، وهو اغناء الله لهم من فضله، والاستثناء مفرغ من أعم العام فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم، وقد كان هؤلاء المنافقون في ضيق من العيش فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة اتسعت معيشتهم وكثرت أموالهم، فجعلوا موضع شكر النبي صلى الله عليه

وسلم النقمة، وقيل إنهم بطروا النعمة أشراً.

﴿فإن يتوبوا﴾ أي فإن تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق ﴿يك﴾ ذلك الذي فعلوه من التوبة ﴿خيراً لهم﴾ في الدين والدنيا، وقد تاب الجلاس ابن سويد وحسن إسلامه، وفي ذلك دليل على قبول التوبة من المنافق والكافر، وقد اختلف العلماء في قبولها من الزنديق، فمنع قبولها مالك وأتباعه لأنه لا يعلم صحة توبته إذ هو في كل حين يظهر التوبة والإسلام.

﴿وإن يتولوا﴾ أي يعرضوا عن التوبة والايمان ويصروا على النفاق والكفر ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال عاجلاً فلا ينافي ما سبق من أن قتالهم باللسان والحجة لا بالسيف، لأن ذاك إذا لم يظهروا الكفر بل أظهروا الايمان ﴿و﴾ في ﴿الاخرة﴾ بعذاب النار آجلاً ﴿وما لهم في الأرض﴾ مع سعتها وتباعد أقطارها وكثرة أهلها ﴿من ولي﴾ يواليهم ﴿ولا نصير﴾ ينصرهم.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾

﴿ومنهم من عاهد الله لئن﴾ هي لام قسم أي والله لئن ﴿آتانا من فضله﴾ بأن يوسع علينا في الرزق ﴿لنصدَّقنَّ﴾ هي لام الجواب للقسم وحذف جواب الشرط لدلالة هذا الجواب عليه، ولا يمتنع الجمع بين القسم واللام الموطئة له، أي لنخرج من ذلك المال الصدقة وهي أعم من المفروضة وغيرها ﴿ولنكونن من الصالحين﴾ أي من جملة أهل الصلاح من المؤمنين القائمين بواجبات الدين التاركين لمحرماته، والصلاح ضد الفساد، والمفسد هو الذي يبخل بما يلزمه في حكم الشرع.

﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به﴾ أي لما أعطوهم ما طلبوا من الرزق لم يتصدقوا بشيء منه كما حلفوا به ﴿وتولوا﴾ أي أعرضوا عن طاعة الله وإخراج صدقات ما أعطاهم الله من فضله ﴿وهم﴾ أي والحال انهم ﴿معرضون﴾ في جميع الاوقات قبل أن يعطيهم الله ما أعطاهم من الرزق وبعده.

عن ابن عباس قال: ذلك أن رجلاً كان يقال له ثعلبة من الأنصار أتى مجلساً فأشهدهم فقال: لئن آتاني الله من فضله آتيت كل ذي حق حقه وتصدقت منه، وجعلت منه للقرابة، فابتلاه الله فآتاه من فضله فأخلف ما وعده فأغضب الله بما أخلف ما وعده، فقص الله شأنه في القرآن.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وغيرهم هذه القصة بأطول من هذا جداً، وفيه قال: يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له ـ يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، فقال ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال اللهم ارزقه مالاً، فاتخذ غنماً فنمت كما تنمى الدود حتى ضاقت بها

المدينة فتنحى بها فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يشهدها بالليل، ثم نمت حتى لا يشهد جمعة ولا جنازة. الحديث(١).

﴿فأعقبهم﴾ الله سبحانه ﴿نفاقاً في قلوبهم﴾ بسبب البخل الذي وقع منهم والاعراض نفاقاً كائناً في قلوبهم متمكناً منها مستمراً فيها ﴿الى يوم يلقونه﴾ أي الله عز وجل، وقيل ان الضمير يرجع الى البخل، أي فأعقبهم البخل بما عاهدوا الله عليه الى يوم يلقون البخل أي جزاء بخلهم، يعني أن الله سبحانه جعل النفاق المتمكن في قلوبهم الى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل.

﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه﴾ الباء للسببية أي بسبب إخلافهم لما وعدوه من التصدق والصلاح وكذلك الباء في ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ أي وبسبب تكذيبهم لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان(٢)، وعن ابن عمرو ابن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلة كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها، الحديث وفيه: إذاخاصم فجر(٣).

---

(١) ابن كثير ٢/ ٣٧٤ (الحديث بطوله).

(٢) مسلم ٥٩ ـ البخاري ٣١.

(٣) مسلم ٥٨ ـ البخاري ٣٢.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

ثم أنكر عليهم فقال: ﴿ألم يعلموا﴾ أي المنافقون ﴿ان الله يعلم سرهم ونجواهم﴾ أي جميع ما يسرونه من النفاق وما يتناجون به فيما بينهم من الطعن على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وعلى دين الاسلام ﴿وأن الله علام الغيوب﴾ أي ما غاب عن العيان فلا يخفى عليه شيء من الأشياء المغيبة كائناً ما كان، ومن جملة ذلك ما يصدر عن المنافقين.

﴿الذين يلمزون﴾ أي يعيبون وقال قتادة يطعنون ﴿المطوّعين﴾ أي المتطوعين والتطوع التبرع والتنفل بما ليس بواجب ﴿من المؤمنين في الصدقات﴾ والمعنى أن المنافقين كانوا يعيبون المسلمين إذا تطوعوا بشيء من أموالهم وأخرجوه للصدقة فكانوا يقولون ما أغنى الله عن هذا ويقولون ما فعلوا هذا إلا رياء ولم يكن لله خالصاً.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا مراء، وجاء أبو عقيل بنصف صاع فقال المنافقون: ان الله لغني عن صدقة هذا فنزلت هذه الاية، وفي الباب روايات كثيرة.

﴿والذين لا يجدون الا جهدهم﴾ بالضم الطاقة وهي لغة أهل الحجاز وبالفتح لغيرهم وهي المشقة، وقيل هما لغتان ومعناهما واحد، وفي القرطبي: الجهد شيء يسير يعيش به المقل، وقد تقدم بيان ذلك، والمعنى أن المنافقين كانوا يعيبون المؤمنين الذين كانوا يتصدقون بما فضل عن كفايتهم.

﴿فيسخرون منهم﴾ أي يستهزئون بهم لحقارة ما يخرجونه في الصدقة مع كون ذلك جهد المقل وغاية ما يقدر عليه ويتمكن منه، يقال سخرت منه سخراً من باب تعب هزئت به، والسخري بالكسر اسم منه وبالضم لغة فيه، والسخرة وزان غرفة ما سخرت من خادم أو جارية أو دابة بلا أجر ولا ثمن، والسخري بالضم بمعناه وسخرته في العمل بالتثقيل استعملته مجاناً، وسخر الله الابل ذللها وسهلها ومنه سخر لنا هذا وما كنا لَهُ مقرنين.

﴿سخر الله منهم﴾ أي جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم، والتعبير بذلك من باب المشاكلة كما في غيره، وقيل هو دعاء عليهم بأن يسخر الله بهم كما سخروا بالمسلمين ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي ثابت مستمر شديد الألم في الآخرة.

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ أخبر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن صدور الاستغفار منه للمنافقين وعدمه سواء، فهذا كلام خرج مخرج الأمر ومعناه الخبر، وذلك لأنهم ليسوا بأهل الاستغفار منه صلى الله عليه وسلم ولا للمغفرة من الله سبحانه فهو كقوله تعالى ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم﴾ وفيه بيان لعدم المغفرة من الله سبحانه للمنافقين وان أكثر النبي صلى الله عليه وسلم من الاستغفار لهم. وليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولاً كما في سائر مفاهيم الاعداد، بل المراد بهذا المبالغة في عدم القبول فقد كانت العرب تجري ذلك مجرى المثل في كلامها عند ارادة التكثير، والمعنى انه لن يغفر الله لهم وان استغفرت لهم استغفاراً بالغاً في الكثرة غاية المبالغ.

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة عليه، ويدل لذلك ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عروة أن عبدالله ابن أبيٍّ قال: لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله، وهو القائل ﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ فأنزل الله ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لأزيدن على السبعين، فأنزل الله ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾ وعن مجاهد وابن عباس نحوه.

قال الضحاك: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين، لعل الله أن يغفر لهم فأنزل الله ﴿سواء عليهم﴾ الآية، يعني فبين له حسم المغفرة.

ومعلوم أنه لم يخف عليه ذلك وإنما أراد بما قال اظهار كمال رحمته ورأفته بمن بعث اليهم، وفيه لطف بأمته وحث على المراحم وشفقة بعضهم على بعض، وهذا دأب الانبياء كما قال ابراهيم ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾.

وذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجهاً وليس بشيء فقال ان السبعة عدد شريف لانها عدد السموات والارضين والبحار والاقاليم والنجوم السيارة والاعضاء وأيام الأسبوع، فصير كل واحد من السبعة إلى عشرة لأن الحسنة بعشرة أمثالها.

وقيل خصت السبعون بالذكر لأنه صلى الله عليه وسلم كبر على عمه حمزة سبعين تكبيرة فكأنه قال ان تستغفر لهم سبعين مرة بإزاء تكبيراتك على حمزة وهذا كالذي قبله.

ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله: ﴿ذلك﴾ الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل ﴿بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ ولفظ الكرخي ذلك اليأس من الغفران لهم بسبب انهم كفروا لا ببخل منا أو قصور فيك، بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنه. اهـ.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي المتمردين الخارجين عن الطاعة المتجاوزين لحدودها، والمراد هنا الهداية الموصلة الى المطلوب لا الهداية التي بمعنى الدلالة وإراءة الطريق.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾

ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال ﴿فرح المخلفون﴾ هم المتروكون وهم الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين فأذن لهم وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك أو الذين خلفهم الله وثبطهم أو الشيطان أو نفاقهم أو كسلهم أو المؤمنون ﴿بمقعدهم﴾ أي بقعودهم، يقال قعد قعوداً ومقعداً أي جلس وأقعده غيره، ذكر معناه الجوهري ﴿خلاف رسول الله﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: انه منصوب على المصدر أي تخلفوا خلاف رسول الله **والثاني:** انه مفعول من أجله أي فرحوا لأجل مخالفتهم رسول الله أو بقعودهم لمخالفتهم له، واليه ذهب الطبري والزجاج، ويؤيده قراءة خلف بضم الخاء وسكون اللام **والثالث** أن ينتصب على الظرف أي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقال أقام زيد خلاف القوم أي تخلف بعد ذهابهم، وخلاف أن يكون ظرفاً، واليه ذهب أبو عبيدة وعيسى بن عمر.

قال الأخفش ويونس: الخلاف بمعنى الخلف، وذلك أن جهة الأمام التي يقصدها الانسان تخالفها جهة الخلف، وقال قطرب: معنى خلاف رسول الله مخالفة الرسول حين سار الى تبوك وأقاموا أي قعدوا لأجل المخالفة أو مخالفين له ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ لكمال شحهم بالاموال والانفس، وعدم وجود باعث الايمان وداعي الاخلاص، ووجود الصارف عن ذلك وهو ما هم فيه من النفاق، وفيه تعريض بالمؤمنين الباذلين لأموالهم

وأنفسهم في سبيل الله لوجود الداعي معهم وانتفاء الصارف عنهم، وفي الخازن وكرهوا الخروج إلى الجهاد، وذلك ان الانسان يميل بطبعه الى إيثار الراحة والقعود مع الأهل والولد ويكره إتلاف النفس والمال.

﴿وقالوا﴾ أي قال المنافقون لاخوانهم ﴿لا تنفروا في الحر﴾ تثبيطاً لهم وكسراً لنشاطهم وتواصياً بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله، وكانت غزوة تبوك في شدة الحر والقحط، فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿قل نار جهنم أشد حراً﴾ المعنى انكم أيها المنافقون كيف تفرون من هذا الحر اليسير، ونار جهنم التي ستدخلونها خالدين فيها أبداً أشد حراً مما فررتم منه، فإنكم إنما فررتم من حر يسير في زمن قصير، ووقعتم في حر كثير في زمن كبير، بل غير متناه أبد الأبدين ودهر الداهرين.

﴿لو كانوا يفقهون﴾ انها كذلك لما فعلوا ما فعلوا، وهذا اعتراض تذييلي من جهته تعالى غير داخل تحت القول المأمور به مؤكد لمضمونه.

﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ هذان الامران معناهما الخبر والمعنى فيضحك هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قليلاً بالنسبة للبكاء في الآخرة وان كان كثيراً في نفسه لان الدنيا فانية والآخرة باقية، والمنقطع الفاني بالنسبة الى الدائم الباقي قليل، ويبكون كثيراً، وإنما جيء بهما على لفظ الامر للدلالة على أن ذلك أمر محتوم لا يكون غيره، والتقدير ضحكاً قليلاً وبكاء كثيراً أو زماناً قليلاً وزماناً كثيراً.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً[1] أخرجه البخاري.

﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ من المعاصي، والمعنى يجزون جزاء، أو سبب الامر بقلة الضحك وكثرة البكاء جزاؤهم بعملهم.

---

(١) البخاري كتاب الكسوف باب ٢.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا
وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾
وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟
وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى
ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿فإن رجعك الله﴾ الرجع متعد كالرد والرجوع لازم واللازم من باب جلس والمتعدي من باب قطع وفي الكرخي معنى الرجوع تصيير الشيء الى المكان الذي كان فيه، يقال رجعته رجعاً كقولك رددته رداً والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها.

وإنما قال ﴿إلى طائفة منهم﴾ لأن جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين ل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم أعذار صحيحة، وفيهم من المؤمنين من لا عذر له، ثم عفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتاب الله عليهم كالثلاثة الذين خلفوا، وسيأتي بيان ذلك.

وقيل انما قال: ﴿الى طائفة﴾ لأن منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف، وفي البيضاوي أن المتخلفين كانوا اثني عشر رجلاً.

﴿فاستأذنوك للخروج﴾ معك في غزوة أخرى بعد غزوتك هذه ﴿فقل﴾ لهم اخراجاً لهم عن ديوان الغزاة وابعاداً لمحلهم عن محفل صحبتك ﴿لن تخرجوا معي أبداً﴾ إلى غزوة ولا إلى سفر، وهذا إخبار في معنى النهي للمبالغة ﴿ولن تقاتلوا معي عدوا﴾ أي قل لهم ذلك عقوبة لهم ولما في استصحابهم من المفاسد كما تقدم في قوله ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾.

﴿انكم رضيتم بالقعود﴾ تعليل أي لن تخرجوا معي ولن تقاتلوا لأنكم

رضيتم بالقعود والتخلف ﴿أول مرة﴾ وهي غزوة تبوك، والفاء في ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ لتفريع ما بعدها على ما قبلها، والخالفين جمع خالف كأنهم اخلفوا الخارجين، والمراد بهم من تخلف عن الخروج بعد القوم، وقيل المعنى فاقعدوا مع الفاسدين، من قولهم فلان خالف أهل بيته إذا كان فاسداً فيهم.

ومن ذلك خلف اللبن أي فسد بطول المكث في السقاء، ذكر معناه الاصمعي وقرىء مع الخلفين، قال الفراء: معناه المخالفين، قيل المراد بهم النساء والصبيان والرجال العاجزون، فلذلك جاز جمعه للتغليب.

وقال قتادة: الخالفون النساء وهو مردود لأجل الجمع، قال ابن عباس: الخالفين هم الرجال الذين تخلفوا عن الغزو بغير عذر، وفي الآية دليل على أن الرجل إذا ظهر منه مكروه وخداع وبدعة يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته.

﴿ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً﴾ يعني صلاة الجنازة ﴿ولا تقم على قبره﴾ قال الزجاج: معناه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له فمنع ههنا منه، وقيل معناه لا تقم بمهمات اصلاح قبره. ولا تتول دفنه، ولما نزلت هذه الآية ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق ولا قام على قبره بعدها.

﴿انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ تعليل للنهي عن الصلاة والقيام على قبره، وانما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه بأن يؤدي الأمانة، ولا يضمر لأحد سوءاً، وقد يكون خبيثاً في نفسه كثير الكذب والمكر والنفاق والخداع والجبن واضمار السوء للغير والخبث وهي مستقبحة في كل دين عند كل أحد.

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال: لما توفي عبدالله

بن أبي ابن سلول أتى ابنه عبدالله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عمر فأخذ ثوبه فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين فقال: إن الله خيرني وقال[استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم]وسأزيد على السبعين، فقال انه منافق فصلى عليه فأنزل الله ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ الآية فترك الصلاة عليهم[1]، والحديث له ألفاظ في الصحاح والسنن.

وكان ابن أبيّ رئيس الخزرج وينسب لأبيه وأمه فأبوه أبيّ وأمه سلول وكان اسمه عبد الله.

﴿فلا تعجبك﴾ نهى رسوله أن تعجبه ﴿أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ هذا تكرير لما سبق في هذه السورة وتقرير لمضمونه وارادة أن يكون المخاطب به على بال ولا ينساه، وان يعتقد أن العمل به مهم، وقيل ان الآية المتقدمة في قوم وهذه في آخرين، وقيل هذه في اليهود والأولى في المنافقين وقيل غير ذلك.

وقد تقدم في الآية الأولى جميع ما يحتاج اليه في تفسير هذه الآية، وذكر في الخازن ما حصل من التفاوت في الألفاظ في هاتين الآيتين ولا يأتي بكثير فائدة.

---

(١) مسلم ٢٤٠٠ ـ البخاري ٦٧٥.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾

ثم عاد الله سبحانه إلى توبيخ المنافقين فقال: ﴿واذا أنزلت سورة﴾ أي طائفة من القرآن، ويجوز أن يراد بعض السورة وان يراد تمامها وقيل هي هذه السورة ﴿أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله﴾ الخطاب للمنافقين أي أخلصوا في ايمانكم وجهادكم، وانما قدم الأمر بالايمان لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلا بعد الايمان.

﴿استأذنك أولوا الطول منهم﴾ أي ذوو الفضل والسعة والقدرة وأهل الغنى والثروة، من طال عليه طولاً، كذا قال ابن عباس والحسن، وقال الأصم: هم الرؤساء والكبراء المنظور اليهم، وخصهم بالذكر لأن الذم لهم ألزم إذ لا عذر لهم في القعود، ولان العاجز عن السفر والجهاد لا يحتاج إلى الاستئذان.

﴿وقالوا﴾ عطف تفسيري ﴿ذرنا﴾ أي اتركنا ﴿نكن مع القاعدين﴾ أي المتخلفين عن الغزو من المعذورين كالضعفاء والزَّمْنَى.

﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ استئناف لبيان سوء صنيعهم، والخوالف جمع خالفة ولذا قيل الخوالف النساء اللاتي يخلفن الرجال في القعود في البيوت، وجوز بعضهم أن يكون جمع خالف وهو من لا خير فيه وهو مردود، فان فواعل لا يكون جمعاً لفاعل وصفاً لعاقل إلا ما شذ من نحو

فوارس ونواكس وهوالك، وقال النحاس: يجوز أن تكون من صفة الرجال بمعنى أنها جمع خالفة يقال رجل خالفة أي لا خير فيه، فعلى هذا يكون جمعاً للذكور باعتبار لفظه.

﴿وطبع على قلوبهم﴾ هو كقوله ختم الله على قلوبهم وقد مر تفسيره ﴿فهم لا يفقهون﴾ شيئاً مما فيه نفعهم وضرهم بل هم كالانعام أي لا يفهمون الخير الذي في الجهاد ولا الشر الذي في التخلف.

﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ المقصود من الاستدراك الاشعار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر فانه قد قام بفريضة الجهاد من هو خير منهم وأخلص نية كما في قوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ وقد تقدم بيان الجهاد بالأموال والانفس.

ثم ذكر منافع الجهاد فقال: ﴿وأولئك لهم الخيرات﴾ جمع خير فيشمل منافع الدنيا والدين من النصر والغنيمة والجنة والكرامة، وقيل المراد بها النساء الحسان أي الحور، قاله الحسن كقوله تعالى: ﴿فيهن خيرات حسان﴾ ومفرده خيرة بالتشديد ثم خففت مثل هينة وهينة ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ قد تقدم معنى الفلاح والمراد بهم هنا الفائزون بالمطلوب وتكرير اسم الاشارة لتفخيم شأنهم وتعظيم أمرهم.

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾
وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ
سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

﴿أعد الله لهم﴾ استئناف لبيان كونهم مفلحين ﴿جنات﴾ أي بساتين ﴿تجري من تحتها الانهار﴾ قد تقدم بيان جري الأنهار من تحتها ﴿خالدين فيها﴾ قد سبق بيان الخلود والفوز الآتي أيضا ﴿ذلك﴾ أي ما تقدم من الخيرات والفلاح ونيل الكرامة العظمى واعداد الجنات الموصوفة بتلك الصفة ﴿الفوز العظيم﴾ وصف الفوز بكونه عظيماً يدل على أنه الفرد الكامل من أنواع الفوز.

﴿وجاء المعذرون من الاعراب﴾ قرىء بالتخفيف من أعذر، وكان ابن عباس يقرؤها مخففة ويقول والله هكذا أنزلت، قال النحاس: إلا أن مدارها على الكلبي يقال أعذر إذا بالغ في العذر، ومنه من أنذر فقد أعذر.

وقرأ الجمهور بالتشديد وفيه وجهان (أحدهما) أن يكون أصله المعتذرون وهم الذين لهم عذر فالمعذرون على هذا هم المحقون في اعتذارهم، وقد روي هذا عن الفراء والزجاج وابن الانباري وأبي عبيد والاخفش وأبي حاتم، وقيل هو من عذر وهو الذي يعتذر ولا عذر له يقال عذر في الامر إذا قصر فيه واعتذر بما ليس بعذر، ذكره الجوهري وصاحب الكشاف.

فالمعذرون على هذا هم المبطلون لانهم اعتذروا بأعذار كاذبة باطلة لا أصل لها، والمعنى انه جاء هؤلاء من الاعراب بما جاءوا به من الاعذار بحق أو باطل على كلا التفسيرين، قال الضحاك: هم رهط عامر، وقيل من أسد وغطفان، وقال ابن عباس: هم الذين تخلفوا بعذر.

وهذا شروع في بيان أحوال منافقي الأعراب اثر بيان أحوال منافقي أهل المدينة والاعراب سكان البادية وهم أخص من العرب إذ العربي من تكلم باللغة العربية سواء كان يسكن البادية أو الحاضرة، وقد اختلف في أنهم كانوا معتذرين بالتصنع أو بالصحة.

﴿ليؤذن لهم﴾ أي لاجل أن يأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتخلف عن الغزو ﴿وقعد﴾ طائفة أخرى لم يعتذروا بل قعدوا عن الغزو بغير عذر وهم منافقو الأعراب ﴿الذين كذبوا الله ورسوله﴾ بالتخفيف أي كذبوا في إدعاء ايمانهم وبالتشديد أي لم يؤمنوا ولا صدقوا ما جاء به الرسول عن ربه ولا امتثلوا أمره.

قال أبو إسحاق: ذكر لي أنهم نفر من بني غفار جاءوا فاعتذروا، منهم خفاف بن إيماء، وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا إن غزونا معك أغارت أعراب طي على أهالينا ومواشينا، وقيل منافقو الاعراب قسمان: قسم جاءوا واعتذروا بالأعذار الكاذبة وقسم لم يجيء ولم يعتذر.

ثم توعدهم سبحانه فقال: ﴿سيصيب الذين كفروا منهم﴾ أي من الأعراب وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة والذين لم يعتذروا بل كذبوا الله ورسوله. وأتى بمن التبعيضية، لأن منهم من أسلم فلم يصبه العذاب ﴿عذاب أليم﴾ أي كثير الألم فيصدق على عذاب الدنيا بالقتل والأسر، وعذاب الآخرة بالنار المؤبدة.

﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾

ولما ذكر سبحانه المعذرين ذكر بعدهم أهل الأعذار الصحيحة المسقطة للغزو، وبدأ بالعذر في أصل الخلقة فقال: ﴿ليس على الضعفاء﴾ وهم أرباب الزمانة والهرم والعمى والعرج ونحو ذلك كالشيوخ والصبيان والنساء ومن خلق في أصل الخلقة ضعيفاً نحيفاً، والضعفاء جمع ضعيف، وهو الصحيح في بدنه العاجز عن الغزو.

ثم ذكر العذر العارض فقال: ﴿ولا على المرضى﴾ المراد بالمرض كل ما يصدق عليه اسم المرض لغة أو شرعاً، وقيل انه يدخل في المرضى الاعمى والاعرج ونحوهما. ثم ذكر العذر الراجع إلى المال لا إلى البدن فقال: ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج﴾ أي ليست لهم أموال ينفقونها فيما يحتاجون اليه من التجهز للجهاد لفقرهم، كجهينة ومزينة وبني عذرة، فنفى سبحانه عن هؤلاء الثلاثة الحرج، وأبان أن الجهاد مع هذه الاعذار ساقط عنهم غير واجب عليهم مقيداً بقوله: ﴿اذا نصحوا لله ورسوله﴾ في حال قعودهم بالطاعة وعدم الارجاف والتثبيط، وأصل النصح إخلاص العمل من الغش ومنه التوبة النصوح.

قال نفطويه: نصح الشيء إذا خلص ونصح له القول أي أخلصه له، والنصح لله الايمان به والعمل بشريعته وترك ما يخالفها كائناً ما كان، ويدخل تحته دخولاً أولياً نصح عباده ومحبة المجاهدين في سبيله وبذل النصيحة لهم في أمر الجهاد وترك المعاونة لأعدائهم بوجه من الوجوه، ونصيحة الرسول صلى الله

عليه وسلم التصديق بنبوته وبما جاء به، وطاعته في كل ما يأمر به أو ينهي عنه وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، ومحبته وتعظيم سنته وإحياؤها بعد موته بما تبلغ اليه القدرة.

وقد ثبت في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: الدين النصيحة ثلاثاً، قالوا لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم[1]. وفي الخازن: النصح أن يقيموا في البلد ويحترزوا عن إفشاء الاراجيف وإثارة الفتن ويسعوا في إيصال الخير إلى أهل الجهاد ويقوموا بمصالح بيوتهم.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ جملة مقررة لمضمون ما سبق، أى ليس على المعذورين الناصحين طريق عقاب ومؤاخذة، ومن مزيدة للتأكيد، وعلى هذا فيكون لفظ المحسنين موضوعاً في موضع الضمير الراجع الى المذكورين سابقاً، وأتى بالظاهر للدلالة على انتظامهم بنصحهم في سلك المحسنين، أو يكون المراد ما على جنس المحسنين من سبيل، وهؤلاء المذكورون سابقاً من جملتهم، فتكون الجملة تعليلية، وقولهم لا سبيل عليه معناه لا حرج ولا عتاب، وانه بمعنى لا عاتب يمر عليه فضلاً عن العتاب، واذا تعدى بإلى كقوله:

ألا ليت شعري هل الى أم سالم سبيل فأما الصبر عنها فلا صبر

فبمعنى الوصول كما قال:

هل من سبيل الى خمر فأشربها أم من سبيل الى نصر بن حجاج

ونحوه، فتنبه لمواطن استعماله فإنه من مهمات الفصاحة ﴿والله غفور

(١) مسلم ٥٥.

رحيم﴾ لهم أو للمسيء فكيف للمحسن، والجملة تذييلية.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ وقوله ﴿ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج﴾.

وإسقاط التكليف عن هؤلاء المعذورين لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذي عذر الله عنه مع رغبتهم اليه لولا حبسهم العذر عنه، ومنه حديث أنس عند أبي داود وأحمد، وأصله في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لقد تركتم بعدكم قوماً ما سرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلا وهم فيه» قالوا يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ فقال «حبسهم العذر» (١).

وأخرجه أحمد ومسلم من حديث جابر (٢) عن قتادة قال: أنزلت هذه الآية في عائذ بن عمر المزني، وقال الضحاك: عذرهم وجعل لهم من العذر ما جعل للمجاهدين.

قال الرازي: ليس في الآية انه يحرم عليهم الخروج، لأن الواحد لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القدرة إما بحفظ متاعهم أو بتكثير سوادهم، بشرط أن لا يجعل نفسه كلاً ووبالاً عليهم لكان ذلك طاعة مقبولة.

(١) البخاري كتاب الجهاد باب ٣٥.
(٢) مسلم ١٩١١.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعذورين من تضمنه قوله ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ العطف على جملة ما على المحسنين أو على الضعفاء أي لا عليهم حرج، والمعنى أن من جملة المعذورين هؤلاء الذين أتوك لتحملهم على ما يركبون عليه في الغزو فلم تجد ذلك الذي طلبوه منك قيل هم سبعة من الأنصار وقيل بنو مقرن، وقيل المعنى إذا ما أتوك قائلاً لا أجد وقيل غير ذلك وهذا أولى.

وفي إيثار هذا التعبير على «ليس عندي» لطف في الكلام وتطييب لقلوب السائلين كأنه قال انا اطلب ما تسألونه وأفتش عنه فلا أجده فأنا معذور، وعن أنس في الآية قال: الماء والزاد. وعن علي بن صالح قال: حدثني مشيخة من جهينة قالوا: أدركنا الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحملان فقالوا ما سألناه إلا الحملان على النعال.

وعن إبراهيم بن أدهم عمن حدثه في الآية قال: ما سألوه الدواب، ما سألوه إلا النعال. وعن الحسن بن صالح قال استحملوه النعال.

﴿تولوا﴾ أي انصرفوا عنك لما قلت لهم لا أجد ما أحملكم عليه ﴿وأعينهم تفيض﴾ أي تسيل ﴿من الدمع﴾ أي حال كونهم باكين، ومن للبيان، وفي الشهاب أن الفيض انصباب عن امتلاء فوضع موضع الامتلاء للمبالغة، أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها، يعني أن الفيض مجاز عن الامتلاء بعلاقة السببية فإن الثاني سبب للأول، فالمجاز في المسند والدمع هو

ذلك الماء أو الفيض على حقيقته، والتجوز في إسناده إلى العين للمبالغة كجرى النهر. ومن التعليل:

﴿حزناً ألا يجدوا﴾ قال الفراء: أي ليس يجدوا، وقيل حزناً على أن لا يجدوا وقيل المعنى حزناً انهم لا يجدوا، وقيل لأجل أن لا يجدوا ﴿ما ينفقون﴾ في الجهاد لا عند أنفسهم ولا عندك.

عن محمد بن كعب قال: هم سبعة نفر من بني عمرو بن عوف: سالم ابن عمير ومن بني واقف حرمى بن عمرو، ومن بني مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ومن بني المعلى سلمان بن صخر؛ ومن بني حارثة عبد الرحمن ابن زيد أبو غيلة، ومن بني سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله ابن عمرو المزني، من ثَمَّ [1] قيل لهم البكاءون فحمل العباس منهم اثنين وعثمان ثلاثة زيادة على الجيش الذي جهزه وهو ألف. وحمل يامين بن عمرو النضرى اثنين، كذا في مختصر سيرة الحلبى.

وقد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة واختلفوا في البعض ولا يأتي التطويل في مثل ذلك بكثير فائدة.

---

(١) بفتح الثاء أي ومن هنا.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾

ثم ذكر الله سبحانه من عليه السبيل من المتخلفين فقال ﴿إنما السبيل﴾ أي طريق العقوبة والمؤاخذة وهي الأعمال السيئة، وأتى بإنما للمبالغة في التوكيد لا للحصر، قال السفاقسي: وليس ثَمَّ ما يمنع أن تكون للحصر.

﴿على الذين يستأذنوك﴾ في التخلف عن الغزو ﴿وهم﴾ أي والحال انهم ﴿أغنياء﴾ يجدون ما يحملهم وما يتجهزون به ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ وهم النساء والصبيان، والجملة مستأنفة كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء، فقيل رضوا أي بالدناءة والضعة والانتظام فيهم وإليه مال الزمخشري وقيل انه في محل نصب على الحال وقد مقدرة. قاله الكرخي.

﴿وطبع على قلوبهم﴾ معطوفه على رضوا أي سبب الاستئذان مع الغنى أمران ﴿أحدهما﴾ الرضا بالصفقة الخاسرة وهي أن يكونوا مع الخوالف ﴿والثاني﴾ الطبع من الله على قلوبهم ﴿فهم﴾ بسبب هذا الطبع ﴿لا يعلمون﴾ ما فيه الربح لهم حتى يختاروه على ما فيه الخسر. عن مجاهد قال: هي في المنافقين، قال السيوطي؛ وقد تقدم مثله اهـ.

قال في الجمل: لكن مع نوع اختلاف في الألفاظ كما لا يخفى.

﴿يعتذرون اليكم إذا رجعتم اليهم﴾ إخبار من الله سبحانه عن المنافقين

المعتذرين بالباطل بأنهم يعتذرون إلى المؤمنين إذا رجعوا عن الغزو، وهذا كلام مستأنف وإنما قال اليهم أي إلى المعتذرين بالباطل ولم يقل إلى المدينة لأن مدار الاعتذار هو الرجوع اليهم لا الرجوع اليها، وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول اليها.

ويحتمل أن يكون الضمير في اليكم لرسول الله (ﷺ) على التأويل المشهور في هذا. روي أن المعتذرين كانوا بضعة وثمانين رجلاً.

ثم أخبر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما يجيب به عليهم فقال: ﴿قل لا تعتذروا﴾ فنهاهم أولاً عن الاعتذار بالباطل ثم علله بقوله: ﴿لن نؤمن لكم﴾ أي لن نصدقكم كأنهم ادعوا انهم صادقون في اعتذارهم، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به؛ فإذا عرف انه لا يصدق ترك الاعتذار، وإنما خص الرسول صلى الله عليه وسلم بالجواب عليهم مع أن الاعتذار منهم كائن إلى جميع المؤمنين لأنه صلى الله عليه وسلم رأسهم والمتولي لما يرد عليهم من جهة الغير.

وجملة ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ تعليلية للتي قبلها أي لا يقع منا تصديق لكم لأن الله قد أعلمنا بالوحي ما هو مناف لصدق اعتذاركم ﴿وسيرى الله عملكم﴾ أي ما ستفعلونه من الأعمال فيما بعد هل تقلعون عما أنتم عليه الان من الشر أم تبقون عليه، وقيل سيعلم عملكم السيء واقعاً أي مستمراً على الوقوع، والظاهر أن الاستقبال في علم الله بالنظر لظهوره لنا.

﴿ورسوله﴾ معطوف على الاسم الشريف ووسط مفعول الرؤية إيذاناً بأن رؤية الله سبحانه لما سيفعلونه من خير أو شر هي التي تدور عليها الاثابة أو العقوبة. وفي جملة ﴿ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ تخويف شديد لما هي مشتملة عليه من التهديد ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المضمر لإشعار ذلك بإحاطته بكل شيء يقع منهم مما يكتمونه ويتظاهرون به وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٩٥﴾

﴿سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم﴾ ذكر أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكدون ما جاءوا به من الأعذار الباطلة بالحلف عند رجوع المؤمنين اليهم من الغزو، وغرضهم من هذا التأكيد ﴿لتعرضوا عنهم﴾ أي يعرض المؤمنون عنهم فلا يوبخونهم ولا يؤاخذونهم بالتخلف ويظهرون الرضا عنهم كما يفيده ذكر الرضا من بعد، وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدل عليه، وهو اعتذارهم الباطل.

﴿فأعرضوا عنهم﴾ أي دعوهم وما اختاروا لأنفسهم، والمراد به تركهم والمهاجرة لهم لا الرضا عنهم والصفح عن ذنبهم كما تفيده جملة ﴿انهم رجس﴾ الواقعة علة للأمر بالإعراض، والمعنى انهم في أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة فكأنها قد صيرت ذواتهم رجساً أو أنهم ذوو رجس أي ذوو أعمال قبيحة، ومثله ﴿إنما المشركون نجس﴾.

وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين لقبول الارشاد الى الخير والتحذير من الشر فليس لهم الا الترك، قال أهل المعاني: ان هؤلاء طلبوا اعراض الصفح فأعطوا اعراض المقت.

﴿ومأواهم جهنم﴾ من تمام التعليل فإن من كان من أهل النار لا يجدي فيه الدعاء الى الخير، أو تعليل مستقل قاله أبو السعود، والمأوى كل مكان يأوي اليه الشيء ليلاً أو نهاراً، وقد أوى فلان الى منزله يأوي ﴿جزاء﴾ أي يجزون جزاء أو مفعول من أجله ﴿بما كانوا يكسبون﴾ الباء للسببية.

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾

﴿يحلفون لكم﴾ حذف هنا المحلوف به لكونه معلوماً مما سبق والمحلوف عليه بمثل ما تقدم ﴿لترضوا عنهم﴾ بين سبحانه أن مقصدهم بهذا الحلف هو رضا المؤمنين عنهم، ثم ذكر ما يفيد انه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل فقال: ﴿فإن ترضوا عنهم﴾ كما هو مطلوبهم مساعدة لهم وقبلتم عذرهم فلا ينفعهم رضاكم ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ تعليل للمحذوف المتقدم.

وإذا كان هذا هو ما يريده الله سبحانه من عدم الرضا عن هؤلاء الفسقة العصاة فينبغي لكم أيها المؤمنون ان لا تفعلوا خلاف ذلك، بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم على ان رضاكم عنهم لو وقع لكان غير معتد به ولا مفيداً لهم.

والمقصود من اخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم هو نهي المؤمنين عن ذلك لأن الرضا عمن لا يرضى الله عنه مما لا يفعله مؤمن، ونكتة العدول لهذا الظاهر التسجيل عليهم حيث وصفهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حل بهم من السخط وللايذان بشمول الحكم لمن شاركهم في ذلك.

﴿الأعراب﴾ أي جنسهم لا كل واحد لما سيأتي ﴿أشد كفراً ونفاقاً﴾ لما ذكر سبحانه أحوال المنافقين بالمدينة ذكر حال من كان خارجاً عنها من الأعراب؛ وبين ان كفرهم ونفاقهم أشد من كفر غيرهم ومن نفاق غيرهم،

لانهم أقسى قلوباً وأغلظ طباعاً وأجفى قولاً وأبعد عن سماع كتب الله وما جاءت به رسله وأوحش فعلاً، ولان نشأتهم في معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم.

وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض افراده كما في قوله تعالى: ﴿وكان الإنسان كفوراً﴾ إذ ليس كلهم كما ذكر على ما ستحيط به خبراً.

والاعراب هم من سكن البوادي بخلاف العرب فانه عام لهذا النوع من بني آدم سواء سكنوا البوادي أو القرى، هكذا قال أهل اللغة، ولهذا قال سيبويه: ان الاعراب صيغة جمع وليست بصيغة جمع العرب، لئلا يلزم كون الجمع أخص من مفرده.

قال النيسابوري: قال أهل اللغة رجل عربي إذا كان نسبه إلى العرب ثابتاً وجمعه عرب كالمجوسي والمجوس، واليهودي واليهود، فالاعرابي إذا قيل له يا عربي فرح وإذا قيل للعربي يا أعرابي غضب، وذلك ان من استوطن القرى العربية فهو عربي، ومن نزل البادية فهو أعرابي، ولهذا لا يجوز ان يقال للمهاجرين والانصار أعراب؛ وإنما هم عرب.

فإن قيل إنما سمي العرب عرباً لان أولاد إسماعيل عليه السلام نشؤوا بالعرب وهي من تهامة فنسبوا إلى بلدهم وكل من يسكن جزيرة العرب وينطق بلسانهم فهو منهم.

وقيل. لأن ألسنتهم معربة عما في ضمائرهم ولما في لسانهم من الفصاحة والبلاغة انتهى.

وفي المصباح وأما الأعراب بالفتح فأهل البدو من العرب، الواحد أعرابي بالفتح أيضاً وهو الذي يكون صاحب نجعة وارتياد للكلأ وزاد الأزهري: سواء كان من العرب أو من مواليهم، فمن نزل البادية وجاور البادين وظعن بظعنهم فهم أعراب، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب فهم عرب وان لم يكونوا فصحاء.

﴿وأجدر﴾ معناه أخلق يقال فلان جدير بكذا أي خليق به وأنت جدير أن تفعل كذا وأصله من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء يقال هو جدير وأجدر وحقيق وأحق، وقمن وخليق وأولى بكذا كله بمعنى واحد، قال الليث جدر يجدر جدارة فهو جدير، ويؤنث ويثنى ويجمع.

وقد نبه الراغب على أصل اشتقاق هذه المادة وانها من الجدار أي الحائط فقال والجدير المنتهي لانتهاء الأمر اليه انتهاء الشيء إلى الجدار، والذي يظهر أن اشتقاقه من الجدر وهو أصل الشجرة فكأنه ثابت كثبوت الجدر في قولك جدير بكذا.

﴿ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ من الشرائع والأحكام والفرائض وما أمر به من الجهاد لبعدهم عن مواطن الأنبياء وديار التنزيل، ومشاهدة المعجزات، ومعاينة ما ينزل عليه من تضاعيف الكتاب والسنة.

ووصف العرب بأنهم جاهلون لا ينافي صحة الاحتجاج بألفاظهم وأشعارهم على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم إذ وصفهم بالجهل انما هو في أحكام القرآن لا في ألفاظه، ونحن لا نحتج بلغتهم في بيان الأحكام بل في معاني بيان الألفاظ لأن القرآن والسنة جاءا بلغتهم قاله الكرخي.

﴿والله عليم﴾ بأحوال مخلوقاته على العموم وهؤلاء منهم ﴿حكيم﴾ فيما يجازيهم به من خير وشر، عن الكلبي ان هذه الآية نزلت في أسد وغطفان.

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن[١] قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثوري.

وأخرج أبو داود والبيهقي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى أبواب السلطان افتتن. وما ازداد أحد من سلطانه قرباً إلا ازداد من الله بعداً[٢]».

---

(١) الترمذي، كتاب الفتن، باب ٦٩.

(٢) أبو داوود، كتاب الأضاحي، باب ٢٤.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً﴾ هذا تنويع الجنس الى نوعين ﴿الأول﴾ هؤلاء ﴿والثاني﴾ ومن الأعراب من يؤمن بالله، والمغرم: الغرم والخسران وهو ثاني مفعولي يتخذ لأنه بمعنى الجعل، والمعنى انه اعتقد ما ينفقه في سبيل الله غرامة وخسراناً، وأصل الغرم والغرامة ما ينفقه الرجل وليس بلازم له في اعتقاده، ولكنه ينفقه للرياء والتقية، وقيل أصل الغرم اللزوم كأنه اعتقد أنه يلزمه لأمر خارج لا تنبعث له النفس.

قال الضحاك: يعني بالمغرم انه لا يرجو له ثواباً عند الله ولا مجازاة، وانما يعطي ما يعطي من الصدقات كرهاً، وعن ابن زيد قال: هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين انما ينفقون رياء اتقاء أن يغزوا، ويحاربوا ويقاتلوا ويرون نفقاتهم مغرماً وهم بنو أسد وغطفان.

﴿ويتربص﴾ أي ينتظر ﴿بكم الدوائر﴾ جمع دائرة وهي الحالة المتقلبة عن النعمة إلى البلية، وأصلها ما يحيط بالشيء ودوائر الزمان نوبه وتصاريفه ودوله وكأنه لا تستعمل إلا في المكروه، وفي الدائرة مذهبان أظهرهما انها صفة على فاعلة كقائمة وقال الفارسي: يجوز أن تكون مصدراً كالعاقبة، والمعنى ينتظر بكم تقلب الزمان وصروفها التي تأتي مرة بالخير ومرة بالشر، قال يمان بن رباب: يعني يموت الرسول ويظهر المشركون.

ثم دعا سبحانه عليهم بقوله: ﴿عليهم دائرة السوء﴾ وجعل ما دعا به

عليهم مماثلاً لما أرادوه بالمسلمين، والسوء عند الجمهور مصدر أضيف اليه الدائرة للملابسة كقولك رجل صدق؛ وهو مصدر في الحقيقة، قال أبو البقاء: وهو الضرر، وقال مكي: من فتح السين فمعناه الفساد والرداءة، ومن ضمها فمعناه البلاء والضرر، وظاهر هذا أنهما إسمان لما ذكر، ويحتمل أن يكونا مصدرين ثم أطلقا على ما ذكر.

وقال غيره: المضموم العذاب والضرر، والمفتوح الذم، وقرأ ابن كثير وغيره بضم السين وهو المكروه، قال الأخفش: عليهم دائرة الهزيمة والشر، وقال الفراء: دائرة العذاب والبلاء قال: والسوء بالفتح سؤته سوأً ومساءة وبالضم اسم لا مصدر وهو كقولك دائرة البلاء والمكروه، قال الخفاجي: وبين الفتح والضم شبه طباق، وقال الضحاك: الدوائر الملكات ﴿والله سميع﴾ لما يقولونه ﴿عليم﴾ بما يضمرونه.

﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الاخر﴾ هذا النوع الثاني من أنواع الأعراب كما تقدم أي منهم من يصدق بهما، عن عبد الرحمن بن معقل قال: كنا عشرة ولد مقرن فنزلت هذه الآية فينا، وقال مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة وهم الذين قال الله ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ الآية، وقال الكلبي: هم أسلم وغفار وجهينه ومزينة، وفي الباب أحاديث يطول ذكرها.

﴿ويتخذ ما ينفق قربات﴾ أي سبب قربات ﴿عند الله﴾ وهي جمع قربة بالضم وهي ما يتقرب به إلى الله سبحانه، تقول منه قربت لله قرباناً والجمع قرب وقربات والمعنى انه يجعل ما ينفقه في سبيل الله سبباً لحصول القربات عند الله ﴿وصلوات الرسول﴾ أي سبباً لدعوات الرسول لهم لأنه صلى الله عليه وسلم كان يدعو للمتصدقين، ومنه قوله: ﴿وصلّ عليهم ان صلاتك سكن لهم﴾ ومنه قوله: (ﷺ) «اللهم صلّ على آل أبي أوفى»[1].

(١) مسلم ١٠٧٨ ـ البخاري ٨٠٠.

وقال ابن عباس: استغفار النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل انها منسوقة على ما ينفق أي ويتخذ ما ينفق وصلوات الرسول قربة، وجوزه ابن عطية ولم يذكر أبو البقاء غيره، وظاهر كلام الزمخشري انها نسق على قربات كما تقدم.

ثم انه سبحانه بين بأن ما ينفقه هذا النوع من الاعراب تقرباً إلى الله مقبول واقع على الوجه الذي أرادوه فقال: ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ أخبر سبحانه بقبولها خبراً مؤكداً باسمية الجملة وحرفي التنبيه والتحقيق؛ وفي هذا من التطييب لخواطرهم والطمأنينة لقلوبهم ما لا يقادر قدره مع ما يتضمنه من النعي على من يتخذ ما ينفق مغرماً والتوبيخ له بأبلغ وجه، والضمير في ﴿انها﴾ راجع إلى ما في ما ينفق وتأنيثه باعتبار الخبر وقيل راجع إلى صلوات الرسول صلى الله عليه وسلم والأول أولى. ثم فسر سبحانه القربة بقوله: ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ السين لتحقيق الوعد. وهذه النعمة هي أقصى مرادهم ﴿إن الله غفور﴾ لأهل طاعته ﴿رحيم﴾ بعباده

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾ لما ذكر أصناف الأعراف ذكر المهاجرين والأنصار ، وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة وأن منهم التابعين لهم .

وقرأ عمر بن الخطاب الأنصار بالرفع عطفاً على والسابقون، وقرأ سائر القراء من الصحابة فمن بعدهم بالجر. قال الأخفش: الخفض في الأنصار الوجه لأن السابقين منهم يدخلون في قوله: ﴿والسابقون﴾.

وفي هذه الآية تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وهم الذين صلوا للقبلتين في قول سعيد بن المسيب وطائفة، أو الذين شهدوا بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية في قول الشعبي أو أهل بدر في قول محمد بن كعب وعطاء بن يسار. ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها. قال محمد بن كعب القرظي: هم جميع الصحابة لأنهم حصل لهم السبق بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال أبو منصور البغدادي ز أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ثم الستة الباقون ثم البدريون ثم أصحاب أحد ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية.

﴿والذين اتبعوهم﴾ أي اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والانصار وهم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم الى يوم القيامة، وليس المراد بهم التابعين اصطلاحاً، وهم كل من أدرك الصحابة ولم يدرك النبي صلى الله

عليه وسلم بل هم من جملة من يدخل تحت الآية فتكون ﴿من﴾ في قوله ﴿من المهاجرين﴾ على هذا للتبعيض.

وقيل إنها للبيان فيتناول المدح جميع الصحابة ويكون المراد بالتابعين من بعدهم من الأمة الى يوم القيامة كما قال ابن زيد هم من بقي من أهل الاسلام الى أن تقوم الساعة.

قال جماعة من الصحابة. لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا لأمتي كلهم وليس بعد الرضا سخط.

عن حميد بن زياد قال: قلت لمحمد بن كعب القرظي: أخبرني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وانما أريد الفتن قال: ان الله قد غفر لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم، قلت له وفي أي موضع أوجب الله لهم الجنة في كتابه؟ قال ألا تقرؤون قوله تعالى: ﴿والسابقون الأولون﴾ الآية، أوجب لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الجنة والرضوان وشرط على التابعين شرطاً لم يشرطه فيهم، قلت وما اشترط عليهم؟ قال اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان، يقول يقتدون بهم في أعمالهم الحسنة ولا يقتدون بهم في غير ذلك. قال أبو صخر: فوالله لكأني لم أقرأها قبل ذلك ولا عرفت تفسيرها حتى قرأها عليَّ محمد بن كعب.

وقوله: ﴿بإحسان﴾ قيد للتابعين أي والذين اتبعوهم متلبسين بإحسان في الافعال والاقوال اقتداء منهم بالسابقين الأولين ﴿رضي الله عنهم﴾ أي قبل طاعتهم وتجاوز عنهم ولم يسخط عليهم ﴿ورضوا عنه﴾ بما أعطاهم من فضله ومع رضائه عنهم فقد ﴿أعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾ في الدار الآخرة وفي قراءة بزيادة ﴿من﴾ قاله السيوطي. وفي الجمل أي سبعية لابن كثير،

ومعلوم أن قراءته الصلة فليتنبه القارىء اذا قرأ بزيادة من لصلة الميم في المواضع الثلاثة وهي اتبعوهم وعنهم وأعد لهم لئلا يقع في التلفيق، وقد تقدم تفسير جري الانهار من تحت الجنات وتفسير الخلود.

﴿خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ اختلفوا في أول الناس اسلاماً بعد اتفاقهم على أن خديجة أول الخلق اسلاماً على أقوال يطول ذكرها. وقال اسحق ابن ابراهيم: أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي بن أبي طالب، ومن العبيد زيد بن حارثة؛ فهؤلاء الاربعة سباق الخلق الى الاسلام. وأسلم على يد أبي بكر عثمان والزبير وابن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة، ثم تتابع الناس بعدهم في الدخول في الاسلام، فهؤلاء السابقون الاولون من المهاجرين.

وأما من الانصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وهي العقبة الأولى، وكانوا خمسة نفر: سعد وعوف ورافع وقطبة وجابر، ثم أصحاب العقبة الثانية وكانوا اثني عشر رجلاً، ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلاً، فهؤلاء سابقو الأنصار. وقيل غير ذلك مما ليس في ذكره كثير فائدة ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون﴾ هذا عود الى شرح أحوال المنافقون من أهل المدينة ومن يقرب منها من الأعراب، قيل وهؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم جهينة ومزينة وأشجع وغفار وأسلم، ذكره جمع من المفسرين كالبغوي والواحدي وابن الجوزي والنسفي والخازن والسيوطي وغيرهم وفيه اشكال لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لهؤلاء القبائل، فإن صح هذا النقل فتحمل الآية على القليل منهم، لأن لفظة ﴿من﴾ للتبعيض، ويحمل الدعاء لهم على الأكثر والأغلب، وبهذا يمكن الجمع بينهما.

وأطلق الطبري القول ولم يعين أحداً من القبائل المذكورة بل قال من القوم الذين حول مدينتكم؛ أيها المؤمنون من الأعراب منافقون ﴿ومن أهل

المدينة﴾ قوم أو ناس ﴿مردوا على النفاق﴾ قال البغوي: أي من الأوس والخزرج. وقيل المعنى وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا، وأصل مرد وتمرد اللين والملاسة والتجرد فكأنهم تجردوا للنفاق، ومنه غصن أمرد لا ورق عليه، وفرس أمرد لا شعر فيه، وغلام أمرد لا شعر بوجهه، وأرض مرداء لا نبات فيها وصرح ممرد مجرد مملس، كما قال:

في منزل شيد بنيانه يزل عنه ظفر الطائر

فالمعنى أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم يتثنوا عنه ولم يتوبوا منه، قال ابن زيد: معناه لجوا فيه وأبوا غيره.

قال الخفاجي: أصل معنى التمرد التمرن أي الاعتياد والتدرب في الأمر حتى يصير ماهراً فيه لاتخاذه صنعة وديدناً له، ولذا خفي نفاقهم عليه صلى الله عليه وسلم مع كمال فطنته وفراسته.

وقال الراغب: انه من قولهم شجرة مرداء أي لا ورق عليها أي أنهم خلوا من الخير. وروى أهل الجنة جرد مرد وهو محمول على ظاهره، أو المراد انهم خالصون من الشوائب والقبائح.

وجملة ﴿لا تعلمهم﴾ مبنية للجملة الأولى وهي مردوا على النفاق أي ثبتوا عليه ثبوتاً شديداً ومهروا فيه حتى خفي أمرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف سائر المؤمنين، والمراد عدم علمه صلى الله عليه وسلم بأعيانهم لا من حيث الجملة، فإن للنفاق دلائل لا تخفى عليه صلى الله عليه وسلم.

ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ لأن آية النفي نزلت قبل آية الإثبات، وهذه الجملة صفة المنافقون أو مستأنفة، والعلم هنا اما على بابه فيتعدى لإثنين أي لا تعلمهم منافقين أو عرفاني فيتعدى لواحد. قاله أبو البقاء.

وأما قوله: ﴿نحن نعلمهم﴾ فلا يجوز أن يكون الا على بابه وهي مقررة

لما قبلها لما فيها من الدلالة على مهارتهم في النفاق ورسوخهم فيه على وجه يخفى على البشر، ولا يظهر لغير الله سبحانه لعلمه بما يخفى وما تجنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر. ثم توعدهم سبحانه فقال: ﴿سنعذبهم مرتين﴾ قيل المراد بهما عذاب الدنيا بالقتل والسبي وعذاب الآخرة، وقيل الفضيحة بانكشاف نفاقهم والعذاب في الآخرة، وقيل المصائب في أموالهم وأولادهم وعذاب القبر. قال مجاهد مرتين يعني بالجوع والقتل.

وعن أبي مالك قال: بالجوع وعذاب القبر. وعن قتادة قال: عذاب في القبر وعذاب في النار، وقد روي عن جماعة من السلف نحو هذا في تعيين العذابين وقيل غير ذلك مما يطول ذكره مع عدم الدليل على انه المراد بعينه، والظاهر أن هذا العذاب المكرر هو في الدنيا بما يصدق عليه اسم العذاب وانهم يعذبون مرة بعد مرة ثم يردون بعد ذلك الى عذاب الآخرة، وهو المراد بقوله: ﴿ثم يردون الى عذاب عظيم﴾.

ومن قال ان العذاب في المرة الثانية هو عذاب الاخرة قال معنى قوله ﴿ثم يردون﴾ انهم يردون بعد عذابهم في النار كسائر الكفار إلى الدرك الاسفل منها أو انهم يعذبون في النار عذاباً خاصاً بهم دون سائر الكفار ثم يردون بعد ذلك الى العذاب الشامل لهم ولسائر الكفار.

وفي مسند أحمد عن ابن مسعود: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن منكم منافقين فمن سميته فليقم، ثم قال: قم يا فلان حتى سمى ستة وثلاثين[1].

---

(١) الإمام احمد ٥/٢٧٢.

وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

ثم ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين وهم المخلطون في دينهم فقال: ﴿و﴾ ممن حولكم أو من أهل المدينة قوم ﴿آخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ المعنى إن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو بغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك ولم يعتذروا بالاعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا أن يتوب الله عليهم.

﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ المراد بالعمل الصالح ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الاسلام وخروجهم الى الجهاد في سائر المواطن، والمراد بالعمل السيء هو تخلفهم عن هذه الغزوة، وقد أتبعوا هذا العمل السيّء عملاً صالحاً وهو الاعتراف به والتوبة عنه. وأصل الاعتراف الاقرار بالشيء ومجرد الاقرار لا يكون توبة الا اذا اقترن به الندم على الماضي والعزم على تركه في الحال والاستقبال، وقد وقع منهم ما يفيد هذا.

ومعنى الخلطة انهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك خلطت الماء باللبن واللبن بالماء؛ ذكره غالب المفسرين وأنكره الرازي وقال: الواو لمطلق الجمع، وفيه تنبيه على نفي القول بالمخالطة وانه بقي كل واحد منهما كما كان من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر.

ويجوز أن يكون الواو بمعنى الباء، كقولك بعت الشاء شاة ودرهماً أي بدرهم وقال الواحدي: الواو أحسن من الباء لأنه أريد به معنى الجمع لا حقيقة الخلط ألا ترى أن العمل الصالح لا يختلط بالسيء كما لا يختلط الماء باللبن لكن قد يجمع بينهما؛ وقال التفتازاني: وتحقيقه أن الواو للجمع والباء

للالصاق، والجمع والالصاق من قبيل واحد فسلك به طريق الاستعارة. وقال الزمخشري: كل واحد مخلوط ومخلوط به وفيه ما ليس في الباء.

وفي قوله: ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ دليل على أنه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة أو أن مقدمة التوبة وهي الاعتراف قامت مقام التوبة وحرف الترجي هو ﴿عسى﴾ في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع، لأن الاطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الاكرمين، وفي المواهب واتفق المفسرون على ذلك، قال القسطلاني: وعبر بعسى للاشعار بأن ما يفعله تعالى ليس إلا على سبيل التفضل منه حتى لا يتكل المرء بل يكون على خوف وحذر ﴿ان الله غفور رحيم﴾ يغفر الذنوب ويتفضل على عباده، وهذا يفيد انجاز الوعد.

عن ابن عباس قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فلما حضر رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، وكان ممر النبي صلى الله عليه وسلم إذا رجع عليهم، فلما رآهم قال: من هؤلاء الموثقون أنفسهم، قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تطلقهم وتعذرهم قال: وأنا أقسم بالله لا اطلقهم ولا اعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فلما بلغهم ذلك قالوا ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا فنزلت ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾.

وقيل الآية تعم جميع المسلمين، والحمل على العموم أولى وان كان السبب مخصوصاً بمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك، وروى الطبراني عن أبي عثمان قال: ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من هذه الآية.

﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ اختلف أهل العلم في هذه الصدقة المأمور بها

فقيل هي صدقة الفرض، وقيل هي مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها لأنهم بعد التوبة عليهم عرضوا أموالهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت هذه الآية كما تقدم، و﴿من﴾ للتبعيض على التفسيرين والآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة والصدقة مأخوذة من الصدق إذ هي دليل على صدق مخرجها في إيمانه.

﴿تطهرهم وتزكيهم بها﴾ الضمير المرفوع في الفعلين للنبي صلى الله عليه وسلم أي تطهرهم وتزكيهم يا محمد بما تأخذه من الصدقة منهم، وقيل الضمير في تطهرهم للصدقة والضمير في تزكيهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأول أولى لما في الثاني من الاختلاف في الضميرين في الفعلين المتعاطفين، ومعنى التطهير إذهاب ما يتعلق بهم من أثر الذنوب، ومعنى التزكية المبالغة في التطهير.

قال الزجاج: الأجود أن يكون المخاطبة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أي فانك يا محمد تطهرهم وتزكيهم بها على القطع والاستئناف ويجوز الجزم على جواب الأمر والمعنى ان تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم، قال السيوطي: فأخذ ثلث أموالهم وتصدق بها على سبيل الكفارة لذنوبهم فان كل من أتى ذنباً يسن له التصدق.

﴿وصل عليهم﴾ أي ادع لهم بعد أخذك لتلك الصدقة من أموالهم، قال النحاس: وحكى أهل اللغة جميعاً فيما علمناه ان الصلاة في كلام العرب الدعاء؛ ثم علل سبحانه أمره لرسوله صلى الله عليه وسلم بالصلاة على من يأخذ منه الصدقة فقال: ﴿ان صلاتك سكن لهم﴾ السكن ما تسكن اليه النفس وتطمئن به وهو فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض والمعنى يسكنون اليها، قال ابن عباس: استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوها ان صلاتك رحمة لهم.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن أبي أوفى قال كان

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾

رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بصدقة قال: اللهم صل على آل فلان فأتاه أبي بصدقته فقال اللهم صل على آل أبي أوفى(١).

﴿والله سميع﴾ لاعترافهم بذنوبهم ودعائهم ﴿عليم﴾ بما في ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم.

ولما تاب الله سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقاً قال: ﴿ألم يعلموا﴾ أي غير التائبين أو التائبون قبل أن يتوب الله عليهم ويقبل صدقاتهم، والاستفهام للتقرير أو للتحضيض والتأكيد ﴿ان الله هو يقبل التوبة﴾ لاستغنائه عن طاعة المطيعين وعدم مبالاته بمعصية العاصين، وقرىء بالتاء وهو اما خطاب للتائبين أو الجماعة المؤمنين، والمعنى أن ذلك ليس لرسول الله (ﷺ) انما الله هو الذي يقبل التوبة ويردها فاقصدوه بها.

﴿عن عباده﴾ قيل لا فرق بين عن ومن، قال ابن عطية: وكثيراً ما يتوصل في موضع واحد بهذه وهذه نحو لا صدقة إلا عن غني ومن غني وفعل ذلك فلان من أشره وبطره وعن أشره وبطره، وقيل بينهما فرق ولعل ﴿عن﴾ في هذا الموضع أبلغ لأن فيه تبشير القبول للتوبة مع تسهيل سبيلها، وقيل لفظة عن تشعر ببعد ما، تقول جلس عن يمين الأمير أي مع نوع من البعد،

(١) مسلم ١٠٧٨ - البخاري ٨٠٠.

والظاهر أن عن هنا للمجاوزة وإذا قلت منه فمعناه ابتداء الغاية.

﴿ويأخذ الصدقات﴾ أي يتقبلها منهم وفي إسناد الاخذ اليه سبحانه بعد أمره لرسوله (ﷺ) بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة ولمن فعلها، وفي ذكر لفظ الاخذ ترغيب في بذل الصدقة واعطائها الفقراء.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه وان كانت ثمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوّه أو فصيله»(١) أخرجه الشيخان وفي الباب أحاديث يطول ذكرها.

﴿وان الله هو التواب الرحيم﴾ أي ان هذا شأنه سبحانه؛ وفي صيغة المبالغة في التواب مع توسيط ضمير الفصل والتأكيد من التبشير لعباده والترغيب لهم ما لا يخفى.

﴿وقل﴾ لهم أو للناس وهما قولان للمفسرين ﴿اعملوا﴾ ما شئتم من الأعمال الصالحة والسيئة ﴿فسيرى الله عملكم﴾ خيراً كان أو شراً تعليل لما قبله ﴿ورسوله والمؤمنون﴾ فيه تخويف وتهديد للمذنبين أي ان عملكم لا يخفى على الله ولا على رسوله ولا على المؤمنين، فسارعوا إلى اعمال الخير أو أخلصوا أعمالكم لله عز وجل، وفيه أيضاً ترغيب وتنشيط للمطيعين، فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء كان خيراً أو شراً رغب إلى أعمال الخير وتجنب أعمال الشر، وما أحسن قول زهير:

ومهما يكن عند امرىء من خليقة   وان خالها تخفى على الناس تعلم

---

(١) مسلم ١٠١٤ ـ البخاري ٧٥١.

فظاهره ترغيب وترهيب، والمراد بالرؤية هنا العلم بما يصدر من الأعمال والاستقبال بالنظر للمجازاة وإلا فالعلم حاصل بالفعل أي فسيجازيكم على عملكم والمجازاة من الله معلومة ومن رسوله والمؤمنين بمعنى الثناء عليهم والدعاء لهم.

قال مجاهد: هذا وعيد من الله عز وجل، وقال أبو السعود: زيادة ترغيب لهم في العمل الصالح، وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم والبيهقي وغيرهم عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان[1].

ثم جاء سبحانه بوعيد شديد فقال ﴿وستردون﴾ أي بالبعث بعد الموت ﴿إلى عالم الغيب والشهادة﴾ أي اليه سبحانه الذي يعلم ما تسرونه وما تعلنونه وما تخفونه وما تبدونه. وفي تقديم الغيب على الشهادة اشعار بسعة علمه عز وجل وانه لا يخفى عليه شيء، ويستوى عنده كل معلوم.

ثم ذكر سبحانه ما سيكون عقب ردهم اليه فقال ﴿فينبئكم﴾ أي يخبركم ﴿بما كنتم تعملون﴾ في الدنيا فيجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته ويتفضل على من يشاء من عباده.

---

(١) المستدرك كتاب الرقاق ٤/٣١٤.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ ذكر سبحانه ثلاثة أقسام في المتخلفين (الأول) المنافقون الذين مردوا على النفاق (الثاني) التائبون المعترفون بذنوبهم (الثالث) الذين بقي أمرهم موقوفاً في تلك الحال وهم المرجون لأمر الله من أرجيته وأرجأته إذا أخرته وهما لغتان والقراءتان أي بالهمز ودونه سبعيتان، والمعنى انهم مؤخرون في تلك الحال لا يقطع لهم بالتوبة ولا بعدمها، بل هم على ما تبين من أمر الله سبحانه في شأنهم.

والفرق بين الثاني والثالث أن الثاني اعتذر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأعذار فقبلها منه فجعلت توبته، وان الثالث لم يعتذر لأنه فتش فلم يجد عذراً صادقاً فأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره حتى ينزل الله قبول توبته فأخر الله قبولها خمسين يوماً.

﴿إما يعذبهم﴾ إن بقوا على ماهم عليه ولم يتوبوا ﴿وإما يتوب عليهم﴾ ان تابوا توبة صحيحة وأخلصوا إخلاصاً، والتقدير وآخرون مرجون لامر الله حال كونهم إما معذبين وإما متوباً عليهم، وإما هنا للشك بالنسبة إلى المخاطب، وإما للابهام بالنسبة إلى الله تعالى بمعنى أنه تعالى أبهم على المخاطبين أعني هذا الترديد بالنظر لاعتقادنا فيهم، وإلا فالله تعالى عالم بعين ما هو فاعله بهم ﴿والله عليم﴾ بأحوالهم ﴿حكيم﴾ فيما يفعله بهم من خير أو شر.

وعن عكرمة قال: وآخرون مرجون لأمر الله هم الثلاثة الذين خلفوا، وعن مجاهد قال: هم هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك من الأوس والخزرج تخلفوا كسلاً وميلاً الى الدعة لا نفاقاً، ولم يعتذروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم كغيرهم، فوقف أمرهم خمسين ليلة وهجرهم الناس حتى نزلت توبتهم بعد.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين﴾ لما ذكر سبحانه أصناف المنافقين وبين طرائقهم المختلفة، عطف على ما سبق هذه الطائفة منهم، وهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وسيأتي بيان هؤلاء البانين لمسجد الضرار وفي إعرابه وجوه ذكرها في الجمل.

وقد أخبر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة:

الأول: الضرار لغيرهم وهو المضاررة. الثاني: الكفر بالله والمباهاة لأهل الاسلام لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق. الثالث: التفريق بين المؤمنين لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الالفة ما لا يخفى.

الرابع قوله ﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله﴾ قال الزجاج: الارصاد الانتظار. وقال ابن قتيبة: الارصاد الانتظار مع العداوة، وقال الاكثرون: هو الاعداد، والمعنى متقارب، يقال أرصدت لكذا اذا أعددته مرتقباً له، وبه قال أبو زيد، يقال رصدته وأرصدته في الخير وأرصدت له في الشر، وقال ابن الاعرابي: لا يقال أرصدت ومعناه ارتقبت، والمراد بمن حارب الله ورسوله المنافقون وهم اثنا عشر رجلاً منهم ابو عامر الراهب، أي أعدوه لهؤلاء وارتقبوا به وصولهم وانتظروهم ليصلوا فيه حتى يباهوا بهم المؤمنون.

﴿من قبل﴾ أي من قبل أن ينافق هؤلاء وبنوا مسجد الضرار أو المعنى

لمن وقع منه الحرب لله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار ﴿وليحلفن﴾ جواب قسم مقدر أي والله ﴿ان أردنا الا الحسنى﴾ أي ما أردنا ببنائه الا الخصلة أو الارادة الحسنى، وهي الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن الصلاة في مسجد قباء أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المطر والحر، فرد الله عليهم بقوله ﴿والله يشهد﴾ أي يعلم ﴿انهم لكاذبون﴾ فيما حلفوا عليه وقالوه.

عن ابن عباس قال: هم أناس من الانصار ابتنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر الراهب والد حنظلة غسيل الملائكة ابنوا مسجدكم واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح فإني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة، فأنزل الله ﴿لا تقم فيه أبداً﴾.

وعنه قال: لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد قباء خرج رجال من الانصار فبنوا مسجد النفاق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بخدج ما أردت الا ما أرى، قال: ما أردت الا الحسنى وهو كاذب، فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد أن يعذره، فأنزل الله ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ الآية.

ثم نهى الله سبحانه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في مسجد الضرار فقال ﴿لا تقم فيه أبداً﴾ أي في وقت من الاوقات، فأرسل رسول الله (ﷺ) جماعة هدموه وأحرقوه وجعلوا مكانه كناسة تلقى فيه الجيف، والنهي عن القيام فيه يستلزم النهي عن الصلاة فيه، وقد يعبر عن الصلاة بالقيام، يقال فلان يقوم الليل أي يصلي، ومنه الحديث الصحيح «من قام

رمضان ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[(١)].

ثم ذكر الله سبحانه علة النهي عن القيام بقوله ﴿لمسجد أسس على التقوى﴾ اللام في لمسجد لام القسم، وقيل لام الابتداء وفي ذلك تأكيد لمضمون الجملة، وعلى قيل انها بمعنى مع والابلغ ابقاؤها على ظاهرها، وجعل التقوى أساساً له وتأسيس البناء تثبيته ورفعه، ومعنى تأسسه على التقوى تأسيسه على الخصال التي لا تبقى بها العقوبة.

واختلف العلماء في هذا المسجد فقالت طائفة هو مسجد قباء كما روى عن ابن عباس والضحاك والحسن والشعبي وغيرهم ورجحه البيضاوي لظاهر قوله تعالى، ﴿من أول يوم﴾ إذ لا يراد أول الأيام مطلقاً بل أول أيام الهجرة ودخول المدينة المنورة لأنه بني قبل مسجد المدينة ولقوله ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ ولأنه أوفق بالمقام لأنه بقباء كمسجد الضرار.

وذهب آخرون إلى أنه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم لما أخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: اختلف رجلان، رجل من بني خدرة، وفي لفظ تماريت أنا ورجل من بني عمروبن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال العمري: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن ذلك فقال: هو هذا المسجد، لمسجد رسول الله (ﷺ) وقال: في ذلك خير كثير يعني: مسجد قباء.

وأخرج أحمد وغيره عن أبيّ بن كعب قال: سألت النبي صلى الله عليه

(١) مسلم ٧٥٩ ـ البخاري ٣٣.

وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى، قال هو مسجدي هذا[١]، وعن زيد بن ثابت مرفوعاً مثله عند الطبراني وغيره وفي الباب أحاديث كثيرة.

وقد جمع الشريف السمهودي بين الأحاديث وقال: كل منهما مراد لأن كلاً منهما أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه.

والسر في إجابته صلى الله عليه وآله وسلم السؤال عن ذلك مما في الحديث دفع ما يوهمه السائل من اختصاص ذلك بمسجد قباء والتنويه بمزية هذا على ذاك وهو غريب هناك وقد سبقه اليه السهيلي في الروض الانف.

ولا يخفاك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عين هذا المسجد الذي أسس على التقوى وجزم بأنه مسجده صلى الله عليه وسلم كما تقدم من الأحاديث الصحيحة فلا يقاوم ذلك قول فرد من الصحابة ولا جماعة منهم ولا من غيرهم، ولا يصلح لإيراده في مقابلة ما قد صح عن النبي (ﷺ).

قال الكرخي: والتحقيق إن رواية نزولها في مسجد قباء لا تعارض تنصيصه صلى الله عليه وسلم على انه مسجد المدينة، فإنها لا تدل على اختصاص أهل قباء بذلك. انتهى.

ولا فائدة في إيراد ما ورد في فضل الصلاة في مسجد قباء فإن ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذي أسس على التقوى، على أن ما ورد في فضائل مسجده (ﷺ) أكثر مما ورد في فضل مسجد قباء بلا شك ولا شبهة.

و﴿من أول يوم﴾ متعلق بأسس، أي أسس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه: قال بعض النحاة: ان من ههنا بمعنى منذ، أي منذ أول يوم

---

(١) الإمام احمد ٣/٨.

ابتدىء ببنائه ووضع أساسه.

قال السهيلي نور الله مرقده: في الآية من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مع عمر رضي الله تعالى عنه حين شاورهم في التاريخ، فاتفق رأيهم على أن يكون من عام الهجرة لأنه الوقت الذي عز فيه الاسلام، والحين الذي أمن فيه النبي صلى الله عليه وسلم وبنيت المساجد وعُبد الله كما يجب، فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل.

وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله تعالى ﴿من أول يوم﴾ ان ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذي يؤرخ به الآن، فإن كان الصحابة رضوان الله عليهم أخذوه من هذه الاية فهو الظن بهم لأنهم أعلم الناس بتأويل كتاب الله وأفهمهم بما في القرآن من الاشارات.

وإن كان ذلك على رأي واجتهاد فقد علمه الله وأشار إلى صحته قبل أن يفعل إذ لا يعقل قول القائل فعلته أول يوم إلا بالإضافة إلى عام معلوم أو شهر معلوم أو تاريخ معلوم. وليس ههنا إضافة في المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينه لفظ أو حال، فتدبره ففيه معتبر لمن اذكر وعلم لمن رأى بعين فؤاد واستبصر.

﴿أحق أن تقوم فيه﴾ مصلياً وأفعل التفضيل على غير بابه أو المفاضلة باعتبار زعمهم أو بالنظر له في ذاته، فإن المحظور قصدهم ونيتهم، والمعنى لو كان القيام في غيره جائزاً لكان هذا أولى بقيامك فيه للصلاة ولذكر الله لكونه أسس على التقوى من أول يوم ولكونه ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ هذه الجملة، مستأنفة لبيان أحقية قيامه صلى الله عليه وسلم فيه أي كما أن هذا المسجد أولى من جهة المحل، فهو أولى من جهة الحال فيه، ومعنى محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه عند عروض موجبه، يعني من الأحداث

والجنابات وسائر النجاسات؛ وهذا قول أكثر المفسرين، وقيل معناه يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار والاول أولى.

وقال الرازي: المراد بها الطهارة من الذنوب والمعاصي، وعينه بوجوه ثلاثة وقيل يحبون أن يتطهروا بالحمى المطهرة للذنوب فحموا جميعاً وهذا ضعيف جداً.

﴿والله يحب المطهرين﴾ معنى محبة الله لهم الرضا عنهم والاحسان اليهم كما يفعل المحب بمحبوبه.

وأخرج ابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني والحاكم عن أبي أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك أن هذه الآية لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأنصار ان الله قد اثنى عليكم خيراً في الطهور فما طهوركم هذا؟ قالوا نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة؛ قال فهل مع ذلك غيره؟ قالوا لا، غير أن أحدنا إذا خرج الى الغائط أحب أن يستنجي بالماء، قال هو ذاك فعليكموه[1].

وفي حديث رواه البزاز قالوا نتبع الحجارة بالماء؟ فقال هو ذاك فعليكموه، وفي الباب روايات بألفاظ، وقد روي عن جماعة من التابعين في ذكر سبب نزول الآية نحو هذا.

ولا يخفاك أن بعض هذه الاحاديث ليس فيه تعيين مسجد قباء وأهله وبعضها ضعيف وبعضها لا تصريح فيه بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء؛ وعلى كل حال لا يقاوم تلك الأحاديث المصرحة بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي (ﷺ) في صحتها وصراحتها.

---

(١) المستدرك كتاب الطهارة ١/١٥٥.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

ثم بين سبحانه أن بين الفريقين بوناً بعيداً فقال ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار﴾ الهمزة للانكار والجملة مستأنفة مبينة لخيرية الرجال المذكورين على أهل مسجد الضرار، والفاء عاطفة على مقدر أي أبعد ما علم حالهم فمن أسس، والبنيان مصدر كالعمران وأريد به المبنى.

والمعنى ان من أسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة وهي تقوى الله ورضوانه خير ممن أسس دينه على ضد ذلك وهو الباطل والنفاق، قيل انه استعارة مكنية شبهت التقوى والرضوان بما يعتمد عليه البناء تشبيهاً مضمراً في النفس، وأسس بنيانه تخييل فهو مستعمل في معناه الحقيقي أو مجاز فتأسيس البنيان بمعنى إحكام أمور دينية أو تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الأعمال الصالحة بحال من بنى شيئاً محكماً مؤسساً يستوطنه ويتحصن فيه أو البنيان استعارة أصلية والتأسيس ترشيح والشفا الشفير، وشفا كل شيء حرفه وطرفه.

ومنه يقال أشفى على كذا إذا دنا منه وقرب ان يقع فيه، والجرف بضم الراء وسكونها قراءتان سبعيتان، وعلى كل فالجيم مضمومة وهو ما يتجرف بالسيول وهي الجوانب التي تنحفر بالماء وقيل المكان الذي أكل الماء تحته فهو الى السقوط قريب، وقيل البئر التي لم تطو، وقيل هو الهوة، والاجتراف اقتلاع الشيء من أصله، والهار الساقط يقال هار البناء إذا سقط وأصله هائر كما قالوا شاك السلاح وشائك، كذا قال الزجاج: يقال هار يهور ويهار وهار يهير وتهور

البناء وتهير فهو مقلوب بتقديم لامه على عينه، وقيل حذفت عينه اعتباطاً أي لغير موجب.

وقال أبو حاتم: ان اصله هاور أي ساقط متداع منها، قال في شمس العلوم: الجرف ما جرف السيل أصله وأشرف أعلاه فإن انصدع أعلاه فهو الهار انتهى وقيل لا قلب فيه ولا حذف وان أصله هورأو هير قال السمين وهذا أعدل الوجوه لاستراحته من ادعاء القلب والحذف اللذين هما على خلاف الأصل لولا أنه غير مشهور عند أهل التصريف انتهى.

جعل الله سبحانه هذا مثلاً لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحل بسرعة ثم قال ﴿فانهار﴾ الجرف أو الشفا أو بنيان الباني على شفا جرف هار ﴿به﴾ أي بالبنيان أو المعنى انه طاح الباطل بالبناء والباني ﴿في نار جهنم﴾ قال ابن عباس: صيرهم نفاقهم الى النار، روى انهم رأوا الدخان حين حفروا أساسه، وقال قتادة: والله ما تناهى بناؤهم حتى وقع في النار.

والباء في به للتعدية أو المصاحبة أي فانهار مصاحباً له وجاء بالانهيار الذي هو للجرف ترجيحاً للمجاز، وسبحان الله ما أبلغ هذا الكلام وأقوى تراكيبه وأوقع معناه وأفصح مبناه، عن جابر بن عبدالله قال: لقد رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حيث انهار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أخرجه الحاكم ومسدد وابن جرير وغيرهم.

﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يوفقهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم ثم ذكر سبحانه ان بنيانهم هذا موجب لمزيد ريبهم واستمرار ترددهم وشكهم فقال: ﴿لا يزال بنيانهم﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول ﴿الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ أي شكاً ونفاقاً أي سبب ريبهم كأنه نفس الريبة أما حال بنائه فظاهر وأما حال هدمه فلأنه رسخ به ما كان في قلوبهم من الشر وتضاعفت

آثاره وأحكامه، وقيل معنى الريبة الحسرة والندامة لأنهم ندموا على بنيانه، وقال المبرد أي حرارة وغيظاً.

وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين شاكين في دينهم، ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله صلى الله عليهم وسلم له نفاقاً وتصميماً على الكفر ومقتاً للاسلام لما أصابهم من الغيظ الشديد والغضب العظيم بهدمه.

ثم ذكر سبحانه ما يدل على استمرار هذه الريبة ودوامها وهو قوله: ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ قطعاً وتتفرق أجزاء إما بالموت أو بالسيف، وقيل في القبور أو في النار، والمقصود ان هذه الريبة دائمة لهم ما داموا أحياء، ويجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة وقيل معناه الا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم.

وقرىء تقطع بالتخفيف والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي إلا أن تقطع يا محمد قلوبهم وتتمكن منهم كل التمكن، وقرىء ولو تقطعت قلوبهم، وقرىء شاذاً إلى أن تقطع على الغاية أي لا يزالون كذلك إلى أن يموتوا والمستثنى منه محذوف، والتقدير في كل وقت إلا وقت تقطيع قلوبهم، أو في كل حال إلا حال تقطيعها ﴿والله عليم﴾ بعزائمهم ﴿حكيم﴾ في جزاء جرائمهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

﴿ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة﴾ لما شرح الله تعالى فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك، وذكر أقسامهم وفرع على كل قسم منها ما هو لائق به، عاد على بيان فضيلة الجهاد والترغيب فيه وقد بالغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه حيث عبر عن قبوله أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله واثابته إياهم بمقابلتها بالجنة بالشراء، فذكر الشراء تمثيل على طريقة الاستعارة التبعية كما في قوله: ﴿اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾.

ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد، انفس المؤمنين واموالهم وجعل الثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة، ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال ان الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم واموالهم، ليدل على ان المقصود في العقد هو الجنة وما بذله المؤمنون في مقابلتها وسيلة اليها إيذاناً بكمال العناية بهم وبأموالهم.

ثم انه لم يقل بالجنة بل قال ﴿بأن لهم الجنة﴾ مبالغة في تقرر وصول الثمن اليهم واختصاصه بهم كأنه قيل بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم، واصل الشراء بين العباد هو اخراج الشيء عن الملك بشيء آخر مثله أو دونه أو انفع منه، فهؤلاء المجاهدون باعوا انفسهم من الله بالجنة التي اعدها الله للمؤمنين أي بأن يكونوا من أهل الجنة وممن يسكنها جادوا بأنفسهم وهي أنفس الاعلاق

والجود بها غاية الجود، وجاد الله عليهم بالجنة وهي أعظم ما يطلبه العباد ويتوسلون اليه بالاعمال، والمراد بالانفس هنا انفس المجاهدين، وبالاموال ما ينفقونه في الجهاد أو في جميع وجوه البر والطاعات، ويدخل فيها الجهاد دخولاً أولياً.

قال أهل المعاني: لا يجوز أن يشتري الله شيئاً في الحقيقة لأن المشتري إنما يشتري ما لا يملكه والاشياء كلها ملك لله عز وجل، ولهذا قال الحسن: انفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقنا إياها، لكن جرى هذا مجرى التلطف في الدعاء إلى الطاعة والجهاد وجعل ذلك استبدالاً وشراء، ودخلت الباء هنا على المتروك على بابها وسماها أبو البقاء باء المقابلة كقولهم باء العوض وباء الثمنية.

وقرأ عمر بن الخطاب بالجنة، عن جابر بن عبدالله قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في المسجد كبر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية قال: نعم، فقال الأنصاري: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل.

وقد أخرج ابن سعد عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم اشترط في بيعة العقبة على من بايعه من الأنصار أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة والسمع والطاعة ولا ينازعوا في الأمر أهله، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم قالوا نعم، قال قائل الأنصار نعم لك هذا يا رسول الله فما لنا قال الجنة، وأخرجه ابن سعد أيضاً من وجه آخر، وليس في قصة العقبة ما يدل على انها سبب نزول الآية.

﴿يقاتلون في سبيل الله﴾ استئناف لبيان البيع الذي يقتضيه الاشتراء المذكور لا لبيان نفس الاشتراء، لأن قتالهم في سبيل الله ليس باشتراء من الله أنفسهم وأموالهم كأنه قيل كيف يبيعونها بالجنة فقيل يقاتلون، وقيل فيه معنى الأمر أي قاتلوا في سبيله.

ثم بين هذه المقاتلة بقوله: ﴿فيقتلون﴾ أعداء الله ﴿ويُقتلون﴾ في طاعته والمراد أنهم يقدمون على قتل الكفار في الحرب ويبذلون أنفسهم في ذلك، فإن فعلوا فقد استحقوا الجنة، وان لم يقع القتل عليهم بعد الابلاء في الجهاد والتعرض للموت بالإقدام على الكفار، وتقديم حالة القاتلية على حالة المقتولية للايذان بعدم الفرق بينهما في كونهما مصداقاً لكون القتال بذلاً للنفس.

وفي قراءة بتقديم المبنى للمفعول رعاية لكون الشهادة عريقة في الباب، وايذاناً بعدم مبالاتهم بالموت في سبيل الله بل بكونه أحب اليهم من السلامة أي فيقتل بعضهم، ويقاتل الباقي يعني لا يشترط اجتماع الأمرين في الشخص الواحد بل يتحقق الفضل العظيم وان لم يوجد واحد من الوصفين كما إذا وجدت المضاربة من غير قتل بل يتحقق الجهاد بمجرد العزم وتكثير السواد.

﴿وعداً عليه حقاً﴾ مصدران منصوبان بفعلهما المحذوف أي وعدهم وعداً وحق ذلك الوعد حقاً أي تحقق وثبت اخبار من الله سبحانه بأن فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من الله.

﴿في التوراة والانجيل والقرآن﴾ أي كما وقع في القرآن وفيه وجهان (أحدهما) أنه متعلق باشترى وعلى هذا ففيه دليل على أن الأمر بالجهاد موجود في جميع الشرائع ومكتوب على جميع أهل الملل وكل أمة وعدت عليه بالجنة (والثاني) أنه متعلق بمحذوف والمعنى وعداً مذكوراً كائناً في التوراة وعلى هذا فيكون الوعد بالجنة لهذه الأمة مذكوراً في كتب الله المنزلة.

﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ في هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين في الجهاد والتنشيط لهم على بذل الانفس والاموال ما لا يخفى، فإنه أولاً أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة وجاء بهذه العبارة الفخيمة وهي كون الجنة قد صارت ملكاً لهم، ثم أخبر ثانياً بأنه قد وعد بذلك في كتبه

المنزلة ثم أخبر ثالثاً بأنه بعد هذا الوعد الصادق لا بد من حصول الموعود به فانه لا أحد أوفى بعهده من الله سبحانه وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد، فان إخلاف الوعد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع امكان صدوره منهم، فكيف بجناب الخلاق الغني عن العالمين جل جلاله، فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقية الوعد على نهج المبالغة في كونه أوفى بالعهد من كل واف.

ثم زادهم سروراً وحبوراً فقال: ﴿فاستبشروا ببيعكم﴾ البشارة هي إظهار السرور وظهوره يكون في بشرة الوجه، ولذا يقال أسارير الوجه أي التي يظهر فيها السرور، والسين ليست للطلب كاستوقد وأوقد بل للمطاوعة وقد تقدم ايضاح هذا والفاء لترتيب الاستبشار أو الامر به على ما قبله، والمعنى أظهروا السرور وافرحوا غاية الفرح بهذا البيع.

﴿الذي بايعتم به﴾ الله عز وجل فقد ربحتم فيه ربحاً لم يربحه أحد من الناس إلا من فعل مثل فعلكم، وفيه التفات عن الغيبة تشريفاً لهم على تشريف وزيادة لسرورهم على سرور، وفيه زيادة تقرير بيعهم واشعار بكونه مغايراً لسائر البياعات، فإنه بيع للفاني بالباقي وكلا البدلين له سبحانه وتعالى.

والاشارة بقوله: ﴿وذلك﴾ إلى الجنة أو إلى نفس المبيع الذي ربحوا فيه الجنة ﴿هو الفوز العظيم﴾ وصف الفوز وهو الظفر بالمطلوب بالعظيم يدل على أنه فوز لا فوز مثله، قال عمر بن الخطاب: ان الله بايعك وجعل الصفقتين لك، وقال الحسن: اسمعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن، وعنه أن الله أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها، وقال قتادة: ثامنهم فأغلى لهم، وقال الصادق: ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها.

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ
ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ
وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾

﴿التائبون﴾ رفع على المدح أي هم التائبون يعني المؤمنين والتائب الراجع أي هم الراجعون إلى طاعة الله عن الحالة المخالفة للطاعة، وقال الزجاج: عندي أن قوله التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر، أي التائبون ومن بعدهم إلى آخر الآية لهم الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا. قال: وهذا أحسن إذ لو كانت هذه أوصافاً للمؤمنين المذكورين لكان الوعد خاصاً بالمجاهدين.

وقد ذهب إلى هذا طائفة من المفسرين، وقيل إن الخبر قوله: ﴿الآمرون﴾ وقيل إن التائبون بدل من الضمير المستتر في يقاتلون، وذهب آخرون إلى أن هذه الأوصاف راجعة إلى المؤمنين في الآية الأولى وإنها على جهة الشرط، أي لا يستحق الجنة بتلك المبايعة إلا من كان من المؤمنين على هذه الأوصاف، وبه قال ابن عطية وقيل غير ذلك.

وجوز صاحب الكشاف أن يكون التائبون مبتدأ وخبره العابدون وما بعده اخبار كذلك أي التائبون عن الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال، وفيه من البعد ما لا يخفى.

ثم قيل المراد به التوبة عن الشرك والبراءة من النفاق وقيل من كل معصية، وقيل من جميع المعاصي، لأن اللفظ عام يتناول الكل، وحاصل ما ذكر أوصاف تسعة، الستة الأولى تتعلق بمعاملة الخالق، والسابع والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق، والتاسع يعم القبيلين. قاله الحفناوي، وأتى بترتيب هذه الصفات في الذكر على أحسن نظم، وهو ظاهر بالتأمل فإنه قدم التوبة

أولاً ثم ثنى بالعبادة إلى آخرها.

﴿العابدون﴾ أي القائمون بما أمروا به من عبادة الله مع الاخلاص ﴿الحامدون﴾ الذين يحمدون الله سبحانه على كل حال في السراء والضراء ويقومون بشكره على جميع نعمه دنيا وأخرى ﴿السائحون﴾ السياحة في اللغة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء وهي مما يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخلق ولما يحصل له من الاعتبار بالتفكر في مخلوقات الله سبحانه، فالسياحة لها أثر عظيم في تهذيب النفس وتحسين أخلاقها.

وفي القاموس السياحة بالكسر الذهاب في الأرض للعبادة ومنه المسيح بن مريم، وذكرت في اشتقاقه خمسين قولاً في شرحي لمختصر البخاري، والسائح الصائم الملازم للسياحة، قيل هم الصائمون، واليه ذهب جمهور المفسرين، وبه قال ابن مسعود ومنه قوله تعالى: ﴿عابدات سائحات﴾ وإنما قيل للصائم سائح لأنه يترك اللذات كلها كما يترك السائح في الأرض، قاله سفيان بن عيينة.

وقال الأزهري: سمي الصائم سائحاً لأن الذي يسيح في الارض متعبداً لا زاد معه فكان ممسكاً عن الاكل، وكذلك الصائم ممسك عنه، قال الزجاج: ومذهب الحسن أن السائحين هنا هم الذين يصومون الفرض، وقيل انهم الذين يديمون الصيام، وقال عطاء: السائحون هم الغزاة والمجاهدون، وقال عبد الرحمن بن زيد: هم المهاجرون، وقال عكرمة: هم الذين يسافرون لطلب الحديث، وقيل هم الحائرون بأفكارهم في توحيد ربهم وملكوته وما خلق من العبر، وقيل هم طلبة العلم مطلقاً لانهم ينتقلون من بلد إلى بلد في طلبه ويسيحون في الارض يطلبونه من مظانه ويدخل فيه طالب الحديث دخولاً أولياً.

﴿الراكعون الساجدون﴾ معناه المصلون المحافظون على الصلوات، وعبر

عنها بهما لانهما معظم أركانها وبهما يمتاز المصلي من غيره بخلاف غيرهما كالقيام والقعود لانهما حالتا المصلي وغيره ﴿الآمرون بالمعروف﴾ أي القائمون بأمر الناس بما هو معروف في الشريعة ﴿والناهون عن المنكر﴾ أي القائمون بالانكار على من فعل منكراً أي شيئاً ينكره الشرع.

قال الحسن: اما انهم لم يأمروا الناس بالمعروف حتى كانوا من أهله، ولم ينهوا عن المنكر حتى انتهوا عنه، لم يأت بعاطف بين هذه الاوصاف لمناسبتها لبعضها إلا في هذين الوصفين للمضادة بينهما اذ الاول طلب فعل والثاني طلب ترك أو كف ﴿والحافظون لحدود الله﴾ أي القائمون بحفظ شرائعه التي أنزلها الله في كتبه وعلى لسان رسله، وقيل بطاعة الله.

وقال الحسن: بفرائض الله وهم أهل الوفاء ببيعة الله، وقيل بأوامره ونواهيه أو بمعالم الشرع، وقيل إن العطف في الصفات يجيء بالواو وبغيرها، كقوله: ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾ وقيل إن الواو زائدة، وقيل هي واو الثمانية المعروفة عند النحاة كما في قوله تعالى: ﴿ثيبات وأبكاراً﴾ وقوله: ﴿وفتحت أبوابها﴾ وقوله: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾.

وقد أنكر واو الثمانية أبو علي الفارسي وناظره في ذلك ابن خالويه، قال الخفاجي: وقائل هذا القول يعني كون السبع عدداً تاماً هو أبو البقاء تبعاً لغيره ممن أثبت واو الثمانية، وهو قول ضعيف لم يرضه النحاة كما فصله صاحب المغني اهـ والحافظ ابن القيم في البدائع.

﴿وبشر المؤمنين﴾ الموصوفين بالصفات السابقة بالجنة، عن ابن عباس قال: من مات على هذه التسع فهو في سبيل الله، ومن مات وفيه تسع فهو شهيد، وفيه إظهار في مقام الإضمار للتنبيه على علة الحكم أي سبب استحقاقهم الجنة هو إيمانهم وحذف المبشر به لخروجه عن حد البيان.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

﴿ما كان﴾ أي لا يصح ولا ينبغي ولا يجوز ﴿للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ لما بين الله سبحانه في أول السورة وما بعده أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة، بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً وصرح بأن ذلك متحتم ﴿ولو كانوا أولي قربى﴾ فإن القرابة في مثل هذا الحكم لا تأثير لها.

وقد ذكر أهل التفسير أن ﴿ما كان﴾ في القرآن يأتي على وجهين (الأول) على النفي نحو ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله، والآخر على النهي نحو ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله.

﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ هذه الجملة تتضمن التعليل للنهي عن الاستغفار، والمعنى ان هذا التبين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا، وعدم الاعتداد بالقرابة لأنهم ماتوا على الشرك، وقد قال سبحانه ﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به﴾ فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده.

عن عليّ قال: أخبرت النبي صلى الله عليه وسلم بموت أبي طالب فبكى فقال: اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه، ففعلت وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أياماً ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه ﴿ما كان للنبي﴾ الآية.

وقد روى في سبب نزول الآية استغفار النبي ﷺ لأبي طالب من طرق كثيرة وأصله في الصحيحين، وما فيها مقدم على ما لم يكن فيهما على فرض أنه صحيح فكيف وهو ضعيف غالبه، وقيل إن أريد بطلب المغفرة للكافر هدايته للاسلام قبل الموت جاز الاستغفار له، وإن أريد به أن يغفر ذنبه مع بقائه على الكفر لم يجز فمفهوم هذه الآية فيه تفصيل.

وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار وتحريم الاستغفار لهم والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافراً، ولا ينافي هذا ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال يوم أحد حين كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» لأنه يمكن أن يكون ذلك قبل أن يبلغه تحريم الاستغفار لهم.

وعلى فرض انه قد كان بلغه كما يفيده سبب النزول فإنه قبل يوم أحد بمدة طويلة فصدور هذا الاستغفار منه لقومه إنما كان على سبيل الحكاية عمن تقدمه من الأنبياء كما في صحيح مسلم عن عبدالله قال: كأني أنظر الى النبي صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه ويمسح الدم عن وجهه ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1].

﴿وما كان استغفار ابراهيم لأبيه﴾ بقوله واغفر لأبي أي بأن توفقه للايمان وتهديه اليه، وجه تعلق هذه الآية بما قبلها انه تعالى لما بالغ في وجوب الانقطاع عن المشركين الأحياء منهم والأموات بين أن هذا الحكم غير مختص بدين محمد صلى الله عليه وسلم بل هو مشروع أيضا في دين ابراهيم فتكون المبالغة في وجوب الانقطاع أكمل وأقوى.

---

(١) مسلم ١٧٩٢ ـ البخاري ١٦٣٣.

﴿إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ ذكر سبحانه السبب في استغفار ابراهيم لأبيه انه كان لأجل وعد تقدم من ابراهيم لأبيه بالاستغفار له، والاستثناء مفرغ من أعم العلل أي لم يكن استغفاره لأبيه ناشئاً عن شيء ولأجل شيء إلا عن موعدة مبنية على عدم تبين أمره وعدها إياه أي لأجلها.

﴿فلما تبين له انه عدو لله﴾ مصر على العداوة والكفر ومستمر عليه، وانه غير مستحق للاستغفار بموته على الكفر ﴿تبرأ منه﴾ وترك الاستغفار له، وهذا يدل على انه انما وعده قبل أن يتبين له انه من أهل النار ومن أعداء الله، فلا حاجة إلى السؤال الذي يورده كثير من المفسرين انه كيف خفي ذلك على ابراهيم فإنه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن أصر على الكفر ومات عليه وهو لم يعلم ذلك إلا بإخبار الله سبحانه له بأنه عدو لله، فإن ثبوت هذه العداوة يدل على الموت على الكفر، وكذلك لم يعلم نبينا صلى الله عليه وآله وسلم بتحريم ذلك إلا بعد أن أخبره الله بهذه الآية، وهذا حكم انما يثبت بالسمع لا بالعقل.

وقيل المراد من استغفار ابراهيم لأبيه دعاؤه الى الاسلام وهو ضعيف جداً وقيل المراد به هنا النهي عن الصلاة على جنائز الكفار فهو كقوله تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ ولا حاجة الى تفسير الاستغفار بالصلاة ولا ملجىء إلى ذلك.

ثم ختم الله سبحانه هذه الآية بالثناء العظيم على ابراهيم فقال: ﴿ان ابراهيم﴾ استئناف مسوق لبيان الحامل له على الاستغفار قبل التبين فليس لغيره أن يقتدي به فيه إذ ليس لغيره ما له من الرأفة والرقة، فلا بد من أن يكون غيره أكثر اجتناباً وتبرياً ﴿لأواه﴾ هو كثير التأوه كما تدل على ذلك صيغة المبالغة، وبه قال كعب الاحبار، وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه، والتأوه أن يقول الرجل عند الشكاية والتوجع آه، وقد أوّه الرجل تأويها، وتأوه تأوها

اذا قال: أوّه أي أتوجع.

وحكى قطرب: يقال آه يؤه كقام يقوم أوهاً، وأنكر النحويون هذا القول عليه، وقالوا: لا يقال من أوه فعل ثلاثي.

وقد اختلف أهل العلم في معنى الاواه، فقال ابن مسعود وعبيد بن عمير انه الذي يكثر الدعاء وقال الحسن وقتادة: انه الرحيم بعباد الله. وروي عن ابن عباس: انه المؤمن التواب بلغة الحبش، وقال الكلبي: انه الذي يذكر الله في الارض القفر، وروي مثله عن ابن المسيب، وقيل الذي يكثر الذكر من غير تقييد، روي ذلك عن عقبة بن عامر.

وقيل هو الذي يكثر التلاوة؛ وقيل انه الفقيه، قاله مجاهد والنخعي، وقيل المتضرع الخاضع روي ذلك عن عبدالله بن شداد، وقيل الموقن قاله مجاهد، وقيل هو الذي إذا ذكر خطاياه استغفر لها روي ذلك عن أبي أيوب، وقيل هو الشفيق قاله عبد العزيز بن يحيى، وقيل هو المسيح قاله سعيد بن جبير، وقال أبو عبيدة هو المتأوه شفقاً وفرقاً المتضرع ايقاناً ولزوماً للطاعة.

قال الزجاج: انتظم في قول أبي عبيدة جميع ما قيل في الاواه، وقيل انه المعلم للخير؛ وقيل انه الراجع عن كل ما يكرهه الله الخائف من النار، قاله عطاء، والمطابق لمعنى الاواه لغة أن يقال إنه الذي يكثر التأوه من ذنوبه فيقول مثلا آه من ذنوبي، آه مما أعاقب به بسببها ونحو ذلك، وبه قال الفراء: وهو مروى عن أبي ذر.

وكان ابراهيم عليه السلام يكثر أن يقول أوّه من النار قبل أن لا ينفع أوه، وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء والفعل منه أوه قال في الصحاح وقد أوه الرجل تأويهاً وتأوه تأوها والاسم منه الآهة

بالمد، قال المثقب العبدي:

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آهة الرجل الحزين

وعن ابن شداد بن الهاد قال: قال رجل يا رسول الله ما الأواه قال: الخاشع المتضرع في الدعاء، أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ وابن أبي حاتم، وفيه شهر بن حوشب فيه الخلاف وهذا ان ثبت وجب المصير اليه وتقديمه على ما ذكره أهل اللغة في معنى الأواه.

﴿حليم﴾ الكثير الحلم كما تفيده صيغة المبالغة، وهو الذي يصفح عن الذنوب ويصبر على الاذى ثم يقابله بالاحسان واللطف كما فعل ابراهيم مع أبيه حين قال له لئن لم تنته لأرجمنك فأجابه بقوله: ﴿سلام عليك سأستغفر لك ربي﴾ وقيل الذي لا يعاقب أحداً قط إلا لله، قال ابن عباس: كان من حلمه إذا آذاه الرجل من قومه قال له هداك الله، وقيل الحليم السيد.

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم﴾ لما نزلت الآية المتقدمة في النهي عن الاستغفار للمشركين خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار فأنزل الله هذه الآية أي ان الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم ولا يسميهم ضلالاً بعد أن هداهم إلى الاسلام والقيام بشرائعه ما لم يقدموا على شيء من المحرمات بعد أن تبين لهم أنه محرم، وأما قبل ان يتبين لهم ذلك فلا اثم عليهم ولا يؤاخذون به؛ وهذا مثل قوله في آل عمران [بعد إذ هديتنا] وفيه وجهان .أي بعد ان هداهم أو بعد وقت هداهم فيه يعني إذ بمعنى أن أو انها ظرف بمعنى وقت.

﴿حتى يبين لهم ما يتقون﴾ أي ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع وقال الضحاك: ما يأتون وما يذروف، وقال مقاتل والكلبي: هذا في المنسوخ أي ما كان الله ليبطل عمل قوم قد عملوا بالمنسوخ حتى يبين الناسخ، قال ابن عباس: نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الاسارى قال: لم يكن لكم ان تأخذوه حتى يؤذن لكم ولكن ما كان الله ليعذب قوماً بذنب أذنبوه حتى يبين لهم ما يتقون أي ينهاهم قبل ذلك.

وقال مجاهد: بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة وبيانه لهم في طاعته ومعصيته عامة فافعلوا أو اتركوا ﴿ان الله بكل شيء عليم﴾ مما يحل لعباده ويحرم عليهم ومن سائر الاشياء التي خلقها ومنه مستحق الاضلال والهداية.

إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

ثم بين لهم ﴿إن الله﴾ سبحانه ﴿له ملك السموات والأرض﴾ لا يشاركه في ذلك مشارك، ولا ينازعه منازع يتصرف في ملكه بما يشاء من التصرفات التي من جملتها انه ﴿يحيي ويميت﴾ من قضت مشيئته باحيائه وبإماتته ﴿وما لكم﴾ أي لعباده ﴿من دون الله من ولي﴾ يواليهم ﴿ولا نصير﴾ ينصرهم فلا يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى، فإن القرابة لا تنفع شيئاً ولا تؤثر أثراً بل التصرف في جميع الأشياء لله وحده.

﴿لقد تاب الله﴾ أي أدام توبته ﴿على النبي﴾ فيما وقع منه صلى الله عليه وسلم من الاذن في التخلف أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين، وليس من لازم التوبة ان يسبق الذنب ممن وقعت منه أو له لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار، وقد يكون التوبة منه على النبي من باب أنه ترك ما هو الأولى والاليق كما في قوله عفا الله عنك لم أذنت لهم.

ويجوز أن يكون ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لأجل التعريض للمذنبين بأن يتجنبوا الذنوب ويتوبوا عما قد لابسوه منها، قال أهل المعاني: هو مفتاح كلام للتبرك وفيه تشريف لهم في ضم توبتهم الى توبة النبي صلى الله عليه وسلم كما ضم اسم الرسول إلى اسم الله في قوله: ﴿فإن لله خمسه وللرسول﴾ فهو تشريف له.

﴿و﴾ كذلك تاب الله سبحانه على ﴿المهاجرين والانصار﴾ فيما قد

اقترفوه من الذنوب، ومن هذا القبيل ما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله ان الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، والانسان لا يخلو من زلات وتبعات في مدة عمره إما من باب الصغائر واما من باب ترك الافضل.

ثم وصف سبحانه المهاجرين والانصار بأنهم ﴿الذين اتبعوه﴾ أي النبي صلى الله عليه وسلم فلم يتخلفوا عنه ﴿في ساعة العسرة﴾ هي غزوة تبوك فانهم كانوا فيها في عسرة شديدة، وقد ذكر بعض العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم سار الى تبوك في سبعين ألفاً ما بين راكب وماش من المهاجرين والانصار وغيرهم من سائر القبائل، فالمراد بالساعة أوقات جميع تلك الغزاة ولم يرد ساعة بعينها، والعسرة صعوبة الامر والشدة والضيق.

وقد وقع الاتفاق بين الرواة ان ساعة العسرة هي غزوة تبوك وتسمى غزوة العسرة، والجيش الذي سار يسمى جيش العسرة لانه كان عليهم عسرة في الزاد والظهر والماء.

وأخرج ابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن ابن عباس انه قال لعمر بن الخطاب: حدثنا من شأن ساعة العسرة فقال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا ان رقابنا ستنقطع حتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله ان الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء؛ فأهطلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر.

﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ في كاد ضمير الشأن بيان

لتناهي الشدة وبلوغها النهاية، ومعنى يزيغ يتلف بالجهد والمشقة والشدة، وقيل معناه يميل عن الحق ويترك المناصرة والممانعة، وقيل معناه يهم بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدة العظيمة، وفي قراءة ابن مسعود من بعد ما زاغت وهم المتخلفون على هذه القراءة.

وفي تكرير التوبة عليهم بقوله : ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ تأكيد ظاهر واعتناء بشأنها ، هذا إن كان الضمير راجعاً إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم وان كان الضمير الى الفريق الثاني فلا تكرار ، وذكر التوبة أولاً قبل ذكر الذنب تفضلاً منه وتطييباً لقلوبهم ، ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى تعظيماً لشأنهم ، وليعلموا أنه تعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم .

ثم أتبعه بقوله : ﴿ انه بهم رؤوف رحيم ﴾ تأكيداً لذلك أي رفيق بعباده لأنه لم يحملهم ما لا يطيقون من العبادات ، وبين الرؤوف والرحيم فرق لطيف وان تقاربا في المعنى ، قال الخطابي : قد تكون الرحمة مع الكراهة ولا تكاد الرأفة تكون معها ، وقيل الرأفة عبارة عن السعي في ازالة الضرر ، والرحمة عبارة عن السعي في ايصال النفع .

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

﴿و﴾ تاب ﴿على الثلاثة الذين خُلفوا﴾ أي أخروا ولم تقبل توبتهم في الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم، قال ابن جرير معنى خلفوا تركوا يقال خلفت فلاناً فارقته، وقرىء خلفوا بالتخفيف أي أقاموا بعد نهوض رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الى الغزو، وقرىء خالفوا، وقيل معنى خلفوا فسدوا مأخوذ من خلوف الفم، وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع أو ابن ربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي، وكلهم من الأنصار لم يقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم توبتهم حتى نزل القرآن بأن الله قد تاب عليهم.

﴿حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ كناية عن شدة التحير وعدم الاطمئنان، يعني أخروا عن قبول التوبة الى هذه الغاية وهي وقت أن ضاقت عليهم الأرض برحبها لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى الناس أن يكالموهم، والرحب الواسع يقال منزل رحب ورحيب وراحب والمضموم مصدر والمفتوح مكان، وفي هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصي تأديباً لهم لينزجروا عن المعاصي.

﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ أي أنها ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة وشدة الغم والحزن ومجانبة الناس اياهم وترك كلامهم فلا يسعها سرور ولا أنس، وعبر بالظن في قوله: ﴿وظنوا﴾ عن العلم أي علموا وأيقنوا ﴿ان لا ملجأ﴾ يلجؤون اليه قط ﴿من الله﴾ أي من عذابه أو من سخطه ﴿الا اليه﴾ سبحانه بالتوبة والاستغفار.

﴿ثم تاب﴾ أي رجع ﴿عليهم﴾ بالقبول والرحمة وأنزل في القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان إن فرطت منهم خطيئة ﴿ليتوبوا﴾ عنها ويرجعوا فيها الى الله ويندموا على ما وقع منهم ويحصلوا التوبة وينشؤوها فحصل التغاير وصح التعليل ﴿ان الله هو التواب﴾ أي الكثير القبول لتوبة التائبين ﴿الرحيم﴾ أي الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده.

قال أبو بكر الوراق: التوبة النصوح ان تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة، وفيه دليل على أن قبول التوبة بمحض الرحمة والكرم والرأفة والاحسان من الله تعالى، وأنه لا يجب عليه شيء.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ في مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ هذا الأمر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة يفيد الاشارة إلى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة الله، وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم، قال نافع: قيل للثلاثة كونوا مع محمد وأصحابه. وقال سعيد بن جبير: كونوا مع أبي بكر وعمر وزاد الضحاك وأصحابهما وعن ابن عباس مع علي بن أبي طالب، وعن جعفر قال: مع الثلاثة الذين خلفوا.

قال ابن جرير: مع المهاجرين وقيل مع الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ الى تبوك، وقيل مع الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالاعذار الباطلة، وهذه الآية تدل على فضيلة الصدق.

روي أن أبا بكر احتج بهذه الآية على الأنصار في يوم السقيفة حين قال الأنصار منا أمير ومنكم أمير، فقال: إن الله يقول في كتابه ﴿للفقراء المهاجرين﴾ الى قوله: ﴿أولئك هم الصادقون﴾ فمن هؤلاء قال الأنصار أنتم هم؛ فقال إن الله يقول: ﴿اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ فأمركم أن تكونوا معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

قيل والآية تدل على أن الإجماع حجة لأنه أمر بالكون مع الصادقين فلزم قبول قولهم، وقيل مع بمعنى من، أي كونوا منهم والله أعلم.

﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحريم التخلف عنه أي ما صح وما استقام لهم ولمن حولهم كمزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار أن يتخلفوا عنه صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وقيل هو عام في كل الأعراب لأن اللفظ عام وحمله على العموم أولى، وإنما خصهم الله سبحانه لانهم قد استنفروا فلم ينفروا بخلاف غيرهم من العرب فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن زيد: هذا حين كان الاسلام قليلاً لم يكن لأحد أن يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كثر الاسلام وفشا قال الله: وما كان المؤمنون لينفروا كافة.

﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ أي وما كان لهم ذلك فيشحون بها ويصونونها ولا يشحون بنفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها، يقال رغبت عن كذا أي ترفعت عنه وأعرضت.

والمعنى ولا يجعلوا أنفسهم راغبة معرضة عما ألقى فيه نفسه الكريمة، بل

واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاء، ويبذلوا أنفسهم دون نفسه بأن يصحبوه على البأساء والضراء علما بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه، فإذا تعرضت مع عزتها وكرامتها للخوض في شدة وهول، وجب على سائر الانفس أن تتهافت فيما تعرضت له ولا يكترث بها أصحابها ولا يقيموا لها وزناً وتكون أخف شيء عليهم وأهونه.

وفي هذا الإخبار معنى الامر لهم مع ما يفيده ايراده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم والتقريع الشديد والتهييج لهم والازراء عليهم.

والاشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ الى ما يفيده السياق من وجوب المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي ذلك الوجوب ﴿بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة﴾ أي بسبب انهم مثابون على أنواع المتاعب وأصناف الشدائد، والظمأ العطش والنصب التعب، والمخمصة المجاعة الشديدة التي يظهر عندها ضمور البطن، وتوسيط كلمة لا ههنا للدلالة على استقلال كل واحد منها بالفضيلة والاعتداد به.

ومعنى ﴿في سبيل الله﴾ في طاعة الله ﴿ولا يطأون موطئاً يغيظ﴾ بفتح الياء باتفاق السبعة وان كان يجوز لغة ضمها إذ يقال لغة غاظه وأغاظه بمعنى واحد، أي يغضب ﴿الكفار﴾ أي لا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأقدامهم، أو بحوافر خيولهم أو بأخفاف رواحلهم، فيحصل بسبب ذلك الغيظ والغم والحزن للكفار، والمَوْطِيء اسم مكان ويجوز أن يكون مصدراً، وفيه أن المدد يشارك الجيش في الغنيمة بعد انقضاء الحرب لان وطء ديارهم مما يغيظهم.

﴿ولا ينالون﴾ أي لا يصيبون ﴿من عدو نيلاً﴾ أي قتلاً وأسراً أو هزيمة أو غنيمة وأصله من نلت الشيء أنال أي أصبت، قال الكسائي: هو من قولهم أمر منيل منه، وليس هو من التناول إنما التناول من نلته بالعطية، قال

غيره نلت أنول من العطية ونلته أناله أدركته.

﴿إلا كتب لهم به﴾ أي بكل واحد من الامور الخمسة ﴿عمل صالح﴾ حسنة مقبولة يجازيهم بها وثواب عمل صالح قد ارتضاه لهم وقبله منهم بحكم الوعد الكريم للثواب الجميل ونيل الزلفى.

قال الاوزاعي وجماعة من الأئمة: هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة، وقال قتادة: هذا الحكم خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم والاول أولى، وفي الآية دليل على أن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله وكان سعيه مشكوراً.

﴿ان الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ جملة في حكم التعليل لما سبق مع كونه يشمل كل محسن ويصدق على المذكورين هنا صدقاً أولياً، والعدول من الاضمار إلى الاظهار لأجل مدحهم.

وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾ أي ولا يقع منهم الانفاق في الحرب أو في سبيل الله، وإن كان شيئاً حقيراً صغيراً يسيراً، كتمرة فما دونها أو أكثر منها حتى علاقة سوط ﴿ولا يقطعون وادياً﴾ مقبلين أو مدبرين فيه، وهو في الأصل كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل؛ والعرب تقول واد وأودية على غير قياس، قال النحاس: ولا يعرف فيما علمت فاعل وأفعلة، والمراد هنا مطلق الارض، قاله الخفناوي.

﴿إلا كتب لهم﴾ ذلك الذي عملوه من النفقة والسفر في الجهاد ﴿ليجزيهم الله﴾ به ﴿احسن﴾ جزاء ﴿ما كانوا يعملون﴾ من الاعمال، وقال الرازي: الاحسن من صفة أفعالهم وفيها الواجب والمندوب والمباح، فالله يجزيهم على الاحسن، وهو الواجب والمندوب دون المباح والاول أولى.

وقيل يجزيهم على كل واحد جزاء أحسن عمل كان لهم فيلحق ما دونه به توفيراً لأجرهم، وفي الآية دليل على فضل الجهاد وانه من أحسن أعمال العباد.

وقد ذهب جماعة إلى أن هذه الآية منسوخة بالآية المذكورة بعدها وهي قوله ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ فإنها تدل على جواز التخلف من البعض مع القيام بالجهاد من البعض، واختلف المفسرون في معنى هذه الآية؛ فذهب جماعة إلى أنه من بقية أحكام الجهاد، لأنه سبحانه لما بالغ في الامر بالجهاد والانتداب إلى الغزو وكان المسلمون اذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

سرية إلى الكفار ينفرون جميعاً ويتركون المدينة خالية، فأخبرهم الله سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك، أي ما صح ولا استقام أن ينفروا جميعاً.

﴿فلولا﴾ تحضيضية فالمعنى على الطلب أي فهلا ﴿نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ الطائفة في اللغة الجماعة، أي بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرق، ويبقى من عدا هذه الطائفة النافرة، قالوا ويكون الضمير في قوله: ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ عائداً إلى الفرقة الباقية، والمعنى أن طائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو ومن بقي من الفرقة يقفون لطلب العلم ويعلمون الغزاة أو يذهبون في طلبه إلى المكان الذي يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذوا عنه الفقه في الدين.

﴿ولينذروا قومهم﴾ عطف علة ففيه إشارة إلى انه ينبغي أن يكون غرض المتعلم الاستقامة وتبليغ الشريعة لا الترفع على العباد والتبسط في البلاد كما هو دأب أبناء الزمان ﴿اذا رجعوا﴾ أي وقت رجوعهم ﴿اليهم﴾ من الغزو.

وذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد، وهي حكم مستقل بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم والتفقه في الدين، جعله الله سبحانه متصلاً بما دل على إيجاب الخروج الى الجهاد فيكون السفر نوعين (الاول) سفر الجهاد (والثاني) السفر لطلب العلم، ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون اذا لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفر.

والفقه هو العلم بالاحكام الشرعية وبما يتوصل به الى العلم بها من لغة ونحو وصرف وبيان وأصول، وقد جعل الله سبحانه الغرض من هذا هو التفقه في الدين وانذار من لم يتفقه، فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين، وهما تعلم العلم وتعليمه، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين فهو طالب لغرض دنيوي لا لغرض ديني.

﴿لعلهم يحذرون﴾ الترجي لوقوع الحذر منهم عن التفريط فيما يجب

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

فعله فيترك أو فيما يجب تركه فيفعل، واستدل به على أن أخبار الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضي أن ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفة إلى التفقه لتنذر فرقتها كي يتذكروا ويحذروا فلو لم تعتبر الاخبار ما لم تتواتر لم يفد ذلك.

﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ في هذا الفعل لغتان أكثرهما وليه يليه بالكسر فيهما والثانية من باب وعد وهي قليلة الاستعمال، وجلست مما يليه أي يقاربه، وكأن الآية جاءت على اللغة الثانية وأصله يليون أي الاقرب فالاقرب منهم.

أمر سبحانه المؤمنين بأن يجتهدوا في مقاتلة من يليهم من الكفار في الدار والبلاد والنسب، قيل مثل قريظة والنضير وخيبر ونحوها، قاله ابن عباس.

وقال ابن عمر: هم الروم لأنهم كانوا سكان الشام والشام أقرب الى المدينة من العراق، وقيل هم الديلم، وقال ابن زيد: هم العرب فقاتلوهم حتى فرغوا منهم، ثم أمروا بقتال أهل الكتاب وجهادهم حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم وأن يأخذوا في حربهم بالغلظة والشدة كما قال.

﴿وليجدوا﴾ أي ليدركوا ﴿فيكم غلظة﴾ أي شدة وقوة وشجاعة، قال الخفاجي: قالوا انها كلمة جامعة للجرأة والصبر على القتال وشدة العدواة والانف في القتل والاسر، وظاهرها أمر الكفار بأن يجدوا في المؤمنين غلظة، والمقصود أمر المؤمنين بالاتصاف بصفات كالصبر وما معه حتى يجدهم الكفار المتصفين بها

فهي على حد قولهم لا أرينك ههنا، والغلظة بالكسر ضد الرقة وهي لغة أسد، والفتح لغة أهل الحجاز والضم لغة تميم.

حكى أبو عمرو اللغات الثلاث وبها قرىء لكن السبعة على الكسر، والغلظة أصلها في الاجرام فاستعيرت هنا للشدة والتجلد والصبر، وقال الحسن: صبراً على جهادهم والجهاد واجب لكل الكفار وان كان الابتداء بمن يلي المجاهدين منهم أهم وأقدم ثم الاقرب فالاقرب.

ونقل عن بعض العلماء أنه قال أنزلت هذه الآية قبل الأمر بقتال المشركين كافة فلما نزلت ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ صارت ناسخة لهذه الآية.

وقال المحققون من العلماء: ولا وجه للنسخ فإنه تعالى أمرهم بقتالهم كافة وأرشدهم الطريق الأصوب الاصلح وهو أن يبدؤوا بقتال الأقرب فالاقرب قرباً مكانياً لا قرباً نسبياً حتى يصلوا الى الأبعد فالأبعد، وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لأن قتالهم في دفعة واحدة لا يتصور، ولهذا السبب قد قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً قومه، ثم انتقل منهم إلى قتال سائر العرب ثم الى قتال أهل الكتاب، وهم قريظة والنضير وخيبر وفدك، ثم انتقل الى غزو الروم والشام فكان فتحه في زمن الصحابة ثم انهم انتقلوا الى العراق ثم بعد ذلك إلى سائر الأمصار لأنه إذا قاتل الأقرب أولاً تقوى بما ينال منهم من الغنائم على الأبعد.

ثم أخبرهم الله بما يقوي عزائمهم ويثبت أقدامهم فقال: ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بالنصرة لهم وتأييدهم على عدوهم ومن كان الله معه لم يقم له شيء.

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾

﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ حكاية منه سبحانه لبقية فضائح المنافقين أي والحال إذا ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم سورة من كتابه العزيز ﴿فمنهم﴾ أي فمن المنافقين ﴿من يقول﴾ لاخوانه منهم ﴿أيكم زادته هذه﴾ السورة النازلة ﴿إيماناً﴾ يقولون هذا استهزاء بالمؤمنين، ويجوز أن يقولوه لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم على الإسلام وتزهيدهم فيه، وقد تقدم بيان معنى السورة ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ حكى الله سبحانه بعد مقالتهم هذه ان المؤمنين زادتهم إيماناً الى إيمانهم لتصديقهم بها، والزيادة ضم شيء إلى آخر من جنسه مما هو في صفته، وقد تقدم الكلام على زيادة الايمان ﴿وهم يستبشرون﴾ أي والحال انهم يفرحون مع هذه الزيادة بنزول الوحي شيئا بعد شيء وما يشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية.

﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ وهم المنافقون، والمراد بالمرض هنا الشرك والنفاق ﴿فزادتهم﴾ السورة المنزلة ﴿رجساً الى رجسهم﴾ أي خبثاً مضموماً إلى خبثهم الذي هم عليه من الكفر وفساد الاعتقاد، واظهار غير ما يضمرونه، ولذا عدى بإلى، وقيل ان إلى بمعنى مع، وسمي الكفر رجساً لأنه أقبح الأشياء وأصل الرجس في اللغة الشيء المستقذر ﴿وماتوا وهم كافرون﴾ أي وثبتوا واستمروا عليه إلى أن ماتوا كفاراً منافقين، وقيل المعنى زادتهم اثماً إلى اثمهم.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

﴿أولا يرون﴾ قرىء بالتحتية وبالفوقية خطاباً للمؤمنين، وقرأ الأعمش ألم يروا، وقرأ طلحة أولا ترى خطاباً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم والهمزة على القراءة بالياء للانكار والتوبيخ، وعلى الخطاب للتعجيب والرؤية قلبية أو بصرية ﴿انهم يفتنون﴾ يختبرون، قاله ابن جرير وغيره أو يبتليهم الله بالقحط والشدة والجوع والسنة قاله مجاهد، وقال ابن عطية: بالامراض والاوجاع، وقال قتادة: بالغزو والجهاد مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ وقال الحسن: بالعدو.

﴿في كل عام مرة أو مرتين﴾ عن أبي سعيد قال: كانت لهم في كل عام كذبة أو كذبتان قال حذيفة: فيضل بها فئام من الناس كثير، وقيل انهم يفتضحون باظهار نفاقهم، وقيل ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون؛ وقيل ينقضون عهدهم في السنة مرة أو مرتين ويرون ما وعد الله من النصر.

﴿ثم لا يتوبون﴾ بسبب ذلك من النفاق ونقض العهد ولا يرجعون إلى الله مع ان الابتلاء يقتضي الرجوع والتذكر، وثم للعطف على يرون ﴿ولا هم يذكرون﴾ أي لا يرون ولا ينظرون ولا يتعظون، وهذا تعجيب من الله سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين وتصلبهم في النفاق واهمالهم للنظر والاعتبار.

ثم ذكر الله سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة بعد ذكره لما كانوا يقولونه فقال: ﴿واذا ما أنزلت سورة﴾ فيها عيب المنافقين وذكرهم وتوبيخهم وقرأها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿نظر بعضهم﴾ أي بعض المنافقين ﴿إلى

بعض﴾ آخر وتغامز بالعيون إنكاراً لها أو سخرية أو غيظاً لما فيها من عيوبهم.

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العلم انه قال: ﴿نظر﴾ في هذه الآية موضوع موضع قال أي قال بعضهم لبعض ﴿هل يراكم من أحد﴾ من المؤمنين لننصرف عن المقام الذي ينزل فيه الوحي فانه لا صبر لنا على استماعه أو لنتكلم بما نريد من الطعن والسخرية والضحك، وقيل المعنى وإذا أنزلت سورة ذكر الله فيها فضائح المنافقين ومخازيهم قال بعض من يحضر مجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم للبعض الآخر منهم هل يراكم من أحد.

﴿ثم انصرفوا﴾ إلى منازلهم عن ذلك المجلس أو عما يقتضي الهداية والايمان الى ما يقتضي الكفر والنفاق، والتراخي باعتبار وجدان الفرصة والوقوف على عدم رؤية أحد من المؤمنين.

ثم دعا الله سبحانه عليهم فقال: ﴿صرف الله قلوبهم﴾ عن الخير وما فيه الرشد لهم والهداية وهو سبحانه مصرف القلوب ومقلبها، وقيل المعنى إنه خذلهم عن قبول الهداية، قال الزجاج: أضلهم الله مجازاة على فعلهم، وقيل هو دعاء لا يراد به وقوع مضمونه كقولهم قاتله الله، وقيل اخبار بحالهم.

ثم ذكر سبحانه السبب الذي لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية أو السبب الذي لأجله استحقوا الدعاء عليهم بقوله صرف الله قلوبهم فقال: ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ ما يسمعونه لعدم تدبرهم وانصافهم.

عن ابن عباس: لا تقولوا انصرفنا من الصلاة فإن قوماً انصرفوا فصرف الله قلوبهم ولكن قولوا قضينا الصلاة، وعن ابن عمر نحوه.

وأقول الانصراف يكون عن الخير كما يكون عن الشر وليس في اطلاقه هنا على رجوع المنافقين عن مجلس الخير ما يدل على أنه لا يطلق الا على نحو ذلك، والالزم أن كل لفظ يستعمل في لغة العرب في الأمور المتعددة اذا استعمل في القرآن في حكاية ما وقع من الكفار لا يجوز استعماله في حكاية ما وقع عن أهل الخير كالرجوع والذهاب والدخول والخروج والقيام والقعود، واللازم باطل بالإجماع فالملزوم مثله ووجه الملازمة ظاهر لا يخفى.

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

ثم ختم الله سبحانه هذه السورة بما يهون عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة فقال موبخاً ﴿لقد جاءكم﴾ يا معشر العرب، والخطاب لهم عند جمهور المفسرين، وقال الزجاج: هي خطاب لجميع العالم أي لقد جاءكم ﴿رسول﴾ أرسله الله اليكم له شأن عظيم ﴿من أنفسكم﴾ أي من جنسكم في كونه عربياً قرشياً مثلكم تعرفون نسبه وحسبه، وأنه من ولد اسماعيل لا من العجم ولا من الجن ولا من الملك، وقرىء أنفس أفعل تفضيل من النفاسة والمراد الشرف أي أشرفكم وأفضلكم وسيأتي تخريجه.

﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ ما مصدرية والعنت التعب لهم والمشقة عليهم ولقاء المكروه بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه او بعذاب الآخرة بالنار او بمجموعها والمعنى شاق عليه عنتكم لكونه من جنسكم ومبعوثاً لهدايتكم ﴿حريص﴾ شحيح ﴿عليكم﴾ بأن تدخلوا النار أو حريص على ايمانكم وهدايتكم والأول أولى، وبه قال الفراء.

﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ قد تقدم بيان معناهما اي هذا الرسول بالمؤمنين الطائعين منكم أيها العرب او الناس رؤوف رحيم، فسماه الله رؤوفاً رحيماً ولم يجمع لاحد من انبيائه بين اسمين من اسمائه إلا النبي صلى الله عليه وسلم، قاله الحسن ابن الفضل قرىء رؤوف بالمد وبالقصر وهما قراءتان سبعيتان في هذه الكلمة اينما وقعت في القرآن، والرؤوف اخص من الرحيم، وانما قدم عليه رعاية للفواصل وعن ابن عباس في هذه الآية ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي «ﷺ» مضريها وربيعيها ويمانيها، وعلى هذا يكون المقصود ترغيب العرب في نصره والايمان به فانه تم شرفهم بشرفه وعزهم وفخرهم بفخره، فانه من عشائرهم.

وعن جعفر بن محمد عن ابيه قال: من انفسكم بفتح الفاء من النفاسة أي من اشرفكم، قال لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «خرجت من نكاح ولم اخرج من سفاح» وهذا فيه انقطاع ولكنه وصله الحافظ الرامهرمزي في كتابه الفاصل بين الراوي والواعي عن علي بن ابي طالب، وزاد «من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي».

وقال علي ما معنى من أنفسكم يا رسول الله؟ قال: نسباً وصهراً وحسباً ليس فيَّ ولا في آبائي من لدن آدم سفاح كلنا نكاح. وعن ابن عباس: ان رسول الله «ﷺ» قرأ من أنفسكم، يعني من أعظمكم قدراً، وبه قرأ الزهري، وفي الباب أحاديث بمعناه. ويؤيده ما في صحيح مسلم وغيره من حديث واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل، واصطفى من ولد اسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم[١].

واخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن مردويه وابو نعيم والبيهقي عن العباس بن عبدالمطلب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ان الله حين خلق الخلق جعلني من خير خلقه، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين، ثم حين خلق القبائل جعلني من خيرهم قبيلة، وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفسهم ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم فأنا خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً[٢]

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت فيه[٣] اخرجه البخاري وفي الباب أحاديث.

---

(١) مسلم ٢٢٧٦.
(٢) الإمام احمد ١/٢١٠.
(٣) البخاري كتاب المناقب باب ٢٣.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ١٢٩﴾

ثم قال مخاطباً لرسوله ومسلياً له ومرشداً له الى ما يقوله عند أن يعصى ﴿فإن تولوا﴾ أي أعرضوا عنك ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه ﴿فقل﴾ يامحمد ﴿حسبي﴾ أي كافي ﴿الله﴾ سبحانه ﴿لا إله إلا الله﴾ أي المتفرد بالألوهية وهذه الجملة الحالية كالدليل لما قبلها ﴿عليه توكلت﴾ أي فوضت جميع أموري اليه لا الى غيره ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ وصفه بالعظيم لأنه أعظم المخلوقات قرأ الجمهور بالجر على أنه صفة العرش وقرىء بالرفع صفة لرب، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير. قال ابو بكر الاصم: وهذه القراءة اعجب اليّ لان جعل العظيم صفة للرب أولى من جعله صفة للعرش.

قال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه، وقد رويت أحاديث كثيرة في صفة العرش وماهيته وقدره، وقال السيوطي الكرسي، قال الصاوي: قوله الكرسي مرور على القول باتحاد العرش مع الكرسي، وهو خلاف الصحيح ان العرش غير الكرسي. اهـ

وعبارة الخازن اعترض بعضهم على هذا التفسير بأن العرش غير الكرسي وان الكرسي أصغر من العرش فكيف يفسر به وهو مدفوع بأن المسألة خلافية والمشهور ما سمعته؛ وقيل إنهما اسمان لشيء واحد فالعرش والكرسي معناهما الجسم العظيم المحيط بجميع المخلوقات المسمى بالعرش على القول المشهور. أ. هـ.

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه: أن آخر ما نزل هاتان الآيتان. ذكره القاضي والمفتي وغيرهما. قال السيوطي رواه الحاكم في المستدرك وقال الخفاجي أخرجه أحمد بن حنبل.

وقوله آخر ما نزل الخ يعارضه ما رواه الشيخان عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن آخر آية نزلت ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ وآخر سورة نزلت براءة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: آخر آية نزلت ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ وكان بينها وبين موته صلى الله عليه وسلم ثمانون يوماً، وقيل تسع ليال، وحاول بعضهم التوفيق بين هذه الروايات بما لا يخلو عن كدر، وفي هذه الآية إشكال مشهور في كتب الحديث.

خاتمة الجزء الخامس

تم بعون الله الجزء الخامس من كتاب فتح البيان في مقاصد القرآن ويليه الجزء السادس.

وأوله سورة يونس

فهرس الجزء الخامس

قوله عز وجل : ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر﴾ ٧
قوله عز وجل : ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾ ، مذهب السلف والخلف في كلام الله ٨
قوله عز وجل : ﴿قال رب أرني أنظر اليك قال لن تراني﴾ وبحث الرؤية .. ١٢
قوله عز وجل : ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض﴾ ١٨
قوله عز وجل : ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار﴾ ..
قوله عز وجل : ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ ٢٠
قوله عز وجل : ﴿ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم﴾ ٢٦٠
قوله عز وجل : ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى﴾ ٢٦
قوله عز وجل : ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ ٢٩
قوله عز وجل : ﴿إن هي الا فتنتك﴾ ٣١
قوله عز وجل : ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾ ٣٢
قوله عز وجل : ﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل﴾ ٣٣
قوله عز وجل : نصوص من الإنجيل تدل على نبوة محمد ٣٧
قوله عز وجل : عموم رسالة محمد ﷺ ٥٣
قوله عز وجل : موسى وتفجير الماء ٥٤
قوله عز وجل : ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر، إذ يعدون في السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون واذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً

الله مهلكهم ٥٨
قوله عز وجل : واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم
سوء العذاب ٦٤
قوله عز وجل : واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ٦٨
قوله عز وجل : واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ٧٦
قوله عز وجل : ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون .. ٨٢
قوله عز وجل : يسألونك عن الساعة أيان مرساها، قل إنما علمها عند ربي
يسألونك كأنك حفي عنها.................. ٩٢
قوله عز وجل : قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ٩٥د
قوله عز وجل : فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به........ إلى
قوله فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء ١٠٢
قوله عز وجل : ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ١٠٤
قوله عز وجل : والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا
أنفسهم ينصرون ١٠٧
قوله عز وجل : ان الذين اتقوا اذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا
قوله عز وجل : واخوانهم يمدونهم في الغيّ ثم لا يقصرون ١١٠
قوله عز وجل : واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا وبحث القراءة
خلف الامام ١١٩
قوله عز وجل : واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر ١٢٢
قوله عز وجل : ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ١٢٢
(سورة الأنفال) معنى الأنفال ولمن هي ١٢٥
قوله عز وجل : أوصاف المؤمنين ١٢٧
قوله عز وجل : أولئك هم المؤمنون حقاً ١٢٩
قوله عز وجل : كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ١٣٣
قوله عز وجل : وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ١٣٥
قوله عز وجل : فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة ١٣٧

قوله عز وجل : وما جعله الله إلا بشرى .. إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ١٤٠
قوله عز وجل : واضربوا منهم كل بنان ١٤٢
قوله عز وجل : إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ١٤٤
قوله عز وجل : ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب ١٤٧
قوله عز وجل : وما رميت اذْ رميت ولكنّ الله رمى ١٤٨
قوله عز وجل : ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ١٥١
قوله عز وجل : ان شر الدواب عند الله الصم البكم. الى قوله تعالى: ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ١٥٣
قوله عز وجل : يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم .. ١٥٣
قوله عز وجل : واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ١٦٢
قوله عز وجل : إنما أموالكم وأولادكم فتنة.. ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ١٦٣
قوله عز وجل : واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك ١٦٤
قوله عز وجل : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ١٦٧
قوله عز وجل : وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية ١٦٩
قوله عز وجل : ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه .. قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ١٧٢
قوله عز وجل: واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ، وبحث قسمة الغنائم ١٧٦
قوله عز وجل : اذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ١٨٤
قوله عز وجل : اذ يريكهم الله في منامك قليلاً ١٨٦
قوله عز وجل : واذ يريكموهم اذ التقيتم في أعينكم قليلاً ١٨٦
قوله عز وجل : ولا تنازعوا فتفشلوا و ١٨٨
قوله عز وجل : ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء ١٨٩
قوله عز وجل : وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم إلى قوله : وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ١٩١

: سنة الله انه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . ١٩٥
قوله عز وجل : إنّ شر الدّوابّ عند الله الذين كفروا ١٩٧
قوله عز وجل : فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم ١٩٨
قوله عز وجل : واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ١٩٩
قوله عز وجل : واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ٢٠١
قوله عز وجل : وان جنحوا للسلم فاجنح لها ٢٠٢
قوله عز وجل : يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ٢٠٨
قوله عز وجل : ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ٢١٠
قوله عز وجل : ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ٢١٣
قوله عز وجل : والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من
شيء . . الا تفعلوه تكن فتنة ٢٢٠
: (سورة براءة) ولماذا بدأت بغير بسملة ٢٢٦
قوله عز وجل : براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين . ٢٢٩
قوله عز وجل : وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر ٢٣٢
قوله عز وجل : ان الله بريء من المشركين ورسوله ٢٣٤
قوله عز وجل : ولم يظاهروا عليكم أحداً ٢٣٥
قوله عز وجل : فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين . . واقعدوا
لهم كل مرصد ٢٣٦
قوله عز وجل : فإن تابوا وأقاموا الصلاة . . فخلوا سبيلهم . . وان أحد
من المشركين استجارك فأجره ٢٣٧
قوله عز وجل : كيف يكون للمشركين عهد عند الله ٢٣٩
قوله عز وجل : كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلّا ولا ذمة ٢٤١
قوله عز وجل : فإن تابوا وأقاموا الصلاة . وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين . . ٢٤٣
قوله عز وجل : وان نكثوا أيمانهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا ٢٤٤
قوله عز وجل : ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة . ٢٥٠
قوله عز وجل : انما يعمر مساجد الله من آمن بالله ٢٥٢

قوله عز وجل : أجعلتم سقاية الحاج . . كمن آمن بالله ٢٥٦
قوله عز وجل : لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الإيمان ٢٥٨
قوله عز وجل : ويوم حنين اذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً . ٢٦٢
قوله عز وجل : وأنزل جنوداً لم تروها ٢٦٤
قوله عز وجل : انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام ٢٦٦
قوله عز وجل : وان خفتم عَيْلة فسوف يغنيكم الله ٢٦٧
: أهل الكتاب لا يؤمنون بالله ٢٧١
: الجزية وأحكامها وممن تؤخذ ٢٧٣
قوله عز وجل : وهم صاغرون ، بيان ما هو الصَّغار والعهد الذي أخذه عمر ٢٧٨
: رحمة الاسلام بأهل الجزية ٢٨٠
قوله عز وجل : وقالت اليهود عزير ابن الله ٢٨١
قوله عز وجل : اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ٢٨٤
: مشابهة أهل التقليد من المسلمين لليهود ٢٨٦
قوله عز وجل : يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ٢٨٧
قوله عز وجل : هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ٢٨٩
قوله عز وجل : ان كثيراً من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ٢٩٠
قوله عز وجل : والذين يكنزون الذهب والفضة ٢٩٢
قوله عز وجل : فتكوى بها جباههم وجنوبهم ٢٩٤
قوله عز وجل : إنّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ٢٩٥
قوله عز وجل : إنما النسيء زيادة في الكفر ٢٩٩
قوله عز وجل : ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله إثاقلتم ٣٠٠
قوله عز وجل : إلاّ تنفروا يعذبكم . . ويستبدل قوماً غيركم . . إلاّ

تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين
إذ هما في الغار ٣٠٣
قوله عز وجل : وأيده بجنود لم تروها ٣٠٤
قوله عز وجل : انفروا خفافاً وثقالا ٣٠٧
قوله عز وجل : لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ٣٠٨
قوله عز وجل : عفا الله عنك لم أذنت لهم ٣١٠
قوله عز وجل : ولو أرادوا الخروج لأعدوا له ٣١٢
قوله عز وجل : لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم
يبغونكم الفتنة ٣١٤
قوله عز وجل : لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدّخلاً لولّوا اليه وهم يجمحون ٣٢٢
قوله عز وجل : ومنهم من يلمزك في الصدقات .. ولو أنهم رضوا ما
آتاهم الله ورسوله ٣٢٥
قوله عز وجل : إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة
قلوبهم ٣٢٧
قوله عز وجل : ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ٣٣٣
قوله عز وجل : فاستمتعوا بخلاقهم كما استمتعتم بخلاقكم.......... ٣٤١
قوله عز وجل : وخضتم كالذي خاضوا ٣٤٢
قوله عز وجل : وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات ... ٣٤٣
قوله عز وجل : يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ٣٤٩
قوله عز وجل : وهمّوا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله ٣٥١
قوله عز وجل : ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقنّ ٣٥٣
قوله عز وجل : الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين
لا يجدون إلا جهدهم .... إلى قوله .. استغفر لهم أو
لا تستغفر لهم، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ٣٥٥
قوله عز وجل : استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع
القاعدين ؛ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ٣٦٦

قوله عز وجل : ليس على الضعاء ولا المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون . . حرج إذا نصحوا لله ورسوله ٣٦٨
قوله عز وجل : الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله ٣٧٦
قوله عز وجل : ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر ٣٧٧
قوله عز وجل : ومن الأعراب من يؤمن بالله . . ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ٣٧٩
قوله عز وجل : ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم ٣٨٢
قوله عز وجل : وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً
قوله عز وجل : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم . ٣٨٧
قوله عز وجل : وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله ٣٩٠
قوله عز وجل : وآخرون مرجون لأمر الله ٣٩٣
قوله عز وجل : والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً . . وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ٣٩٤
قوله عز وجل : ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ٤٠٣
قوله عز وجل : وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه . . إن ابراهيم لأواه ٤١٠
قوله عز وجل : وما كان الله ليضل قوماً بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ٤١٥
قوله عز وجل : ثم تاب عليهم . . وعلى الثلاثة الذين خلفوا ٤١٩
قوله عز وجل : ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ٤٢١
قوله عز وجل : ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا مخمصة ٤٢٢
قوله عز وجل : فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم ٤٢٤
قوله عز وجل : لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم . . . ٤٣١